محاضرات في الفكر الإسلامي المعاصر

سماحة آية الله الشيخ عبد الهادي الفضلي

إعداد: اللجنة الثقافية. ديوانية الغدير (سيهات)

الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ. ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة

لديوانية الغدير

سيهات. المنطقة الشرقية. المملكة العربية السعودية

تقويم النص: الشيخ حسين المياحي

المراجعة النهائية: الشيخ عبدالغني عرفات

المقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1]

كان العرف السائد يومئذ في الأوساط الحوزوية والعلمية وفي العراق تحديداً يحرم على العالم الفقيه ارتقاء المنبر للوعظ والإرشاد لأن ذلك مما لايليق بمستواهم العلمي فمثل هذا الدور هو من اختصاص خطباء المنبر الحسيني فقط أو من أصطلح على تسميتهم بالروزخونية. إذا كان هذا هو واقع الحال فإن العالم والفقيه لا بد أن يدفع الثمن - للأسف - غالياً عندما يتمرد على هذا العرف بارتقائه المنبر أو المشاركة في المحافل الخطابية والندوات أو غيرها من الوسائل التثقيفية كإصدار النشرات أو المجلات.

آية الله الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي وهو ممن عايش في مقتبل عمره، مع كوكبة من أقرانه من العلماء الأفاضل ، هذا الوسط الإجتماعي لم يأبه بمثل هذا العرف ولم يحد من حركته أو يفل من عزيمته ونشاطه فقد كان عضواً في أسرة التحرير لنشرة (الأضواء) التي كانت تصدر يومئذ في النجف الأشرف ولم يتوقف عن المشاركة في الأوساط الأدبية والثقافية والتبليغية فقد كان له دورٌ بارزٌ في إلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات والمهرجانات الثقافية.

---

(١) سورة التوبة: (١٢٢).

كان الدكتور الفضلي أحدَ أساطين الفكر والعلم والدين ورائداً من رواد الفقه والثقافة في العالم الإسلامي وأحد أبرز الرموز العلمية وباعث النهضة العلمية والدينية والثقافية في منطقتنا وهو الراعي والمشرف الأول لانطلاقة الموسم الثقافي الرمضاني في حسينية الناصر وما تلاه من برامج ثقافية موازية في بلدات و مدن المنطقة.

آية الله العلامة الدكتور ومنذ اليوم الأول لوصوله منطقتنا الحبيبة كان مصداقاً حقيقياً للعالم العامل. فلقد أنعم الله سبحانه وتعالى به علينا – أبناء هذه المنطقة– فحظينا بالارتشاف من معارفه ونمير علمه في مطلع التسعينات من القرن الميلادي المنصرم ونال الموسم الثقافي الرمضاني بحسينية الناصر من توجيهاته ورؤاه الفكرية والثقافية الثاقبة السهم الوافر ، وكان لصدى مشاركاته في تقديم المحاضرات والمساهمة في الندوات والاحتفالات والمناسبات الاجتماعية ما أحدث نقلة نوعية في طريقة التفكير المبني على المنطق والموضوعية والتخلص من الجمود الفكري والتألق في سماء الفكر الأصيل المسؤول والثقافة الواعية لمجريات الحياة. فهو العالم العارف بزمانه فلا تهجم عليه اللوابس.

لقد كان الأب الراعي، الموجه والمرشد للموسم الثقافي طيلة السنوات الإحدى والعشرين الماضية على الرغم من اعتذاره في السنوات الأخيرة عن المشاركة نظراً للظروف الصحية التي يمر بها ، إلا أنه لم يبخل علينا –طيلة هذه الفترة– بالنصيحة والإرشاد ومراجعة فقرات الموسم المستجدة والحث على تطويرها ومواكبة الثورة المعلوماتية المعاصرة والاستفادة منها ما أمكن.

وبما أن الموسم الثقافي الرمضاني لحسينية الناصر بمدينة سيهات يشكّل الانطلاقة الثقافية العصرية للنوادي الحسينية –في هذه المنطقة– فقد أحاطه

برعايتـه وتوجيهاته ووجدت فيه النوادي الحسـينية الأخـرى قدوة للإنطلاق نحـو التغيـير وإبراز الطاقـات الكامنة فـما أسرع أن إنتشرت برامـج ثقافية في المنطقـة وخارجهـا على شـاكلته تختلـف في حجمها ونسـبة المشـاركة فيها كلٌ حسـب طاقاته وإمكاناته وأبرزت هذه البرامـج - مجتمعة - القدرات الثقافية والفكرية لأبناء هذه المنطقة مفكرين ومثقفين وخطباء ومستمعين.

لا زلنـا نديـن في - انطلاقتنا الفكريـة والثقافية - لراعي مسيرتنا ونهضتنا العلمية والعملية والدينية آية الله سـماحة العلامـة الدكتور الفضلي وأمثاله من العلماء العاملين المخلصين ، رحم الله الماضين منهم و أمدّ في أعمار الباقين جميعاً، ومتعنا بطول بقائهم ونفعنا بهم وأفاض علينا من بركاتهم.

ونحن هنا باسـم ديوانية الغدير ومن خلال لجنتها الثقافية بحسينية الناصر نضـع بين يدي القارئ هذا السـفر الـذي يمثل بعضاً من إسـهاماته ننقلها من صيغتهـا المسـموعة والمرئيـة إلى المكتوبة وهـي تمثل خلاصة خمـس و عشرين محـاضرة ألقيـت عـلى مـدار عـشر سـنوات (١٤١١هـ - ١٤٢٠) مـن عمر مشـاركاته في البرنامـج الثقافي الرمضـاني وإلى حين أقعده ظرفـه الصحي عن إمكانية المشاركة .

الجدير بالإشارة أن المنهج الذي أتبع في تفريغ هذه المحاضرات كان مبنياً على أسـاس وحدة الموضوع فعمدنا بدلاً من الوقـوف على مادة كل شريط بصورة مستقلة أن نجمع كل ما يخص مادة محددة لموضوع محدد جاء متفرقاً في الأشرطة فنجعله تحت عنوان مسـتقل ولربما إستبُدل بعض عناوين المحاضرات بعنوان آخر أقرب في محاكاته للمادة التي تندرج تحت الباب الذي خصصت لأجله.

ولما كان للجمهور دور بارز في إثراء الموضوع من خلال مداخلاته وأسئلته التـي وجهـت لسـماحته ، ارتأينـا أن ندرجهـا في نهاية كل موضـوع مصحوبة

بإجابات سماحته عليها.

سماحة آية الله العلامة الدكتور كان ولا يزال منذ اليوم الأول لانطلاق مسيرته العلمية في النجف الأشرف وحتى يومنا هذا مواكباً لمسيرة العلم عاملاً بوظائفه ناشراً علوم آل بيت المصطفى عليهم السلام باذلاً سعيه في تربية تلامذة جادين و ملتزمين، مؤلفاً للعديد من الكتب والأسفار راعياً ومشجعاً الكتاب والمؤلفين ودور العلم والثقافة.

الحديث عن الدكتور الفضلي و عن سجاياه وعلمه ومعارفه لا يمكن أن يوفيه حقه في مثل هذه المقدمة و الحديث عنه لا يُمل لأنه الأنموذج الحيّ للقدوة الصالحة للعالم العامل والمفكر والفقيه المثقف.

في الختام نود أن نؤكد مرة أخرى على أن فكرة تفريغ أشرطة محاضرات سماحته في محاضرات مكتوبة ، فذلك لكي تكون سهلة التناول بيد القراء ، و لتمكن الباحثين من الوقوف على تراث هذا العالم الفذ. ونغتنم هذه الفرصة لنتقدم بخالص شكرنا وتقديرنا لكل من أسهم في إبراز هذا السفر أوعمل على إنجاحه خصوصاً الأخوة في (مرفأ الكلمة) وبالأخص سماحة الشيخ محمد مدن العمير الذي أخذ على عاتقه الإشراف على نقل هذا النتاج من المسموع إلى المقروء ، والشكر موصولاً أيضاً للكادر في اللجنة الفنية بحسينية الناصر الذي لم يدخر جهداً في توفير ورصد المادة موضع الاهتمام.

نستميحك عذراً أيها الرائد والعالم الرباني ، فلن نوفيك حقك ، و مهما كان منا من تقصير أوقصور فهو لن يوقفنا لأن نخطوا هذه الخطوات المتواضعة لأنك أنت الذي عودتنا على هذه البساطة وعدم التكلف كيف لا ومجالسك ونواديك شاهدة على ذلك ، ولعلنا نوفق لرصد ما أمكن من محاضراتك التي ألقيتها في المنطقة أو خارجها لنفرد لها أيضاً سفراً آخراً يضاف إلى هذا الإصدار

فهي بلا شك ثروة فكرية ينبغي تتبعها وإبرازها لطلاب العلم والمعرفة.

أمدّ الله في عمرك ومن عليك بالصحة والعافية وأعادك الله علينا سالماً وحفظك ذخراً وسنداً للعالم الإسلامي وللملة والدين وصيانة سنة سيد المرسلين وآثار آله الطيبين الطاهرين إنه سميع مجيب و على كل شي قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .وصل الله على محمد وآله الطاهرين.

اللجنة الثقافية

ديوانية الغدير/ سيهات

٣٠ رجب ١٤٣٢هـ

بنية الخطاب الثقافي
عند آية الله الشيخ عبدالهادي الفضلي

بقلم: محمد مدن عمير

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

بنية الخطاب الثقافي عند العلامة الفضلي لها عدة مميزات، تنسجم مع ذهنيته العلمية المنفتحة، وأسلوبه الممنهج في عرض المعرفة، والأهم بالكم الهائم من الطاقة الأبوية العلمية التي يستطيع أن يمنحها للآخرين، على أن من الشروط الموضوعية للتعرف على تلك الميزات، هو التواصل الإنساني والعلمي معه، إذ أننا بفقدان هذين الشرطين لا يمكننا – حسب زعمي – الاكتشاف الموضوعي لتلك البنية.

وفي سياق اهتمامي بهذه الشخصية المميزة في واقعنا الإسلامي؛ حاولت اكتشاف الطبقات العميقة لتلك البنية التي تمظهرت في الخطاب الثقافي لسماحته.

وقبل البدء في صلب القراءة، لابد أن أوضح المدلول المقصود من مصطلح (الخطاب الثقافي)، فهو: العملية التواصلية الشفهية بين طرفين أو أكثر، بغرض إنتاج فكرة ما أو إعادة بنائها.

فالخطاب الثقافي كأي خطاب، يشتمل على: المخاطِب والمخاطَب والمحتوى

وأداة التواصل.

عينات القراءة:

ولأن العينات التي اعتمدنا عليها في قراءتنا هذه هي عينات (شفهية) قدمها سماحة العلامة الكبير الشيخ عبدالهادي الفضلي، بأسلوب المحاضرات أو اللقاءت الحوارية في مجتمع محدد، يتسم بالتدين والثقافية؛ فإن أداة التواصل هي (الشفهية اللفظية) ومقوّم المحتوى هو الفكر الإسلامي.

وتلك العينات كانت عبارة عن (٢٥) محاضرة دينية/ ثقافية ألقاها سماحته في حسينية الناصر في سيهات، في شهر رمضان المبارك لأعوام متلاحقة، قمت بسماعها وملاحظتها، لتتسنى لي تدوين هذه المحاولة في القراءة.

كما أن هناك عينات (مدوّنة) تمثل ما خطه يراعه المبارك، قام بتحليلها أخي الفاضل الشيخ عبدالغني أحمد العرفات في مقاله الشيّق (فن ومنهج الكتابة عند العلامة الفضلي)، وعينات أخرى تخصصية (فقهية، أصولية، ..) قام الكثير من المهتمين بتراثه بقراءتها.

الميزة الأولى: علمية الفكرة

على النقيض مما نسمعه من خطابات ثقافية في (الجو الثقافي)؛ فإنك تكاد تجزم بأن كل خطاب تتفاعل معه، هو خطاب مدروس من الناحية العلمية، بل هو خطاب تم تكوينه وتشكيله عبر عدة تجارب علمية سابقة على هذا اللقاء الثقافي أو تلك المحاضرة العلمية.

هذا ما نسميه بالبنية الفكرية للخطاب، إذ أن سطح الخطاب يعبر عن كفاءة علمية عالية، منسجمة مع التجربة العلمية والعملية التي خاضها في الساحة الإسلامية.

الميزة الثانية: وضوح الفكرة

كثيراً ما يربط الذهن العام بين ثنائي (البساطة والوضوح)، لكنه ربط (بدوي) إن صح التعبير، سريعاً ما يزول إذا ما عرفنا أن الوضوح يعني: السمة التي تحفظ وصول المعاني والمصطلحات والأفكار المتنوعة إلى ذهن المتلقي. وهذه الميزة تنسجم مع الخطاب السطحي العفوي، الذي يحتفظ بمقدار ضئيل من عمق المعرفة، كما أنه ينسجم مع الخطاب العميق المبني على تراكمات الخبرة المعرفية والعملية، كخطاب سماحته.

لذلك، فإن تهمة (البساطة) أو (عدم العمق) الذي يتهم بها خطابه أو تأليفاته المتنوعة المتعددة، خاصة في المجال الحوزوي التعليمي، سرعان ما تتبدد بعد التأمل الوافي في (كل) الخطاب، أي في سياقه وأفكاره والفئة المستهدفة منه.

ومفردات الوضوح في خطاب سماحته تتبلور في:

١- هندسة الخطاب، فمنذ البداية تجد اللمحة الإجمالية عن الفكرة التي سوف يقدمها من خلال تعريفه بالعنوان، وتوصيفه للمنهج المستخدم في بلورة الفكرة.

٢- تدرج الفكرة، فهو يبدأ بخطوات منطقية متسلسلة، كي تصل الفكرة إلى ذهن القارئ متكاملة.

٣- وحدة الفكرة، فهو يركز جهده على تبيين أطراف الفكرة وعمقها، بعيداً عن استحضار أفكارٍ متعددة، حتى لا يسبب التشتت للمتلقي.

٤- تجميل المصطلح، من خلال توضيح معناه وتفسيره، ومناقشة التأويلات حوله.

٥- الخلاصة، فهي تمثل عصارة أفكاره طيلة اللقاء الثقافي.

الميزة الثالثة: الهيمنة الروحية

ونريد بها: الشخصية العلمية الأبوية، أو الهالة الروحية المنبثقة من قلب وعقل المخاطِب، وليست تلك المنبثقة من خطابه.

فالخطاب الثقافي الناجح، في الدائرة الإسلامية، هو الخطاب الذي يمتزج في العقل والقلب، ليصدر في ذبذبات صوتية، لتفتح عقل وقلب المتلقي بالمعرفة، وتعطيه فرصة للقاء الحواري حولها، ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

ولعل ذلك الامتزاج هو الشرط المقوِّم للموعظة الحسنة في المصطلح القرآني، ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2].

وتلك الكاريزما عند سماحته ليس من الصعب اكتشافها، فجلسة واحدة في محضره تكفي لاكتشاف البعد التربوي في شخصيته، والمتمثل في تقديم خطاب ثقافي إسلامي متماسك، يرجو فيه عقل الآخر وقلبه، لأجل تطويره أو تغييره، مما يجعلنا نضيف سمة إضافية لخطابه الثقافي الإسلامي وهي: (الانتاجية).

الميزة الرابعة: الانتاجية

وتتمثل في تخريج دفعات من المؤمنين بالفكر الإسلامي عبر مواسم التخاطب، وهذه السمة هي الغاية القصوى للمتدين الرسالي، فضلاً عن المفكر الإسلامي كسماحته.

وإعجابي بهذه الميزة يدفعني للتأكيد على الفكرة الأساسية، وهي: إن وظيفة

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) النحل: ١٢٥

المثقف المسلم كوظيفة الفقيه الإسلامي تنصب في ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1]، ولا تقتصر وظيفته على (إنتاج الثقافة) بل (إنتاج المثقفين)، لأن إنتاج الثقافة تعبير عن (شَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)، لكن الشرط الموضوعي لـ(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) هو إنتاج المثقفين.

الميزة الخامسة: الفخامة الصوتية

لأن النبرة الصوتية تمثل ٣٨٪ في معادلة التأثير في أي خطاب، ولأن حديثنا عن (الخطاب) الإسلامي الشفاهي الذي مارسه سماحته؛ فإن الإشارة إلى هذه الميزة يعد أمراً بالغ الأهمية.

عند مراجعة العينات الصوتية، والجلوس في مجلسه العلمي، نجد أنه نغمته أو نبرته الصوتية تتميز بـ(الضخامة/ الفخامة) و (الهدوء)، وهذا الامتزاج يوصل رسالة للاوعي[2] المستمع بأن هذا الخطاب ليس لإيصال فكرة سطحية، أو وعظية محضة، بل لإيصال فكرة مدروسة بكل عناية، مما يجعل المستمع الجاد يشتغل بالتفكير أثناء الاستماع لكلماته.

قد يفتقر خطاب سماحته إلى التنوع في استعمال النبرات الصوتية، إلا أن البديل الذي استعمله (بوعي أو بلا وعي) هو استعمال المفردات المعبِّرة عن كل فكرة يريد فيها أن يرفع سقف التوقع أو التساؤل أو التفكير.

الميزة السادسة: الأصالة والمعاصرة

من الملفت في كل المسيرة العلمية لسماحته انتماؤها إلى مدرسة (التجديد) والمجددين، بدءاً من تلمذته على الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر

---

(١) التوبة: ١٢٢

(٢) اللاوعي هو: العقل الداخلي غير الملتفت إليه، أي العملية الفكرية بدون قرار واعي، وهو يشكل ٩٤٪ من الإدراك. (أسرار اللاوعي. عرض تدريبي. تقديم: محمد عمير).

(ره)، والمجدد الشيخ محمد رضا المظفر (ره)، إلى طبيعة تفكيره الساعية إلى سد الثغرات العلمية داخل الحوزة المباركة من خلال تبنيه تدوين (مناهج) علمية بلغة رصينة ومنهجية، وصولاً إلى طبيعة الخطاب الذي يعتمده.

كل هذه الظاهرة التجديدية، بغض النظر عن معنى التجديد وأسلوب تطبيقه، لم تفقد شروط التجديد، والتي من أهمها: ثنائية الأصالة والمعاصرة، فلم تكن الرغبة في الاستفادة من لغة العصر وأدواته ومناهجه، في إلغاء عنصر الأصالة والانطلاق من الجذور الإسلامية العميقة.

وهذا ما نراه في خطاب سماحته، فتجده يهتم بتقعيد المصطلح، وتوظيفاته، ورأي الإسلام فيه، كما فعل عند بحثه في (الدلالة و الحرية و حق الحياة) وغيرها من المصطلحات المعاصرة، ولا أتكلم هنا عن ما دونه من مقالات علمية، فهي أظهر من أن أسلط الضوء عليها، بل الحديث عن خطابه المباشر مع الجمهور، مما كساه هيبة علمية إضافية.

لذا، فإن خطاب سماحته اعتبر -ولمدة اشتغاله بالمحاضرات والندوات في منطقة إقامته- الخطاب المعاصر، الملبي لاحتياجات الشاب المثقف والواعي.

أخيراً:

أشكر الله سبحانه على توفيقه في رصد مميزات الخطاب الإسلامي لشيخنا سماحة آية الله الشيخ عبد الهادي الفضلي (حفظه الله)، وأقدم كل ذلك هدية بين يديه، راجياً منه القبول، ومن الله عز وجل حسن المثوبة، والحمد لله رب العالمين.

محمد مدن عمير

٨. رجب الأصب. ١٤٣٢هـ

قم المقدسة.

المحور الأول

مفاهيم قرآنية

- المؤمنون في القرآن الكريم
- العلم والعمل في القرآن الكريم (١)
- العلم والعمل في القرآن الكريم (٢)
- الإنفاق في القرآن الكريم
- تعدد السبل.. والسياق الحضاري الإسلامي
- أثر الغيب في سلوك المؤمن.. نظرة قرآنية
- الأولى والآخرة في المنظور القرآني

المؤمنون في القرآن الكريم

ورد الإيمان ومشتقاته في القرآن الكريم بكثرة كاثرة، فهناك مئات المفردات التي وردت في سياقات مختلفة.

وقبل أن نستعرض بعض الآيات التي وردت فيها أمثال هذه المفردة، أود أن أعطي فكرة عن الإيمان، فنحاول أن نفهم أولاً المعنى اللغوي للكلمة، ثم ننتقل إلى فهم المعنى العلمي أو الاصطلاحي لها.

ما هو الإيمان؟

الإيمان في اللغة هو الإذعان والتصديق، بأن تذعن لفكرة وتصدق بها.

فمن الأمثلة المستمدة من حياتنا ـ وهي أمثلة غير علمية ـ أننا لو كنا في غرفة مغلقة، ولا ندري إن كان الطقس في الخارج حاراً أو بارداً، صحواً أو غائماً، فإننا نعيش الاحتمالات، فنحتمل أن هناك غيمة، والشمس محجوبة عنا، ونحتمل أن الشمس مضيئة، وغير ذلك، فليس هناك إيمان وإذعان، إنما هو احتمال فقط. لكننا عندما نخرج من الغرفة، ونشاهد الطقس، فسوف ندرك الأمر بشكل قاطع غير قابل للاحتمالات. فلو أن أحداً أراد في مثل هذه الحالة أن يثير في نفوسنا الشك، فإننا نرفض ذلك ونرده عليه، لأن الحس مصدر من مصادر المعرفة، ودليل من الأدلة. فهذه المشاهدة كانت برهاناً على حالة الطقس، وقد خضعنا لهذا الدليل، وأذعنّا له، وصدقنا بالفكرة، وهذا الإذعان والتصديق نسميه إيماناً.

هذا ما يتعلق بالحس والمشاهدة. وكذلك في الإخبار والتواتر، فنحن نسمع الآن بكلمة (لندن) على أنها عاصمة بريطانيا، فلو أن أحداً منا سمعها لأول مرة، فإنه لا يحصل لديه إيمان بوجودها، ولكن بعد أن يكثر ذكرها، وتناقل أخبارها بين الذين يذهبون إليها ويرجعون منها، أو من الإذاعات ووسائل الإعلام، تصبح أخبارها من الكثرة بحيث تدعو الإنسان أن يصدق بوجودها، حتى لو لم يذهب إليها. فالدليل الذي جعله يصدق هو النقل المتواتر، الذي يجعل الإنسان يطمئن ويصدق بوجودها.

والإذعان والتصديق بالفكرة لا يكون إلا عن دليل وبرهان كما رأينا، وهذا الدليل قد يكون صواباً، وقد يكون خطأ.

هذا باختصار هو المعنى اللغوي للإيمان.

المعنى الاصطلاحي:

أما في المجال العلمي، فيمكن أن ندرسه من خلال علمين فقط، مما يرتبط بحياتنا الفكرية والتراثية:

١ - **علم الكلام**: ويعني عند المسلمين علم العقيدة، لأنه يدرس أصول الدين، وهو علم إسلامي خالص، وضعه المسلمون، ولم يكن له وجود قبلهم، نعم، كان هناك وجود للفلسفة وقد تأثر المسلمون بالفلسفات السابقة، ثم وضعوا الفلسفة الإسلامية. أما علم الكلام فهو إسلامي خالص، لم يتأثر فيه المسلمون بعلوم كلامية سابقة، إنما ابتكروه بأنفسهم.

ويبحث علم الكلام - كما قلنا - في أصول الدين، كالتوحيد والنبوة والإمامة والمعاد، وما يرتبط بهذه العناوين.

والإيمان في عرف الكلاميين، يعني الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، فالاعتقاد بالمبدأ

هو التوحيد، أي الإذعان والتصديق بعلة هذا الوجود، وسببه ومُنشئه، وهو الله تعالى، فهو المبدأ لهذا الكون كله، ولا بد أن نعتقد بوجوده ووحدانيته واتصافه بجميع صفات الكمال. أما المعاد، فيعني أن الكون كله، كما بدأ من الله، سينتهي إلى الله سبحانه وتعالى. فالإنسان مثلاً - وهو جزء من هذا الكون - بدأ من الله، وهو الذي خلقه، وسيعود إليه. فهو من العَوْد، بمعنى الرجوع.

وما بين المبدأ والمعاد هناك عقيدة النبوة، وعقيدة الإمامة[1].

فالإيمان في الاصطلاح الكلامي، وفي علم الكلام، يعني الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، أي الاعتقاد بالله والنبوة والإمامة والمعاد[2].

٢ - الفقه: حيث نجد للإيمان عند الفقهاء تعبيراً آخر، فهم لا يقولون عنه: إنه الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، إنما يقولون: إنه الاعتقاد بالأصول والفروع، فالأصول[3] هي أصول الدين المعروفة التي قررها علم الكلام، والفروع هي

(١) والإمامة مما هو مختلف فيه بين المسلمين، فقد ذهب الشيعة إلى أنها أصل من أصول الدين، أما أهل السنة فذهبوا إلى أنها ليست أصلاً، إنما هي من الأحكام الفرعية، فهي ليست من العقيدة، إنما هي من الفقه، وسوف أشير بعد هذا إلى الأصول والفروع.

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية الواقعية والعملية فإن ما عليه إخواننا أهل السنة على مديات التاريخ، من عهد الخليفة أبي بكر حتى الآن، يؤمنون بالإمامة على أنها أصل من أصول الدين، ويقولون بالخلافة، ولكن لوجود الخلاف والنزاع والصراع الفكري الذي يحدث بين آونة أو أخرى، بين المدارس العَقَدية بين السنة والشيعة، نجد أنهم يقولون: إن الإمامة من الفروع، فهم يرفضونها نظرياً، ويعتقدون بها عملياً، ويعدونها من الأصول.

(٢) أما العدل فيلحق بالتوحيد. وقد كانت فكرة العدل عند الشيعة الإمامية والزيدية وكذلك المعتزلة، وهم فرقة كلامية كانت معروفة في التاريخ الإسلامي ثم أبادها المتوكل العباسي ومن جاء بعده. ويتفرع العدل عن التوحيد؛ لأنه صفة من صفات الله تعالى، ولا بد في التوحيد أن نعتقد بصفات الله جل وعلا، وأنه متصف بجميع صفات الكمال. ولكن حدث فيما بعد، صراع فكري حول فكرة العدل، بين المعتزلة والشيعة من جهة، والأشاعرة من جهة أخرى، وهي من الفرق السنية الواسعة الانتشار، فأفرد المعتزلة والشيعة العدل، وجعلوه أصلاً مستقلاً من الأصول، وإلا فهو يدخل ضمن التوحيد.

٣) الأصل في اللغة هو الأساس الذي يقوم عليه الشيء، كأساس البناء، فنقول مثلاً: إن الأصل في

الأحكام الشرعية، من العبادات والمعاملات وغيرها.

فالأحكام الشرعية، كالصوم والصلاة والحج والزكاة والخمس والجهاد وغيرها من أحكام البيع والشراء والتجارة والميراث، أخذها المسلمون عن النبي ﷺ الذي أخذها عن الله، فنحن نرجع في هذه الأحكام إلى النبي ﷺ والنبوة أصل من أصول الدين، وهي بدورها راجعة إلى التوحيد، وهو أصل من أصول الدين أيضاً، لذا سميت تلك الأحكام فروعاً، لأنها أُخذت من تلك الأصول.

هذه إلمامة صغيرة وخاطفة عن معنى الإيمان في اللغة والمصطلح العلمي، في علم الكلام وعلم الفقه.

وبتعبير آخر فإن الإيمان هو الاعتقاد، فمن آمن بشيء اعتقد به، ومن هنا جاءت تسمية العقيدة والاعتقاد، لأنك تعقد قلبك على ما تؤمن به، وتطويه عليه، كما تعقد العقدة في الخيط، فأنت تعقد قلبك على الفكرة لتحافظ عليها.

دلائل الإيمان في القرآن الكريم

بعد هذه الإطلالة السريعة يجدر بنا أن ننظر إلى دلائل الإيمان في القرآن الكريم، وكيف نفهم أن هذا الإنسان مؤمن يعتقد بالشريعة الإسلامية أصولاً وفروعاً، ويطبق ذلك على سلوكه في حياته؟ وما هي الأمارات والعلامات والدلائل التي تدل على ذلك؟

يشير القرآن الكريم إلى مجموعةٍ من تلك العلامات، وسوف نحاول أن نستعرض بعضاً منها:

الشجرة جذورها، ومنها يأتي الساق والأغصان وباقي مكونات الشجرة، فما يقوم على الأصل يسمى فرعاً، فأصول الدين هي الأساس، وعنها تفرعت أحكام العبادات والمعاملات وغيرها، لذا سميت فروعاً.

١- الخوف من الله: وهو من أبرز صفات المؤمن، فتراه يستشعر بأن الله تعالى يراه في كل لحظة من سلوكه، وفي كل تصرف من تصرفاته، فلا يبارحه الخوف من الله، ولا يفارقه في أي من لحظات حياته. فكلما أراد أن يتكلم، أو يتحرك، فإنه يدرك أن الله يراه ويراقبه، فلا يفعل ما لا يرضاه الله تعالى.

٢- التوكل على الله: فلا يعتمد المؤمن على غير الله أبداً، لا على شيء من حوله وقوته، ولا على أحد من الخلق، وإنما يرى دائماً أن هناك من هو أقوى منه، فيتكل عليه، وهو الله سبحانه وتعالى.

ومعنى الاتكال، أنك إن أردت القيام بفعل ما، فإنك تقول: سأقوم بهذا الفعل، فإن كان فيه مصلحة يعلمها الله، فليساعدني ويوفقني، وإلا فليصرفني عنه. وليس معناه أن تترك الأمر كله، إنما تطلب التوفيق من الله تعالى، وتسعى إليه من خلال التوكل، فيما إذا كان في الفعل الذي ستأتي به مصلحة لك.

٣- الجهاد في سبيل الله: وهو من علامات المؤمن أيضاً، حيث ينكر ذاته، فلا يرى نفسه شيئاً أمام ما يريده الله تعالى منه، فلو تطلب الأمر أن يضحي بها من أجل الحق لفعل.

٤- الإرادة والكرامة: فمن علامات المؤمن أن لا يخضع لغير حكم الله، وأن لا يشعر بالعزة إلا مع الله.

٥- الولاية: ونعني بها ولاية المؤمنين ونصرتهم، كما سيأتي إن شاء الله.

ولنستعرض الآيات الشريفة التي تتضمن تلك الدلائل والعلامات، فمنها:

١ - قولـه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيـنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِـمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ﴾[1] فقلوبهم تخفق لذكر الله، وتستشعر الخشية والوجل.

ورد عن الإمام الحسـن عليه السلام أنه إذا أراد أن يتوضأ تغير لونه، وارتعدت مفاصله[2]، لأنه سـيقف موقف الامتحان أمام الله تعالى. ونحن نرى أن الطالـب يدخل قاعة الامتحـان وقلبه يخفق، وهو يقـف أمام بشر مثله، وأسـتاذ يختـبره ويراقبه، ذلك لأنه يستشـعر وجود المعلـم، وأن له عليه سـلطة، ولكـن عندما يقف أحدنا للوضـوء، أو الصلاة بين يدي الله عز وجل، فإنه لا يستشعر ذلك.

فعلامـة المؤمـن أن يستشـعر وجـود الله ورقابتـه ﴿ إِذَا ذُكِـرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ وهي آيات القرآن، أو الآيات الكونية، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهي العلامة الثانيـة التي ذكرناها، فهو لا يعتمد عـلى حوله وقوته، إنما يعتقد دائماً أن هناك قوة أقوى منه، وهي الله تعالى، فأنت تقول دائماً: الله أكبر، تفتتح بها صلاتك؛ لأنه في اعتقادك أكبر من كل شيء، وهو قوة فوق كل قوة.

٢- قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْـتَرَى مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ أَنفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّـةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْـتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي

(١) الأنفال: ٢.

(٢) مسـتدرك الوسـائل ١: ٣٥٤، باب نوادر ما يتعلق بأبواب الوضوء، ح٤. ومثله في المصدر ذاته ص ٣٥٥، ح ٧، عـن عـدة الداعي، ولفظه: «كان أمـير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء تغير وجهه من خيفة الله تعالى، وكان الحسن عليه السلام إذا فرغ من وضوئه تغير لونه فقيل له في ذلك فقال: حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه».

بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١] فهناك صفقة بينك وبين الله، فيها بيع وشراء، وهذا هو الجهاد في سبيل الله، فإذا اقتضى الأمر أن يضحي المؤمن بحياته فعل، وإذا اقتضى أن يجاهد بماله فعل، وهذا ما فعله الحسين عليه السلام وقد نسب إليه أنه قال:

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

هذا هو الحب الإلهي الذي يجعل الإنسان ينكر ذاته في قبال ذات الله، فتفنى أمام الذات المقدسة.

٣ - أما عن الإرادة والكرامة، فمن علامات المؤمن أن تكون لديه إرادة وكرامة مستمدتان من الشريعة، فلا يخضع لغير الله، ولا لأحكام غير أحكام شريعته، فيستشعر أن لديه عزة؛ لأنه مؤمن، وهذه العزة مستمدة من عزة الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]. ويقول جل وعلا: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾[٣] والأعلى اسم تفضيل، فيه ألف ولام، وهذا يعني أن المؤمن أعلى كائن في هذا الحياة، بل إنه أعلى من جميع البشر من غير المؤمنين، فإذا كنت ترى نفسك أنك الأعلى، فعليك أن لا تضعها في موضع يهدر كرامتك، أو يسلبك إرادتك.

---

(١) التوبة: ١١١.
(٢) آل عمران: ١٣٩.
(٣) محمد: ٣٥.

ويقول جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] هذه هي العزة الحقيقية، وهذه هي الكرامة، لكننا - مع الأسف - نجد أن المسلمين أضاعوا ذلك، فلا يملكون اليوم إرادتهم، ولا يستشعرون كرامتهم. فهم اليوم كما وصفتهم الزهراء (عليها السلام) في الوضع الجاهلي قبل مجيء الرسول حيث قالت: «أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم»[٢].

فيجب إذن أن يكون المسلم أعز الناس على وجه الأرض، وأن يحافظ على عزته وكرامته، ولو أهدرهما، فسوف يكون مسؤولاً أمام الله، ويحاسب حساباً عسيراً؛ لأنه لم يضحِّ بكرامته فقط، وإنما ضحى بكرامة الأمة بكاملها، وكرامة المبدأ الحق.

فالذليل ليس بمؤمن أبداً، وليست الذلة من صفات المؤمن، والتبعية للآخر ذلة، إنما من صفات المؤمن أن تكون عنده إرادة واستقلالية وأن يكون عزيزاً كريماً.

٥ - أما عن العلامة الخامسة، فيقول تعالى في ولاية المؤمنين: ﴿واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] والولي هنا يعني الناصر، فالله تعالى هو وحده الذي ينصر المؤمنين، فلو قال أحدنا: لِمَ لم ينصرنا الله ونحن مؤمنون؟ الجواب: أن شروط الإيمان لم تكتمل عندنا، ولو كانت عناصر الإيمان متحققة في شخصيتك لنصرك الله بلا شك؛ لأنه ولي المؤمنين، فلا بد أولاً أن نحقق الشرط ليتحقق المشروط. فالله تعالى يتولى برعايته وولايته من آمن حقاً.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٤٩.

(٣) آل عمران: ٦٨، الجاثية: ١٩.

وهنـاك ولاية أخـرى متبادلة بيـن المؤمـن وأخيـه المؤمن، يقـول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وهذه هي النصرة المتبادلة، فيجب على كل مؤمن أن ينـصر أخاه المؤمن، بالأمـر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي يجب أن يكون متبادلاً بينهما.

ومـن كان يقيـم الصلاة عليـه أن يعمل على أن يصلي الآخـرون أيضاً، وأن تقـام الصلاة في المجتمـع والأمة، وكذا في إيتاء الزكاة، وهـذا معناه أن تتحول إقامة الصلاة ودفع الزكاة إلى ظاهرة اجتماعية تسـود المجتمع الإسلامي الذي نعيش فيه.

وكـذا الحـال أيضاً في الولايـة بمعنى التولي، فيجب عـلى المؤمن أن لا يوالي الكافـر، قال تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[2] وهذا نهي يدل على التحريـم، فيحرم على المؤمن إذن أن يوالي الكافـر. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ فيوالي الكافـر، ويترك المؤمن ﴿فَلَيْسَ مِـنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ فيتبرأ الله منه، ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُـمْ تُقَاةً﴾ فالتقية ليسـت من مختصات الشـيعة كما يقال، إنـما تؤمن بها جميع المذاهب الإسلامية، وقد راجعت كتب إخواننا أهل السنة، ورأيت أن المذهب الحنفـي يؤمـن بها كما نؤمـن بها نحـن، وكذلك المذهـب المالكي، والشـافعي والحنبلي، كلهم يؤمنون بالتقية كما نؤمن بها تماماً، ولا فرق في ذلك، سـوى أن الشيعة عانوا كثيراً من اضطهاد الحكام في الدولتين الأموية والعباسية، فلجأوا

(١) التوبة: ٧١.
(٢) آل عمران: ٢٨.

إلى التقية واستعملوها بكثرة، فيما لم يحتج الآخرون إليها، وإلا فهي تشريع إسلامي قرآني ثابت، وليست تشريعاً شيعياً خاصاً بهم.

ومن الآيات الشريفة التي وردت في باب الولاية للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

فالتشريع الإسلامي يجعل المؤمن أعلى وأسمى من الكافر، ولا سبيل للكافر عليه، ولو أننا التزمنا الأحكام الإسلامية التزاماً كاملاً، لما جعلنا للكافرين علينا سبيلاً.

نحن الآن في شهر رمضان المبارك، ومن المفروض أن يحاسب الإنسان فيه نفسه فكما أن التجار يجعلون في حساباتهم يوماً خاصاً، أو أسبوعاً أو شهراً في السنة، لجرد أعمالهم خلال السنة فإن المؤمن لا بد أن يجعل شهر رمضان محطة لمحاسبة النفس وتقويم حركتها خلال السنة، وعلينا أن نسأل أنفسنا: هل نحن ملتزمون كما أراد الله تعالى منا؟ أو أننا لسنا كذلك؟ وهل أننا في الموقع الذي أراده الله تعالى لنا، أو أننا نزلنا عنه إلى أقل منه؟

إن الإيمان الذي تحدثنا عنه، وذكرنا شيئاً من علاماته، من خلال الآيات القرآنية الكريمة، له عند الله جزاء وثواب وأجر، فالله سبحانه وتعالى، تفضل علينا فأعطانا هذه الشريعة، التي منحتنا العزة والكرامة في هذا الدنيا، وفوق ذلك كله أعطانا الثواب الجزيل، وذلك هو الفضل العظيم.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2] تجد أن الإيمان جزاؤه الجنة، وهي أعظم جزاء وأكبر أجر.

---

(١) النساء: ١٤١.

(٢) التوبة: ٧٢.

عـوداً عـلى بدء أقول: نحـن الآن في منتصف الشـهر الكريـم، أو قاربنا أن نصل، فأرجو أن نعيد النظر في حسـاباتنا وسـلوكنا، ونحاسـب أنفسنا قبل أن يحاسـبنا الله جل وعـلا، فالصلاة وحدها لا تكفي، والصـوم وحده لا يجزي، فعلى المؤمن أن يحاول تصحيح مسيرته الإيمانية، وأن يعيد النظر في حركته كلها لتكون موافقة لما أراد الله تعالى منه.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

الأسئلة

س١: ما هو الطريق أو النهج العملي، لانتشـال المؤمن من هذا الواقع الذي يبعث على اليأس؟

الجواب: كثيراً ما يطرح هذا السؤال في الأوساط الاجتماعية، والجواب هو أن تغيـير النفـس شرط لتغيير الواقع، وهـذا منهج قرآني ذكـره القرآن الكريم في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1] وهذه هـي الخطوة الأولى في التغيير، والمبدأ القرآني المذكور هو أفضل المبادئ، بل إن الإسـلام هو أفضل مبدأ على وجه الأرض، لكننا مع الأسـف لا ندرك قيمته، ولا نحاول أن نفهمه بشكل صحيح.

فالخطـوة الأولى أن نفهم المبدأ، ثم نجسـده في حياتنـا الفردية والاجتماعية، وبالأخـص في حياتنـا الاجتماعية، فقد تجـد فرداً متعبداً، يُعنـى بحياته الفردية فقـط، ولا يفكـر في الحياة الاجتماعيـة، فلا يعطي أهمية كافيـة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورفع المستوى الاجتماعي لأبناء جلدته.

وفهم المبدأ وتجسـيده ليس وصفة جاهزة، يتناولهـا الآخر بلا عناء ولا كدّ،

(١) الرعد: ١١.

إنما يحتاج إلى عمل وسعي ومثابرة، بل حتى لو كان هناك قادة بارزون، وكانت الأمور جاهزة، فلا بد أن تضع يدك بيد غيرك، وتتعاون معه على البر والتقوى، وهكذا هي الحياة.

فالخطوة الأولى إذن هي تغيير النفس، بإدراك الدين وفهمه وتجسيده في الواقع الفردي، ثم الانطلاق نحو الساحة الاجتماعية.

س٢: المعروف أن من صفات المؤمنين التوكل على الله، وأنه ما من عمل يتم إلا بمشيئة الله تعالى، لذا نجد أن من صفات المؤمن أنه يقول دائماً: سأعمل كذا إن شاء الله، وقد وصف كثير من الناس في مجتمعنا - الذي يضم الكثير من غير المسلمين - هذه الصفة بأنها تعبير عن التنصّل من المسؤولية، وعدم إلزام النفس بتنفيذ المطلوب، إما في الوقت أو الكيف.

فكيف تفسر فضيلتكم ذلك؟ وما هو الواجب على المؤمن حين قوله: إن شاء الله، من حيث الوسع في إنجاز العمل المطلوب؟

الجواب: هذه الكلمة المباركة (إن شاء الله) تجعلنا نعود إلى دراسة تاريخ التعابير عند المسلمين، وكيف نشأت هذه العبارة بالذات.

أصل هذا التعبير يعود إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1] وهذا ما أشرت إليه سابقاً، من أن الإنسان لا يعتمد على حوله وقوته، إنما هناك من هو أقوى منها، فيربط عمله بتلك القوة الأقوى، فلو كانت هناك مصلحة تحقق الفعل المطلوب، وإلا فلا.

فالتعبير ناظر إلى الآية القرآنية الشريفة، مع أن الآية لا تنهى عن فعل شيء دون ربطه بمشيئة الله.

---

(١) الكهف: ٢٣-٢٤.

وهناك تفسير آخر يقول: إن هذه العبارة تدل على التبرك، وقد جرت على لسان المسلم تبركاً وتيمناً. فالفعل في واقعه مرتبط بإرادة الله ومشيئته، وقولنا إن شاء الله إنما هو للتبرك، لا للتهرب من المسؤولية، لأن التبرك لا يستلزم التهرب.

س٣: في عصر الظلم والقهر، يعيش المؤمنون أحرج فترات حياتهم، فهم أمام مجتمع يُعدّون غرباء فيه، فما هي سبل المواجهة التي يطرحها القرآن الكريم لمواجهة المجتمعات الفاسدة؟

الجواب: المجتمعات الفاسدة ـ كما يقول الأخ السائل ـ فيها أنظمة وأفكار ومفاهيم، وهي تسير وفق المبادئ المعتمدة لديها، أما نحن فنملك حضارة، كما أنهم يملكون حضارة، وهناك اتصال اجتماعي بيننا وبينهم، فالاتصالات موجودة في العالم كله، وهو مرتبط بعضه ببعض، أي أن الثقافات الرائجة في الجامعات، والمبادئ العلمية، كلها من الأمور المتبادلة، فهناك إذن تشابك بين الحضارات بشكل كبير جداً، وكأننا من هذه الجهة في غابة كثيفة الأشجار والأغصان، وليس من السهولة أن تعرف أن هذا الفرع لتلك الشجرة أو لغيرها.

وهذا اللون من التبادل والتفاعل بين الحضارات، مدعاة لأن تنتقل العدوى من مجتمع إلى آخر، وها نحن اليوم نجد العديد من الجوانب في البلاد الإسلامية قد تأثرت بالأوضاع في البلاد الأخرى غير الإسلامية. ولا نستطيع أن نوقف هذا اللون من التيار الجارف، والمد الحضاري المنتشر، إلا بأن ندخل حضارتنا في ميدان الصراع، ومعنى ذلك أننا في دوائر صراع الأفكار، فلا بد أن ندخل معترك الصراع ونحن نحمل أفكارنا المستوحاة من حضارتنا، وإلا فإننا إذا بقينا مع الطرق الوعظية فإنها لا تؤثر إلا بشكل جزئي، أو فردي، أما

عندما يتبنى الفكرة أبناء المجتمع، أو أكثر أبناء المجتمع، ويقفون من ورائها، في صراعها مع الأفكار الأخرى، فلا شك أننا نستطيع أن نصل إلى ما نريد.

وكمثال على ذلك، نجد أننا اليوم في مجتمع يشيع فيه الحجاب - بحمد الله - ولكن لو قدر - لا سمح الله - أن نجد بنتاً واحدة، أو اثنتين، يخرجن سافرات مكشوفات الشعر، كما في أوربا أو أمريكا أو البلدان الأخرى، وسكت المجتمع عن ذلك، فإن السفور سيشكل ظاهرة اجتماعية، وإن بدأ أولاً بشكل فردي، لأن الظاهرة الفردية ستدخل صراعاً مع الحجاب، فهذا السفور عند بنتين أو ثلاث، سيصارع الحجاب عند مئات الآلاف من النساء في المجتمع، وقد يكون من ورائه جنود تعمل على أن يكتسح الحجاب. فلو أننا لم نقف لمساندة الحجاب كجنود حضاريين، ولم نحاول أن نخرج هذا الدخيل، فإنه سيكتسح الحجاب مع الزمن. وهذا عين ما حدث في مناطق عديدة من العالم الإسلامي، مثل مصر والعراق وسوريا، وإيران في أيام الشاه، وغيرها.

لقد وقفت الدولة الإسلامية في إيران اليوم أمام السفور، وأخذت تصارع، وما زالت تخوض صراعاً لم ينته، ولم ينته معه السفور تماماً، إلا أنها استطاعت أن تجعل الحجاب يتحول إلى ظاهرة.

فنحن إذن نحتاج إلى عمل دؤوب لدعم حضارتنا، في صراعنا مع الحضارات الأخرى.

س٤: هل توجد برامج عملية لتطوير وتقوية صفة العزة والكرامة عند المؤمن؟

الجواب: تعتبر وسائل التربية والتعليم أمراً أساسياً وفاعلاً، ولو قدر لك أن تذهب لأمريكا، وتختلط مع أبناء المجتمع الأمريكي هناك، لوجدت أنهم شتات من جهات مختلفة، جاؤوا لأمريكا للعمل، فهم - كما يقال في علم الاجتماع - خليط حضاري، ويفترض بهذا الخليط أنه عندما يذهب إلى أمريكا،

فإنه ينقل حضاراته الأصلية إلى هناك لتصارع الحضارة الأخرى، كما هو الحال عندنا، حيث ينقل الأجانب حضاراتهم لتصارع حضارتنا، لكن ما يحصل في أمريكا هو العكس، فتجد الأفريقي والآسيوي، يحمل الجنسية الأمريكية، فينغرس في نفسه الانتماء إلى أمريكا، ويصبح أمريكياً مئة بالمئة، والسبب في ذلك أن وسائل التربية والتعليم والإعلام هناك، تركز على الانتماء لأمريكا. أما في البلاد الإسلامية فلا يوجد هذا إلا نادراً، فليس هناك تركيز في وسائل التربية والتعليم ووسائل الإعلام على الانتماء للإسلام وحبه ورفع مكانته لنحصل على العزة والكرامة.

فنحن نحتاج إلى التجديد في برامج التربية والتعليم والإعلام، كي نصل إلى المستوى الذي وصل إليه غيرنا، والإمام السيد عبد الحسين شرف الدين (رحمه الله) يقول: لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال، فنحن يمكننا أن نستفيد من أساليبهم ووسائلهم.

س٥: هل صحيح أن الدين - أي الاعتقاد بأن العالم مخلوق لعلم وقدرة - هو العامل الوحيد الذي يثير روح التقدم في الإنسان، وإن كان الأمر كذلك فلماذا نشاهد فرقاً عديدة من دعاة المادية، من المكتشفين لأسرار الطبيعة ونظمها، وقد وصلوا إلى درجة كبيرة في ذلك؟

الجواب: هناك معادلة مهمة في هذه القضية، وهي الحضارة، التي تتكون من علم وإنسان وأرض، وقد قلت في محاضرات سابقة: إننا لا نعني بالعلم العلوم الدينية فقط، كعلم الكلام والفقه والتفسير وغيرها، إنما نعني جميع العلوم الدنيوية التي ينتفع بها، ومنها العلوم الدينية، وقد ذكرت نصاً للإمام الصادق عليه السلام يأمر المسلمين فيه أن يأخذوا بهذه العلوم التي ترفع من مستواهم دنيوياً، وتجعلهم يتقدمون ويتطورون في هذه الدنيا لتكون لهم العزة والكرامة،

ونحن مأمورون بذلك، لكننا للأسف لا نسعى لذلك ولا نحققه.

وكمثال على ذلك، أنك تستطيع الآن أن تتصل بمركز المعلومات في واشنطن مثلاً، أو لينينغراد، أو حتى في الرياض، إذا كان هناك مركز للمعلومات له ارتباط بمركز المعلومات في أمريكا، وتسأل عن المجلات العلمية التي تنشر أبحاثاً من شأنها أن تطور واقع الحياة إلى ما هو أفضل، وسوف تأتيك العناوين بالآلاف، وليس فيها مجلة عربية أو إسلامية واحدة، فالتقصير من المسلمين أنفسهم، لا من الإسلام، فهم لا يستشعرون وجودهم، وأي أمة لا تستشعر وجودها ستنتهي من حيث لا تدري.

س٦: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[1] والصفات المذكورة في هذه الآية ومثيلاتها لا تنسجم وصفات المؤمنين التي ذكرها القرآن الكريم في غيرها من الآيات، فلماذا استخدم القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مثل هذه الآيات، ولم تكتمل فيهم صفات المؤمنين بعدُ؟

الجواب: الألفاظ المستعملة في القرآن الكريم، بعضها استعمل بمعناه اللغوي، وبعضها كان في صيغة المصطلح العلمي، فإذا أردنا أن نفهم الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من خلال السياق الذي ورد فيه، ندرك أن المعنيّين هنا هم الذين يشهدون الشهادتين، فمن يشهد الشهادتين يخاطب بهذا الخطاب أيضاً، سواء كان مؤمناً بالمعنى الخاص الذي ذكرناه، أم لم يكن كذلك، وهذا لا يتعارض مع المعنى المصطلح للمؤمن، ولا ينافيه.

س٧: في مضمون رواية عن أحد الأئمة عليهم السلام أنه قال: «إن الله أوكل كل شيءٍ للمؤمن إلا عزته»[2] فما السبب في ذلك؟

---

(١) سورة الصف: آية (٢).

(٢) هذا هو مضمون الرواية، أما لفظها فقد ورد في الكافي٥: ٦٣، باب كراهة التعرض لما لا يطيق،

الجـواب: لا أدري مدى صحة هذه الرواية، لأن أكثر هذه الروايات لم يعن العلماء في دراسـة أسـانيدها، لأنها لا ترتبط بحكم عمـلي، فعلى تقدير صحتها فهي تعني أن العزة تأتي من الله، فيما إذا كان الإنسـان مسـتعداً لهذا الخير، فالله تعالى لا يفيض الخير إلا لمن كان مستعداً لإفاضته.

فـالأرض الصالحة للزراعة إذا بذرت فيها البذر، وتعهدته بالعناية والرعاية، فسوف يخرج الزرع ويثمر؛ لأن الأرض صالحة للزراعة، لكنها إذا كانت سبخة غير صالحة للزراعة، فمهما تبذر فيها فإن الزرع لا ينمو ولا يأتي بحاصل، وكذلك الإنسان، فإنه إن كان قد وفّر شروط العزة، وأصبح مستعداً لها فهي خير يفيضه الله عليه، ويعطيها إياه، وإن كان غير مهيِّئ نفسه لهذا فلا يفاض عليه.

س٨: بعض علمائنا، كالسيد محسن الأمين والشيخ كاشف الغطاء، يمرون بأصول الدين فيعدونها ثلاثة (التوحيد، والنبوة، والمعاد) ولا يذكرون الإمامة، فما رأيكم في ذلك؟

الجواب: يرجع هذا إلى الصراع الفكري بين المدارس العَقَدية عند المسلمين، فنحـن نلتقي مع أهل السـنة في التوحيد، والنبوة، والمعـاد، ونتفق على أنها من أصـول الدين، لكننا نختلف معهـم في الإمامة، فنحن نعتقد بأن الإمامة أصل مـن أصول الدين، وهـم يعدونها من فروع الدين، ولكي يشـار لهذا الخلاف،

عـن محمـد بن الحسـين، عن إبراهيم بن إسـحاق الأحمر، عن عبـد الله بن حماد الأنصـاري، عن عبد الله بن سـنان، عن أبي الحسـن الأحمسي، عـن الإمام الصادق عليه السلام أنه قـال: «إن الله عز وجل فوّض إلى المؤمـن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسـمع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمـن يكـون عزيـزاً ولا يكون ذليلاً. ثم قـال: إن المؤمن أعز مـن الجبل، إن الجبل يُستَقَلُّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء».

وفي البـاب عـن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله تبارك وتعـالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه».

وفي الباب ذاته ستة أحاديث أخرى بهذا المعنى، وبعضها يفسر الإذلال بالتعرض لما لا يطاق.

يعبر العلماء عن الإمامة بأنها أصل من أصول المذهب، فهي عندهم من أصول الدين، لكنها أصل من أصول المذهب، باعتبار هذا الخلاف[1].

أما العدل فهو جزء من التوحيد، والخلاف بين المعتزلة والإمامية والزيدية من جهة، والفرق السنية ـ وخاصة الأشاعرة ـ من جهة أخرى، جعل الشيعة يركزون على العدل، ويقولون بأنه أصل من أصول المذهب، وإلا فهو يدخل في التوحيد، وهو جزء من هذا الأصل. وما يذكره السيد الأمين والشيخ كاشف الغطاء (رحمهما الله) هو إشارة لهذا الخلاف، وأنت اليوم تجد الكثير من المؤلفات الشيعية المطبوعة حديثاً، تعتمد هذا التقسيم.

س٩:

١ - عرّفتم الإيمان علمياً بأنه اعتقاد، وهذا مجاله الفكر، فأين يكون العمل؟ أي هل أن الإيمان هو الاعتقاد دون العمل؟

٢- ما هي طرق تحصيل الإيمان؟

الجواب: الإيمان ليس بعمل، فنحن نقول: الإسلام إيمان وعمل، والمسلم من آمن وعمل، فنجعل العمل في مقابل الإيمان، فالإيمان اعتقاد، والاعتقاد محله الفكر أو الذهن أو القلب.

أما كيف نحصل على الإيمان، فهذا أمر واضح لا أتصور أنه يحتاج إلى توضيح؛ لأن مصادر التشريع موجودة، والعلماء موجودون، وكذلك الخطباء والكتب، فالحجة قائمة علينا، ولا نستطيع أن نقول: لا طريق إلى الإيمان.

---

(١) فمن قال بالإمامة فهو شيعي، ومن أنكرها خرج عن المذهب.

العلم والعمل في القرآن الكريم - ١

الحديث عن العلم في القرآن الكريم يتوفر على عدة أبعاد، نحاول أن نتناولها في هذا البحث، لأن العلم في القرآن الكريم يعني العلم في الإسلام.

ولكي أوطئ لهذا البحث لا بد أن أعطي فكرة عن أهمية العلم في الحياة.

لقد استخدم القرآن الكريم مادة (علم) بمشتقاتها اللغوية، في عشرات الآيات الكريمة، وذلك لأهمية العلم في حياة الإنسان. وكل أمة من الأمم لا تعتمد على العلم فإنها تتخلف. وهناك عناصر أساسية لا بد أن تعتمدها الأمم في تقدمها وتطورها، وهي الإنسان والعلم والأرض، فإن اجتمعت هذه الثلاثة تحققت الحضارة والتقدم والتطور والرقي الإنساني.

عناصر البناء والتطور

ولبيان ذلك أقول: إن الإنسان خلق للدنيا والآخرة معاً، فلم يخلق للدنيا فحسب، ولا للآخرة فحسب، والقرآن الكريم يشير إلى هذا بوضوح، فهو العامل في هذه الدنيا، الذي يؤثر في تقدم الحياة أو تأخرها، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإنسان وجد لإعمار الحياة، فقال جل وعلا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]. فهو الذي يعمر الحياة، ويجب أن يدخل

(١) هود: ٦١.

والاستعمار مفردة قرآنية جميلة، لكن الترجمات السريعة شوهت حلاوتها وطلاوتها، ذلك أن الأخبار الواردة عن طريق وكالات الأنباء تكون باللغات الحية، وهي الإنكليزية والفرنسية غالباً. وقد استخدمت لغة الأخبار مفردة الامبريالية، ثم دخلت البلاد العربية وترجمت بشكل سريع وغير

كعنصر أساسي في معادلة إعمارها، وإيجاد نمو وتطور ورقي فيها، والله تعالى أمرنا أن نعمر الأرض.

هذا ما يتعلق بالإنسان عموماً، أما المسلمون فيفترض أن يكون لهم وضع مختلف، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[1]. وهذا بالشريعة التي أنزلت على نبينا محمد ﷺ، فلو تمسكنا بشريعتنا، وامتثلنا لقرآننا، لكنا نحن أسياد الأمم، والأمة المتقدمة في العالم.

هذا ما يتعلق بالعنصر الأول وهو الإنسان.

أما العنصر الثاني فهو الأرض، ونعني به ما فيها من ثروة، سواء في باطنها، كالمعادن وغيرها، أم على سطحها كالزراعة والمياه وغيرها، وكذلك المجال الفضائي المحيط بالأرض. وهذه كلها يجب أن تستثمر، بأن يكون هناك تخطيط ونظام، يعمل الإنسان بموجبه لبلوغ ذلك، وهذا النظام والتخطيط يأتي عن طريق العلم، وهو العنصر الأساسي الثالث في المعادلة. فلم تصل الأمم المتقدمة إلى ما وصلت إليه إلا بالعلم.

فللعلم أهمية كبيرة، ولا نعني به علم الفقه فقط، وليس العالم هو الفقيه فحسب كما كان متعارفاً في الأزمنة السابقة، إنما العالم هو كل متخصص في مجال ما من المجالات العلمية، فالمهندس عالم، وكذلك الكيميائي والفيزيائي

دقيق، فالمترجمون لم يكونوا ذوي حصيلة لغوية كافية، وعلم بمفردات القرآن. فالاستعمار يعني عمران الأرض وإحياءها، وهذا المعنى لا يتناسب ولا يتطابق مع الامبريالية، والصحيح أن معناها الاستكبار والاستبداد والتسلط والسيطرة. لذا نجد أن بعض البلدان العربية حاولت تعريب هذه المفردة، وهناك فرق كبير بين الترجمة والتعريب، فالترجمة أن نأتي بما يقابل الكلمة الأجنبية تماماً، أما التعريب فهو أن نأتي بمفردة عربية مقاربة لها في لفظها بما يتمشى مع طريقة العرب في تلفظهم. وبناء على ذلك فقد عربوا المفردة الانكليزية Emperializm إلى الامبريالية، وهي مصدر صناعي كما يسمى في علم الصرف.

(١) النساء: ١٤١.

وغير ذلك.

من هنا فإننا إذا لم نكسر حواجز الجهل من حولنا، وننطلق نحو التخصص في كل مجالات العلم التي تخدم الحياة، فسوف نبقى أسرى التخلف، ونكون مسؤولين أمام الله، فليس الجهل عذراً نعتذر به أمام الله. ولو رجعنا إلى كتب الفقه لرأينا أن تعلُّم كل ما يحتاجه الإنسان في حياته واجب كفائي، فكل أقسام الصناعات النافعة، والتجارة والزراعة، وكل ما ينفع الناس، واجب كفائي، فلو أن مجالاً واحداً مما ينفع الناس لم يتخصص به أحد، كان الجميع محاسبين ومسؤولين وآثمين، وهذا هو معنى الواجب الكفائي. أي أن يقوم بالواجب أفراد فيهم الكفاية ليحققوا للناس ما ينفعهم، وإلا كان الجميع مقصرين وآثمين.

آليات ومصادر المعرفة

منذ عهد الفلسفة اليونانية والإغريقية، كانت هناك دراسات للتفكير الإنساني، وكيفيته، وآلة التفكير عند الإنسان، وكان هناك أمر متسالَم عليه في تلك الدراسات، أن آلة التفكير هي العقل.

وفي منطقة التفكير جهاز آخر يقوم بدور التخزين وحفظ المعلومات، وهو ما نسميه بالذهن. أي أن العقل هو الذي يقوم بعملية التفكير، وعندما يتوصل إلى معلومة ما، يرسلها إلى الذهن ليحفظها إلى حين الحاجة إليها.

وهناك جهاز ثالث، وهو الذاكرة، التي تعمل على استرجاع المخزون في الذهن متى شاء الإنسان.

وهذه المعلومات والأفكار التي يشترك في تكوينها وحفظها واسترجاعها الأجهزة الثلاثة، تنقسم إلى قسمين: المعرفة والعلم، والفرق بينهما أن العلم

يعني المعرفة المنظّمة، فالأفكار مخزونة في ذهن الإنسان، لكنها غير منظمة، فإن أراد أن يستخدمها فعليه أن ينظمها ويرتبها، فالأفكار قبل التنظيم تسمى معرفة، وبعد التنظيم تسمى علماً.

أما المصادر التي يستقي منها الإنسان أفكاره، فهي العقل والحس ـ كما ينص على ذلك علماء النفس، ومن قبلهم الفلاسفة ـ ومعنى الحس ما يدركه الإنسان بالحواس، فما أدركته الحواس، من السمع والبصر والتذوق واللمس والشم، انتقل إلى الذهن، وبتفاعل الإنسان مع الحياة، تتجمع في ذهنه المعلومات الواردة عن طريق الحواس.

أما العقل فهو المصدر الآخر للمعلومات، كما في الأمور التي لا تدرك بالحواس، من قبيل الأحلام، فالدراسات العلمية تبحث في مثل هذا الموضوع، ثم تتوصل إلى النتائج، ومن ثم يختزنها الإنسان في ذهنه.

هذا ما يقرره علم النفس ومن قبله الفلسفة، ولكن بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية نرى أن مصادر المعرفة أربعة: الوحي والإلهام والعقل والحس. فنحن المسلمين نؤمن أن القرآن الكريم نزل على النبي الأكرم ﷺ بواسطة الوحي، والقرآن مجموعة من الأفكار والمعارف، ومن يتعامل مع القرآن فإنه يحمل هذه الأفكار والمعارف القرآنية.

أضف إلى ذلك الأحاديث النبوية الشريفة الصادرة عن النبي الأكرم ﷺ، فإن مصدرها الوحي أيضاً، لكنها ليست قرآناً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾[1].

وكذلك الروايات الشريفة الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام، فإن مصدرها

(١) النجم: ٣، ٤.

الوحي، ولكن بشكل غير مباشر، لأنها مأخوذة عن النبي ﷺ.

أما المصدر الثاني فهو الإلهام، وهو حالة لا يكاد يخلو منها إنسان، بدرجة أو أخرى، ولا ينبغي أن نغالط أنفسنا ونعيش ما يمكن أن نسميه (عقدة الغير)، وأعني بها أن البعض ينعى علينا اعتقادنا أن الأئمة عليهم السلام ملهمون، وأن الإلهام أمر غير منطقي، وبالتالي يعيش بعضنا حالة من الذوبان فيهم والتبعية لهم في التفكير، فلا يرى أن له شخصية مستقلة وتفكيراً خاصاً، في حين أن الإلهام مما لا ينبغي أن ينكره أحد، وهو مما يحصل لعموم بني البشر.

إن المدار في قبول شيء أو عدم قبوله لا ينبغي أن يكون إلا عن طريق الدليل، فإن دل الدليل على شيء فلا بد من قبوله، سواء كان لنا أم علينا، قبله الآخر أم رفضه.

ومما يثير الاستغراب أن كثيراً مما يرفضه الآخرون في جانب، يقبلونه في جانب آخر، فهذا ابن تيمية يذهب إلى أن رجوع الفقيه في استنباط الحكم الشرعي يجب أن يكون إلى القرآن، فإن لم يجد دليلاً رجع إلى السنة الشريفة[1] ثم إلى القياس أو الاستحسان أو المصالح المرسلة أو سد الذرائع أو غير ذلك، فلو لم يسعفه ذلك كله في الوصول إلى الحكم، فإن الله تعالى سوف يلهمه الصواب.

فلو افترضنا أن أئمة أهل البيت عليهم السلام من سائر العلماء والفقهاء، فما المانع أن يكونوا ملهمين كغيرهم؟!

بل إن الإلهام، بنص القرآن الكريم، ثابت للحيوانات، فضلاً عن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ

(١) نحن الشيعة الإمامية، نؤمن أن القرآن والسنة يشتملان على جميع الأحكام الشرعية، أما غيرنا فيرى أن الحديث النبوي لا يفي بالغرض كله.

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[١]. ومعنى الوحي هنا هو الإلهام، فلم يرسل الله تعالى جبرئيل إلى النحل كما هو معلوم.

وقد ثبت علمياً في العصر الحديث أن الإلهام أمر لا شك فيه، وأن هناك حالات خاصة يمر بها الإنسان، لا يسعفه فيها التفكير، بل يتوقف ويتعطل، فلا يكاد يجد مخرجاً مما هو فيه، كما في حالات الوقوع في مأزق ما أو أزمة نفسية، أو غير ذلك، وما هي إلا لحظات وإذا بالحل يخطر في باله. وهذا نوع من الإلهام.

وبهذا نرى أن مصادر المعرفة عندنا، نحن الذين نؤمن بالدين، هي أربعة، وهي الوحي والإلهام والعقل والحس.

العلم والتعلم في الميزان الشرعي

وفي أهمية العلم ودوره في حياة الإنسان يقول النبي الأكرم ﷺ: «**إن الله يُطاع بالعلم، ويُعبد بالعلم**[٢]، **وخيرُ الدنيا والآخرة مع العلم، وشرُّ الدنيا والآخرة مع الجهل**»[٣] ذلك أن الجاهل لا يعرف شيئاً من أمور العقيدة أو العبادة الحقيقية. فمن أراد أن يطيع الله تعالى طاعة سليمة، ويعبده عبادة صحيحة، فلا بد أن يتعلم. إذ إن العالم بالصلاة مثلاً ليس كالجاهل بها، ولا العالم بالعقيدة كالجاهل.

هذا النص النبوي الشريف كافٍ لدفع المسلمين أن يتعلموا ويتخلصوا من ظلمة الجهل.

---

(١) النحل: ٦٨.

(٢) ليس المقصود بالعلم هنا المعنى الذي يخص العلماء وحدهم، فكل منا عالم، بدرجة ما من العلم.

(٣) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري١: ١٢.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «**فكر يا مفضل[١] فيما أعطي الإنسان علمه وما مُنع، فإنه أعطي علم جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه، فمما فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك وتعالى بالدلائل[٢] والشواهد القائمة في الخلق[٣]...**»[٤].

فهناك علوم ينبغي أن يتعلمها الإنسان، وأخرى ينبغي أن لا يتعلمها، فكل علم فيه صلاح الدين أو الدنيا يجب أن يتعلمه الإنسان.

ولعل هذا النص من أقدم النصوص التي تشير إلى العلم التجريبي، الذي يعتبر اليوم أساس تطور الحياة في البلدان الأخرى. وهو يدفع المسلم أن لا يعتمد على العلوم العقلية أو النقلية فقط، بل لا بد من الإفادة من العلوم التجريبية.

ثم يقول سلام الله عليه: «**ومعرفة الواجب عليه من العدل على الناس كافة، وبر الوالدين وأداء الأمانة، ومواساة أهل الخلة[٥] وأشباه ذلك، مما قد توجب معرفته، والإقرار والاعتراف به في الطبع والفطرة من كل أمة موافقة أو مخالفة**»[٦].

يشير سلام الله عليه إلى أن الإنسان خلق مفطوراً ومجبولاً على مثل هذه الأمور، لكن عوامل أخرى قد تحجز بينه وبينها، فيحتاج إلى الوسائل العلمية لإدراكها.

---

(١) هو المفضل بن عمر، أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام، وقد أملى عليه الإمام مجموعة من العلوم جمعت في كتاب عرف بتوحيد المفضل، وقد طبع هذا الكتاب في العراق وإيران ومكة المكرمة وأماكن أخرى.

(٢) البراهين العقلية.

(٣) ما يؤخذ بالملاحظة والتجربة، أو ما يسمى اليوم بالعلم التجريبي.

(٤) توحيد المفضل: ٨١.

(٥) أي الفقراء.

(٦) توحيد المفضل: ٨١.

ثم يضرب عليه السلام أمثلة للدنيا فيقول: «وكذلك أعطي علم ما فيه صلاح دنياه، كالزراعة والغراس واستخراج الأرضين[١] واقتناء الأغنام والأنعام، واستنباط المياه، ومعرفة العقاقير التي يستشفى بها من ضروب الأسقام، والمعادن التي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السفن، والغوص في البحر، وضروب الحيل في صيد الوحش والطير والحيتان، والتصرف في الصناعات، ووجوه المتاجر والمكاسب، وغير ذلك مما يطول شرحه، ويكثر تعداده مما فيه صلاح أمره في هذه الدار، فأعطي علم ما يصلح به دينه ودنياه»[٢].

وهذا يشمل كل مجالات الحياة التي ترفع المستوى الاقتصادي للمسلم، وتجعله في قمة الهرم الاقتصادي والاجتماعي.

ثم يقول عليه السلام: «ومنع ما سوى ذلك مما ليس في شأنه ولا طاقته أن يُعلم، كعلم الغيب وما هو كائن، وبعض ما قد كان أيضاً... فانظر كيف أعطي الإنسان علم جميع ما يحتاج إليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك، ليعرف قدره ونقصه، وكلا الأمرين فيهما صلاحه»[٣].

ويقول سلام الله عليه في نص آخر: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[٤]، واللوابس هي الشبهات. وقد قلت وأقول، وليرض من يرضى وليغضب من يغضب: على العالم الفقيه أن يعرف كل ما يجري في الحياة المعاصرة، لأنه يريد أن يعطي حكماً شرعياً حول أمر ما، فكيف يمكنه ذلك وهو غير واضح عنده؟! لاحظوا المعاملات المصرفية في زماننا هذا مثلاً، والمعاملات التجارية،

---

(١) تأمل في هذه اللفظة، وما فيها من معان تتعدى حدود الزراعة والغراس، فالاستخراج يشمل كل ما في الأرض من بترول ومعادن وأحجار وغير ذلك.

(٢) توحيد المفضل: ٨١.

(٣) توحيد المفضل: ٨١.

(٤) الكافي ١: ٢٦.

والشركات، وغير ذلك مما يرد إلينا يومياً، فالحياة في تطور سريع، ولا بد أن نجاري تطورها، ونتابع كل ما يستجد، خصوصاً بعد توفر الوسائل المعينة على ذلك، والتي تجعل الإنسان يعيش في العالم كله، ويستطيع أن يعرف ما يجري فيه مما يرتبط بشؤون حياتنا.

فالإمام الصادق عليه السلام يريد أن يبين أن من لا يعرف ما يجري في الحياة يكون عرضة لهجوم الشبهات، ومن هجمت عليه الشبهات فقد ضل وأضل.

العلم في القرآن الكريم

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فالنبي صلى الله عليه وآله هو المعلم الأول للمسلمين، والقرآن الكريم ينص على أن من وظائف النبي تعليم الكتاب، وهو القرآن الكريم، والحكمة، وهي سائر العلوم والمعارف التي يحتاجها المسلم في حياته.

وبالعودة إلى قوله تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ نجد أن التزكية، وإن كان الفهم الأولي لها هو التربية، والنبي صلى الله عليه وآله هو المعلم والمربي للمسلمين بلا شك، إلا أن معنى التزكية أوسع، فهي تعني التنمية، وقد كان العرب أول الأمر متخلفين، فعمل النبي صلى الله عليه وآله على تنميتهم ورفع مستواهم ليصلوا إلى الدور المطلوب.

ويقول تعالى أيضاً في هذ الباب: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

كما يقول جل وعلا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) العلق: ٥.

إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ - بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾[1].

والآيات البينات هي الآيات التي يكون دليلها الدال على صحتها مصاحباً لها، فلا تحتاج إلى دليل.

الأسئلة

س١: الأسباب المؤدية إلى تخلف المسلمين علمياً كثيرة، حبذا لو بسطتم الكلام فيها.

الجواب: التخلف مشكلة قائمة، وكل مشكلة لا بد أن تدرس بالتعرف لأسبابها.

فمن أسبابها السياسة، حيث كانت الدول الغربية تستهدف المسلمين وتضغط عليهم، وتغزو بلدانهم.

وهناك سبب آخر اقتصادي، ونحن نحتاج إلى جامعات علمية ومراكز دراسات تخصصية لدراسة هذه المشكلة، وإلى بعثات دراسية خاصة. لكي نتحول من دول مستهلكة إلى دول منتجة، ومن دول مستوردة إلى دول مصدرة، والإنتاج والتصدير هو الذي جعل الدول الغربية ذات سيادة.

س٢: من الصعب على الجاهل أن يستفيد مما في القرآن من علم، ولو أن أحدنا كان يعيش في زمن أمير المؤمنين عليه السلام، فليس من البعيد أن يسأله: كم شعرة في لحيتي؟ فكيف ترسمون لنا منهجاً للإفادة من العلماء المعاصرين؟

الجواب: هذا السؤال يعود للسائل نفسه قبل غيره، فليس من الصحيح أن

---

(١) العنكبوت: ٤٨، ٤٩.

يوحي لنفسه أنه لا يعرف كيف ينتفع بالقرآن الكريم ويسترشد بالعالم، فعليه أن يتمحّل الطرق، ويبتدع الآليات، ليصل إلى حل لمشكلته، فالمجال واسع، والطرق عديدة، شرط أن يفكر بحاله، ويحاول أن يجد الطرق الصحيحة.

س٣: العمل لخدمة الإسلام هدف مقدس لكل مسلم، فكيف يرسم لنا القرآن الكريم منهاج العمل الحركي لخدمة الإسلام؟

الجواب: هذا موضوع متشعب ومترامي الأطراف، لكن الخطوة الأولى هي فهم الإسلام، ولو بشكل عام، فمن البديهي أن الداعي للإسلام لا بد أن يفهمه أولاً، وإلا كيف يمكنه أن يدعو لأمر لا يدري ما هو؟ فلا بد للداعية المسلم أن يعرف الكثير عن النظام السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو الأسري في الإسلام.

ثم لا بد من سلوك الطريق الصحيح في الدعوة، واعتماد الوسائل السليمة. يقول السيد عبد الحسين شرف الدين: لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال. فنحن يمكننا أن نستخدم الوسائل التي استخدمها غيرنا لنشر الضلال، ونوظفها في نشر الهداية، فنفتح المدارس والجامعات والمعاهد والمصانع، وغيرها من الوسائل التي توسل بها غيرنا ليكون هو السيد المتسلط.

٤س: هل أن العلم يقتضي الإيمان ؟ وهل أن الإيمان يقتضي العلم ؟ وما هو الربط بين العلم والإيمان من الناحية غير الفقهية أو الدينية عموماً؟

الجواب: أما العلم فإن الإنسان قد يستخدمه في البحث عن نشأة الكون، فيهتدي ويؤمن، وقد لا يستخدمه في ذلك. والشواهد على ذلك كثيرة، فهناك الكثير من العلماء عاشوا وماتوا وهم ملحدون، والكثير منهم أيضاً عاشوا ملحدين، لكنهم اهتدوا إلى الإيمان.

وأما الإيمان فإنه يهدي إلى العلم كذلك، لأن الله تعالى، وهو أصل الإيمان وأساسه الأول، يدفع الإنسان إلى التعلم، وكسب العلم.

٥س: إذا كان القرآن تبياناً لكل شيء تحتاجه البشرية، فلمَ يحتاج الأئمة للإلهام كمصدر من مصادر المعرفة، ونحن نعلم أن عندهم علم الكتاب؟

الجواب: تحدثت في أكثر من مناسبة عن علوم أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأن عندهم الصحيفة المعروفة بصحيفة علي عليه السلام، ومصحف فاطمة[1]، والجَفر، والجامعة وغيرها، وفيها كل ما أنزل على الأنبياء السابقين، وهم يرجعون لهذه الكتب، لكن هذا لا يتعارض مع الإلهام في بعض القضايا، ولو في مجال التطبيقات. فليس هناك من مانع أن يلهم الإمام في باب التطبيقات، أو فيما لم يذكر في تلك الكتب من موضوعات مستجدة في حياة الناس.

س٦: ألا ترون أن سر تخلف المسلمين ينحصر بشكل رئيسي، بافتقادهم الحرية التي يوفرها الإسلام؟ وأن على المسلمين أن يسعوا لطلب حريتهم في إطار إسلامي؟ كما يسعون في طلب العلم، لكي تصبح المعادلة كما يلي: حرية + علم + أرض + إنسان = حضارةً ورقياً وتقدماً إسلامياً؟

الجواب: إن الأبواب ليست مغلقة تماماً، لكن الإنسان العاجز يتهرب من مواجهة المشكل، ولديه القدرة على خلق التبريرات، وهذا ما يدرس في علم النفس الاجتماعي. فتجد الهارب من مواجهة المشكل يسوق آلاف التبريرات

---

(١) وهو ليس قرآناً آخر كما يحاول البعض أن يوهم العامة، إنما شأنه شأن الكتب الأخرى التي وردت في الكثير من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام، وقد نصت تلك الأحاديث صراحة على أنه ليس فيه من القرآن ولا حرف واحد، وهذا صريح في كونه ليس قرآناً، لكن العرب تسمي كل كتاب مصحفاً، لأنه مجموعة من الصحف، كما أن لفظة (مصحف) ليست من الأسماء الشرعية للقرآن، فمن أسمائه: الكتاب والفرقان والذكر وغيرها، وليس منها المصحف. راجع كتاب الكافي١: ٢٣٨ باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام.

كيلا ينعت بنعته الحقيقي، وهو الهروب من المواجهة، فليس المسلمون اليوم ممنوعين من العلم، وهو بين أيديهم، سواء داخل بلدانهم أم خارجها، ولا أرى أن حرية المسلمين مصادرة تماماً في بلدانهم.

٧س: ورد في المأثور: «كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه»[١]، فكيف نتجنب لعنة القرآن لنا عند قراءته؟

الجواب: من قرأ القرآن وفهم معناه وخالفه فهو ملعون، لا من القرآن فحسب، إنما يلعنه الله والملائكة والناس أجمعين.

(١) مستدرك الوسائل ٤: ٢٥٠. عن النبي الأكرم ﷺ.

العلم والعمل في القرآن الكريم - ٢

أوضحت في محاضرة سابقة أن مصادر العلم أربعة، هي: الوحي والإلهام والعقل والحسّ، وأعطيت تعريفاً موجزاً لكل من هذه المصادر الأربعة.

ولا بد من ملاحظة أن المصدرين الأولين، وهما الوحي والإلهام يكون الإنسان فيهما متلقّياً، بمعنى أنه يأخذ ما يعطيه النص المنقول. أما المصدران الأخيران، وهما العقل والحس، فيكون الإنسان فيهما مكتسباً؛ لأنه هو الذي يفكر ويشاهد ويلاحظ ويسمع ويلمس، فيكتسب المعرفة بنفسه عن طريق العقل، أو الحس.

ولكي تتضح الصورة بشكل أكبر، نأخذ بعض الآيات التي تشير إلى شيء من هذه المصادر:

١ - **الآية الأولى**: قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]. هذه الآية تشير إلى يوم القيامة، وهو بالنسبة إلينا غيب، إذ لا يخضع للتفكير العقلي، ولا للحس، فكيف استفدنا أن هناك معاداً ويوم قيامة، فيه حساب أو ثواب أو عقاب؟ لا شك أننا استفدناه من الوحي، والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

٢ - **الآية الثانية**: قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ

(١) الجاثية: ٢٦.

يَعْلَمُونَ﴾[١].

فإدراك أن البيوت خاوية، وأن هؤلاء دمروا، يخضع للحس والمشاهدة، ومصدر هذه المعلومة يأتي عن طريقهما، فالقرآن الكريم بهذه الآية الكريمة وأمثالها، يؤكد أن الحس مصدر من مصادر المعرفة والفكر والعلم.

٣ - هناك آية ثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ - وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٢]. فهذه الآية تؤكد أيضاً أن الحس مصدر من مصادر المعرفة، إذ إن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تنظر وتشاهد، والرؤية والنظر والمشاهدة من الآثار الحسية[٣].

منزلة العالم في القرآن الكريم

من الأمور ذات العلاقة بهذا الموضوع، مكانة العالم من وجهة نظر القرآن الكريم فقد ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٤] أي أن هناك فرقاً بين العالم وغير العالم، فللعالم مكانته لا يرقى إليها الجاهل.

---

(١) النمل: ٥١، ٥٢.

(٢) فاطر: ٢٧، ٢٨.

(٣) الجُدَد: جمع الجُدة، وهي الطريق، وقد يتذكر بعضكم جانباً من المعارك الأدبية التي كانت تجري في هذه البلاد، بين الشيخ حمد الجاسر والشيخ عبد القدوس الأنصاري حول مفردة (جدة) وهل هي بضم الجيم أو فتحها؟ فإن كانت بالضم فهي تعني الطريق؛ لأنها واقعة في الطريق إلى الحرمين الشريفين، وإن كانت بالفتح فهي مأخوذة من جدتنا حواء، لأنها مدفونة هناك. فكانت هناك معركة طويلة عريضة، لا أدري إلى أين انتهت.

أما الغرابيب فمعناها شديدة السواد، وهي مأخوذة من الغراب والسواد.

(٤) الزمر: ٩.

ويقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١] فأصحاب الإيمان وأهل العلم في قمة الهرم. وهذا يرجع إلى التوزيع الطبقي في المجتمع، والمجتمع الإسلامي لا يختلف عن المجتمعات الأخرى، فهو يوزع إلى فئات وطبقات.

فلو حاولنا تصنيف المجتمع الإسلامي على أساس الإيمان بالعقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي يأتي المؤمنون في قمة الهرم الاجتماعي، أي في قمة الجبل الاجتماعي، ويأتي سائر الناس في السفوح والقواعد.

ولو أردنا أن نقسمه على أساس الناحية العلمية، فإن العلماء يأتون في قمة الهرم الاجتماعي. والقرآن الكريم يشير إلى هذا أيضاً، والجدير بالذكر هنا أن الكثير من النظريات الاجتماعية تجد لها أمثلة أو أسساً في القرآن الكريم، ونهج البلاغة بالذات، ولو قدر أن يدرس نهج البلاغة دراسة اجتماعية فسوف ننتهي إلى أن الإمام علياً عليه السلام هو أول من أسس الفكر الاجتماعي وليس ابن خلدون، كما يذهب إلى ذلك المفكرون في علم الاجتماع عند العرب.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٢] وفي آية أخرى يقول: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٣] وهذه النصوص تشير إلى أن العلماء لهم مكانة ومنازل في المجتمع، أو عند الله سبحانه وتعالى.

ثم إنها تبين لنا حقيقة باقية مدى الحياة، وهي قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فالإنسان مهما يسمو في العلم، ومهما يتقدم، ومهما تنطلق الأمة

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) يوسف: ٧٦.

صعوداً إلى أعلى الدرجات في العلم، فإنها لا بد أن تضع هذه الآية نصب أعينها، لتحفز الناس لمواصلة التعلّم، وهذا اللون من الفلسفة يسمى بالنزعة نحو الاستكمال، فالإنسان عندما يعلم أن هناك كمالاً، وكمالاً مطلقاً، فإنه يحاول أن يصل إلى ذلك الكمال.

وبهذه النزعة (نزعة الاستكمال) استدل الفيلسوف الفرنسي المعروف ديكارت، صاحب نظرية الشك المنهجي، على وجود الله سبحانه وتعالى، فهو يقول: أنا أشعر أنني ناقص، وأريد أن أستكمل، لكنني كلما تقدمت في العلم أرى أنني لا أزال ناقصاً، وأريد أن استكمل، ومعنى ذلك أن هناك كمالاً مطلقاً، وهذا الكمال المطلق هو الذي يحفزني ويدفعني إلى الاستكمال، وليس ذلك الكمال المطلق إلا الله تعالى.

وهناك آية أخرى تشير إلى نزعة الاستكمال أيضاً، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾[1].

فلو قدر لنا أن نطّلع على المجلات العلمية التي تصدر في العالم، والتي تعرض دائماً أبحاثاً علمية متطورة، لوجدنا أنها بالآلاف، فمن الممكن أن نرجع إلى مركز المعلومات في واشنطن، أو لينينغراد في الاتحاد السوفيتي، ونطلب أسماء وعناوين المجلات العلمية التي تصدر في العالم، عندئذ سوف تأتينا القوائم بالآلاف، وقد تستغرب من ذلك، إلا أن هذا هو الواقع، فهناك آلاف المجلات تصدر في العالم، كلها تنطوي على أبحاث علمية تهدف إلى التطور، وهي تكشف لنا بالإضافة إلى الكتب الكثيرة، أن العلم في تطور مستمر، وازدياد دائم، مع كل هذا يبقى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

(١) الإسراء: ٨٥.

إلا قَلِيلاً﴾ فاعلاً على مدى الزمن، لأن الكثير من الظواهر الكونية والنفسية لم يصل العلم فيها حتى الآن إلى تفسير وتعليل حقيقي، على كثرة ما طرح من تفاسير.

ومن تلك الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، فالسين حرف استقبال، أي أن كل ما اكتشفوه من نظريات، وما توصلوا إليه من حقائق علمية، يبقى دون المطلوب دائماً، وتبقى هذه الآية وأمثالها شاخصةً أمام البشرية كلما تقدمت في الاكتشاف العلمي، ويبقى الإنسان يكتشف ويكتشف كلما طال الأمد، وهذا من أكبر الأدلة على أن القرآن من الله تعالى.

العمل في القرآن الكريم

يقسم القرآن الكريم العمل إلى قسمين: عمل صالح، وعمل غير صالح، والعمل الصالح هو ما كانت فيه مصلحة للإنسان، كفرد أو مجتمع أو أمة، والعمل غير الصالح ما ليس فيه مصلحة للإنسان فرداً كان أو مجتمعاً.

وبتعبير آخر نقول: إن القرآن الكريم يقسم العمل إلى عمل نافع، وعمل غير نافع، والعمل غير النافع قد يكون عبثاً، ليس فيه نفع ولا ضرر، وقد يكون ضاراً.

أما ما يترتب على هذا التقسيم، فإن العمل الصالح له ثواب عند الله وأجر، وربما ينتقل ذهنك إلى الصلاة والصوم وأشباه ذلك، وهذا صحيح، فالصلاة عمل صالح، وهي عمود الدين، وكذلك الصوم، لكن مفهوم العمل الصالح أوسع من العبادات، ويشمل كل ما أقرته الشريعة الإسلامية وحثت عليه.

---

(١) فصلت: ٥٣.

وباتفاق علماء المسلمين فإن لله في كل واقعة حكماً، أي أنه سبحانه وتعالى لم يترك أي سلوك من سلوكيات الإنسان إلا ووضع له حكماً في الشريعة، فالمعاملات لها أحكامها في الشريعة الإسلامية، وللمجتمع أحكامه، وللأمة والدولة كذلك، كل هذا يدخل في إطار العمل الصالح، فهو إذن غير مقصور على العبادات، وإن كانت تأتي في قمة العمل الصالح.

ولكي أوضح ما ذكرته بمثال، أقول: قد يسأل البعض عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1] فيقول: إننا جميعاً نقيم الصلاة، فما علاقة التمكن في الأرض بذلك؟

إن التمكن في الأرض هنا يعني أن تكون لديهم سلطة ودولة شرعية، وعندئذٍ تكون من أهم واجبات الدولة الإسلامية إقامة الصلاة، وإلزام الناس بإقامتها، وهذا حكم من الأحكام غير الفردية، فكما أن الفرد في الشريعة الإسلامية له أحكام تخصه كفرد، فللمجتمع أحكام تخصه كمجتمع، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللدولة أحكام تخصها كدولة، ومن أهم واجبات الدولة الإسلامية إقامة الصلاة. وليس معنى إقامة الصلاة أن يتقدم رئيس الدولة وموظفوها ليصلوا، إنما المقصود هو فرض الصلاة، وإلزام الناس بذلك، لكي تصبح الصلاة هي الظاهرة العامة في الأرض التي مُكّنت فيها تلك الدولة.

فالعمل الصالح الذي يثاب عليه الإنسان، هو كل حكم في الشريعة الإسلامية، فلا يختص بالعبادات، وهناك آيات كثيرة تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[2]، وهذا التعبير، يكثر في

(١) الحج: ٤١.
(٢) البقرة: ٦٢.

القرآن الكريم، ومنه أخذ علماء الكلام والفلاسفة المسلمون مصطلح المبدأ والمعاد، ويراد بالمبدأ عقيدة التوحيد، باعتبار أن مبدأ الكون والحياة والإنسان من الله تعالى، ونحن نؤمن أن الوحدانية لله، وهذا ما نسميه المبدأ، أما المعاد فيعني أن هذه الحياة سوف تعود إلى الله تعالى يوم القيامة.

فالإيمان بالله يعني الاعتقاد بهذين الأمرين (المبدأ والمعاد) وما بينهما، من النبوة، والإمامة العامة عند عامة المسلمين، أو الخاصة عند الإمامية، وبعبارة أخرى يعني من آمن بالعقيدة الإسلامية، والتي تعرف بأصول الدين.

وهذا الإيمان يقترن في هذه الآية الشريفة وغيرها من الآيات بالعمل الصالح ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[1]، أي من التزم جميع الأحكام الشرعية التي جاءت عن طريق الشريعة الإسلامية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] فهؤلاء يثابون على عملهم.

ومن الآثار الشرعية التي تترتب على العمل، أن العمل السيء يمكن أن يغفر، فيما إذا تاب العبد، باستثناء الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[4] ومعنى ظلم النفس بأن لا يلتزم ولا يتمسك بأحكام الشريعة الإسلامية، فلو أن العبد لم يتمسك بحكم واحد من أحكام الشريعة الإسلامية يكون قد ظلم نفسه وما أنصفها. لكن ظلم النفس، والعمل السيئ إذا تلاه الاستغفار، فإنه يترتب عليه الغفران.

ومن الآيات الشريفة التي تربط بين الإيمان والعمل الصالح قوله تعالى:

---

(١) البقرة: ٦٢.

(٢) البقرة: ٦٢.

(٣) النساء: ٤٨ و ١١٦.

(٤) النساء: ١١٠.

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] ويظهر من هذا أننا لا يمكن أن نصل إلى الهدف إلا بالعمل الصالح الذي تريده الشريعة الإسلامية للإنسان المسلم، وهذا لا يتم إلا بالإيمان أولاً، فلا عمل صالحاً دون إيمان، وهناك ترابط وثيق بينهما.

وأود هنا أن أقف قليلاً عند موضوع الاستخلاف في الأرض، إذ إن الكثير من الناس يقولون: نحن مؤمنون مسلمون، فلماذا نحن مستضعفون؟ ولماذا نرى أولئك الكفار أقوياء ولديهم ما لديهم؟

الجواب: إن إعطاء الرفعة والعلو للمسلمين يترتب على عطاء والتزام، فلا يعطى اعتباطاً ولا مجاناً، إنه مشروط بالالتزام بالأحكام الشرعية، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهناك وعد من الله والله لا يخلف الميعاد، ولكن لا بد في المقابل من إيمان وعمل صالح، لو تحققا لكنا خلفاء الله في هذه الأرض. فالتقصير منا نحن، إذ لم نحقق هذين الشرطين لنستحق الخلافة، التي نثاب عليها.

والحمد لله رب العالمين

(١) النور: ٥٥.

الإنفاق في القرآن الكريم

الإنفاق من الموضوعات التي تبحث في علم الفقه، وعلم الاقتصاد أيضاً، لكنه في علم الفقه يدرس من زاوية غير التي يدرس فيها في علم الاقتصاد، ففي علم الفقه يؤخذ الإنفاق موضوعاً في الأحكام الشرعية التي تترتب عليه، فيبحث الفقهاء مثلاً متى يكون الإنفاق واجباً، ومتى يكون مستحباً، أو حراماً، والوجوب والحرمة والاستحباب من الأحكام الشرعية. ولا أريد هنا أن أدخل في الموضوع من الناحية الفقهية، لسببين:

١ - أن الموضوعات التي أوكلت إليّ إنما هي موضوعات قرآنية، لذا فإنني لا بد أن أتحدث عن ذلك من خلال الآيات القرآنية.

٢ - أن الموضوعات الفقهية أوكلت إلى أخينا العزيز الحجة السيد علي السيد ناصر، الذي سوف يتولى الحديث عن النواحي المالية في الفقه الإسلامي.

من هنا فإنني سوف أقصر حديثي في الإنفاق على الجانب الاقتصادي، ثم أنتقل منه إلى تبيان معنى بعض الآيات الواردة في الإنفاق.

نظرة في النظم الاقتصادية

الإنفاق هو بذل المال للغير، سواء كان ذلك المال نقداً أم عيناً، والبذل يعني الإعطاء، فإعطاء المال للغير، سواء كان نقداً أم عيناً يسمى إنفاقاً.

ويبحث هذا الموضوع في علم الاقتصاد، في مجال الحديث عن الثروة،

وعندما تطلق الثروة في علم الاقتصاد، لا يراد منها النقود فقط، إنما يراد من ذلك كل ما يتعلق بثروات البلد، من نقود وأعيان، وممتلكات، وحاصلات زراعية، ومنتوجات صناعية، ومعادن مستخرجة من باطن الأرض، وأمثال ذلك. فعلم الاقتصاد يبحث في هذه الثروة، وكيف تُنتج؟ وكيف توزع على أبناء الأمة؟

وقد نصت الشرائع والقوانين الدينية والوضعية على أن لكل مواطن حقاً طبيعياً في الثروة، لكنه قد يصل إليه بوسيلة ما من وسائل العمل أو الكسب، وقد لا يصل، وفي هذه الحالة يجب أن يُنفق عليه، وأن يصله حقه عن هذا الطريق.

والنظم الاقتصادية هي التي تتولى الإنفاق وتعنى به، وليس علم الاقتصاد، وهناك فرق لا بد من توضيحه بين علم الاقتصاد والنظام الاقتصادي.

إن علم الاقتصاد عبارة عن دراسات وبحوث تتعلق بالثروة بشكل عام، وكيف تُنتج وتستهلك، وما هي أساليب تداولها، فالإنتاج والتوزيع والاستهلاك والتداول تسمى بالعمليات الاقتصادية، وهو ما يبحثه علم الاقتصاد بحثاً نظرياً. أما في مجال التطبيق ومحاولة إيصال الحق لكل مواطن، فإننا نحتاج إلى النظام الاقتصادي الذي يتكفل بذلك.

من هنا نرى أن في كل دولة في العالم نظاماً اقتصادياً يتكفل ببيان طرق وآليات إنتاج الثروة وتوزيعها وتداولها واستهلاكها.

النظام الرأسمالي

أشهر النظم الاقتصادية السائدة حالياً هو النظام الرأسمالي، فأكثر الدول الغربية ـ أو ما يسمى بالمعسكر الغربي من الدول الغربية ـ تعتمد نظام

الاقتصاد الرأسمالي، الذي يسمى أحياناً بالاقتصاد الحر، والسبب في هذه التسمية أن النظام الرأسمالي سواء كان في جانبه الاقتصادي، أم في جانبه الاجتماعي، يعتمد على إطلاق الحريات الفردية، فيعطي الحرية الكاملة للفرد، يتصرف كيف يشاء، للحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة. لذا نجد في الرأسمالية، أن الثروة قد تتكدس لدى أفراد معدودين من أبناء المجتمع، في مقابل حرمان الآخرين منها، لأن إطلاق الحريات الفردية يكون على حساب العدالة الاجتماعية، والعدالة في توزيع الثروة، فهناك أفراد من اللوردات مثلاً يملكون المليارات، وإلى جانبهم جيوش من الموظفين البسطاء لا يملكون شيئاً، وهذا يعني أن العدالة الاجتماعية مفقودة، حيث يفترض أن تكون الطبقات متقاربة، فنحن في الحقيقة لا نستطيع في هذه الحياة الدنيا أن نلغي الطبقات، ودعوة كارل ماركس لتطبيق الشيوعية وإلغاء الطبقات أثبتت أنها دعوة مثالية طوبائية، وعلى حد تعبير البعض أنه أراد أن يُنزل جنة المتقين إلى الأرض.

فالطبقات لا يمكن إلغاؤها تماماً، ولا بد من وجود تفاوت في تملّك الثروة، لكن النظام العادل هو الذي يعمل على تقليل التفاوت والتباين بين الطبقات، ويحقق التقارب، فلا يجعل فئة ما متمولة إلى حد كبير جداً، فتنتفي بذلك العدالة الاجتماعية.

النظام الاشتراكي

أما النظام الثاني من الأنظمة المعاصرة فهو النظام الاشتراكي، الذي يسمى أيضاً بالاقتصاد الموجَّه، في مقابل الاقتصاد الحر، لأن الحكم في الدول الاشتراكية حكم دكتاتوري، وطبيعة الحكم الدكتاتوري هي المركزية، بمعنى أن الدولة تتدخل في كل شؤون الحياة للأمة، ومنها توزيع الثورة، وتنظيم الاقتصاد، فتنظيم الاقتصاد في الدول الاشتراكية يخضع لتوجيه الدولة،

فيسمي بالاقتصاد الموجه. علماً أن الدول الاشتراكية في العالم الاشتراكي، تحكمها طبقة العمال (البروليتارية).

والمفارقة البارزة في الاشتراكية هي أنها تهدر قيمة الفرد أمام الدولة، وتلغيها تماماً، كما أن الرأسمالية تلغي وتهدر قيمة المجتمع.

نظام الاقتصاد الإسلامي

أما النظام الاقتصادي الثالث فهو النظام الإسلامي، وهو وإن كان معتَمداً إلى حد ما في بعض الدول الإسلامية، ولكن لا بالسعة المعهودة في الرأسمالية أو الاشتراكية، حيث نجد أن هناك معسكراً رأسمالياً، يضم دولاً كثيرة في العالم، ومعسكراً اشتراكياً يضم دولاً ليست بالقليلة، ولكن لا نجد معسكراً يسمى المعسكر الإسلامي، وإنما هناك دول إسلامية، يعتمد بعضها الاقتصاد الإسلامي، والبعض الآخر لا يعتمده، إنما يعمل بالاقتصاد الرأسمالي أو الاقتصاد الاشتراكي.

أسس النظام الاقتصادي في الإسلام

ولكي نصل إلى موضوع البحث، وهو الإنفاق في القرآن الكريم، لا بد أن نعرف الأساس الذي يقوم عليه الاقتصاد الإسلامي في توزيع الثروة على المواطنين، والمواطن في الدولة الإسلامية يعني المسلم وغير المسلم، فكل فرد يعيش في ظل دولة إسلامية، مسلماً كان أو غيره، يعد مواطناً، له حق في ثروة البلد.

إن الأساس الذي يقوم عليه الاقتصاد الإسلامي في توزيع الثروة، هو أن المال ليس ملكاً لمن يملكه من الأفراد، إنما المال مال الله، فهو في الرأسمالية، لمن ملكه من الأفراد، وفي الاشتراكية مال الدولة، وهي التي تعطي المواطن منه

حسب مبدأ اشتراكي خاص. أما في الإسلام فإن المبدأ يقوم على أساس الملكية الظاهرية، فيقال: هذا المال ملك فلان، ولكن الواقع هو أنه ليس بملك لأحد، إنما هو لله سبحانه، وهو الذي استخلفنا عليه، كما يقول القرآن الكريم. ومعنى الاستخلاف أن الله تعالى جعل الإنسان خليفة له ونائباً عنه في التصرف في المال. فالخليفة هو من يخلف من قَبله ويقوم مقامه، وبتعبير آخر هو من ينوب مناب من استخلفه. فالله تعالى استخلف صاحب المال عليه، ومن هنا فإن النائب عن غيره لا يتصرف كما يشاء هو، وإنما وفق ما يريده المنوب. وبناء على ذلك فإن الإنسان يجب أن لا يتصرف في المال إلا وفق الأحكام التي شرعها الله له.

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَآتُوهُم مِن مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[1]، أي أن المال الذي تبذله حال الإنفاق، سواء كان الإنفاق واجباً أم مستحباً، لا تبذله من عندك، وإنما هو من مال الله، وأنت تعطيه وفق التشريع الذي شرعه الله تعالى لك.

ويقول جل وعلا: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2]، أي أنفقوا من الأموال التي جعلكم فيها خلفاءه ونوابه، وقد قلنا سابقاً: إن النائب أو الوكيل أو الخليفة لا يتصرف إلا وفق ما يريد الموكل والمستخلف.

والخلاصة أننا لا نستطيع أن نتصرف بالمال إلا وفق التشريع الإلهي، لأن المال مال الله، وقد جعلنا فيه خلفاء.

الملكيات الثلاث

بمقارنة بسيطة بين الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي من جهة،

---

(١) النور: ٣٣.

(٢) الحديد: ٧.

والاقتصاد الإسلامي من جهة أخرى، نجد أن الإسلام يقر الملكيات الثلاث: ملكية الفرد، وملكية الدولة، وملكية الأمة.

فأنت تستطيع أن تتملك داراً، أو مزرعة، أو تنشئ مصنعاً، وهذا ما نسميه بالملكية الفردية.

أما ملكية الدولة، فتعني أن هذه المؤسسة التي تقوم بإدارة شؤون المواطنين، لها الحق أن تملك أيضاً، لكن الدولة في عرف الشريعة والقانون شخصية اعتبارية لا عينية[1].

فالدولة في نظر الإسلام، مؤسسة اعتبارية، ومفهوم الدولة، لا يعني الأفراد المسؤولين فيها، كرئيس الدولة والوزراء وغيرهم، إنما يعني المؤسسة الاعتبارية، وهذه المؤسسة -في نظر الإسلام- لها أن تملك، ورئيس الدولة ومن حوله من المسؤولين، يتصرفون في الأموال وفق مواد ونصوص القانون، إذا كانت دولة قانونية، أو وفق أحكام الشرع إذا كانت دولة شرعية.

ومن ثم، لو مات رئيس الدولة مثلاً، أو تغير، فإن الأموال تبقى ملكاً للدولة؛ لأنها مؤسسة.

فهناك إذن، ومن وجهة النظر الإسلامية، جزء من الثروة، يكون ملكاً للدولة خاصة، يتصرف فيه المسؤولون عن الدولة، ويوظفونه في مصلحتها كدولة، لا

---

(١) هناك شخصية عينية وشخصية اعتبارية، ولكي يتضح المقصود من كل منهما نأخذ المثال التالي: نقول: إن لهذه الحسينية شخصية اعتبارية، أي أنه لو أوقف لها أحدٌ فراشاً، فهو ملك لها، لكنها ليست ذات إرادة فتملك، كما هو معلوم، لأنها بناء جامد، فكيف نقول إذن: هذا الفراش ملك لها؟ إننا نعني أن الفرد لا يحق له أن يتصرف في هذا الفراش خارجها، وكل من القانون والشريعة يقولان: إنه ملك الحسينية، ومن أخذ منه فهو سارق، والولي على هذه الأموال هو الذي يتصرف فيها وفق ما أوقفت عليه، وفي صالح الحسينية لا في صالحه هو؛ لأنها ليست ملكه. وكذا الحال مع الدولة، فإنها تملك باعتبارها مؤسسة اعتبارية.

في مصلحة الأفراد، فالدولة لها مصالحها،كما أن للأفراد مصالحهم.

لاحظ مثلاً أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، لما كان في الكوفة، وكان هو رأس الدولة الإسلامية وخليفتها، كان يتصرف في الأموال التي تخص الدولة، وينفقها في مصلحتها.

كان عليه السلام في إحدى المرات، وهو يعد الأموال في بيت المال ليقسمها على المسلمين آنذاك، قد أوقد شمعة يستضيء بها، فدخل عليه جماعة من المسلمين لحاجة لديهم، فأطفأ الشمعة، وتركهم في الظلام، فاستغربوا من ذلك وسألوه فقال: هذه الشمعة من بيت مال المسلمين، ويجب ألا تصرف إلا في مصالح المسلمين، ولو أبقيتها لكنت سارقاً من ذلك المال.

فالمسؤول في الدولة، لا بد أن يتصرف في أموال هذه المؤسسة الاعتبارية وفق مصالح الدولة والمجتمع والأمة فقط، وحسب الضوابط الشرعية.

والملكية الثالثة، هي ملكية الأمة، أي الأمة الإسلامية، بمعنى ملكية المال للمسلمين كأمة لا كأفراد، ومن أمثال ذلك ما يسمى بالخراج، وهو ضريبة من الضرائب المشروعة في الإسلام، إلا أنها تكون في مجال معين،كالزكاة والخمس مثلاً، فهما ضريبة، لكن التشريع الإسلامي لا يسميها ضريبة، كما هو الحال في القانون، إنما يسميها حقاً، لأن حقيقة الأمر هي أن الإسلام عندما يأخذ الزكاة أو الخمس من الفرد، فإنه لم يقتطعهما من ماله، وإنما يرى أن ذلك مال مستحَقّ على الفرد، وعليه أن يعطي هذا الحق لأهله، وعلى موظف الدولة كمسؤول أن يوصل الحق لمستحقه.

فالفقراء لهم حق في الزكاة، ومن بلغ لديه النصاب في المال المعين فقهياً، كالغلات الأربع مثلاً أو غيرها، ووجبت فيه الزكاة، فإن مقدار الزكاة ملك لهم وليس للفرد المعين صاحب المال، وهذا ما نص عليه جميع الفقهاء المسلمين.

فالدولة الإسلامية عندما تأخذ من الفرد هذا المقدار من الزكاة، فإنها لم تقتطعه من مال الفرد، إنما هو ملك الفقير وحقه، والدولة واسطة في إيصاله إليه، تأخذه من الفرد وتوصله إلى صاحبه، وهو الفقير.

والخراج في عرف الشريعة حق مالي مفروض على البلاد التي فتحت عسكرياً أيام الفتوحات الإسلامية، كالعراق وإيران وغيرهما، لا كالأحساء والبحرين والقطيف، فهذه دُعيت للإسلام فأسلمت، ولم تدخلها جيوش المسلمين.

فهذه البلدان التي فتحت عسكرياً[1]، وكانت معمورة، يكون مالها ملكاً لجميع المسلمين[2]، أي أن الدولة، وفقاً للضوابط الشرعية، تعطي هذه الأراضي للمستثمرين في مقابل نسبة معينة، حسب ما تراه، ثم تأخذ هذه النسبة المعينة نقداً، فعندما يزرع الفلاح الأرض، ويثمر الزرع، ويبيع المحصول، عليه أن يدفع النسبة نقداً للدولة الإسلامية، وهذا ما يعرف بالخراج. وما تأخذه الدولة من هذا المال، توزعه على المسلمين سواء بسواء، فما يأخذه رئيس الدولة يساوي ما يأخذه أي فرد فيها على حد سواء.

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو رئيس الدولة، يأخذ بمقدار ما يأخذه خادمه قنبر، بلا زيادة ولا نقيصة.

الإنفاق في الميزان الشرعي والوضعي

بعد هذه التوطئة ننتقل إلى موضوع البحث، وهو الإنفاق، ولا بد أن نسأل أولاً: لماذا تفرض الشرائع المختلفة الإنفاق، بأن تأخذ من مالك وتعطي الآخرين؟

---

(١) أو كمال يقال في الفقه (عَنوةً)، أي أن الجيش الإسلامي عناها بمعنى قصدها وفتحها بالقوة العسكرية.

(٢) هناك خلاف بين الفقهاء حول ما إذا كانت معمورة، لكن المتفق عليه هو المعمور منها..

الجواب: أن الهدف من ذلك هو أن تكون هناك عدالة في التوزيع، فقد ذكرنا سابقاً أن لكل فرد من أفراد البلد حقاً في ثروته تنص عليه الشرائع والقوانين، وهو حق الحياة الكريمة، أي ما يوفر له الحياة الكريمة، كالمسكن والمأكل والملبس وغيرها من الاحتياجات الأساسية غير الزائدة، فإن استطاع الفرد أن يأخذ حقه من هذه الثروة عن طريق العمل، فقد وصل إليه حقه، وإن لم يستطع، لسبب أو آخر، فإنه ينفق عليه من الدولة. وكذلك لو استطاع أن يعمل، لكن حقه لم يصل إليه كاملاً، لأسباب سوف أشير إليها، فإنه ينفق عليه أيضاً ليكمل النقص، ويعطى حقه كاملاً.

قلة الإنتاج وسوء التوزيع

وما نسميه بالمشكلة الاقتصادية، وعدم وجود العدالة في التوزيع، بأن يكون هناك من يأخذ حقه الطبيعي من الثروة أو أكثر منه بكثير، وآخر لا يصل إليه حقه الطبيعي، تعود أسبابها إلى أمرين أساسيين: إما قلة الإنتاج، أو سوء التوزيع، كأن يكون الإنتاج الزراعي قليلاً في البلاد، فلا يكفي للاستهلاك، أو أن المزارع أصيبت بآفة سببت قلة الإنتاج. وفي المجال الصناعي كذلك، قد تكون المصانع غير موجودة أصلاً، أو أن إنتاجها، لسبب أو آخر أصبح قليلاً.

وتشير الدراسات الاقتصادية، إلى أن قلة الإنتاج تنشأ من عوامل عديدة، منها البطالة، فقد تكون هناك بطالة فاشية في المجتمع فيقل الإنتاج، ومنها سوء التنظيم للإنتاج، فالإنتاج بحاجة إلى تنظيم، ولا بد أن تشرف الدولة على الإنتاج وتنظمه، وإلا فإن سوء التنظيم يتبعه قلة الإنتاج.

وقد يكون السبب قلة وسائل الإنتاج، وأن الموجود منها غير كاف، أو عدم توفرها أصلاً، وقد يكون سببه قلة الأيدي العاملة، كما في حالات الحروب،

التي تطحن العدد الكبير من الرجال، فتقل الأيدي العاملة، وهو ما يؤثر في الإنتاج ويقلله.

أما سوء التوزيع فإنه يرجع إلى النظام الاقتصادي المعتمد الذي يتحكم بعدالة التوزيع، فإن كان عادلاً وزع الثروة بشكل عادل، وإلا فإنها لا توزع بشكل عادل.

وفي بعض الأحيان يكون النظام عادلاً ـ كما في الإسلام ـ إلا أن المسؤولين عن تطبيقه غير عادلين، فالخلل ليس في النظام كبنود وأحكام، وإنما في تطبيقه، بأن يكون الحاكم غير عادل، كما كان عليه الحال عند الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم، من الحكومات التي حكمت البلاد الإسلامية، فالحاكم غير العادل لا يتصرف بعدالة، فيحصل سوء التوزيع في الثروة، وتجد أن هناك فقراء كثيرين محرومين من حقوقهم.

ولكي تعالج الدولة أسباب المشكلة الاقتصادية، يجب عليها أن توفر الإنتاج، وتحسن التوزيع، وذلك بدراسة أسباب قلة الإنتاج ومعالجتها. ثم أن تخضع لنظام عادل، وتراقب المسؤولين والموظفين أثناء التطبيق.

فمن خلال مراجعة النصوص الواردة في نهج البلاغة والكتب الفقهية الاستدلالية نجد أن الموظف والمسؤول في الإسلام، من رئيس الدولة إلى آخر درجة وظيفية، لا يعين إلا بعد توفر شرطين أساسيين، هما العدالة والكفاءة، أي أن يكون بمستوى الوظيفة التي تسند إليه، مؤدياً لدوره بشكل صحيح، بالإضافة إلى كونه عادلاً.

الإنفاق في القرآن الكريم

قلنا سابقاً: إن الإنفاق شُرِّع في القوانين والشرائع لسد النقص الذي يحصل

بسبب سوء التوزيع، ولنأخذ الآن بعض آيات الإنفاق، ونحاول أن ننتهي إلى شيء مما يستفاد منها:

١ـ قال تعالى: ﴿قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾[1]، فقوله تعالى: ينفقوا، أمرٌ بالإنفاق.

وفي القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي ـ الكثير من الآيات التي تأمر المسلمين بالإنفاق، وتحثهم عليه، سراً وعلانية، وقد كان الإمام السجاد عليه السلام يحمل جراب الدقيق، ويطوف على بيوت الفقراء في المدينة، ولم يكن أحد يعرف ذلك، حتى توفي، وانقطع عنهم ما كان يصل إليهم. وهذا من صدقة السر.

وقد يكون الإنفاق علانية، كما إذا كان هناك مشروع فيه مصلحة للمسلمين، وكانت المساهمة العلنية فيها مصلحة، فلا بأس بالإعلان في الصحف أو وسائل الإعلام، أو أن يُكتب اسم المنفق على المورد الذي ساهم فيه.

فالقرآن الكريم يوجب علينا الإنفاق، لسد النقص وتلبية الحاجات.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2] وهذا هو الفرق بين الأنظمة الإلهية والأنظمة غير الإلهية، ففي الأنظمة غير الإلهية لا يترتب على الإنفاق ثواب، أما في الأنظمة الإلهية فيترتب عليه الثواب الأخروي، فأنت تنفق أداءً للواجب تجاه الدولة أو المجتمع أو الأفراد، وبالتالي فلا تنتظر الشكر على الواجب، إنما ترجو الثواب عليه. بل إن الإنفاق الواجب، كالخمس والزكاة، حتى لو أُخذ من الفرد قسراً من قبل الدولة، يكون في مقابله ثواب أخروي. وهذه ميزة الأنظمة الإلهية على الأنظمة الأخرى.

---

(١) إبراهيم: ٣١.

(٢) الحديد: ٧.

٣ - آية أخرى تقول: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1] ويلاحظ هنا أن الوفاء مطلق، فربما يكون في الدنيا أيضاً، لأن الآية الشريفة لم تحدد أنه في الآخرة فقط.

٤ - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وهذا الأمر يسمى في الاقتصاد بتجميد الأموال، فهناك من يملك الملايين المودعة في البنوك، ولا يستثمرها في مشروع تجاري أو صناعي أو زراعي أو غير ذلك، لينتفع هو من المال، وينتفع الآخرون أيضاً، لكن بعض الناس، قد يكون بدافع الأنانية، لا يريد أن ينفع الغير، وبعضهم بدافع الخوف، حيث يتصور أنه لو فتح مشروعاً فسوف يخسر وتذهب أمواله. مع العلم أننا نؤمن أن الرزق من الله، ويجب أن لا يكون لدينا خوف.

فالقرآن الكريم يحرم تجميد الأموال وإيقافها عن التداول، لأن هذا التجميد سوف يحرم الناس من حقوقهم، لأن لهم حقاً فيها. وفي بعض دول العالم تُلزم القوانين أصحاب الأموال بتشغيلها، وإلا فإن الدولة تأخذها قهراً وتستثمرها لحساب صاحب المال.

فمعنى يكنزون يدّخرون، لأن الادخار قديماً كان في الكنوز، إذ لم تكن هناك بنوك، تودع فيها الأموال، فهناك من يدّخر الأموال ولا يتركها تتحرك وتتداول من يد إلى يد لينتفع بها الناس، وهذا محرم صراحة وبلهجة شديدة.

أما وجه الإنفاق الذي نصت عليه الآية فهو سبيل الله ﴿وَلا يُنْفِقُوْنَهَا فِي سَبِيْلِ الله﴾ وسبيل الله معنى عام، تدخل فيه الصدقات وإعطاء المحتاجين والحقوق الواجبة، كالزكاة والخمس وأمثالها، كما يدخل أيضاً تشغيل الأموال

(١) البقرة: ٢٧٢.
(٢) التوبة: ٣٤.

لفتح المشاريع، التي ينتفع بها الناس.

٥- قال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً﴾[١].

كلمة الأعراب وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ويراد بها أبناء البادية، لكن المراد هنا ربما يكون أضيق دائرة من هذا المعنى، فالأعرابي هو من يعلن إسلامه بذكر الشهادتين، ولا يطبق أحكام الإسلام على نفسه، بل يتهرب من تطبيقها، فلا ينفق إلا لمصلحة دنيوية، وهذا هو معنى مغرم.

فالقرآن الكريم لا يريد هذا النوع من الإنفاق، إنما يريده في سبيل الله، ولأجل المصلحة الأخروية. فهناك سببان للإنفاق:

الأول: رجاء الثواب الأخروي، وهو الأصل في دوافع الإنفاق، فمن يعطي الفقراء والمحتاجين يرجو ثواب الله.

الثاني: كي لا يتحول الفقر إلى ظاهرة اجتماعية، ثم إلى مشكلة تترتب عليها عواقب غير حميدة.

٦- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[٢] وهذه دعوة للاعتدال في الإنفاق، بحيث لا يؤدي إلى التقتير، وحرمان النفس والأسرة والمجتمع من حق العيش الكريم، فهذا نوع من السرقة، وهو حرام. كما أنه في الطرف المقابل، وهو الإسراف، يكون الهدر والتضييع للثروة والحقوق، لأنك لو أعطيت أكثر من الحاجة فقد أهدرت المال الزائد، ومنعت محتاجاً آخر قد ينتفع به.

---

(١) التوبة: ٩٨.

(٢) الفرقان: ٦٧.

فمن الواجب الاعتدال في الإنفاق، بلا زيادة ولا نقص، في البيت أو خارج البيت.

وهناك آيات أخرى كثيرة تحث على الإنفاق، وتأمر به، لا أظن أننا بحاجة إلى استعراضها.

الأسئلة

س١: فضيلة الشيخ، ذكرتم أن الشيوعية الماركسية تدعو إلى توزيع الثروات، وأنها دعوة مثالية. فماذا يقصد من توزيع الثروات؟ وما هو وجه المثالية فيها؟

الجواب: الشيوعية كفكرة قديمة تمتد إلى حدود زمن الإغريق، ولكن لم يقدّر لها أن تبرز إلا من قبل كارل ماركس، وقد كان ماركس يهودياً ألمانياً، والمعروف أن معظم المشاكل التي صبت على الناس جاءت من اليهود، فقد كان كل من كارل ماركس وداروين وفرويد وأدلر من اليهود، وقد جاء كل من هؤلاء بفكرة ما عصفت بالعالم كله.

لقد انتقل كارل ماركس من ألمانيا إلى بريطانيا، والتقى هناك بإنجلز، واتفقا على نشر الفكرة الشيوعية انتصاراً للعمال، وقد كان النظام آنذاك هو الرأسمالية، والمجتمع الرأسمالي يعني المجتمع الصناعي الذي يستعمل الآلات الثقيلة، حتى لو كان استعمالها في المجال الزراعي.

ففي رأي كارل ماركس، أن النظام الرأسمالي يستغل جهد العامل، وقد توصل إلى هذه النظرية بعد أن درس نظرية أستاذه ريكاردو، وهو عالم من علماء الاقتصاد، له نظرية اقتصادية تسمى بنظرية القيمة، فأضاف كارل

ماركس إلى هذه النظرية، ما أسماه بنظرية فائض القيمة.

لنفترض مثلاً أن هناك مصنع أحذية، فيه عشرون ألف عامل، ينتج يومياً كمية من الأحذية، فلو حسبنا كلفة الحذاء الواحد، من المادة التي صنع منها كالجلد والمقوى والخيوط أو المسامير، ورأينا أنه كلف عشرة ريالات مثلاً، ثم بعناه للمستهلك بعشرين ريالاً، معنى ذلك أن هناك عشرة ريالات سوف ترجع إلى الرأسمالي صاحب المصنع، لأنه هو الذي اشترى المادة الخام التي صنع منها هذا الحذاء، فكم يصل للعامل من هذه العشرة؟ سوف يصل إليه ريالان منها مثلاً، وثمانية لصاحب المصنع. هذه الثمانية في رأي كارل ماركس هي فائض القيمة، أي أنها زادت من قيمة الحذاء، وهذا الزائد إنما هو قيمة العامل، لأن الحذاء تكوّن من شيئين: المادة الخام، وعمل العامل، فإن كانت المادة الخام كلفت عشرة ريالات، فالمفروض أن العشرة الثانية تكون للعامل، لكن صاحب المصنع أعطى العامل اثنين وأخذ ثمانية، وهو بذلك أخذ الزائد والفائض من القيمة.

من هنا فإن كارل ماركس يرى أن صاحب المصنع قد استغل جهد العامل، فرأى أن يقضي على هذه المشكلة المزعومة، بالدعوة إلى الاشتراكية، وهي مرحلة أولى من الشيوعية، تقوم على أساس مبدأ معروف عندهم (من كلٍّ حسب طاقته، ولكلٍّ حسب عمله) فأنت تعطي بمقدار طاقتك، وتأخذ بمقدار عملك. وبهذا نسترجع فائض القيمة، لنعطيه للعامل.

هذا هو رأي ماركس باختصار. فلو وقفنا قليلاً مع هذا المبدأ الشيوعي (من كلٍّ حسب طاقته) لرأينا أن الفرد يعمل حسب قدرته في المزرعة والمصنع والمتجر والمعهد، (ولكل حسب عمله) أي أنه يأخذ من الثروة حسب حاجته، وهذا يعني أن الرز والدقيق والسمن وغيرها يجب أن لا تباع في الأسواق،

إنما توضع أكواماً، ويأتي كل فرد ليأخذ بمقدار حاجته، وبالتالي يجب أن نأتي بإنسان مثالي، يشاهد أمامه ما لذّ وطاب، فيأخذ بمقدار الحاجة.

لذا نقول: إنها نظرية مثالية، أي أننا نحتاج أن نخلق بشراً آخر غير هذا، ونعطيه لكارل ماركس ليطبق شيوعيته عليه. فليس لدينا اليوم بشر مثاليون، إلا أن ننزل جنة المتقين إلى الأرض.

فهي إذن فكرة عقيمة، غير قابلة للتطبيق، لذا صارت فيها طفرات كثيرة، وملابسات وأخيراً انتهت الاشتراكية، وانمحت معها الشيوعية.

س٢: فضيلة الشيخ، استطراداً في حديثكم عن الإنفاق، نلاحظ أن آيات عديدة ورد فيها ذكر الجهاد بالمال مقدماً على النفس، مما يشير إلى أهمية المال في تقرير قضايا حاسمة، نرجو إلقاء الضوء حول هذا المفهوم.

الجواب: قلت: إن آيات الإنفاق في القرآن كثيرة، وإذا أردنا أن نستعرضها كلها فلا يسعنا الوقت، ولا تكفينا ليلة واحدة، لما للموضوع من أهمية كبيرة. ولكن انظر أنت أيها السائل إلى بعض المجتمعات الأخرى التي تعتمد على الإنفاق في تطوير المجتمع، خذ مثلاً بريطانيا، هناك طائفة شيعية، كانوا في الأصل إسماعيلية ثم أصبحوا جعفرية إمامية يسمون (الخوجة) يعمل أكثرهم في التجارة، لديهم مشروع يسمى اقتصادياً بمشروع الفلس، وهو أن يؤخذ من كل فرد مقدار قليل من المال، ثم يجمع وينفق في مشروع يعود بالفائدة على الجميع، كإنشاء عمارة، تؤجّر وتدر أرباحاً، ثم تؤخذ هذه الأرباح وتقسم، فمنها ما يكون لسد حاجة المحتاجين، ومنها ما ينفق في مشروع آخر فيه ربح وفائدة. وهكذا أصبحت لديهم الآن مشاريع كثيرة، مدارس ومعاهد ومصانع، وفي ليالي شهر رمضان يولمون في كل ليلة لألف من الصائمين، من هذا المشروع البسيط.

فلو أننا أحسنّا التصرف في المال، ونظمناه، واستفدنا من تجارب وخبرات الآخرين، لكنا في حال آخر.

فالمشكلة أننا وإن كنا ننفق، إلا أننا ننفق في مشاريع لا أرباح فيها، ففي بعض الأحيان قد يعطي المنفق خمسمائة ألف، في مجال لا يدر أرباحاً، فتنتهي هذه الأموال، صحيح أنها سدت حاجة، لكنها انتهت، وكان من الممكن أن نستفيد منها في مشروع يدر أرباحاً، ثم نقوم بسد الحاجة من تلك الأرباح، وهكذا ننمي المال.

فالمال له أثر كبير في تطوير المجتمع اقتصادياً، فإذا أردنا أن نرفع من المستوى الاقتصادي فعلينا أن نتجه إلى المشاريع ذات الأرباح، ونقضي على هذا اللون من التسكع والحاجة والتخلف والفقر، ومن أراد متابعة هذه القضايا فهناك الكثير من النشرات والكتب والمجلات التي تتحدث عن التجارب التي مر بها الآخرون، ومن الممكن أن نستفيد منها.

س٣: فضيلة الشيخ كيف يكون توزيع الدولة على الأفراد من الثروات طبقاً للنظام الإسلامي؟ فهل أن هذه الأموال التي هي ملك للأمة، مستحقة لكل فرد؟

الجواب: لا ليس كذلك، فقد قلت سابقاً: إن الدولة تتصرف فيها في مصالحها، والدولة لها مصالح كثيرة، أما ملكية المسلمين، مثل ضريبة الخراج وحق الخراج، فهذه توزع على المسلمين بالسواء، هذا أمر مفروغ منه. وأما الثروة الأخرى، وهي ملكية الفرد، فهذه لا تعطى إلى الفرد اعتباطاً ومجاناً، إنما لا بد من العمل، يقول تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾[1] ولم يقل: اجلسوا، فلا بد للإنسان من العمل، من أجل أن يحصل على الرزق،

(١) الملك: ١٥.

ليسد حاجته وإذا كان هذا العمل لا يحقق له الحياة الكريمة، فإن على الدولة أن تعطيه، إما عن طريق ما يسمى بالضمان الاجتماعي، أو عن طريق الإنفاق الذي يأتي من الناس، أو عن طرق أخرى، فيوصل إليه حقه بهذه الكيفية. ومثل ذلك ما إذا أراد أن يعمل، لكن فرص العمل غير مهيأة له، فعلى الدولة أن تهيئ فرص العمل وتقضي على البطالة، فإن لم يكن لديها مال ـ كما نجد في بعض الدول ـ فإنه يمكنها أن تقترض من البنوك الدولية، وتنشئ المصانع، وتشغل العاطلين، فتكون بذلك قد هيأت لهم فرص العمل، ومعنى ذلك أنها أوصلت إليهم حقهم من ثروة البلد.

س٤: فضيلة الشيخ، ما هي الكتب التي كتبت في الاقتصاد الإسلامي، والتي يمكن الاستفادة منها في بناء الاقتصاد الإسلامي في الأسرة والمجتمع؟

الجواب: موضوعات الاقتصاد الإسلامي، وإن كانت تبحث في كتب الفقه سابقاً، كما في كتاب الزكاة وكتاب الخمس وأحكام النفقات على الزوجة والأبناء والأبوين العاجزين، وغير ذلك، وكذلك الصدقات المستحبة، إلا أنها لم تدرس على أساس اقتصادي، إنما درست وفق منهج فقهي، أما علم الاقتصاد فهو من العلوم الحديثة التي نشأت في هذا القرن، وأصبح له وزنه كعلم في القرن العشرين خصوصاً.

وأما الكتب التي كتبت في الاقتصاد، فكلها في الاقتصاد الرأسمالي، وعندما ظهرت الاشتراكية، كتب عن الاقتصاد الاشتراكي، ولو رجعنا إلى قوائم عناوين الكتب التي ألفت في الاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي، لرأينا أنها بمئات الألوف، خاصة الاقتصاد الرأسمالي. أضف إلى ذلك المجلات العلمية الاقتصادية الكثيرة.

أما الاقتصاد الإسلامي فلم يقدر له أن يكتب ويؤلف فيه، وبقينا في

الجامعات نعتمد في المقارنة بين الاقتصادين الرأسمالي والاشتراكي على ما ألفه أصحاب النظريتين فيهما، إلى أن ألف الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) كتابه المعروف باقتصادنا، واستطاع من خلاله أن يطلع العالم كله على الاقتصاد الإسلامي، وقد ترجم إلى الإنكليزية والفارسية والأوردو، وبهذا استطاع رحمه الله أن يوضح المذهب الاقتصادي في الإسلام.

تعدد السبل.. والسياق الحضاري الإسلامي

قبل أن ندخل في صلب الموضوع، نحاول أن نستوضح المراد بالسّبل في هذا السياق وهذا الصدد.

ما هي السبل:

السُّبُل: جمع سبيل، ونعني به هنا الطريقة التي يتبعها الإنسان في سلوكه وتعامله مع الآخرين، سواء كان ذلك الإنسان فرداً أم جماعةً أم أمةً أم دولة.

فالطريقة التي تُتبع في توجيه السلوك تُسمى (السبيل). وهذه التسمية مأخوذة من القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

فالله تعالى يقول: ﴿قل هذهِ سبيلي﴾ حيث عبّر عن الطريقة التي كانَ يتبعها النبي ﷺ في الدعوة إلى الله بالسبيل.

أما تعدّد السُّبُل فهو من أهم موضوعات الساعة، ومن الموضوعات التي هزّت العالم هزاً عنيفاً ولا تزال تهزه.

وقد كتب حول هذا الموضوع الشيء الكثير، وأُلقيت المحاضرات الكثيرة، وكل ما نجدهُ الآن من اضطراب في العالم، ومن عدم استقرار، ومن الضحايا التي تذهبُ في سبيل الحق أو في غير سبيل الحق، والدماء التي تُراق في سبيل إعلاء كلمةِ الله، أو في غير هذا السبيل، كلها نابعة من هذا الموضوع.

(١) يوسف: ١٠٨.

فلهذا الموضوع أهميته الكبيرة الآن، وفي هذا الظرف العالمي الذي نعيشه.

فماذا يُراد بتعدد السبل؟ أو ماذا يراد بالسبيل في لغة هذا العصر، وفي لغة السياسة، أو لغة الاجتماع، أو الإعلام ؟

المراد من السبيل في هذه المجالات أحد معنيين، وقد يقصدون المعنيين معاً.

المعنى الأول: هو (النظام) الذي ينظم حياة الناس، سواء ما كان منه من قِبل الله تعالى، أم ما يوضع من قِبل الدولة لينظم حياة الناس.

فهل من الأفضل أن يكون للناس نظامٌ واحد ؟ أو يكون لهم أنظمه متعددة؟ هذا هو الجانب الأول. وهناك خلاف كبير بينَ المفكرين في مختلف المجالات التي أشرتُ إليها.

فبعضهم يذهب إلى أنه لا بدَّ من نظام واحد، والدعوة الآن قائمة إلى النظام العالمي الواحد، وبعضهم يذهب إلى تعدد الأنظمة.

المعنى الثاني: هو الحضارة، فالسبيل هو الحضارة، فهل نكتفي بحضارة واحدة، بمعنى أنه لا بد للعالم من حضارة واحدة فقط ؟ أو يجوز تعدد الحضارات؟

الحضارة والمدنية:

من المصطلحات والمفاهيم الاجتماعية، التي تسربت من علم الاجتماع إلى مختلف العلوم الأُخرى مفهوم الحضارة، ومفهوم المدنيّة، ومفهوم الثقافة. وهناك تعريفات متعددة لكل واحد من هذهِ المفاهيم، ولكن نستطيع أن نستخلص معنى كل مفهوم من هذهِ المفاهيم من خلال مجموعة التعريفات التي تذكر لذلك المفهوم.

فالثقافة: يُراد بها (العلوم، والآداب، والفنون)، أي أننا عندما نقول: ثقافة، يـراد من ذلـك العلوم على اختلاف ألوانهـا وأنماطها، إنسـانيةً، وطبيعية وغير ذلك.

ويراد منها الآداب أيضاً، وكذلك الفنون بكل أنواعها.

أما (الحضارة) فهي أوسـع من الثقافة، وتشـتمل عليهـا، فالعلوم والآداب والفنـون، تعتبر جـزءاً من الحضارة أيضـاً، يضاف إليها القوانـين، والأنظمة، والتشريعـات. كـما تدخـل في الحضـارة أيضاً الأعـراف والتقاليـد الاجتماعية الموجـودة عنـد النـاس، فهذهِ تدخـل ضمن الحضـارة، وبذلك يكـون مفهوم الحضارة أوسع من مفهوم الثقافة.

وأما (المدنية) فيُراد منها الجانب المادي من الحياة.

فالثلاجة مثلاً كجهاز تبريد تعتبر من مظاهر المدنية، أما الفكر الذي أنتجها، أو الفكر الذي استُخدِمَ في تصنيعها فهو حضارة.

وهنـاك فرق كبير بـين الفكر وبين المادة، فالجوانـب المادية في الحياة هي من المدنيـة، كهذه المنضدة التي نجلس عليها، فهي من المدنية، وهذا البناء كذلك، وهكذا في جميع الجوانب المادية في الحياة. أما الجوانب المعنوية فهي من نصيب الحضارة، والحضارة ـ كما قلت ـ أوسع من الثقافة.

ما معنى النظام؟

إذن، ما هو الفرق بين النظام وبين الحضارة ؟

بعد أن فسرنا السـبيل من خلال العنوان لا بد أن نتساءل: ما هو الفرق بين النظام والحضارة؟

النظام: هو التشريع والقانون الذي يُستخدم لتنظيم حياة الناس.

فكل دولة من الدول لها قانون أو دستور، ينبثق عنه مجموعة من الأنظمة، أو ما نسميها (التشريعات).

والتشريعات في العالم إما أن تكون من الله، كما في الإسلام، وتسمى بالتشريعات الإلهية، أو الأنظمة السماوية، أو التشريعات السماوية. أو أن تكون من وضع المشرِّعين والمقننين من الناس، وتسمى بالقوانين الوضعية أو الأنظمة الوضعية، على اختلاف في التسمية والتعبير.

وقد ذكرنا سابقاً أن الحضارة تشمل التشريع وما هو أوسع منه، كالثقافة، والأعراف، والتقاليد، والعادات، وغيرها.

إذن لا بد أن نحاول معرفة الرأي الصواب، في أن يكون للعالم نظام واحد يُكتفى به، أو يُسمح بتعدد الأنظمة؟ ومن جانب آخر، هل يكون للعالم حضارة واحدة يخضع لها جميع أبناء البشر، أو يُسمح بتعدد الحضارات؟.

بتعبير آخر، إذا كان هناك عدة أنظمة ـ كما هو الموجود الآن ـ وكل دولة لها نظام، فهل أن العلاقة بين هذه الأنظمة علاقة صراع أو علاقة تعايش؟

إننا ندرك بلا شك أن لكل أمة من الأمم حضارة، فللهنود حضارة، وللصينيين حضارة، وللغربيين حضارة، وللمسلمين حضارة. فهل أن العلاقة بين هذه الحضارات الموجودة هي علاقة صراع أو تعايش؟

من المؤكد أننا عندما نقول إنها علاقة صراع ـ كما سنستفيد هذا من بعض الآراء لبعض المفكرين المعاصرين ـ فهذا يعني أنه لا بد وأن ينتهي هذا الصراع إلى بقاء الأصلح أو بقاء الأقوى، وعادة ما تكون نهاية الصراع بقاء الأصلح أو بقاء الأقوى.

إقليمية وعالمية الحضارات:

يمكن أن نقسم الحضارات في العالم إلى قسمين:

١ - الحضارات الإقليمية: وهي تقتصر على مجتمعها وعلى أمتها، كحضارة الهنود، فهي حضارة إقليمية، بما فيها من أنماط الفكر والفن والأدب وغيرها. وكذلك الحضارة الصينية.

٢ - الحضارات العالمية: ومن أمثلتها الحضارة الإسلامية، والحضارة الغربية.

أما ما هو الفرق بين الحضارة الإقليمية والحضارة العالمية في عالم التطبيق، فهو أننا عندما نقول: حضارة عالمية، فهذا يعني أن تلك الحضارة لها من المقومات ما يساعدها على أن تكون الحضارة الوحيدة للعالم كله.

فنحن نؤمن كمسلمين، أن الإسلام جاءَ لجميع البشر، فالحضارة الإسلامية بهذا الاعتبار حضارة عالمية، أي من الممكن أن تكون هي الحضارة الوحيدة للعالم كله.

وكذا الحال في الحضارة الغربية، فإن القائمين عليها يذهبون أيضاً إلى أن تلك الحضارة فيها من المقومات ما يساعد على أن تكون حضارة العالم كله.

ومن جهة أخرى تتصنّف الحضارات في واقع صراعها إلى صنفين أيضاً، فهناك حضارة فيها قابلية الانهزام والضعف والخمول، وحضارة فيها قابلية الصمود والتحدي.

وكمثال على ذلك، أن بلاد الشام المعروفة، التي تضم اليوم سوريا والأردن ولبنان وفلسطين، كانت خاضعة للسّريان، وهم قوم معروفون لهم حضارتهم، وقد نزل الإنجيل بلغتهم السريانية. ولكن عندما جاء الإسلام ودخل إلى

الشـام، انهزمت أمامـه الحضارة السريانيـة وضعُفت، فاللغـة السريانية طغت عليهـا اللغـة العربية وقضـت عليها، حتى أصبحت بلاد الشـام مـن أولها إلى آخرها لا يوجد فيها من يتكلم السريانية (كلغة أصلية، لا كلغة مكتسبة).

فالحضارة السريانية لم تسـتطع الصمود أمام الحضارة الإسلامية، فانهزمت وضعفت.

مثال آخر أيضاً، الصراع الذي يقوم عادةً بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فالحضـارة الغربية عندما دخلت بلاد المسـلمين دخلت كحضارة غازية، ومن طبيعـة الحـال أن يقوم الصراع بينهـا وبين الحضارة الإسـلامية، لكن الملاحظ أن الحضـارة الغربية لم تسـتطع أن تهزم الحضارة الإسـلامية، وبقيت الحضارة الإسـلامية تعيش في بلاد المسلمين، وتهيمن على الكثير من جوانب الحياة عند المسلمين، أي أن الحضارة الإسلامية صمدت وتحدت الحضارة الغربية[1].

موقع الإسلام من صراع الحضارات:

لو نظرنا إلى واقع العالم الآن، وموقف المفكرين في العالم من تعدد السبل أو وحدتها، ومـن أحادية الحضارة أو تعددها، ووحـدة النظام أو تعدد الأنظمة، لرأينا أن هناك صراعاً في العالم كان دائراً بين العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي، أي بين الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية من جهة، وأمريكا وأوربا الغربية من جانب آخر، وبسبب هذا الصراع أنشئ حِلف الأطلسي أو (حلف الناتو) سنة ١٩٤٩، الـذي كان يضـم الولايـات المتحدة الأمريكيـة، ومجموعة من الدول الأوربية، وتركيا من الدول الشرقية، وكانت من أبرز أهدافه تسـوية النزاعات التي تحصل بين أعضائه.

---

(١) وأقول: (تحدّت) لأن هناك نتائج كثيرة، سأُشير إليها لاحقاً، حصلت بسبب هذا التحدي.

ومن أهدافه أيضاً: (الدفاع المشترك) وهو أهم أهدافه. فعندما يُعتدى على دولة من الدول الأعضاء، تشترك كل الدول الأعضاء في الدفاع عن تلك الدولة.

ومن أهدافه أيضاً: بذل المساعدات المالية المتبادلة بين الدول الأعضاء.

ويتألف حلف الناتو عادةً من مجلس وأعضاء، وهم إما وزراء خارجية تلك الدول، أو وزراء دفاعها، أو مندوبون دائمون في المنظمة، وكان مقر الحلف في باريس، ثم أصبح في أماكن أخرى من الدول الأعضاء.

وحتى عام ١٩٩٠م بعد سقوط الإتحاد السوفيتي، كان الحلف نشطاً وفاعلاً، ومارس دوراً كبيراً في إسقاط الإتحاد السوفيتي، وفعلاً سقط الإتحاد السوفيتي. وبعد سقوط الإتحاد السوفيتي، لعبت الصحافة دورها في هذا المجال، وأكثر ما كانت المقابلات الصحفية تجرى مع دول هذا الحلف.

ومن المقابلات الصحيفة ما أجرته صحيفة نيوز ويك الأمريكية المعروفة مع رئيس أعضاء الحلف في سنة ١٩٩٠م وهو ديليكس، حيث وجهت إليه السؤال التالي:

ما هي مبررات بقاء هذا الحلف بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ؟ فمن المؤكد أن هذا الحلف أنشئ للوقوف في وجه الإتحاد السوفيتي، وأن يعمل على إسقاط المعسكر الاشتراكي.

فكان جوابه كالتالي[1]: **صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي.**

---

(١) هذا هو نص الترجمة للجواب، وليس تصرفاً مني في مضمونه، لأن الموضوع حساس ولا بد أن يكون في النقل دقيقاً.

فهو يرى أن مبررات بقاء الحلف لا زالت قائمة، لأن مهمته وإن انتهت من جانب إلا أنها بدأت من جانب آخر. فلا بد أن تبقى تلك المنظمة لتدخل عالم الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

ولكي يصل الصحفي السائل إلى هدفه سأل سؤالاً آخر: كيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟

أي أن المواجهة سوف تحدث - حسب التقدير والتوقع - بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، فكيف يمكن للعالم الغربي أن يتجنب هذه المواجهة، أو يتخلص منها؟

أجاب ديليكس: **ينبغي أن تحل أوربا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبيةً وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم.**

فالخطوة الأولى في نظره أن تُحل المشكلات الموجودة في أوروبا وتُترك المشكلات الموجودة عند المسلمين.

وبطبيعة الحال، إذا أردنا أن نقارن بين مجتمع ليس فيه مشاكل ومجتمع فيه مشاكل سنفضّل المجتمع الذي ليس فيه مشاكل.

ثم يقول ديليكس: **وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي، فإن العالم سيصبح في منتهى الخطورة.**

يقول: إذا لم تستطع أوروبا أن تحل مشكلاتها وتقدم النموذج الغربي الأمثل، أو أنها استطاعت أن تحل مشكلاتها وأن تقدم النموذج الغربي الأمثل، ولكن بقيت الحضارة الإسلامية على صمودها وتحديها، فليس هناك إلا الحرب، للقضاء على الحضارة الإسلامية.

إذن هذه رؤية يقدمها أحد المفكرين السياسيين في هذا المجال، ويدعو

إلى آخر الدواء (الكي) كما يقول المثل العربي. فالعلاج عنده أن تقوم الحرب العالمية للقضاء على الحضارة الإسلامية.

وإليكم رأياً آخر من آراء المفكرين الأمريكيين، وهو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق (نيكسون)، حيث ألف كتاباً بعنوان (الفرصة السانحة) وقد تُرجم إلى اللغة العربية، وطبع في مصر، ونُشر عن طريق دار الهلال. كما تُرجم إلى مختلف اللغات، لأنه يُعتبر وثيقة سياسية مهمة، وكتب حوله الشيء الكثير، وأوجد هزة عنيفة في الفكر السياسي العالمي.

ويبدو أن الرجل كان عنيفاً في طرحه للحلول وللمقترحات.

يقول نيكسون: **لأجل أن ينهض العالم الإسلامي[1] أمامه ثلاثة خيارات: خياران ليسا في صالح الغربيين، وخيار واحد في صالح الغربيين.**

ثم يضع عناوين محددة لتلك الخيارات وكما يلي:

الخيار الأول: الرجعية، وهو ـ حسب رأيه ـ أن يرجع المسلمون إلى الدعوات القومية، فيدعو العرب للقومية العربية، والفرس للقومية الآرية، وهكذا.

فمن خلال الدراسات التي أُجريت على واقع الدعوات القومية التي كانت قبل فترات قصيرة، ثبت أنها كانت دائماً تصاب بنوع من التعصب والتشنج، وتعتمد الجانب العاطفي، (الانتماء) فنحن عرب، ولا بد أن ننتمي إلى العرب، سواء كان العرب في القمة أم لم يكونوا.

يقول الشاعر العربي:

وما أنا إلا من غزّيةَ إن غوت غويتُ، وإن ترشُد غزيةُ أرشُد

(١) إنه يؤمن بأن العالم الإسلامي عالم متخلف، وهذا رأي الغربيين عموماً.

فهو مع غزية في خيرها وشرها، فإن كانت في غواية وضلال، فهو معها، والعكس بالعكس. وهذا منطلق عاطفي لا علاقة له بالعقلانية.

وهذا الخيار بالتأكيد ليس في صالح الغربيين فمن الخطر عليهم أن يكون الشرقيون دعاة قوميات، وفي الوقت نفسه ليس في صالح الشرقيين.

الخيار الثاني: الأصولية الإسلامية، وهو ما نسمعه ونقرأه اليوم، وصار يملأ صفحات الكتب والصحف ووسائل الإعلام.

ومعنى الأصولية: أن يرجع كلٌّ إلى أصله.

والغربيون - مع الأسف - لا يريدون أن يفهموا أن الإسلام كدين، فيه نظام عام للحياة ويبقى إلى يوم القيامة، فهذا لا يدركونه. وقد يقرؤون ذلك، لكنهم لا يدركونه جيداً.

فإذا دعونا إلى الإسلام، وأردنا أن نطبقه في مجتمعاتنا ودولنا، ورجعنا إلى الأصل، وهو عصر النبي محمد ﷺ كان هذا منتهى الرجعية في نظرهم، ومنتهى التخلّف، فمن المفترض أن نتقدم، ونغير ونبدل ونتطوّر، لا أن نرجع إلى عهد البداوة، ونعمل بموجب النظام الذي كان في عهد البداوة. هذا هو معنى الأصولية عندهم.

يقول نيكسون: لو تركنا المسلمين، يأخذون بأصوليتهم، فإن النتيجة أن الشريعة الإسلامية، ستكون هي النظام العالمي الوحيد، وسيّدة العالم، وهذا ليس في صالح الغربيين.

الخيار الثالث: التقدّم.

فهناك نموذج أمثل للحياة الفُضلى - في نظر نيكسون - يتمثل في النموذج التركي، فقد كانت تركيا بلاداً إسلامية أيام العثمانيين، حكومةً وشعباً، ثم

جاء أتاتورك وألغى الحكم الإسلامي، وحوّلها إلى الحكم العلماني، أما الشعب التركي فهو شعب مسلم، ولا يزال مسلماً، أما الحكومة التركية فهي حكومة علمانية.

يتصور (نيكسون) أن تركيا إنما وصلت إلى أوج التقدم، عندما رفضت الإسلام، وأخذت بالعلمانية، وبالتالي فإنه يقدمها لنا كنموذج يبين لنا فيه كيف أن الحضارة الغربية رفعت مستوى تركيا، فعلينا أن نترك حضارتنا الإسلامية، ونأخذ بالحضارة التركية، على حسب زعمه، ونكون مثل تركيا. يعني أن نستجدي كما تستجدي تركيا الآن!.

ثم يشير إلى أمر آخر في غاية الأهمية، فيقول: **مع تقديم هذا النموذج الأمثل الذي تَمَثَّل في الحياة الفاضلة ومجتمع تركيا، إلا أن المسلمين باقون على صمودهم، يتحدَّون الحضارة الغربية، ولا يريدون إلا الإسلام.**

فإذا كان الأمر هكذا، فما هو الموقف ؟ ينتهي (نيكسون) إلى ما انتهى إليه ديليكس، فيقول: الموقف هو الصراع، وتصفية الحضارة الإسلامية.

ومعنى ذلك أنه يؤمن أيضاً بالحضارة الواحدة، وهي الحضارة الغربية، والنظام الواحد، وهو نظام العلمانية، الذي لا يؤمن بالدين كنظام.

ومن الآراء التي طرحت في هذا المضمار، أن هناك مجلة اسمها « الشؤون الدولية» أو «شؤون دولية»، تصدرها جامعة كمبرج، وهي إحدى الجامعات العريقة في العالم، ومن الجامعات البريطانية البارزة. وعادةً ما تحتوي المجلات الأكاديمية عندهم على دراسات وملفات خاصة نسميها نحن بـ (العدد الخاص) ويسمى عندهم (الملف)، أي أن عدداً ما من المجلة يكرس من أوله إلى آخره في موضوع واحد، ويكتب فيه كُتّاب مختلفون.

وقد صدر من هذه المجلة عدد خاص حول (الإسلام، والمسيحية، والماركسية) فكانت هنالك أبحاث كُتِبت عن الإسلام وعن المسيحية وعن الماركسية. ومن المؤكد أن أولئك الكتاب لا يكتبون عن أمور نظرية لا تمتّ إلى الواقع بصلة.

هناك نظرية في علم الاجتماع تقول: إن المجتمعات الصناعية لا تؤمن بالله، ونعني بالمجتمعات الصناعية تلك التي توجد فيها الصناعات الثقيلة، كصناعة السيارات والبواخر والطائرات وغيرها.

يقول علم الاجتماع: إن أي مجتمع من المجتمعات، إذا تحول إلى مجتمع صناعي فإنه لا يؤمن بالدين.

يقول رئيس أندونيسيا الأسبق سوكارنو، وهو ذو ميول ماركسية اشتراكية[1]: إذا استطعنا أن نحول أندونيسيا الزراعية إلى الاعتماد في زراعتها على الآلات الحديثة، بمعنى أن الفلاح لا ينتظر المطر، ولا يصلي صلاة الاستسقاء، إنما يأتيه بالماء بوساطة مضخة تسحب الماء وتسقي، فإننا نستطيع أن ننتزع الإيمان بوجود الله من نفوس المسلمين.

هكذا كان يتصور، إلا أن الواقع ليس كذلك.

فهذا الرجل يرى أن الفلاحين المسلمين إنما آمنوا بالله لأن رزقهم يتوقف على المطر، فهو يسقي الأرض، فتنبت الزرع، ويعيش الإنسان، فكان الفلاح يؤمن بأن من يبعث المطر قوة غيبية، وهو الله تعالى، فإذا جعلنا المكائن والمضخات تتولى الأمر، عندئذٍ لا مكان ولا معنى للعقيدة بالله ـ حسب زعمه ـ لأن الجيل الجديد لا يجد إلا المضخة التي صنعها الإنسان.

---

(١) أندونيسيا بلاد إسلامية، وتعتبر اليوم من أبرز البلدان ذات الأهمية الاقتصادية في العالم، خصوصاً في مجال الزراعة.

وهكذا كان علماء الاجتماع يتصورون، وبالتالي فإنهم يعتقدون أن المجتمعات إذا تحولت إلى مجتمعات صناعية، واستطعنا أن نوجه وسائل الإنتاج الضخمة في العالم، فإننا نقضي على العقيدة الإلهية وعلى الدين.

ولكن، من خلال الدراسات التي أجريت في هذه المجلة وأمثالها، ومن خلال متابعتهم لوسائل الإنتاج عندما تدخل إلى بلداننا نحن المسلمين، شاهدوا أن تلك المضخات الضخمة، والطائرات والسيارات وغيرها لم تستطع أن تغير في عقيدتنا شيئاً. فلا زلنا نصلي صلاة الاستسقاء، لأن إيماننا بالله موجود، وأخيراً رأوا أن تلك النظرية التي وضعت، وبنوا على أساسها مستقبلهم السياسي، بأنه سوف يقضى على الحضارة الإسلامية بعد انتشار وسائل الإنتاج الضخمة، قد انهارت واندثرت.

والنتيجة: هي صمود الحضارة الإسلامية، وتحديها للحضارة الغربية، فلم تستطع العلمانية أن تهزم الإسلام، بل بالعكس، بدأ الإسلام يخترق الحضارة العلمانية هنا، ويحاول أن يهزمها.

هذا هو موقف الغربيين، فهم يؤمنون بأن الحضارة التي يجب أن تسود العالم هي الحضارة الغربية. وينبغي أن يقضى على كل الحضارات الموجودة في العالم، بمعنى أن يكون السبيل واحداً ليس إلا، وهو سبيل الحضارة الغربية.

موقف الإسلام من تعدد السبل:

إن الإسلام يؤمن بتعدد الحضارات، لكنه لا يؤمن بتعدد النظم. قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] أي أن النظام الذي يسود العالم يجب أن يكون هو (الإسلام). وفي ظلّ الإسلام، يمكن أن تعيش الحضارات

(١) التوبة: ٣٣. الصف: ٩.

الأخرى بالشكل الذي لا تصطدم به مع النظام الإسلامي.

فالمسيحيون بإمكانهم أن يمارسوا طقوسهم الدينية التي لا تصطدم مع النظام الإسلامي، وكذلك الآخرون، إلا الوثنية، فهي مرفوضة من أساسها.

أما الدليل على قبول الإسلام بتعدد الحضارات، ووحدة النظام فهو:

١ ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1].

فاختلاف اللغات هو اختلاف الحضارات، واللغة من الحضارة، فالإسلام لم يفرض لغة واحدة على العالم، إنما ترك الباكستانيين المسلمين يتكلمون الأوردو، والإيرانيين يتكلمون الفارسية، وهكذا المسلمون في أفريقيا والهند والصين، يتكلمون بلغاتهم الأخرى.

فالجانب الحضاري الذي لا يَمسّ النظام، يسمح به الإسلام. وبالتالي فهو يؤمن بتعدد الحضارات في هذا الجانب.

فالله سبحانه وتعالى عالم بهذا الأمر، وهو من طبيعة الإنسان، لذا نرى أن دعاة لغة (الاسبرنتو) المعروفة فشلوا، مع أن دعواتهم كانت ضخمة وواسعة جداً، وأصبح الذين يتكلمون بهذه اللغة حوالي (مليونين) في أنحاء العالم، ولكن مع ذلك فشلت تلك الدعوات، ورجع كلٌّ إلى لغته. فطبيعة الإنسان في تعدد اللغات واختلافها، لا بد أن تراعى.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

---

(١) الروم: ٢٢.

(٢) الحجرات: ٣٣.

فقولـه جل وعـلا: شـعوباً وقبائل: أي مجتمعـات، وكل مجتمـع له أعراف وتقاليـد وعـادات، يختلف فيها عـن المجتمعـات الأخرى، فهـذا الجانب من جوانب الحضارة يُقرّه الإسلام، فالعادات والتقاليد والأعراف التي لا تصطدم بالنظام، يقرها الإسـلام: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِـينَ﴾[1]. أي أنه لو شـاء لجعلهم مجتمعاً واحـداً. ثم يقول تعالى: ﴿إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2].

فنحن المسـلمين اليـوم نختلف في مجتمعاتنـا، صحيـح أن عباداتنا واحدة، ومعاملاتنـا إذا التزمنـا بها من الناحيـة الشرعية واحدة، والنظـام الذي نعيش في ظله في حال وجود النظام الإسلامي في الدول الإسلامية نظام واحد، لكن العادات والتقاليد والأعراف مختلفة، فأنت الآن تلبس الكوفية والعقال، لكن مـن يعيـش في إيران يلبـس البنطلون، ومن يعيـش في الهند يلبس لباسـاً آخر، وهكذا في الأعراف والعادات والتقاليد. وهذه هي طبيعة البشر.

فهذا الجانب الحضاري يقره الإسـلام، ولا يريد أن يفرض حضارة واحدة عـلى جميع أبناء البشر، إنما يفرض نظاماً واحداً، وجزءاً من الحضارة، فيما تبقى الأجزاء الأخرى من الحضارة التي لا تصطدم بالإسلام موجودة وفاعلة.

الإلهية والربانية.. نظرة فلسفية:

إن الاشـتراك في الإيـمان بالخالـق - وهو ما تؤمن بـه الكثير من الحضارات قديماً وحديثاً، حتى الوثنية منها - لا يحل الاختلاف، لأن الاختلاف يكمن في تدبير الكون، وهل أنه يكون من قِبَل الله وحده أو يشاركه الآخرون في ذلك ؟ أو أن الله خلق الخلق وتركه يُدبَّر من قِبل غيره ؟

---

(١) هود: ١١٨.

(٢) هود: ١١٨.

لاحظ المجتمع الجاهلي الوثني، الذي لا يمكن أن نفهمه إلا من خلال القرآن الكريم. فالشعر الجاهلي الذي يقال عنه: إنه ديوان العرب، لا يصور لنا ذلك المجتمع بمختلف أنماطه الحضارية. أما القرآن فهو الوحيد الذي يصور الجاهلية بصورتها الواقعية. يقول تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ويقول أيضاً: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2]. ويقول عز من قائل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[3].

فالوثنيون يؤمنون بأن الله خلق السماوات والأرض، لكنهم جعلوا الأوثان وسائط بينهم وبين الله.

وكذا الحال في الفلسفة اليونانية التي تعد من أقدم الفلسفات، فهي تؤمن بالله، لكنها ترى أن تدبير الكون ليس بيد الله (والعياذ بالله)، وإنما يرجع إلى الأسباب المادية الموجودة في هذا الكون.

وكذلك الفلسفة الرومانية المعروفة، فهي تؤمن بالله تعالى أيضاً، ولديهم شعار معروف يردده بعض الناس كثيراً على الألسن، وهو قولهم: ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.

وهذا القول يدل على أن القائل يؤمن بالله، وأنه خالق الكون، إلا أنه يرى أن تدبير الكون بيد الامبراطور (قيصر).

---

(١) لقمان: ٢٥.

(٢) العنكبوت: ٦١.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

ومـن الأمثلة على التفريق بين الخالقية والتدبير، الفلسـفة العلمانية الحديثة، فهـي مـن الفلسـفات الحديثة التـي تؤمـن بوجـود الله ـ إلا القليل منهـا ـ كما تؤمـن بالأديـان أيضاً، إلا أنها تؤمن بالجانب العبـادي من الدين، أما الجوانب الأخرى الخاصة بالمعاملات والعقود والأنظمة وغيرها، فترى أنها ليسـت من شأن الدين، إنما هي من اختصاص الإنسان. فهو الذي يضع النظام والدستور والقانون ويتولى إدارتها وتنفيذها.

الإسلام والحضارات المتعددة:

إن موقف الإسـلام من هذه الحضارات المتعـددة، أنه يدخل معها في حوار صريح، ويدلل على أن تدبير الكون بيد الله وحده.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾[1] فالخلق والتدبير لله.

ويجـب أن نلاحـظ هنـا أن هـذا الأمـر يرتبط بالعقيـدة، فالإسـلام لا يجبر الحضـارات الأخرى على هذه العقيدة، إنما يطالبها – على الأقل – أن لا تُجاهر بتلك العقيدة التي ذكرناها.

ويقـول عز وجـل: ﴿أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾[2]. فالخلـق لله، والأمر والتدبير له أيضاً.

الحضارات والإنسان:

بعد أن عرفنا موقف الحضارة الإسلامية من الله سبحانه وتعالى، وأنها تعتقد أنه خالق ومدبر، فما هو موقفنا من الإنسان ؟

---

(١) يونس: ٣.

(٢) الأعراف: ٥٤.

لنأخذ بعض الحضارات مثالاً، ولنبدأ بالحضارة الهندية - وهي من أهم وأقدم الحضارات - ولنأخذ بعض آرائها في الإنسان.

فهناك الفلسفات التي تسمى بالغنوصية، وهي خليط من أفكار مختلفة تجمعت وانصهرت وآمن بها الإنسان، ومن أمثلتها الصوفية، فهي تدخل ضمن الحضارة الهندية، لأن التصوف دخل إلى الحضارة الإسلامية من الهند، ويصنَّف ضمن الفلسفات الغنوصية التي تهمش الإنسان تماماً في الحياة، وتعتبره مجبراً في تصرفاته وفي سلوكه، وليس له حرية إرادة.

وترى أنه إذا أراد أن ينقذ نفسه فليس له إلا أن يفنى في المطلق، بمعنى أنه يفني ذاته في الله.

والصوفية ينتقلون من مرتبة إلى مرتبة، حتى يصلوا إلى آخر المراتب، وهي مرتبة الفناء في الله، فيبقى الصوفي منعزلاً عن الحياة، لا يحاول أن يطوِّر أو يجدد في هذه الحياة.

أما الحضارة الغربية، من الحضارة اليونانية إلى الحضارة الحديثة، فهي تؤلّه الإنسان، وترى أن الله خلق الخلق، وأوكل إليهم تنظيم أمورهم في الحياة، فدور الإنسان أنه هو الذي يدبر هذا الكون.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا التأليه للإنسان، والإيمان بقدرته على أن يتصرف في الكون كما يشاء، ويردّ هذه النظرية.

يقول جل وعلا: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

(١) يونس: ٢٤.

لاحظ التعبير القرآني: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْهَا﴾ فأنت تسمع اليوم أنهم يقولون: وصلنا إلى القمر، وبعض الكواكب الأخرى، وربما قالوا: سوف ننظم سفرات سياحية إلى تلك العوالم، أو نبني لكم المساكن، وما إلى ذلك من الكلام، مما يدل على أن الإنسان مؤمن بأنه مقتدر على كل شيء، ويستطيع أن يتصرف بهذا الكون كما يشاء تماماً.

ومن أواخر ما توصل إليه الإنسان (الكمبيوتر) الذي يفكر ويخزن المعلومات، وينظمها بشكل خاص، ويبرمجها ويعطي النتائج الهائلة بسرعة مذهلة، ويعمل على استرجاع المعلومات المخزونة، وهكذا. وبالتالي فإن الإنسان استطاع أن يصنع جهازاً يقوم بعمليات مشابهة لما كان يقوم به الإنسان بلا واسطة. وعندئذ يتصور الإنسان أنه اقتدر على كل شيء، وهذا ما عناه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُوْنَ عَلَيْهَا﴾.

إلا أنه بعد هذا المشوار الطويل، وهذا الإمهال، يأتي أمر الله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالإنسان في تلك الفلسفات بين التهميش والتأليه. أما نحن فنرى أن الإنسان خليفة الله في الأرض، ومعنى الخليفة أنه وكيل لا يحق له التصرف إلا في حدود التوكيل، فهو يتصرف ويفعل ما يشاء، ولكن في حدود ما خوله الله له من تصرفه، لذا لا يجوز أن نضعه في موضع وسط بين التهميش والتأليه.

النتيجة: أن الحضارة الغربية تؤمن بأحادية الحضارة، أي أنهم يريدون للحضارة الغربية وحدها أن تكون هي المهيمنة على العالم كله، وأن تلغي كل الحضارات الأخرى، وأن ينبثق النظام العالمي كله من الحضارة الغربية.

أما الحضارة الإسلامية فتؤمن بالحضارات الأخرى، وتعطيها المساحة

الكافية في وجودها، ولكن في الحدود التي لا تصطدم مع النظام الإسلامي والعقيدة الإسلامية.

أسئلة حول الموضوع

السؤال الأول: يعيش أفراد مجتمعاتنا صراعات فيما بينهم تاركين وراءهم ما يحوكه الأعداء لهم، فهل من توجيه عملي يأخذ بأيدي الجميع إلى قوةٍ حضاريةٍ رائدة ؟

الجواب: الموضوع يرتبط بالوعي، فمتى ما وعى المسلمون أهمية وجودهم في العالم، وأهمية حضارتهم بين الحضارات الأخرى، فسوف يبتعدون عن هذه القضايا التي تسبب لهم التخلف والتأخر، وتفتح المجال أمام الحضارات الأخرى أو أبناء الحضارات الأخرى للاختراق.

فالمسلمون اليوم غير المسلمين قبل ٥٠ سنة على الأقل، فقد أصبح النظر إليهم خاصاً، ويحسب لهم الحساب الخاص، لأنهم استطاعوا أن يثبتوا وجودهم من الناحية الثقافية والفكرية بشكل عام، والمحاولات اليوم في البلاد الإسلامية جادة للتحول إلى مجتمعات صناعية تملك الاقتصاد الضخم، والاقتصاد له دور كبير في الهيمنة على العالم.

فلا يجب أن يكون في مجتمعاتنا أي لون من ألوان التفرقة بسبب قضايا لا تستحق أن نعطيها السبيل لتفرّق بيننا، وهي في واقعها قد تجمع فيما بيننا، حتى نغلق الباب أمام اختراقات الآخرين.

السؤال الثاني: ألم يكن للنهضة الإسلامية دور في إسقاط الشيوعية عامة، والاتحاد السوفيتي خاصة ؟ وما هو دور رسالة الإمام الراحل (ره) إلى الزعيم السوفيتي السابق (ميخائيل غرباتشوف) في مستقبل الإسلام في الاتحاد

السوفيتي السابق ؟

الجواب : دور المسلمين كان دوراً فكرياً، حيث قاموا بإسهام كبير من جانب فكري لإسقاط الشيوعية.

وإذا حاولنا أن نقارن بين الردود أو النقود التي كُتبت حول الشيوعية، سواء كانت من الغربيين أم المسلمين، وبين ما كتبه الشهيد السيد محمد باقر الصدر (ره) لرأينا أنه خير من استطاع أن يعري الشيوعية تعرية كاملة.

فممن نقد الشيوعية من الغربيين جون ديوي، العالم التربوي الأمريكي، الذي يعتبر من الأعلام في هذا المجال. ومن الشرقيين المسلمين الدكتور نوري جعفر، الأستاذ في جامعة بغداد، والأستاذ عباس محمود العقاد، وإن كان في كتابه جوانب تُؤخذ عليه، وكذلك مئات الكتب والأبحاث التي أُلفت في هذا المجال، إلا أن الشهيد السيد الصدر (قدس سره) من خلال كتابه (فلسفتنا)، استطاع أن يحدث ثورة فكرية في العالم.

فعندما صدر كتابه وانتشر في العالم، وتُرجم إلى أكثر من لغة، كشف أن المسلمين، وخاصةً علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام أمثال الشهيد الصدر هم الذين استطاعوا أن ينقدوا الشيوعية النقد الذي عرّاها، وأثبت أنها غير صالحة لأن تسعد البشرية.

لقد ترجم من كتاب رأس المال لكارل ماركس ثمانية مجلدات للغة العربية، وكان يمنّي الناس بإنزال جنة المتقين إليهم، فكانت النتيجة ما نراه اليوم، من الفقر والطبقية الفظيعة وتكدس الأموال عند فئة معينة، والأكثرية طبقة مسحوقة تماماً.

وكذلك موقف الإمام السيد الخميني (ره) أيضاً الذي كان له دورٌ كبير

من خلال محاضراته وأحاديثه، فكثيراً ما كان يهاجم الشيوعية والرأسمالية، حيث كانت لديه محاضرات تلقى في يوم الخميس والجمعة عادةً، غير الدرس الاعتيادي الذي كان يلقيه على الطلبة، وكان يهاجم الشيوعية في هذه المواطن، وكوّن حوله كوكبة من العلماء الذين يحملون فكره في نقد الشيوعية، وأخيراً كان كتابه الذي وجهه إلى الاتحاد السوفيتي، وتنبأ فيه بسقوطه وانتهاء الشيوعية، وحصل ما حصل.

فالمسلمون كان لهم دور كبير في الجانب الفكري أكثر من الغربيين وأكثر من أي جماعة أخرى.

أما في الجانب العسكري فكان الدور للغربيين أكثر بطبيعة الحال.

وكذلك في جانب التجسس والمخابرات والإعلام وغيرها، فلم يكن للمسلمين في ذلك دور يذكر.

السؤال الثالث: سماحة الشيخ، قلتم: إن الإسلام يؤمن بتعدد الحضارات والدليل على ذلك أن الإسلام لم يفرض لغة واحدة، لكننا نرى أن الإسلام أراد فرض اللغة العربية عن طريق القرآن الكريم، حيث لا تصح بعض العبادات إلا عن طريق القراءة باللغة العربية كما في الصلاة وعقود النكاح وغيرها، فما هو تفسير ذلك في نظركم ؟

كما نجد أيضاً أن الإسلام يمكن أن يلغي حضارات بعض الشعوب التي دخلت في الإسلام، حيث إن التبرج والغناء وغيرهما من الأمور كانت جزءاً من حضارات هذه الشعوب، ولكن الإسلام حاربها بشدة، أليس هذا إلغاء للحضارة ؟ نرجو التكرم بإلقاء الضوء على هذا الموضوع.

الجواب: فيما يتعلق بالجانب الثاني، وهو جانب التبرج ومجالس اللهو

والغناء، قلت سابقاً: إن ماهو موجود في الحضارات الأخرى، ويصطدم مع الحضارة الإسلامية يلغيه الإسلام ولا يؤمن به، وكررت هذا أكثر من مرة.

أما اللغة العربية، فإن الإسلام وإن كان يعمل على تعميمها على العالم، لكن هذا لا يتحقق بالفعل، والقرآن الكريم يشير إلى هذا، وكون المسلم ملزماً بأن يصلي باللغة العربية، ويعقد النكاح باللغة العربية، على الرأي المشهور عند فقهاء المسلمين ـ وإن كان بعضهم يذهب إلى جوازه بغيرها من اللغات، كبعض الأحناف، وحتى بعض علمائنا، لكن المشهور شهرة كبيرة أن عقود النكاح لا تكون إلا باللغة العربية. وهكذا بعض الإيقاعات لا تكون إلا باللغة العربية ـ إلا أن هذا لا يعني انتشار اللغة العربية أبداً، إنما يعني أن القرآن أبقى اللغات الأخرى، ولو كان يريد انتشار اللغة العربية لكان يقول: كل ما يقوم به المسلم يجب أن يكون باللغة العربية، وهذا ما لم يفرضه أبداً.

السؤال الأخير: لقد ذكرتم أن العالم الغربي دعا إلى حل مشاكله والتفرغ للقضاء على العالم الإسلامي، أو الحرب ضد الإسلام. إذن ما هو دور العالم الإسلامي في إيقاف هذه الأفكار الغربية؟

الجواب: العالم الإسلامي في الحقيقة يتحرك، وقد لا يكون لكم اطلاع على هذا، فهو يتحرك كمفكرين وسياسيين وعلماء، وهناك شعور بالحضور العالمي للإسلام والمسلمين، وبالوجود العالمي لهم.

وكمثال بسيط ما نعيشه اليوم قضية الحجاب في فرنسا، فقد سرت هذه القضية إلى ألمانيا، وحدثت مشاكل في ألمانيا، وربما حصل القتل بسبب الحجاب، ونحن نلاحظ الآن أن الإعلام الإسلامي بشكل عام يتناول هذه القضية، وأُلقيت حولها المحاضرات، وكُتبت الكتب، وهناك وفود قابلت المسؤولين في فرنسا وألمانيا وفي بعض الدول الأخرى، وتحدثت معهم حول

حجاب الطالبات في المدارس والجامعات.

فالمسلمون اليوم يشعرون بموقف الغربيين، ويفهمون ما يدور حولهم بهذا الخصوص، وهم يعملون بجدٍّ ودون توقف، إلا أن عملهم يختلف من حكومة إلى أخرى، ومن شعب إلى شعب، وحسب الإمكانيات والظروف.

والحمد لله رب العالمين.

أثر الغيب في سلوك المؤمن

معنى الغيب والشهادة

قبل الدخول في بيان هذا الموضوع، ينبغي لنا أن نعرف معنى الغيب، فقد وردت مفردة الغيب في القرآن الكريم في أكثر من آية، ويقابلها الشهادة، والله تعالى هو عالم الغيب والشهادة، كما ورد في الكتاب العزيز[1]، فهناك إذن عالمان: عالم نسميه عالم الغيب، وآخر نسميه عالم الشهادة.

وهذا التقسيم إنما هو بالنسبة إلى إدراك الإنسان ومعرفته وعلمه بالأشياء، فالإنسان يعلم بأشياء كثيرة، كأنْ تعلم أنك جالس هنا الآن، وأن أباك اسمه فلان، وأنك تملك من النقود كذا وكذا، هذا كله من العلم، ولا نعني بالعلم معناه الخاص، وإنما نعني الإدراك والمعرفة بشكل عام، وليس هناك إنسان لا يعرف شيئاً، أو لا يدرك أي شيء.

فالتقسيم المذكور هو بالنسبة إلى معرفة الإنسان بالأشياء وإدراكه لها، لأن مدرَكات الإنسان قد تكون حاضرة لديه، محسوسة عنده، أي أنه يعرفها ويدركها عن طريق الحواس[2] فهو يرى أو يسمع، أو يستخدم بقية الحواس،

---

(١) هناك آيات كثيرة تنص على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الأنعام: ٧٣، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة: ٩٤، وغير ذلك.

(٢) وقد استعرضنا في محاضرة سابقة مصادر المعرفة، وقلنا: إنها أربعة، وهي الوحي والإلهام والحس والعقل.

وقد لا تكون كذلك، فما أدركه من المعارف بواسطة الحواس، وأصبحت حاضرة لديه، سمي هذا العالم بعالم الشهادة، أو عالم الحضور.

فالشهادة لغةً هي الحضور، وسمي الشاهد شاهداً، لأنه كان حاضراً في الواقعة، ومشاهداً لها. وقد استخدم القرآن الكريم هذه المادة في الحضور، قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[1] أي أن من حضر، فلم يكن مسافراً، وجب عليه الصيام.

وقد تسمى هذه المدركات الحسية بعالم الحضور، لأنها حاضرة لدى لإنسان، ومعروفة ومعلومة عنده.

وفي المقابل هناك أمور أخرى يدركها الإنسان لا عن طريق الحس، وإنما يدركها إما عن طريق العقل والتفكير العقلي، أو عن طريق الوحي والدين، أوعن طريق الإلهام.

فالملائكة مثلاً، لا يدركها الإنسان بالحس ولا بالعقل، وإنما أدركها بالنقل الآتي من الوحي، فهذه المخلوقات لأنها غير حاضرة عنده، ولا محسوسة لديه، فهي تعد من الغيب، ولولا أن الأديان أخبرت الإنسان بذلك، لما كان لدينا طريق للاعتقاد بها. وهكذا الجنة والنار، فنحن لم نشاهد الجنة ولا النار التي أعدت للكافرين والعاصين، لكننا عرفنا أن هناك جنة وناراً عن طريق القرآن الكريم، أي عن طريق الدين والنقل، ومصدر ذلك هو الوحي، وهذا ما نسميه الغيب.

هذه الأمور وأمثالها، مما لم يكن حاضراً عند الإنسان تسمى غيباً، وقد يدرك الإنسان بعضها عن طريق النقل من الوحي، وقد يلهم بها إلهاماً، أو قد يصل

(١) البقرة: ١٨٥.

إليها عن طريق التفكير العقلي، وقد لا يدركها، فلا هي تنقل إليه عن طريق الدين والوحي، ولا يتوصل إليها عقله.

فهذه الأشياء، سواء كانت مدرَكة للإنسان ومعروفة لديه أم غير مدركة، نسميها عالم الغيب، لأنها غائبة عنه، فالملائكة والجن، وإن كانت موجودة، إلا أنها غائبة عن حسّنا، غير مشاهدة، فهي ليست من عالم الشهادة، إنما من عالم الغيب، ولو لم يرد ذكرها في القرآن الكريم لما كان لدينا طريق آخر لمعرفتها، فالقرآن الكريم هو الطريق الوحيد لمعرفتها ولا شيء غيره.

ونقول بإيجاز: إن ما يمكن أن يدركه الإنسان ينقسم إلى قسمين: عالم الشهادة، وهو ما يدركه بحسه، وعالم الغيب، وهو ما لا يستطيع أن يدركه بحسه، إنما قد يتعرف بعضه عن طريق العقل أو النقل، أي عن طريق الأديان أو الوحي، أو عن طريق الإلهام.

وبالعودة إلى عالم الشهادة والحضور، نجد أن جميع ما في هذا العالم يمكن للإنسان أن يدركه بحواسه. فالمدن الموجودة في العالم، يمكن السفر إليها، ومشاهدتها ومعرفة كل شيء عنها.

وهكذا معرفة أجناس الناس وألوانهم وقومياتهم وعاداتهم، كل ذلك تستطيع أن تدركه، لأن هذه الأشياء محلها في عالم الشهادة، فما عليك إلا أن تتوسل بالوسائل التي تستخدم في معرفتها لتدركها، فهي أمور قابلة للإدراك، أما ما كان منها في عالم الغيب فلا يمكن للإنسان أن يدركه بحواسه، وليس لأحد أن يعلم جميع ما في عالم الغيب، وهو ما نسميه: العلم بالغيب المطلق، فهذا العلم مختص بالله سبحانه وتعالى، وحتى الأنبياء، ومنهم نبينا محمد ﷺ، وهو أفضل الخلق وأشرفهم، لا يحيطون علماً بالغيب المطلق.

فعلم النبي ﷺ بالغيب محدود بما يطلعه الله تعالى عليه، وكذلك الإمام أو

الولي، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يطلع هؤلاء على جانب من الغيب، وأن يختص هو بجوانب منه، فلا يطلع عليها أحداً من خلقه أياً كان، لذا نقول: الغيب المطلق لله، كما نقول مثلاً: الكمال المطلق والعلم المطلق، وأمثال ذلك، وهي كلها لله تعالى وحده.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لله فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[1]. وهي صريحة في أن الغيب المطلق إنما هو لله تعالى، وقد استُخدمت أداة الحصر إنما للدلالة على أن علم الغيب مقتصر على الله تعالى وحده، والمقصود هنا هو الغيب المطلق.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[2]. وفي هذه الآية أيضاً أحد أساليب الحصر في اللغة العربية، وهو النفي والاستثناء، فالتعبير القرآني يُقصر الغيب المطلق على الله تعالى فقط، وأنه من خصائص الباري، العالم بجميع المغيبات.

ويقول جل وعلا أيضاً: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3]. ومفاتح الغيب تعني كل المغيبات، وذلك هو الغيب المطلق، وهو لله وحده، ولا يمكن أن يُدّعى أن هناك غير الله يعلم الغيب المطلق.

الغيب النسبي

ويقابل الغيب المطلق الغيب النسبي، وهو يعني العلم ببعض المغيبات،

---

(١) يونس: ٢٠.
(٢) النمل: ٦٥.
(٣) الأنعام: ٥٩.

وهذا ممكن لبعض الناس، ممن يشاء الله تعالى إطلاعهم عليه.

وقبل أن نتعرف وجهة النظر القرآنية في مسألة العلم بالغيب النسبي، نستعرض آراء العلماء فيها، فهي من القضايا الشائكة إلى حدٍّ ما، ومن الأفكار المعمقة التي تدرس في الفلسفة وعلم الكلام والتفسير وفي مجالات أخرى.

خلاصة الآراء في المسألة ثلاثة، وهي تخص الأنبياء والأولياء، ولا تتعدى لجميع البشر. والأولياء - في رأينا نحن الشيعة - هم المعصومون من أهل البيت عليهم السلام، وقد يلحق بهم من بلغ درجة قريبة من العصمة. أما في رأي أهل السنة، وخاصة الصوفية منهم، فهي تشمل جميع الأولياء، فلا تختص بالمعصومين ومن قارب درجة العصمة.

فقد ثبت تأريخياً أن لهؤلاء الأنبياء والأولياء علماً ببعض المغيبات، ولكن من أين جاءهم هذا العلم؟

هناك ثلاثة أقوال في المسألة:

القول الأول: إن علم الغيب عند هؤلاء الأولياء من أنبياء وغير أنبياء (لدنّي) وهو مأخوذ من كلمة لدن، بمعنى عند، أي أن علم الغيب عند هؤلاء من عند أنفسهم وذواتهم، وبتعبير آخر - قد لا يكون دقيقاً علمياً - أن الله خلق هؤلاء وزودهم بالقدرة على العلم بالغيب.

القول الثاني: أن علم هؤلاء الأنبياء والأولياء بالغيب علم إرادي، ومعنى الإرادي أنهم لا يعلمون الغيب، ولكن إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً منه لمناسبة اقتضت ذلك، أو موقف ما، يدعون الله سبحانه وتعالى فيستجيب لهم، ويطلعهم عليه، لأنهم مقربون عنده، فهو مأخوذ من الإرادة.

القول الثالث: أنهم لا يعلمون الغيب، لا بذاتهم ولا بصورة إرادية، وإنما

علمهم به علم كسبي، أي أنهم يتعلمون الغيب من ذي علم، فالله سبحانه وتعالى أطلع أنبياءه على شيء من الغيب عن طريق الوحي أو الإلهام، أما الأولياء، كالأئمة والأوصياء، فقد اطلعوا عليه عن طريق الأنبياء، فاكتسبوه منهم، وبناء على هذا الرأي، يكون ما عند الأئمة عليهم السلام من علم الغيب، غير معلوم لهم من ذواتهم، ولا عن الطريق الإرادي الذي ذكرناه، وإنما تعلموه عن طريق جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله. فكل إمام يأخذ عمن قبله، حتى ينتهي الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، الذي أخذه عن الوحي عن الله تعالى.

هذه هي الآراء في المسألة، وقد تبنى الرأي الأول ـ وهو أن علم الغيب عند الأنبياء والأولياء لدنّي ـ المتصوفة من السنة، والعرفانيون من الشيعة، وتجد هذا في كثير من تعابيرهم، ومن وصفهم الأنبياء والأولياء.

أما الرأي الثاني ـ وهو أن علم الغيب عند هؤلاء إرادي، أي أنهم لقربهم من الله تعالى متى ما أرادوا أن يعلموا الغيب، لمناسبة أو موقف يقتضي ذلك، دعوا الله، فاستجاب لهم، وأطلعهم عليه ـ فقد ذهب إليه جملة من علمائنا، من المتكلمين والفلاسفة، ومنهم المرجع الديني المعروف السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي في كتابه: البيان في تفسير القرآن، وفي بحوثه الأصولية أيضاً، ومن قبله أستاذه الشيخ محمد حسين كمباني الأصفهاني أيضاً.

أما الرأي الثالث، وهو كون علم الغيب كسبياً عند الأنبياء والأئمة، فهو رأي مشهور أيضاً، وقد يستفاد من بعض الآيات القرآنية، وكما يلي[1]:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ

(١) لسنا في صدد البحث والمقارنة بين هذه الآراء، إنما أردنا أن نستنطق بعض الآيات الشريفة للاستشهاد بها في هذا المقام.

الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[١]، أي أن الله تعالى يوجه النبي ﷺ أن ينفي علم الغيب عن نفسه.

وقد يقال في مجال التفسير: إنه ينفي علم الغيب المطلق، وأنه لا يعلم بكل المغيبات، وهذا حق، لأن النبي لا يعلم بكل المغيبات، فذلك مما اختص به الله تعالى.

وقد تفسر الآية أيضاً - كما فُسرت - بأنه لا يعلم الغيب بالمرة، وإنما علمه بالغيب كسبي أو إرادي، لكن ذيل الآية يلقي شيئاً من الضوء على تفسير كلمة الغيب، وهو قوله تعالى: (وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ)، أي أنه يتبع ما يوحى إليه من المغيبات التي يخبر قومه بها، وهي من الوحي، وهذا ما يسمى بالعلم الكسبي.

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[٢]، فقد فسرت الآية بنفي علمه للغيب المطلق، كما فسرت بأنه لا يعلم الغيب من ذاته، فهي تنفي علم الغيب اللدني، وهو المراد بالقول الأول من الأقوال الثلاثة، لأنها تنفي أن يكون النبي يعلم الغيب من ذاته، وإنما قد يعلمه إذا أراد، أو يعلمه إذا أوحي إليه.

وهناك آيات أخرى تبين لنا جانباً من وسائل علم الغيب، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ﴾[٣]، ومعنى نوحيه إليك: نعلمك إياه تعليماً، فأنت لم تعلمه من ذاتك، وليس هو بعلم إرادي، لأنك لم تدعُنا لتعلم به، إنما نحن أوحينا إليك، وهذا من أخبار الأمم السالفة، وما يرتبط بالكون،

---

(١) الأنعام: ٥٠.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

(٣) آل عمران: ٤٤، يوسف: ١٠٢.

وما إلى ذلك.

ومن الآيات التي وردت في هذا السياق، مع اختلاف في التعبير، قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾[1]، أي نعلمك إياها.

وكذلك قوله جل وعلا: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً - إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾[2]، والغيب هنا هو الغيب المطلق، الذي استأثر به الله سبحانه وتعالى. وقد تفسر الآية بكل أفراد الغيب، وقوله تعالى: ﴿إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾ تعني من يكون مؤهلاً لتحمّل الرسالة. فالمرتضى والمصطفى والمختار ألفاظ مترادفة، أي أن الله سبحانه وتعالى يصطفي ويختار ويرتضي من كان مؤهلاً لذلك، فيحمله الرسالة. فالآية تبين أن الله تعالى لا يطلع أحداً على غيبه إلا الرسل، والحصيلة أن الرسل عندهم شيء من الغيب، وهو من الله تعالى، فهو الذي أظهرهم وأطلعهم عليه.

إن الآيات التي تشير إلى علم الغيب عند الله، وهو الغيب المطلق، أو إلى الغيب النسبي عند الأنبياء، وأنه موحى من الله تعالى، وأن الله أطلعهم عليه، قد يفسر العلماء بعضها بالعلم الإرادي وبعضها الآخر بالعلم الكسبي، أما العلم اللدني فليس هناك آية واحدة تشير إليه، فمن أين جاء المتصوفة من أهل السنة، والعرفانيون بهذا الرأي؟

عمدة ما استندوا إليه في ذلك روايات وردت عندنا أو عند أهل السنة، كما استندوا إلى ما روي من حوادث تأريخية نقلت عن الأولياء.

الغيب أساس الإيمان

من عناصر الإيمان ودعائمه الأساسية، أن نؤمن بالغيب، ومن علامات

(١) هود: ٤٩.
(٢) الجن: ٢٦ - ٢٧.

المؤمنين أن يؤمنوا بالغيب. فأنت تؤمن بالله تعالى، وأنت لم تره بعينيك، وهذا من عالم الغيب، وكذلك الإيمان بالنبي محمد ﷺ، فهو بالنسبة لمن عاصروه، كان من عالم الشهادة، لكنه بالنسبة لنا الآن من عالم الغيب، ونحن نؤمن به، وكذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وغير ذلك من المغيبات.

ومن الغيبيات التي لا بد للمؤمن من الإيمان بها، المعاد واليوم الآخر، فأنت تؤمن أن هناك قيامة وحساباً، وأن وراء الحساب ثواباً أو عقاباً، جنةً أو ناراً، كل هذه ليست من عالم الشهادة بالنسبة إلينا، إنما هي من عالم الغيب، وأنت تؤمن بها الآن. هذا معنى الإيمان بالغيب، وهو من علامات المؤمن.

والإيمان بذلك لا يكون إلا بدليل، فلا يمكن أن يكون ذوقياً أو انطلاقاً من الهوى، غاية ما في الأمر أن الدليل قد لا يكون حسياً، على العكس مما عند غير المؤمن، ومن يقول: كيف أؤمن بشيء لم أره، ولم أدركه بالحواس، خاصة من أولئك الحسيين الذين لا يؤمنون بمصدر للمعرفة غير الحس، فلا يؤمنون بما يسمى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) أما نحن، فأهم علامات المؤمن عندنا إيمانه بهذه المغيبات التي لم تقع تحت الحس.

مقاييس الدوافع السلوكية

للإيمان بالغيب تأثير كبير في سلوكنا نحن الموحدين المؤمنين بالله تعالى. وقبل أن أبين مدى تأثير الإيمان بالغيب في سلوك الإنسان، أستعرض المقاييس التي يعتمدها الإنسان في قياس وتقويم السلوك.

من أشهر المقاييس عند قدماء الفلاسفة، مقياس اللذة، ومقياس دفع العلل، فهم يقولون: إن أي إنسان، لا يعمل أي عمل كان، إلا بدافع الشعور باللذة، فلو أنه مر بطريق، وشاهد من يعرفه من الناس، بادره بالتحية، لأنه يشعر باللذة عند قيامه بهذا العمل وهو أداء التحية. وهكذا الحال في من يمارس عملاً

صناعياً أو تجارياً أو صناعياً أو غيره، فكل سلوك إنساني يفسرونه باللذة، أي أن الدافع للسلوك عند هؤلاء هو اللذة.

وعلى العكس من هؤلاء استخدم آخرون مقياس دفع الألم، فهم يقولون: إن الإنسان لا يعمل أي عمل إلا بدافع الألم، فمتى ما شعر بألم، حاول أن يدفعه، فيسلك سلوكاً معيناً ليصل إلى مبتغاه. فأنت ـ في نظرهم ـ تعمل وتكسب المال لتدفع ألم الجوع والعطش والغريزة الجنسية وغير ذلك، فيعللون كل سلوك إنساني بدفع الألم.

هذا في الفلسفات القديمة.

أما في الأنظمة الحديثة، وخاصة الرأسمالية ـ وهي من أوسع الأنظمة في العالم اليوم ـ فإن مقياس السلوك عندهم هو المنفعة، فلو وقفت في شارع من شوارع أمريكا أو الغرب، من طلوع الشمس حتى غروبها، ومرت بك الناس أفواجاً، لم تجد من يُحيّيك، إلا إذا كانت له مصلحة عندك، فلا يحييك لوجه الله، إنما الحياة كلها قائمة عندهم على أساس المصلحة والمنفعة، فمقياس السلوك لديهم هو المنفعة، وهي التي تملي على الإنسان الغربي سلوكه.

أما نحن المسلمين فإن مقياس السلوك عندنا ليس اللذة، ولا دفع الألم، ولا المنفعة والمصلحة، إنما هو رضا الله تعالى، فالمسلم يسلّم على المسلم لا لمصلحة، إنما للحصول على الأجر والثواب، لأن السلام مستحب عنده، وهكذا كل سلوك يسلكه، وكل عمل يقوم به، فإنه يحاول أن يحرز به رضا الله تعالى. وعلى العكس من ذلك إذا عرف أن هذا السلوك لا يرضي الله، فإنه يتجنبه، حتى في الأكل والشرب، نجد أن هذا حلال وهذا حرام.

آثار الإيمان بالغيب

إن مقياس السلوك عندنا ـ كما قلنا ـ هو رضا الله تعالى، وأساس كل هذا هو إيماننا بالغيب، لأننا نؤمن بالله تعالى، وأنه يثيب على السلوك المطلوب، ويعاقب على السلوك المرفوض، وهذا الخوف من العقوبة، والطمع في الثواب له أكبر الأثر في سلوكنا، فهو يجعلنا نتجنب القبيح خوفاً من العقوبة، ونقبل على الحسن طمعاً في الثواب. وكل من الثواب والعقاب محلهما الآخرة، وهي من عالم الغيب، وكذلك الإيمان بوجود الجنة والنار هو من الغيب، فنحن لم نرهما بأعيننا.

ومن آثار الإيمان بالغيب على سلوك الإنسان التوكل على الله، وهو من صفات المؤمنين، لكن التوكل لا يعني (التواكل) إنما هناك فرق كبير بين التوكل والتواكل، فالتواكل هو أن تترك الأمر إلى الله، دون أن تحرك ساكناً، وهذا مرفوض، ولا يسمى توكلاً، إنما التوكل أن تعمل ما عليك، وتكل الأمور إلى الله، والله تعالى غيب.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن لأحد أن يقول: إذا عمل الإنسان ما عليه فما حاجته للتوكل؟ وكما دخل الغيب في ذلك؟ والجواب هو أن الإنسان مهما ادعى أنه قوي، لكنه ضعيف أمام قوى الطبيعة الأخرى، فلو فرضنا أنه وقع في مأزق، كأن يكون في بحر هائج وأحاط به الموج، وأصبح على شفا الموت غرقاً، وتقطعت به الأسباب والسبل التي تمكّنه من الخلاص، فكيف يمكنه الخروج من هذا المأزق؟ ليس له من أحد سوى الله تعالى، فتراه يتعلق بالله، حتى لو كان منكراً لوجوده، لأنه في تلك اللحظات يرى أنه لا يستطيع أن

يخلصه من هذا المأزق إلا أقوى قوة في الوجود.

كلمة أخيرة

أود في نهاية هذه المحاضرة أن أسدي شيئاً من النصيحة لإخوتي الحضور، ونحن نشرف على نهاية شهر رمضان المبارك، هذا الموسم الروحاني الثقافي، ونصيحتي هي أن تكون لدينا حصيلة من هذه الروحانيات التي اكتسبناها من شهر رمضان، وأن نحافظ عليها فيما بعد شهر رمضان. فالروحانيات تسمو بالروح، وتقرب الإنسان إلى الله جل وعلا، وليس أغلى وأعز عند الإنسان من أن يكون قريباً إلى الله تعالى، فلو أننا حافظنا على هذه الروحانيات فسوف نحافظ على قربنا من الله تعالى.

كما أرجو أن نحافظ على الحصيلة الثقافية التي اكتسبناها خلال هذا الشهر الكريم، ونحاول أن ننمي هذه الحصيلة، لأن الله سبحانه وتعالى لا يعذر الجاهل، كما أن الناس لا يحترمون الجاهل، وكذا الأمم العالمة لا تحترم الأمة الجاهلة، فلكي يحصل الإنسان على العزة والكرامة عند الله وعند الناس، عليه أن يحاول رفع مستواه، روحياً وثقافياً، وهذا ما أرجوه لكم، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقكم، وأن يتقبل عمل القائمين على هذا العمل، وأن يثيب صاحب هذه الحسينية بأفضل الثواب.

الأسئلة

السؤال الأول: ما معنى العبارة التي تقول عن الإمام: عنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة؟ وعلى حد تعبير السائل، هل هي من نوع الغيب المطلق؟

الجواب: هذه العبارة موجودة، وهي لا تعني الغيب المطلق، لأن هناك

أدلة أخرى من الآيات القرآنية والأحاديث الكثيرة، تؤكد أن الله تعالى استأثر بعلمه، واختص به، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا غير أنبيائه.

أما عن هذه العبارة، فلا بد أن أشير إلى أمر فيه فائدة منهجية كبيرة، وهو أننا إذا أردنا فهم مثل هذه العبارات، لا بد أن نرجع للمصدر الذي وردت فيه أولاً، ثم ننظر إلى السياق الذي جاءت فيه العبارة، لأن السياق قرينة تساعد على فهم العبارة.

وهذه العبارة جاءت عند ذكر كتاب علي عليه السلام، وكتاب الجفر، وهو أيضاً من تأليف علي عليه السلام،وقد ذكرت الرواية أن في هذين الكتابين علم ما كان، وهو التأريخ الماضي بالنسبة إلى حياتنا، أي أنه الفترة الزمنية من آدم إلى عهد الإمام علي عليه السلام، وعلم ما يكون، أي ما يقع في هذه الحياة، وهو ليس غيباً مطلقاً، لأن الكون أوسع بكثير من هذه الحياة.

السؤال الثاني: هل يكون علم الغيب عند النبي والولي في حدود النبوة والرسالة، وفي حدود الإمامة عند الإمام؟ أو أنه أعم؟ أي بمعنى أنهم يعلمون كل ما يتعلق برسالاتهم ولا يعلمون غير ذلك؟

الجواب: أرجو أن نصغي لهذه المسألة جيداً ونتأملها، كي لا يساء فهمها، فهي من المسائل الحساسة إلى حد كبير.

هناك ما يرتبط باعتقادنا نحن بالنبي أو بالإمام، وهناك ما يرتبط بواقع وشخصية النبي أو الإمام. فما يرتبط باعتقادنا هو أننا يجب أن نعتقد بأن النبي والإمام يعلمان بالشريعة علماً كاملاً، لا نقص فيه، أي أن النبي صلى الله عليه وآله، لا يحتاج في معرفة الشريعة إلى غيره، والإمام كذلك. فالأحكام الشرعية يعرفانها على نحو التفصيل.

وأما علمهم بالعلوم الأخرى مثل الكيمياء والرياضيات وغيرها، فنحن لسنا ملزمين بالاعتقاد به. فإن كان هناك دليل على علمهما بها أخذنا بالدليل، وكان اعتقادنا وفقاً للدليل، وإلا فلا إلزام بذلك. هذا من جهة الاعتقاد.

أما واقع شخصية النبي، وشخصية الإمام، فمن خلال ما ورد من أحاديث،وما نقل من قضايا تأريخية نجد أنهم كانوا يعلمون أكثر مما هو في حدود علم الشريعة، فالإمام الصادق عليه السلام كان يعلم الطب، وله نظريات في ذلك، وكان يعلم علم الكيمياء، وله نظريات معروفة في هذا العلم، وهكذا نجد في سيرة الأئمة عليهم السلام، ففي نهج البلاغة تجد الكثير من القضايا ترتبط بالفلك والعلوم الطبيعية على اختلافها.

وإذا كنا نجوّز لجابر بن حيان الكوفي، أن يبدع وينتج ويؤلف الكتب الكثيرة في الكيمياء، فلم لا نجوز هذا للإمام الصادق عليه السلام؟ وإذا كنا نقبل للكندي، الفيلسوف العربي المعروف، أن يؤلف الكتب المعمقة في الفلسفة، فلم لا نجوز هذا للإمام الرضا عليه السلام؟ بغض النظر عن مقام الإمامة، فهم في هذه كسائر البشر على أقل تقدير.

لكن المشكلة عندنا هي عقدة الآخر، وحكم القوي على الضعيف، ولو أن الشيعة وضعوا أنفسهم في موضع القوة لاعترف الجميع لأئمتهم بأنهم عظماء العالم.

السؤال الثالث: إذا قلنا بأن علم الغيب للنبي والأئمة عليهم السلام، هو علم كسبي، فهذا يصدق بالنسبة لعلم النبي صلى الله عليه وآله فقط، لارتباطه بالوحي، أما بالنسبة للأئمة عليهم السلام، فكيف يكتسبون علم الغيب إذا تعرضوا لموقف يحتاجون فيه لإثبات إمامتهم مثلاً، كما ذكرت بعض الروايات عنهم عليهم السلام؟

الجواب: لا أريد أن أعمل مقارنة بين الأمرين، لكن القائلين بالعلم الكسبي

للإمام ذكروا أن علمه بالمغيبات أخذه عن النبي، فعندما أملى النبي ﷺ الكتاب المعروف بكتاب علي، على أمير المؤمنين عليه السلام، أودعه كل ما يحدث في هذه الحياة، وهذه الحوادث المستقبلية مغيبات، وهذا الكتاب انتقل بعد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، إلى الإمام الحسن، ثم إلى الإمام الحسين عليه السلام، وهكذا حتى وصل إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه، فكل هؤلاء عرفوا تلك المغيبات من خلال هذا الكتاب وأمثاله، وذلك علم كسبي.

السؤال الرابع: هذا السؤال ذو شقين:

١- حول قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً﴾[1] فهل لشيخنا الدكتور أن يتكلم حول مدلول الآية الكريمة، وأي نوع من الغيب تشير إليه؟ فقد قام الخضر عليه السلام بأمور ثم أخبر بها موسى عليه السلام.

٢- هل أن الخضر نبي أو ولي من أولياء الله تعالى؟

الجواب: أبدأ من الشق الثاني فأقول: لا أعلم إن كان الخضر نبياً أم لا، ولكنه - بلا شك - ولي من أولياء الله، ولكن هل هو نبي أو ليس بنبي؟ ليست لدينا دراسات وافية حول هذا الموضوع. وكل ما بين أيدينا من بحوث ودراسات لم تصل إلى مرحلة إعطاء النتائج القطعية التي يوثق بها. بل حتى في قضية آدم عليه السلام، فالمشهور أنه نبي، ولكن هناك من يقول: إنه ليس بنبي، وإنما هو عبد صالح كالخضر.

أما عن السؤال الثاني فإننا بسطنا القول سابقاً حول قوله تعالى: ﴿لا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ﴾[2] فقد يكون ما عند الخضر من

(١) الكهف: ٦٥.
(٢) الجن: ٢٦ - ٢٧.

علم الغيب، لم يطلع الله تعالى موسى عليه، لعدم حاجته إليه في تبليغ الشريعة، وهذا لا يُنقص من قدره ومقامه، فأمر النبوة لا يتوقف على أن يعلم النبي بكل المغيبات، إنما يتوقف على أن يكون مؤهلاً للقيام بتبليغ الرسالة، ولديه القابلية والاستعداد والقدرة على تبليغها، فإن توفر هذا الشرط حمّله الله الرسالة، وما زاد على ذلك فهو زيادة في الخير.

السؤال الخامس: قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1]، هل هذا يعني أنه علم غيبي لدني؟

وقال جل وعلا: ﴿إِلا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[2]، ألا يعني تعبير ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الإيمان بالعلم السابق والعلم اللاحق؟

الجواب: الذين قالوا بالعلم اللدنّي فسروه بما يقوله الأخ السائل في سؤاله هذا، لكن للآخرين أن يقولوا: إنه علم إرادي، أي أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ولكن لا بقدرته، إنما بإذن الله -كما ينص على ذلك القرآن الكريم- وكذلك هنا، فإنه يعلم الغيب بإطلاع الله عيسى عليه، فالمعنى أنه يقول: أنا أخبركم، أي أدعو الله تعالى، والله يطلعني عليه. هكذا يفسره القائلون بأن علم الأنبياء والأولياء علم إرادي.

السؤال السادس: إذا كان علم الأمم السابقة وتأريخها من علم الغيب، فكيف نردّ على الذين يأخذون بالمادية التاريخية، ومنهم الماركسيون، والذين لا يؤمنون بالغيب، وما وراء الحس، فهل أنهم يتعاملون مع علم من علوم الغيب؟

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) الجن: ٢٧.

الجواب: هؤلاء يأخذون بالمادية التاريخية ليس كما يفهمها الأخ السائل، فنظرية المادية التاريخية أو (الحتمية التاريخية) التي قال بها كارل ماركس، وهو رأس الفكر الشيوعي، استنتجها من دراسته للمجتمعات التاريخية، كمجتمع العبيد، ومجتمع الرعي، ومجتمع الإقطاع، ومن خلال دراسته لهذه المجتمعات انتهى إلى نظرية تسمى (حتمية التأريخ) وهي أن المجتمعات -كل المجتمعات- لا بد أن تمر بهذه المراحل إلى أن تنتهي إلى الشيوعية، فهذه النظرية لا ترتبط بالغيب، إنما ترتبط بدراسات تأريخية قد يعثر عليها من خلال الحفريات أو غيرها من الدلائل المادية.

فما اعتمده كارل ماركس في بلورة هذه النظرية يختلف عما نحن فيه من الغيب.

السؤال السابع: عن السيد المسيح عليه السلام: «ليس العلم في السماء فينزل إليكم، ولا في الأرض فيخرج إليكم، ولكنه مجبول في أنفسكم، تأدبوا بآداب الروحانيين تجدوه» نفهم من هذا الحديث أن العلم ذاتي، ولكن بشرط التأدب بآداب الروحانيين لكي نجده، فما تعليق سماحتكم على ذلك؟

الجواب: هناك نظرية ـ يبدو أن القائل بها مسيحي، ولا أدري إن كان القائل بها قد أخذ ذلك من كلام السيد المسيح عليه السلام ـ تقول: إن الخلايا الموجودة في جسم الإنسان ـ وهي بالملايين ـ محفوظ فيها كل ما حدث من خلق، منذ وجود الكون، وكل ما يحدث إلى نهاية الكون.

فكل واحد منا - على رأي هذه النظرية - يمثل جهاز كمبيوتر متطوراً جداً، يحمل المعلومات الكاملة عما جرى وسوف يجري، ولكن كيف نتوصل إلى هذه المعلومات؟ فالسيد المسيح ربما يشير إلى هذا، بمعنى أنك كلما سموت بروحك واقتربت من الله سبحانه وتعالى، وركزت بفكرك أن تفهم أمراً ما قد حدث في

الماضي، أو قد يحدث في المستقبل، تحركت المعلومة من الخلية في جسمك إلى دماغك، وهو نوع من الإلهام، إلا أنه إلهام داخلي إن صح التعبير.

السؤال الثامن: كيف ننمي أثر الإيمان بالغيب على السلوك، في أوضاعنا الاجتماعية؟

الجواب: قلت سابقاً: إن مقياس المسلم في السلوك هو رضا الله تعالى، فالآيات القرآنية والأحاديث، وسيرة المؤمنين منذ آدم إلى يومنا هذا، كلها قائمة على أن المقياس في السلوك هو رضا الله تعالى، فمتى ما حاولنا أن نجعل مقياسنا في سلوكنا هو رضا الله، سواء السلوك الفردي أم الاجتماعي، فسوف نكون الأمة العزيزة والكريمة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وسنكون الأمة القائدة التي تقود البشرية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]، ومعنى أخرجت للناس أنها وجدت لتقود الناس، فنحن الأمة القائدة والشاهدة والرائدة، فيجب أن لا نكون الأمة المقودة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[3]، فالأمة الإسلامية هي التي تشهد على الأمم الأخرى، وقد ضيعنا هذا كله مع شديد الأسف.

لقد أكرمنا الله تعالى بهذه الكرامات، لكننا فرطنا بها، وسنكون مسؤولين عنها يوم القيامة من غير شك، ومن يقول: إننا غير مسؤولين فهو بعيد كل البعد عن فهم الواقع الإسلامي. فلا نستطيع أن نسترجع كل هذا المجد الضخم إلا بأن يكون مقياسنا في سلوكنا الفردي والاجتماعي هو رضا الله تعالى.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) البقرة: ١٤٣.

الأولى والآخرة في القرآن الكريم

الأولى: المعنى اللغوي

الأولى مؤنث أوّل، ويعبر به عن الدنيا، لأن الدنيا مؤنثة، ومن الطريف أنني كنت أطرح هذا السؤال على الطلاب لمدة ثلاثين عاماً، باعتباري مدرساً للغة العربية كل هذه الفترة: إذا كانت الدنيا مؤنثة فما هو مذكرها؟ وقد انتهت الثلاثون عاماً ولم يجبني أحد عن هذا السؤال، وكأنّ الدنيا ليس لها مذكر!

الدنيا اسم تفضيل على وزن فُعلى، ومذكره أدنى، على وزن أَفعل وهو مأخوذ من الدنو بمعنى القرب، فإذا أردنا أن نعبر عن شيء هو أقرب شيء لنا، نقول: هو الأدنى إلينا. فإن كان مؤنثاً قلنا: الدنيا.

هذا هو المعنى اللغوي. ويقابله القُصوى والأَقصى، للبعيدة والبعيد، ولعلكم تسمعون في الصحافة ووسائل الإعلام الشرق الأدنى والشرق الأقصى والشرق الأوسط، فهذه المصطلحات جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت دوافعها سياسية، تشير إلى تقسيمات إدارية معينة، ثم دخلت علم الجغرافيا. فالشرق الأوسط مثلاً يعني البلاد العربية وإيران وتركيا.

والذي يعنينا هنا السبب في تسمية الدنيا بهذا الاسم، فالدنو في اللغة العربية يعني القرب، ولكن لهذا اللفظ معان أخرى، نستعرضها ثم نختار ما يناسب الدنيا في الاصطلاح.

فالأدنى - وهو مذكر دنيا - قد يأتي بمعنى الأقل، والأصغر، والأحقر،

والأرذل، وكل هذه المعاني اللغوية تهبط بمستوى الدنيا، فمن الطبيعي أننا لو قارنا بين الدنيا والآخرة، فسوف ننتهي إلا أن الفارق بينهما كبير جداً، والنسبة تكاد تكون معدومة.

من هنا يظهر أن الدنيا سميت بهذا الاسم لأنها شيء حقير، إذا ما قيس بالآخرة.

هذا على مستوى اللغة، أما على مستوى القرآن فلنأخذ بعض الآيات التي توضح لنا حقيقة قة الدنيا وواقعها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1] فالغرور هو الخداع، وأن تُطمع الآخر بالباطل، فمتاع الغرور: أمر يَخدع الإنسان، ويطمعه بما ليس بحق، ويراد بالمتاع ما يستطيبه الإنسان ويرغب في بقائه، لكنه يفنى، ولا بقاء له. فنحن نستطيب المال مثلاً، ونرغب في بقائه، لكنه يفنى ويزول، ونستطيب الولد[2]، نرغب في بقائه، لكنه يفنى ويزول، وهكذا يستطيب الرجل والمرأة بعضهما، لكنهما يزولان ويفنيان، وهذا هو المتاع في اللغة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3] واللعب ليس ما نفهمه نحن من لعب الكرة أو غيرها من أشكال اللعب، إنما هو العبث الذي لا فائدة فيه. أما اللهو فهو أن تنشغل عن الشيء وتنصرف عنه، لذا فإنك قد تقول لمن أتاك وأنت مشغول: أنا لاهٍ، تعني أنك مشغول عنك، ومنصرف.

فالدنيا كما يصفها القرآن الكريم، لعب ولهو، فهي نوع من العبث الذي لا

(١) آل عمران: ١٨٥ والحديد: ٢٠.
(٢) يطلق الولد على الواحد كما يطلق على الجمع.
(٣) الأنعام: ٣٢.

فائدة فيه، وهي تشغل الإنسان وتصرفه عن الآخرة، لو انصرف إليها كاملاً.

٣- قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[١] فمعنى غرتهم خدعتهم، فالإنسان يُخدع بالدنيا، ويطمع بالباطل فيبتعد عن الدين.

وهناك آيات كثيرة حول الدنيا، لكنها تلتقي كلها تقريباً مع هذه المعاني التي ذكرت ضمن هذه الآيات الثلاث السابقة.

الآخرة في القرآن الكريم:

أما عن الآخرة، فيقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

فالحيَوان تعني الحياة المستمرة الدائمة، لأن هذا الوزن (فَعَلان) يدل في اللغة العربية على استمرار الحركة، كما في غَلَيان فهناك حركة للماء، وكما في دَوَران، وغيرهما من الألفاظ بهذا الوزن.

فالقرآن الكريم عندما يقول عن الآخرة: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ يعني أنها حياة مستمرة دائمة. فلو قارنّاها مع الدنيا، لرأينا أنها حياة غير مستمرة ولا دائمة، إنما هي منقطعة وزائلة، يموت الإنسان فتنتهي، وسوف يأتي يوم تنتهي فيه الحياة كلها.

والقرآن الكريم يعطينا دراسة اجتماعية عن حقيقة الإنسان وموقفه من الآخرة والأولى، منتزعاً هذا المعنى من واقع الناس تماماً، يقول: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[٣]، فهذا أمر واقع، أي أننا لو أردنا أن

---

(١) الأنعام: ٧٠.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) آل عمران: ١٥٢.

نقوم بدراسة ميدانية لبني البشر الآن، لانتهينا إلى النتيجة نفسها، ولوجدنا أن هذه هي حقيقة الناس، منهم من يريد الدنيا، ومنهم من يريد الآخرة.

وهذا الواقع الإنساني تؤكده الكثير من الفلسفات القديمة والحديثة، وتشير إلى وجود نزعة خير عند الإنسان، ونزعة شر، فهناك من الفلاسفة من يذهب إلى أن الإنسان شرير بطبعه، ولا يصدر منه إلا الشر، وإذا صدر منه خير فهو استثناء من القاعدة، ومن ذلك قول المتنبي:

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإن تجدْ ذا عفَّةٍ فلِعلّةٍ لا يظلِمُ

فهو يرى أن الإنسان مجبول على الشر، وربما يقال: إن المتنبي عاش تجربة وعانى من مرارتها ومتاعبها ومصائبها، وعبر عن الواقع الذي عاشه، لكن هذا الاتجاه معروف في الفلسفة، وهناك من يذهب إلى هذا.

وهناك من يذهب إلى أن الإنسان خيّر بطبعه، وإذا صدر منه الشر فلعوامل خارجة عن الطبع، كأن يكون عاش في بيئة ومحيط فأثر فيه، والقرآن الكريم يشير إلى هذا أيضاً ﴿فِطْرَةَ الله الّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1] فالله تعالى فطرَ الإنسان على الخير لكنه عندما ينطلق في هذه الحياة، تكتنفه عوامل الشر، وقد تقف عائقاً أمام عطائه الخيّر. يقول تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2] أي أنه بين طريق الخير وطريق الشر، ومن الممكن أن يختار أحدهما، فلا جبر ولا إكراه.

فالقرآن الكريم يبين لنا واقع المجتمع الإنساني، ويعطينا صورة واضحة عنه، ولو أراد الإنسان أن يوازن بين الدنيا والآخرة فهذا ممكن في الغالب،

(١) الروم: ٣٠.
(٢) البلد: ١٠.

لذا نزلت الشرائع لتصلح الإنسان وتمنعه أن ينتهي إلى هذه النتيجة، التي يؤثر بها الدنيا على الآخرة. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1]، فالدنيا بخداعها وغرورها أمدها قصير، وفائدتها قليلة، والآخرة هي الباقية، قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾[2] فلو قارنا الحياة الدنيا بالحياة الآخرة لا نرى الدنيا إلا خداعاً وغروراً، وهذه هي نتيجة المقارنة بينهما.

٤ ـ قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[3] فالمتاع أمر مؤقت، والآخرة هي المستقر، وهي الدار الباقية، فيفترض بالإنسان أن يُعدّ لما هو مستقر لا لما هو مؤقت وزائل.

ثم إن القرآن الكريم يحدد لنا بعد ذلك، الموقف العملي الشرعي من هاتين الضَّرتين[4]، الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[5] فالهدف الأساس والغاية الوحيدة هي الدار الآخرة، ثم يقول: ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ فالآخرة هي الهدف، ولكنك لا تصل إلى الآخرة إلا عن طريق البلاغ أو البلغة الموجودة في هذه الدنيا، فلا تنس نصيبك من هذه الدنيا. يقول تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ

---

(١) النساء: ٧٧.

(٢) الرعد: ٢٦.

(٣) غافر: ٣٩.

(٤) ورد عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «الدنيا والآخرة ضرتان، بقدر ما تقترب من إحداهما تبتعد عن الأخرى» عوالي اللآلي٤: ١١٤. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضَرَّتان» نهج البلاغة، باب المختار من الحكم: ٤٨٦.

(٥) القصص: ٧٧.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[١] فهذا هو الصنف الذي يؤثر الدنيا، ويكتفي بها: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢] وهؤلاء هم الذين يريدون خير الدنيا والآخرة: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٣].

هذه إلمامة موجزة وسريعة حول الأولى والآخرة في القرآن،ولو أردنا أن نتحدث عن ذلك أو نكتب لطال بنا المقام.

الأسئلة

السؤال الأول: قال تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٤] سمعت أنه ورد في تفسير معنى الغرور هو دم الحيض، وأن كلمة متاع تعني الخرقة المستعملة أثناء الطمث، وهكذا تكون الدنيا، فهل ورد مثل هذا المعنى في التفاسير الصحيحة؟

الجواب: هذا المعنى موجود في التفاسير، وقد يكون هناك استعمال لغوي للمعنى هذا، أو قد يكون مستفاداً من بعض الآثار، ولعله تفسير صوفي أقرب منه إلى التفسير بالظاهر، وعلى أي حال فهو ينطبق على الدنيا وواقعها.

السؤال الثاني: ذكرتم أن العبادات تقع في قمة العمل الصالح، بينما ورد في الحديث أن «تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سنة»[٥] ما رأيكم في ذلك؟

الجواب: لكي أوضح الفرق بين التفكر وبين العمل، أقول: إن السلوك

(١) () البقرة: ٢٠٠.
(٢) البقرة: ٢٠١.
(٣) البقرة: ٢٠٢.
(٤) آل عمران: ١٨٥ والحديد: ٢٠.
(٥) مستدرك الوسائل ١١: ١٨٣.

ينقسم إلى قسمين: سلوك فكري، وسلوك بدني، فالسلوك الفكري هو التفكير، والسلوك البدني هو ما يعبر عنه بالعمل. من هنا فإن السلوك الفكري لا يعبر عنه أنه عمل، وإن كان في الواقع قد يكون عملاً، إنما يعبر بالعمل عن السلوك البدني.

وأما التفكر الذي أشار إليه السائل، وورد في الرواية فهو التفكر المرتبط بالعقيدة، ومن الطبيعي أن تكون العقيدة أفضل الأعمال لأنها الأساس في كل عمل.

السؤال الثالث: تكلمتم عن منزلة العلماء، فهل أن المقصود بالعلماء في الآيات الكريمة هم العلماء الربانيون أم العلماء بشتى العلوم، سواء كانوا مسلمين أم كفاراً؟

الجواب: العلم لا يختص بما هو مألوف لدينا ومتعارف عندنا في إطلاق هذه الكلمة، فنحن نطلقها ونريد بها الفقيه، والصحيح أن العالم هو كل من كان صاحب تخصص، ولكن كيف يأخذ العالم مكانته ومنزلته؟ أما في المجتمع، فإن صاحب التخصص يؤدي خدمة المجتمع، فتكون له مكانته واحترامه، أما المنزلة والمكانة عند الله فلا بد فيها من الإيمان، بل حتى لو كان العالم فقيهاً، ولم يكن مؤمناً فلا يأخذ مكانته عند الله.

السؤال الرابع: حول فطرة الله التي فطر الإنسان عليها، وهي الخير، قال الله تعالى على لسان صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾[1]، حيث يبدو أن ذلك الغلام لم يصدر منه ما ينم عن شر، بدليل قول الله تعالى على لسان موسى عليه وعلى نبينا أفضل

(١) الكهف: ٨٠.

الصلاة والسلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[1]، فكيف نوفق بين هذين المعنيين؟

الجواب: أود أولاً أن أصحح استعمالاً درجنا عليه بكثرة، حتى في بعض الإذاعات ووسائل الإعلام في البلاد الإسلامية، وهو أننا عندما نذكر نبينا محمداً ﷺ مع بقية الأنبياء، قد نقدمهم عليه، والصحيح أننا لا بد أن نقدم اسمه الشريف، باستثناء إبراهيم عليه السلام احتراماً له لأنه أبوه، وامتثالاً لأمره ﷺ.

أما الموضوع الذي ذكره الأخ السائل والذي ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2] فالآية القرآنية تشير إلى أن الإنسان مجبول على الخير، لكن ليس معنى هذا أن عوامل الشر لا تؤثر فيه، وإلا لما احتجنا إلى الشرائع والقوانين والأنظمة، صحيح أنه مجبول على الخير، لكن عوامل الشر قد تؤثر.

السؤال الخامس: تمثل الحياة الأخرى الدرجة السامية والدائمة بالنسبة إلى الحياة الدنيا، المحطة المنقطعة، ونحن نرى، وبفعل التأثر بالعالم الغربي المادي، اهتمام المسلمين بالمادة، لا للوصول إلى الأخرى، بل للدنيا فقط، فكيف يتم لنا تحقيق الحياة الدنيا المطلوبة والتي توصلنا إلى المراتب العليا في الحياة الآخرة؟

الجواب: الأخ السائل يشير إلى مشكلة حقيقية قائمة، والموقف مع جميع المشكلات هو أن ندرسها، ونحاول أن نتعرف أسبابها، وكيف حصلت، ثم نضع الحلول والمعالجات لها.

إن السبب فيما ذكرتم لا أنّ العالم الغربي مادي، إنما السبب فينا نحن المسلمين، فنحن لم نلتزم بالإسلام التزاماً كاملاً، والتربية الإسلامية عندنا لا

(١) الكهف: ٧٤.
(٢) الروم: ٣٠.

أقول: إنها مفقودة، إلا أنها ضئيلة جداً، فقد تكون نسبتها في البيت واحداً أو اثنين بالمئة، أما في دور العلم والتعليم في البلاد الإسلامية، فإننا نملأ ذهن الطالب بالأحكام الشرعية، سواء ما يرتبط منها بالعقيدة أم بالعمل، ولكن لا يوجد إلى جانب هذا تربية.

نحن نصطلح على أسماء الوزارات بوزارة المعارف، ووزارة التربية، ووزارة التعليم، فوزارة التربية تشرف عادة على الروضات والمدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، والإنسان في هذه المرحلة من العمر يحتاج إلى تربية، أما التعليم العالي فهو عندما يصل الإنسان إلى مرحلة من السن تتجاوز مرحلة التربية. ونحن في مناهجنا الموجودة في البلاد الإسلامية حالياً، لا نفرق بين هاتين المرحلتين، ففي مرحلة الابتدائية نضخّ المعلومات ضخاً في ذهن الطالب، في حين أن ذهنه لا يتحمل تلك المعلومات، والمفروض أن نربيه أولاً.

والآن في مناهج وبرامج التربية الحديثة، تعطى الصفوف الأولى من الأول إلى الرابع للمعلمات دون المعلمين، لأن المرأة أقدر على تربية الطفل في هذه المرحلة من الرجل. ونحن في البلاد الإسلامية لا نهتم بهذه الجوانب مع شديد الأسف.

وهناك استفتاءات واستبيانات لا بد أن تؤخذ في كل فصل من فصول السنة، أو في كل سنة على الأقل، لتدرس وتؤخذ نتائجها بعين الاعتبار، لتطوير برامج التربية.

إننا في واقع الأمر منساقون وراء الغرب المادي؛ لأننا نعاني من فراغ عقَدي ومن قلة التربية، فنحن نحتاج إلى التربية، فالكثير منا يحمل معلومات بلا تربية، والقرآن الكريم يضرب لنا أروع الأمثلة حيث يقول: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ

يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[1]، فما الفائدة للحمار من كتب كثيرة وثمينة يحملها على ظهره؟ هكذا العلم والتعليم بلا تربية فهناك من يحمل علماً لكنه لا يستفيد منه. فلا بد من إعادة النظر في برامج التعليم عموماً، والتعليم الابتدائي بالذات، وتحويل التعليم إلى تربية، وأن يعطى الطالب في المراحل الأولى معلومات قليلة، ويربى تربية خاصة، وإلا فإننا لا نستطيع بهذه الطرق الوعظية أن نحل المشكلة حلاً جذرياً، لأن الوعظ ينبه ويذكّر، ولكنه لا يربي، وهناك فرق كبير بين التربية والتنبيه.

السؤال السادس: درسنا في اللغة أن ما جاء على وزن فَعَلان يدل على الاضطراب، والآية الكريمة التي ذكرتموها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[2] فيها كلمة جاءت على هذا الوزن، ولكنها تدل على الاستقرار والهدوء، فما وجه المقاربة أو التوافق بين الأمرين؟

الجواب: نعم، ذكر النحويون ذلك، لكن السائل يفهم من الاضطراب عدم الاستقرار، وكذلك أراد النحويون أيضاً، لكن الحركة شيء وعدم الاستقرار شيء آخر، فالحركة هي الحيوية، فالدوران حركة مستمرة، وكذلك الغليان، فالاضطراب يعنون به الحركة، وليس عدم الاستقرار. والاستقرار ليس معناه الجمود فالحركة استقرار أيضاً، فالاستقرار إذن ليس معناه السكون والركود، إنما أن لا يكون هناك اضطراب، وأن لا يكون هناك حركة.

السؤال السابع: تحدثتم في باب العمل في القرآن الكريم أن الرفعة للمؤمنين لا تأتي إلا بالإيمان القوي والعمل الصالح، فكيف تفسرون امتلاك القوة والرفعة - إن صح التعبير - عند الكفار؟ هل بإيمانهم القوي وعملهم الصالح

---

(١) سورة الجمعة: ٥.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

لدينهم أو هناك تفسير آخر؟.

الجواب: كانت هناك إجابة ضمنية عن هذا السؤال من خلال الحديث، ومن الممكن أن نجيب بجواب آخر، وهو: إن أية أمة من الأمم، لا تأخذ وجودها في هذه الحياة إلا إذا كانت تمتلك إرادتها التي تنبثق عنها كرامتها، وأية أمة لا تمتلك إرادتها تفقد كرامتها، ونحن نحتاج كأمة إسلامية أن تكون لدينا إرادة وتصميم وعزم، فإذا كانت لدينا إرادة تكون عندنا قوة، وتكون عندنا كرامة.

نحن نقول: إن خلافة الإنسان في الأرض، التي يترتب عليها الثواب، لا تكون إلا للمسلمين، أما أولئك فليس عندهم خلافة لله في هذه الأرض، إنما عندهم قوة، وقد وصلوا إلى هذه القوة بأن ملكوا إرادتهم، أما نحن فلا نملك إرادتنا. وهذا الكلام لا يرضي كثيراً من الناس، وخاصة الساسة في العالم الإسلامي، لكن هذا هو الواقع. فالأمة الإسلامية لا تمتلك إرادتها، وقد مرت علينا الكثير من الأحداث في عصرنا هذا، وشاهدنا كيف اختلف فيها المسلمون وتشعبوا وتناحروا بعيداً عن واقع التشريع الإسلامي.

فنحن لا يمكن أن نكون أسياد العالم، كما أراد الله تعالى لنا ذلك، إلا إذا ملكنا إرادتنا، لكي تنبثق عنها الكرامة والعزة التي جعلها الله تعالى له ولرسوله وللمؤمنين.

السؤال الثامن: حب الله أساس كل فضيلة، وحب الدنيا أساس كل رذيلة، ما المقصود بالحب؟ وهل الحب درجات أو مراتب؟ وما هو حب الله وما هو حب النبي ﷺ؟

الجواب: الحب الإلهي يعني أن تحب الله أو تحب الرسول ﷺ وأن تنكر ذاتك أمام الله تعالى. والكلمة المعروفة عند الفلاسفة وعند الصوفيين

والعرفانيين أيضاً هي: «نكران الذات من حب الذات» تعني أنك إذا أحببت نفسك، تنكر ذاتك أمام الله، وتنكر ذاتك أمام الرسول ﷺ هذا هو المقصود من حب الله وحب الرسول ﷺ.

السؤال التاسع: كيف نرد على كثير من المشككين الذين يقولون: إن القرآن الكريم أغفل دور المرأة في الدنيا، أكثر من إغفاله بيان ثوابها في الآخرة، حينما بشر المؤمنين بالحور العين في كثير من الآيات؟

الجواب: قبل أن أجيب عن هذا السؤال أقول: إننا لم نحل مشكلة الرجل لنحل مشكلة المرأة. وهذا الموضوع الذي أثير سابقاً، وتبناه قاسم أمين المثقف المصري المعروف، وانتشر في العالم العربي والإسلامي، كان لعبة سياسية، وقد كُشفت هذه اللعبة، وكتب عنها كثيراً.

إن الإسلام لم يهمل المرأة، وإنما أعطاها حقها كما أعطى الرجل حقه، فأنت تجد دائماً أن هناك توازناً بين المرأة والرجل. وهناك فرق كبير بين أن يأخذ كل منهما حقه، وبين أن تأخذ المرأة مجالات الرجل، أو بالعكس، لأن الرجل أيضاً غير مستعد بل لا يستطيع أن يأخذ مجالات المرأة، فلا يمكن أن يرضى أن تخرج المرأة للعمل ويجلس هو في البيت. فالمرأة في تكوينها البيولوجي لها مجالات خاصة في الحياة، والرجل كذلك، والمفروض فيها أن تأخذ مجالاتها في الحياة، وكذلك الرجل. أما أن تكون المساواة بأن نلغي الفروق بين الرجل والمرأة، وهي فروق طبيعية نابعة من تكوين كل منهما،فهذا لا يتأتى لأحد، وهو أمر غير مستطاع، وسوف نقع في مشاكل كثيرة.

ولو قدر لك أن تقرأ عن الضجة التي حدثت في أمريكا حول موضوع الإجهاض، لرأيت العجب العجاب، فقد حصلت ضجة كبيرة حول سنّ تشريع بهذا الخصوص أو عدم سَنِّه؛ كل ذلك لأن المرأة أعطيت مجالات الرجل.

أما أن القرآن استخدم لفظ الذين آمنوا للتعبير عن الذكور والإناث مغلباً لفظ الذكر، فهذا ما كانت عليه لغة العرب التي نزل بها القرآن، فهل يصح أن نقول: إن اللغة العربية ظلمت المرأة وهضمت حقها؟ كلا، إنها استخدمت واو الجماعة ونون النسوة على حد سواء.

السؤال العاشر: إشارةً إلى الآية الكريمة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، وقد فسرتم المتاع بالعبث، فلماذا خلق الله الدنيا مع أنه لا يخلق العبث؟ أرجو التفضل بالتوضيح.

الجواب: كلمة دنيا تطلق على هذا اللون من الحياة بما فيها، وقد تطلق على نوع من تصرفات الإنسان، فعندما نقول: عبث، نعني التصرفات التي تصدر من الإنسان وهي غير هادفة، فليس هو الوجود من الأرض والأنهار والأشجار والمياه، وإنما نقصد من كلمة الدنيا التصرف الإنساني في هذه الدنيا، إذا تصرف تصرفاً دنيوياً غير مرتبط أو غير خاضع لحكم شرعي، فيكون عبثاً، وهذا التصرف مخلوق للإنسان وليس مخلوقاً لله تعالى.

السؤال الحادي عشر: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2] ما هو المقصود من الآية وما هو تفسير (إنما يخشَ الله)؟

الجواب: الخشية هي الخوف، والعلماء هنا هم العارفون بالله، الذين أدركوا عظمته من خلال ما يحملون من علم، وقد يكونون فقهاء أو غير فقهاء، فقد يكون العالم كيميائياً لكنه يدرك عن طريق علمه عظمة الله، فتكون لديه الخشية والخوف من الله تعالى.

---

(١) آل عمران: ١٨٥ والحديد: ٢٠.

(٢) فاطر: ٢٧، ٢٨.

المحور الثاني

نظامنا الإسلامي

- الرسالة الخاتمة وصياغة النظام الإسلامي
- سلوكنا والنظام الإسلامي
- العلاقة بين الإمامة والأمة
- مَنْ ينتظرُ مَن؟

الرسالة الخاتمة وصياغة النظام الإسلامي

تمهيد:

لا بد أن أشير في البدء إلى جانبين مهمين لهما صلة بالموضوع:

الجانب الأول: لقد كانت الشرائع السابقة لشريعة نبينا محمد ﷺ مرحلية ومؤقتة بوقت محدود، بخلاف شريعة الرسالة الخاتمة. وقد كان ذلك التوقيت والتحديد يتماشى مع تطور الإنسان فكرياً وحضارياً، إلى أن وصل الإنسان إلى المرحلة الكاملة في تطوره، فجاء الإسلام ليبدأ مرحلة جديدة لا تحدّ بوقت ولا تنتهي عند زمن معين. فالشريعة الإسلامية نسخت الشرائع السابقة، بمعنى أن تلك الشرائع أُلغيت أحكامها، فلا يُلتزم ولا يؤخذ بها، ويجب أن يؤخذ بالشريعة الإسلامية الكاملة التي تبقى منسجمة مع الإنسان حتى يوم القيامة.

الجانب الثاني: إن ما وصل إلينا من الشرائع السابقة كان عن طريق القرآن الكريم، وهو المصدر الوحيد الذي نعتمده في ذلك لأنه لم يتسرب إليه التحريف، في حين حصل تحريف كبير في ما نقل عن تلك الشرائع في كتبها الخاصة كالتوراة والإنجيل، ولا نستطيع من الناحية الشرعية، ولا من الناحية العقلية أن نعتمد على تلك الكتب المحرّفة.

ولسنا وحدنا ندعي تحريف الكتب السابقة، إنما الدراسات الحديثة لكثير من العلماء الغربيين الذين تناولوا (علم اللاهوت) ودرسوا من خلاله التوراة

والإنجيل، أشارت إلى تحريف ما يسمى بالكتاب المقدس، وهو اصطلاح يطلق على العهد القديم (وهو التوراة)، والعهد الجديد (وهو الإنجيل)، وبنظرة سريعة للكتاب المقدس يدرك القارئ ما فيه من تحريف، من خلال الكثير مما فيه من غير المعقول.

من هنا يقتصر كلامنا على الإسلام، لأن الشرائع السابقة لا يؤخذ بها، لأنها نسخت بالإسلام.

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى وقوع التحريف في الكتب السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[1]. أي: إن الذين أوتوا الكتاب هم الذين أوجدوا الاختلاف والتحريف فيه لغايات مختلفة.

الإسلام دين الإنسانية:

وقد أثبتت دراسات التشريعات المقارنة بشكل عام، أن التشريع الإسلامي هو التشريع الوحيد الذي يتمشى مع طبيعة الإنسان. وإذا كان الأمر كذلك يكون الالتزام به واجباً ولا يجوز الأخذ بغيره.

نموذج الاقتصاد العالمي:

وإليك هذا المثال: ففي حقل (الاقتصاد العالمي)، هناك الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الإسلامي، ولو أننا قارنّا موضوع الملكية في هذه المذاهب أو النظم الثلاثة، لرأينا أن الاقتصاد الاشتراكي يعتمد الملكية العامة أساساً والملكية الخاصة استثناءً، فالملكية الفردية محدودة، والملكية العامة هي الأساس، وأن ثروة البلد ما هي إلا ملكية عامة، أما الأفراد فيمكن

(١) آل عمران: ١٩.

أن يملكوا ملكية خاصة، لكنها استثناء من الأصل، وهو الملكية العامة، فالأساس عندهم هو الملكية العامة. من هنا فإن الملكية الخاصة تحدد في نطاق ضيق في التشريعات الاشتراكية.

أما الاقتصاد الرأسمالي فعلى العكس من ذلك، فهو يقوم على أساس الملكية الخاصة، ويطلق الحرية لذوي الأموال حتى تتحول إلى رؤوس أموال ضخمة، ومن هنا سُمي هذا النظام بالنظام الرأسمالي، والملكية العامة في هذا النظام هي الاستثناء، فالدول الرأسمالية تعتمد على الضرائب بشكل واضح، وهي رسومات وفروض مالية على أصحاب الملكيات الخاصة.

أما التشريع الإسلامي أو الاقتصاد الإسلامي فهناك ثلاث ملكيات مزدوجة (متوازنة) لا تفضل فيها ملكية على أخرى، فليس هناك ملكية أساس والأخرى استثناء، فهناك ملكية الأفراد، ولكن في حدود الملكية المقيدة، وملكية الأمة، وملكية الدولة، فالمجتمع يتألف من أفراد، وفيه حكومة. والحكومة تملك جزءاً من الثروة، تتصرف فيها وفق متطلبات وضعها كحكومة. والأمة أيضاً لها جزء من الملكية، وكذلك الأفراد، وعن طريق العدالة الاجتماعية يوجد الإسلام التوازن بين هذه الملكيات، فلا تطغى ملكية على ملكية ولا تعتدي ملكية على ملكية أخرى.

هذا مثال واحد لمراعاة الإسلام جانب العدالة في توزيع الثروة، في حين أننا لا نجد هذه العدالة في النظام الاشتراكي ولا النظام الرأسمالي.

وظائف الدين:

بعد أن عرفنا أن الدين عند الله الإسلام، نحاول أن نفهم (وظيفة الدين)، فالله تعالى أنزل الأديان لمصلحة الناس، ولكن كيف يحقق الدين تلك المصلحة؟

يحقق الدين مصلحة الإنسان من خلال الوظائف التالية:

الوظيفة الأولى: توضيح العقيدة، فالإنسان بتفكيره الخاص قد يصل إلى تصور نظري معين للكون والحياة والإنسان، لكنه يخطئ في تفكيره والنتائج التي يتوصل إليها. فتكون وظيفة الدين أن يحدد ويبين له التصور الصحيح لذلك والعقيدة الحقة، ويزوده بنظرية وفلسفة كاملة عن نشأة الكون وتطوره ونهايته، وكذلك ما يتعلق بالحياة والإنسان من حيث النشأة والتطور والنهاية.

وهذه الفلسفة تسمى (العقيدة)، ويُعبَّر عنها أيضاً بأصول الدين، والمبدأ والمعاد.

كما أن الدين يقوم بتصحيح الكثير مما يصل إليه الإنسان من أفكار ناقصة أو مغلوطة في هذا المجال.

والسبب في توضيح الدين لمعالم العقيدة وأسسها، وإعطاء فلسفة عن الكون والحياة والإنسان، أو ما نسميها بفلسفة الوجود: أن العقيدة هي القاعدة التي يبني عليها الإنسان حياته وسلوكياته. فمن آمن بالله تعالى وما أنزله من تشريعات سوف تكون سلوكياته وحركته وفق ما يرتئيه ويؤمن به من عقيدة، وأنه سيعود إليه فيحاسبه عما جاء به من أعمال. فترى المسلم يدفع الزكاة والخمس وغيرهما من الحقوق طوعاً، ويصلي ويصوم باختياره، ويمتنع عن السرقة والظلم وشرب الخمر وغيرها بلا رقيب عليه.

فكل حركة من حركات الإنسان ترتبط بالله تعالى، والعقيدة التي يعتقدها به.

الوظيفة الثانية: وضع النظام الحياتي ورسمه، والإسلام في هذا المجال

يختلف اختلافاً كبيرًا عن الأديان الأخرى والتشريعات الوضعية، لأنه يضع للإنسان نظاماً دقيقاً قبل ولادته إلى ما بعد وفاته. فهناك تعليمات للفرد عندما يريد أن يتزوج، وهناك مواصفات لمن يريد أن يختارها الرجل زوجةً له، أو لمن تختاره المرأة ليكون زوجاً لها[1].

وكما يضع الإسلام نظاماً للإنسان قبل أن يولد، ليولد سوياً، فإن النظام يستمر معه في الطفولة، وما بعدها إلى أن يموت، ويبقى النظام سارياً بعد الموت، حيث يأتي دور أولياء الميت ليتصدقوا عنه مثلاً.

الوظيفة الثالثة: تحديد مركز الإنسان في الحياة:

ففي الكون مخلوقات كثيرة ومختلفة، منها أحياء ومنها جمادات وغير ذلك، فالتشريع الإسلامي يبين للإنسان مركزه في هذه الحياة، وهو أنه: مسؤول كريم. فهو مسؤول عن أمانة إلهية، وله كرامته عند الله.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[2]. فما هي الأمانة؟

هناك الكثير من الغموض واللبس لدى المفسرين بخصوص الأمانة. فالمخلوقات بأسرها خاضعة لله.

وهذا الخضوع ينقسم إلى قسمين: خضوع تكويني، وخضوع تشريعي.

---

(١) هناك نعوت وأوصاف معينة في الرجل والمرأة قبل الزواج، لها تأثير كبير على المولود، وردت في النصوص الشرعية، كما في قول النبي ﷺ: «اختاروا لنطفكم فإن العرق دساس» أو «فإن الخال أحدُ الضجيعين» بمعنى أن الوراثة كثيراً ما تأتي من الخؤولة. وكذلك قوله: إياكم وخضراء الدِّمَن، قالوا يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

أما الخضوع التكويني: فهو ما يرجع إلى تكوين المخلوق نفسه بلا اختيار منه، كما في تكون الإنسان من نطفة ثم علقة ثم مضغة، حتى يصل إلى مرحلة الجنين، ثم يولد طفلاً، وهكذا، ففي هذه المراحل ليس له أي اختيار، إنما يخضع لله قسراً وقهراً، ولو كان له اختيار لدفع الهرم والموت عن نفسه.

فالمخلوقات كلها خاضعة لله خضوعاً تكوينياً، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1].

والتسبيح هو الخضوع لله تعالى، أي أن جميع المخلوقات منقادة وخاضعة له خضوعاً تكوينياً لا إرادياً.

وأما الخضوع التشريعي: فيتعلق بإرادة الإنسان واختياره، في أن يمتثل القوانين والتشريعات أو أن يخالفها، فالصلاة تشريع إلهي، يمكن للإنسان أن يخالفه أو يمتثله، وكذلك حرمة الزنا وشرب الخمر، فللإرادة والاختيار الدور الأساسي في خضوع الإنسان أو عدم خضوعه، فمن خضع أو خالف فإنما يخضع أو يخالف تشريعياً، وليس هناك من يجبره، فهو خضوع إرادي اختياري. وللإنسان فيه الحرية المطلقة.

وعند المقارنة بين الإنسان وغيره من المخلوقات نلاحظ أنه يشترك مع سائر المخلوقات في الخضوع التكويني، لكنه يختلف عنها ـ باستثناء بعض المخلوقات كالملائكة، حسب القول بأن هناك تشريعاً خاصاً بها ـ بالإدراك وحرية الإرادة.

وتقول بعض الدراسات العلمية أن الكثير من المخلوقات من غير الإنسان

---

(١) الإسراء: ٤٤.

لديها إدراك نسبي، لكنها لا تملك الإرادة، حتى الشجرة التي يريد الإنسان قطعها تدرك بقدر ما أنه سيقطعها، إلا أنها لا تملك الإرادة والاختيار التي تعطيها حرية الدفاع عن نفسها.

ومن هنا ندخل إلى موضوع الأمانة الواردة في الآية الشريفة، ففي عالم الخلق عرض الله تعالى على الإنسان مسؤولية التكليف بالتشريع، فهو مكلّف بالصلاة، والصدق مع الناس، وغيرها، فالتشريع تكليف من الله سبحانه كلّف به الإنسان.

وهذا التكليف يتطلب الإدراك والإرادة، لذا فإن غير المدرك وغير الواعي يسقط عنه التكليف. وكذلك مسلوب الإرادة والاختيار.

فالله سبحانه وتعالى عرض مسؤولية التكليف ـ وهي اختبار وامتحان ـ على السماوات والأرض والجبال وغيرها، فأبت أن تتقبله وخشيت أن تتحمل المسؤولية، إلا أن الإنسان تقبلها وحملها، لأن الله تعالى منحه الإدراك (الفهم والوعي) والإرادة، فأصبح مسؤولاً (مكّلفاً) أمام الله تعالى عن تطبيق التشريع الإسلامي على سلوكه.

وبعد أن تقبل الإنسان هذه المسؤولية ورفضتها المخلوقات الأخرى، كّرمه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وهكذا نرى أن التشريع الإسلامي برمته يتمشى مع مستوى الكرامة الإنسانية، فلا تجد ما يهدر كرامته ويفرط بها إلا إذا كان يستحق هدر الكرامة.

فالأمانة هي مسؤولية التكليف، أي أن الإنسان مسؤول (مكلف) بتقبله

---

(١) الإسراء: ٧٠.

هذا التشريع، وقد وضع نفسه في موضع الاختبار والامتحان.

ونتيجة هذا الاختبار والامتحان حسب تقسيم القرآن الكريم، أن يكون الإنسان على واحد من ثلاثة أقسام: مشرك، ومنافق، ومؤمن. فالمؤمن من التزم التشريع والتكليف عن صدق. والمشرك: من رفض التشريع، ولم يؤمن به من الأساس. والمنافق: هو من يتظاهر بأنه ملتزم بالتكليف، لكنه في حقيقته غير ملتزم.

فالمسؤولية تمثلت في أن الله تعالى جعل الإنسان خليفته في الأرض، وهو نوع من التكريم، والتشريف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]. وقال جل وعلا: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2]. أي أنه جعل الإنسان خليفة يتصرف بمال الله في إطار التشريع.

كما تتمثل مسؤولية الإنسان من جهة أخرى في العمل، فلا يستحق شيئاً من الثروة في هذه الحياة إلا في مقابل العمل، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[3]، أي طلب منكم أن تعمروها بالعمل فيها. وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[4]. فأنت تعمل، لكن المال مال الله، وأنت مستخلَف في التصرف فيه، وهذه أيضاً مسؤولية لا بد أن يتحملها الإنسان.

ومن مظاهر تلك المسؤولية الولاية للمسلمين، فكل مسلم هو ولي المسلم

---

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) الحديد: ٧.
(٣) هود: ٦١.
(٤) الملك: ١٥.

الآخر، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[١]. فأنت مسؤول عن نفسك كما أنك مسؤول عن المسلمين الآخرين، وفي حدود التشريع. قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٢]. فيجب على كل منا أن يرشد الآخر للحق، وأن يصبر على التكليف، ويوصي غيره بالصبر عليه، كما قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته».

ومن مظاهر التشريف والتكريم الذي أعطي للمسلم، الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[٣]. وفي الآية الشريفة نوع من التكليف والتشريف أيضاً من خلال الدعوة إلى دين الله.

كما تتمثل المسؤولية بالعدل في المعاملة، سواء مع نفسه أو مع الله أو مع الناس، وفي كل شيء. فلا مجال في الدين الإسلامي للظلم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٤]. وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٥]. فلا بد من العدل على كل حال.

والقرآن الكريم يقارن بين تعامل المسلم وغير المسلم بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[٦]. والحمية هي العصبية، للأسرة أو

---

(١) التوبة: ٧١.
(٢) العصر: ٣.
(٣) البقرة: ١٤٣.
(٤) النساء: ١٣٥.
(٥) المائدة: ٨.
(٦) الفتح: ٢٦.

القبيلة أو القومية، أو أي أمر آخر. وقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «ليس منا من دعا إلى عصبية». ثم يقول تعالى في الآية السابقة: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[1]. فالسكينة هي الهدوء، فلا عصبية ولا حميّة، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ أي أعطاهم التشريع الذي يحقق العدل لذواتهم.

ومما يرتبط بالمسؤولية أيضاً، الاتحاد، بأن يكون المسلمون كالجسد الواحد، ولكن في ظل الإسلام قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[2]. وقال عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[3]. فهذا كله دعوة إلى الوحدة والاتحاد، وهو مطلوب ليحقق الإنسان مسؤوليته ويقوم بها أحسن قيام. فالاتحاد أحد أسباب القوة. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[4]. فينبغي أن يكون المسلم قوياً، ولا يسوغ له ولا يناسبه أن يكونَ ضعيفاً.

نظرة في واقعنا:

كانت هناك نظريات ظهرت في القرن التاسع عشر وأثرت في سلوك البشرية بشكل عام، وبدلت الوضع العالمي، ثم انكشف واقعها للناس، وانتهت كنظريات علمية، وأصبحت اليوم من بقايا الماضي، كنظرية (دارون) في النشوء والارتقاء، ونظرية (فرويد) في الجنس، ونظرية (أدلر) في السيطرة، ونظرية (كارل ماركس) في حتمية التاريخ والعامل الاقتصادي. وهؤلاء

(١) الفتح: ٢٦.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) الشورى: ١٣.
(٤) الأنفال: ٦٠.

الأربعة كلهم يهود. وقد انتهت نظرياتهم تلك، ونهض العالم من جديد من مسلمين وغير مسلمين.

وفي نهضتنا نحن المسلمين لم يكن هناك استدلال بالعلم الحديث على وجود الله، إلا في الآونة الأخيرة. والعلم الحديث له دور كبير في تطوير حياة الناس، ومن هنا أخذ أهميته في نفوسهم.

وفي الآونة الأخيرة صدرت بعض الكتب، وأثبتت أن العلم الحديث، مع كونه علماً مادياً، ولكننا نستطيع من خلاله أن نثبت وجود الله تعالى. ومن أهم تلك الكتب الأسس المنطقية للاستقراء، للشهيد السيد محمد الصدر (قدس سرّه)، وغيره من المؤلفات في مجال الاقتصاد والسياسة وغير ذلك. فالجانب الفكري للنهضة الإسلامية أُشبع وبشكل جيد في هذه الأيام، وأخذ المسلمون بالصعود.

أما الغربيون، فيمكن أن نقيّم الحال عندهم من خلال ما تنشره وسائل الثقافة والإعلام في بلدانهم، فقد نشرت صحيفة التايمز البريطانية مقالاً بعنوان (رحلة إلى الجنة) قالت فيه:

في سنة ١٨٤٠ م كان كل أمريكي يحمل في جيبه خُططاً جميلة للمستقبل، تماماً كما يحمل منديله في جيبه، لكننا نجد اليوم جيوب الأمريكيين وقد خلت من هذا النوع من الرغبة، فقد يئس الناس من الظروف الاجتماعية تماماً، وانتهت تصورات بناء المجتمع الراقي السامي، وبدلاً من فكرة بناء جنة على الأرض، أصبح الجميع يميلون إلى البحث عن الجنة في داخل ذواتهم.

ويضيف المقال: إن دمار اليوم قد جعل عدداً كبيراً من مفكري العالم يضعون آمالهم وعقائدهم على أرواحهم كآخر ملجأ للمثالية، وبدأوا يحثون على الاتجاه للروحانيات بدلاً من الماديات، حتى أن بعض الناس يقول: إن عملية السمو هذه إنما تصل بالحضارة إلى أعلى مراحل الشعور وتصل بالإنسان في النهاية إلى

أعلى وأسمى حقيقة أي إلى الله.

وتعليقاً على هذا نقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، فلا بد من الرجوع، وقد بدأوا بالرجوع، وسيكون الانتصار للإسلام أمراً حتمياً.

الأسئلة

س١: قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هل أن السبيل هو الخطوط العريضة التي اتفق عليها عامة المسلمين؟ وما معنى اختلاف المسلمين حتى لم يعد لهم سبيل واحد؟

الجواب: التشريع الإسلامي فيه ثوابت وفيه متغيرات، فالثوابت لا تتغير: وحلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة، أما المتغيرات فترتبط بالوسائل والأساليب وموضوعات الأحكام، فهذه يقع فيها اختلاف، وليس في ذلك ضرر أو عيب، لأن الاختلاف في الاجتهاد قد يقع من اختلاف النص أو اختلاف في قراءته، والاختلاف مشروع وموجود من قديم الزمان.

من جهة أخرى فإن الاختلاف الذي نراه بين المسلمين قد نشأ من المصالح الشخصية، فالمصالح الشخصية تلعب دوراً كبيراً فيها، وإذا لم يكن هناك أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر فإنها تتوسع ويحدث الافتراق.

فالاختلافات الفقهية في التشريع لا بأس بها ولا ضرر، أما السبيل فهو واحد لا يتعدد بالاختلافات الفقهية، والضرر إنما يأتي من الاختلافات التي

(١) الروم: ٤١.

جاءت نتيجة الأطماع والمصالح الشخصية.

س٢: الدعوة إلى الاتحاد بين المسلمين أمر مطلوب، ولكن ما هي القاعدة التي تبنى عليها وحدة المسلمين؟ هل بتذويب المذاهب في بوتقةٍ واحدة وهي الإسلام؟ أو اعتماد المذهب الإسلامي الأصيل وهو مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي يصل بالأمة إلى طريق الأمان والاتحاد؟

الجواب: توحيد الأمة الإسلامية يتوقف على أمرين:

الأول: معرفة أسباب التفرقة، فالمشكلة لا تحل عادةً إلا بمعرفة أسبابها.

الثاني: يمكن التقارب بين المذاهب عن طريق الدراسات المقارنة، فإنها يمكن أن تذوّب كثيراً من الفروق، وقد بدأت هذه الدراسات المقارنة بالفعل إلا أنها ليست بالمستوى المطلوب، وكانت قد انطلقت في بداياتها من النجف، وكان يفترض أن تنطلق من الأزهر أو من أماكن أخرى، لأن الإخوة السنّة يمثلون الأكثرية، لكنها انطلقت من النجف ومن كلية الفقه بالذات، ثم أصبحت تدرّس في جامعة بغداد، ثم انطلقت من بغداد. وكذلك في إيران هناك دراسات مقارنة في الشريعة الإسلامية، وفي مصر أيضاً، حتى أن جامعة الأزهر أدخلت الدراسات المقارنة بين المذاهب الثمانية المعاصرة[1]. فهذه الدراسات المقارنة يمكن أن تقوم بدور التقريب الفكري.

س٣: عدالة الإسلام تأبى أن تُخرج شخصاً من مجتمعه بدون أن تكون حقوقه الاجتماعية مستوفاة. وقد ذكرتم الحديث: «إياكم وخضراء الدمن» وأشرتم إلى الابتعاد عن الارتباط مع الحسناء التي تربت في دار السوء، فمن ناحية اجتماعية وعدل إسلامي، ما هي الحلول التي وضعها الإسلام لتوفير

---

(١) المذاهب السنية الأربعة المعروفة، والشيعة الإمامية والزيدية، والإباضية، والظاهرية.

الحقوق الكاملة لتلك الحسناء وبيئتها التي نشأت فيها؟ فإنها لم تكن مخيّرة ولا مذنبة في السلوك الذي ينتهجه أصحاب الدار التي تعيش فيها.

الجواب: لا نقول إنها مذنبة، أما كيف تعالج ؟ فيمكن أن تعزل عن البيئة الفاسدة وتعالج بالتربية، وتعود كما كانت، ويستطيع المسلم أن يتزوجها.

س٤ : لقد ذكرتم أن الإنسان تحمل مسؤولية التكليف وحده دون سائر المخلوقات، فما هي الصفات التي جعلته يتحمل هذه المسؤولية ويحاسب عليها دون سائر المخلوقات؟

الجواب: ذكرت أن الله سبحانه وتعالى عندما عرض المسؤولية على المخلوقات وأبت أن تحملها وتقبلها الإنسان، فإن الله سبحانه وتعالى منحه الوعي والإرادة ليستطيع تحمل هذه المسؤولية، ففي مقابل تقبله لهذه الأمانة والمسؤولية، أعطاه الله القدرة والاستعداد لتحملها، بأن أعطاه العقل (الوعي والإدراك) وأعطاه الإرادة (حرية الاختيار). وإذا كان لديه العقل فإنه يميز بين الخير والشر، وبين المصلحة والمفسدة، وكذلك حرية الاختيار، فإنه يستطيع أن يختار الخير والمصلحة ويترك الشر والمفسدة، ويحقق ما أراده الله.

س٥: ما وجه الاتفاق بين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2]، وهل هذا يعني أن أهل الكتاب كفار؟

الجواب: لقد استخدم الإسلام في البداية أسلوب الغزوات، والقوة العسكرية لمحاربة الشرك، لأن المفروض أن لا يبقى شرك على وجه الأرض، وبعد أن انتشر الإسلام واستقر، وأصبح لدى المسلمين القدرة على الإقناع

(١) آل عمران: ٨٥.
(٢) البقرة: ٢٥٦.

الفكري جاءت الآية: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لتنهى عن استخدام القوة العسكرية.

أما عن الكتابيين فإن غير المسلم كافر بلا شك، فالكفر معناه الستر، ومن يجحد بنبوة النبي محمد ﷺ فقد سترَ الحقيقة، ومن أصول الإسلام الإقرار بنبوة النبي محمد ﷺ.

س٦: ذكرتم في الآية عرض الأمانة على الإنسان، وأن الإنسان ظلوم جهول، فما معنى كونه ظلوماً؟

الجواب: الإنسان ظلوم لنفسه، وجهول بمستقبل ما يؤول إليه، فقد ذكرنا أن الإنسان سيتنوع نتيجة الاختبار والامتحان من خلال هذا التكليف إلى مشرك ومنافق ومؤمن، فالظلم والجهل عندما يكون مشركاً أو منافقاً، أما إذا كان مؤمناً فهو عادل مع نفسه وعالم بما يصلحه.

س٧: هل من الممكن أن توجز لنا أبرز الطرق الأساسية في الدعوة إلى الله؟

الجواب: الدعوة إلى الله تتطلب:

١ ـ الإيمان بالدين.

٢ـ أن يفهم ويدرك ما يدعو إليه، فكيف تدعو أحداً للصلاة مثلاً وأنت لا تعرفها؟ وهكذا في غيرها. ولا نطلب فهم الدين بتفاصيله، إنما لا بد على الأقل أن نفهم الأساسيات.

٣ـ الصمود والصبر، لأن أمام الدعوة عقبات وعراقيل، وليس متوقعاً أن يجد الإنسان الطريق أمامه مفروشةً بالورود والرياحين، وإنما يراها مليئة بالأشواك، فلا بد من الصبر حتى يصل إلى الغاية.

والحمد لله رب العالمين

سلوكنا والنظام الإسلامي

هـذا العنـوان يبدو عادة أنه مـن العناوين التي تُعرف بالعناوين السـيّالة أو المطّاطة التي تحتمل أكثر من معنى.

ونحـاول الآن أن نطـرح بعـض المحتمـلات التـي يمكـن أن تسـتفاد من العنوان، ثم نختار من هذه الاحتمالات ما هو أقرب لطبيعة الإنسان.

مفهوم (سلوكنا):

ضمير الجمع في (سلوكنا) نعني به المسلمين وهذا واضح، ولكن ماذا يراد من هذا التعبير؟ هل هو أشـبه بعنوان فلسـفتنا (وهو عنوان الكتاب المشـهور للشـهيد الصـدر قدس سره) ؟ أو أنـه كعنوان كتابه الآخـر (اقتصادنا) مثلاً ؟ اللذين أراد بهما دراسـة الفلسـفة الإسلامية، مُقارنة بالفلسـفات الأخرى، أو دراسة المذهب الاقتصادي مقارناً بالمذاهب الاقتصادية الأخرى ؟.

إن العنوان هنا لا يحتمل هذا المعنى؛ لأنه يقترن بعبارة (من منظور إسلامي) أي أننا نريد أن ندرس سـلوكنا من خلال وجهة نظر إسـلامية. فعندما يُدرس السـلوك مـن خلال وجهة نظر إسـلامية، فقـد يعني أنه يدرس مـن خلال ما ينبغي أن يكون عليه، أو كيف ينبغي أن يكون سلوك المسلمين؟.

ومـن الواضـح أنه ينبغي أن يكون سـلوك المسـلمين وفق تعاليـم وأحكام الشريعة الإسلامية.

وقد يراد به دراسـة سلوك المسـلمين في الواقع المعاصر، أي كيف نصوّر أو

كيف نعرّف واقع سلوك المسلمين المعاصر ؟

وسوف أحاول - إلى حدٍّ ما - أن أجمع بين المعنيين، أي بين النظرية وبين دراسة الواقع.

ضرورة وجود النظام:

عندما نقول: (سلوكنا) فلا نعني به الأفراد، إنما نعني به الأمة الإسلامية كلها، فلكل أمة من الأمم، ومنذ قديم الزمان، نظام تسير وفقاً له، وقد يكون ذلك من نوع الأعراف العشائرية، خاصةً في المجتمعات البدائية العريقة في بدائيتها، حيث تعتمد الأعراف العشائرية، فيكون شيخ العشيرة مع غيره من الوجهاء من أفراد العشيرة، يتبنون أعرافاً معينة، تنظم علاقات الأفراد داخل العشيرة، وعلاقة العشيرة بالعشائر الأخرى. وعادةً ما تكون الأعراف العشائرية موروثة ومقدسة عند أفراد العشائر. وهذا نوع من الأنظمة، إلا أنها أنظمة بدائية لا تعتمد على دراسات علمية، وإنما تعتمد على تجارب استفادها شيخ العشيرة وأفراد العشيرة البارزون من الواقع الذي عاشوه أو يعيشونه.

أما في مجال الدول، فهي عادةً ما تتبنى أنظمة، وكل دولة لها نظام، يوضع من قبل مفكرين يقومون بدراسة علمية لأوضاع وشؤون الدولة، ثم يضعون النظام.

فلا توجد مؤسسة اجتماعية، سواء كانت بشكل عشيرة أو بشكل دولة، إلا ولها نظام.

وقد كانت هناك دعوة من أحد علماء الاجتماع ويدعى (غادوين) إلى الفوضى والفوضوية، التي تعني عدم الحاجة إلى النظام، فكان يقول: لسنا بحاجة إلى أي نظام، ولا بد للإنسان أن يأخذ حريته كاملةً، ويتصرف وفق

إرادتـه. إلا أن هـذه الدعوة لم تخرج عن إطار الحـبر على الورق، لأنها دعوة إلى سـفك الدماء والسـلب والنهب وضياع الحقوق. فلم تنجح في إلغاء الأنظمة بين الدول، والاعتماد على الحرية المطلقة للأفراد والمؤسسات.

وسـارت الدول منذ القدم وحتـى الآن في تبني الأنظمـة، لتنظيم علاقات الأفراد والمؤسسات داخل الدولة، وتنظيم علاقة الدولة بالدول الأخرى.

الأنظمة الإلهية والوضعية:

تنقسم الأنظمة عادةً إلى قسمين أساسيين:

الأنظمـة الإلهية، والأنظمة الوضعيـة، الموضوعة من قبل الناس. فالأنظمة الإلهيـة منزلة على الأنبياء (أصحـاب الشرائع) من قبل الله تعالى. أما الأنظمة الوضعية فهي موضوعة من قبل المفكرين في المجتمع أو الدولة.

وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة سريعة بين الأنظمة الإلهية والأنظمة الوضعية، فـإن أول ما نلاحظـه أن الأنظمة الوضعيـة موضوعة من قبل الإنسـان، وهو كائنٌ غير كامل (إلا المعصوم)، وهو استثناء في القاعدة، أما الإنسان من حيث الأصـل والقاعـدة فهـو غير كامـل، وإذا كان كذلـك فإنه يخطـئ في نظرته إلى الحيـاة، أو في تفكيره عندما يقارن بين المعلومات الموجودة لديه أو الموجودة في الكتب، فلا بد أن يحصل لديه خطأ بنحو ما. والتجارب التي مرت بها الأنظمة والقوانـين تبرهن على ذلك بوضوح، وها نحن نسـمع دائـماً ونقرأ أن المادة في القانون الفلاني عُدِّلت أو غُيِّرت إلى مادة أخرى أو أُلغيت تماماً، أو يُسـتحدث تذييل للقانون، وهكذا. كل هذا يدل على أن الإنسـان غير كامل، وقد يصيب وقد يخطئ، فاحتمال الخطأ موجود في أي نظام يُوضع من قبل البشر.

أمـا النظام الذي يأتي من الله تعالى، فالله تعالى كامل، وكماله مطلق لا يحتمل

فيه الخطأ أبداً، وليس عندنا في الشريعة تذييل، ولا استبدال مادة بأخرى، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة**»[1]، معنى ذلك أنه ليس فيه خطأ، ولو كان فيه خطأ لاحتاج إلى التغيير أو ـ على الأقل ـ إلى التذييل، أو إلى التفسير الذي يكشف الخطأ فيه.

فنتيجة المقارنة بين الأنظمة الإلهية والأنظمة غير الإلهية أن الأنظمة الوضعية يُحتمل فيها الخطأ، أما الأنظمة الإلهية -وهي الشرائع المنزلة على الأنبياء عليهم السلام- فلا يُحتمل فيها الخطأ. وللإنسان في هذا المجال أن يختار النظام الإلهي، أو النظام البشري.

ولا بد من التذكير هنا أننا لو أردنا أن نختار، فلا شك أننا نحب ذواتنا، ونريد لأنفسنا السعادة سواء كنا أفراداً أم أمة. ومن المؤكد أن النظام الذي يحتمل فيه الخطأ لا يحقق لنا السعادة الكاملة، أما النظام الذي لا يحتمل فيه الخطأ فهو يحقق السعادة الكاملة.

من هنا يتعين أن يكون الاختيار للنظام الإلهي وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾[2].

فالإسلام اليوم هو الذي يمثل النظام الإلهي، أما الأديان الأخرى فقد انتهى دورها، حيث جاءت لمرحلة معينة، وحققت أهدافها في تلك المرحلة، ثم انتهت مهمتها، وجاء الدين الإسلامي، وهو الدين الخالد. وبالتالي فإن النظام الإسلامي يتمثل اليوم بالإسلام وليس غيره.

---

(١) الكافي١، العلامة الكليني: ٥٨.

(٢) آل عمران: ٨٥.

وبناءً على هذا فإننا إذا أردنا أن نفهم سلوكنا من منظور إسلامي، فذلك يعني تطبيق الإسلام على سلوكنا، أو أن نقيس سلوكنا الفعلي ـ سواء كانت فيه أخطاء أو لم تكن ـ بالمقياس الإسلامي، فهو الكفيل بأن يكشف لنا سلامة السلوك أو عدم سلامته.

آليات تطبيقات الإسلام في السلوك:

والسؤال الآن: كيف نطبق الإسلام في سلوكنا كأمة ؟ وكيف نتخذه نظاماً في حياتنا، في كل أفعالنا وتصرفاتنا كأفراد وجماعات؟ وكيف نفعّل دور الإسلام في علاقاتنا مع الآخرين، وفي علاقة الأمة الإسلامية مع الأمم الأخرى، وعلاقة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى، والحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى ؟ وكيف نستطيع أن نتبنى النظام الإسلامي في حركتنا في الحياة؟

هنالك خطوات لا بد منها:

الخطوة الأولى: الإيمان بالمبدأ: فأي نظام لا يؤمن به الإنسان لا يمكن أن يتقبله، فالخطوة الأولى هي أن نؤمن بهذا النظام، ولا يمكن أن نؤمن بهذا النظام إلا بعد أن نفهم واقعه، فهذا النظام جاء من الله تعالى، عن طريق المعصوم، وكون الناقل معصوماً يكفي أن يثير في نفوسنا الاطمئنان بسلامة النظام، والإيمان بأنه سيحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

فلا بد أولاً أن نؤمن بالنظام الذي نريد أن نطبقه في سلوكنا.

الخطوة الثانية: أن نأخذ هذا النظام من مصدره الأصيل:

فنحن اليوم عبارة عن مذاهب متعددة، سواء في العقيدة أم في التشريع، ولهذه المذاهب مصادر تستقي منها العقيدة والتشريع. ولا بد أن تكون هذه

المصادر إسلامية، وأن تكون أصيلة، ونعني بالأصيلة أن تكون مشروعة إسلامياً، ولدينا دليل على مشروعيتها وجواز أخذ النظام منها.

والمتفق عليه من المصادر بين المسلمين هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإذا أردنا أن نأخذ التشريع الإسلامي الصحيح الأصيل، فعلينا أن نعتمد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

السنة النبوية ... اعتبارها ومصادرها:

هناك طريقان في واقع المسلمين لأخذ السنة النبوية: طريق أهل البيت عليهم السلام، وطريق الصحابة.

أما طريق أهل البيت عليهم السلام فنحن الشيعة بما نملك من أدلة على وجوب اتباع العترة الطاهرة ومودتها ـ كحديث الثّقلين، وحديث السفينة، وحديث الأمان، والأحاديث الأخرى الكثيرة، وأكثرها متواترة، ومقطوع بصدورها من رسول الله صلى الله عليه وآله ـ لدينا اطمئنان تام ويقين كامل بأن ما صحّت روايته من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام هو الذي يمثل السنة النبوية الشريفة.

وبالتالي فإن مصدرنا الأصيل لأخذ النظام، أو التشريع يتمثل بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة المروية عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

وقد نحتاج هنا أن نشير إلى مثال واحد من أمثلة كثيرة، نبرهن فيه على أصالة مذهب أهل البيت عليهم السلام وأن مذهب أهل البيت عليهم السلام هو الامتداد الطبيعي للإسلام.

فقد كُتب كثيراً في الاقتصاد الإسلامي، من قبل الكتاب والعلماء والمفكرين المسلمين ومن قبل المفكرين والمشرعين والقانونين. ومن جملة ما كتب في هذا المجال كتاب (اقتصادنا) للشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره. إلا أن جميع

ما كتب قبل كتاب السيد الصدر في موضوع الاقتصاد الإسلامي، لم يستطع أن يحدد المعالم الواضحة للمذهب الاقتصادي الإسلامي، كما حددها كتابه المذكور، وها هي الكتب موجودة ومن الممكن مقارنتها معه، فكان كتابه الوحيد بين عشرات الكتب، الذي استطاع أن يوضح المذهب الاقتصادي الإسلامي أمام المفكرين العالميين، وأن يقارن المذهب الاقتصادي الإسلامي بالمذهب الاقتصادي الاشتراكي و بالمذهب الاقتصادي الرأسمالي، ويبين تقدم المذهب الاقتصادي الإسلامي عليها.

فمن أين أتى الشهيد الصدر بهذا ؟

لا شك أنه لم يأت به من عنده، إنما قرره واستنتجه من أحاديث أهل البيت عليهم السلام ومن فقه آل محمد عليهم السلام. وهذا يدل دلالة واضحة على أصالة مذهب أهل البيت عليهم السلام وأنه الامتداد الطبيعي لإسلام جدهم النبي صلى الله عليه وآله.

هذه هي الخطوة الثانية، بعد الإيمان بالمبدأ وبالنظام، الذي كان الخطوة الأولى.

فالخطوة الثانية: أن يؤخذ هذا النظام من المصدر الأصيل، والمصدر الأصيل للنظام الإسلامي والتشريع الإسلامي هو القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

الخطوة الثالثة: العمل وفق المبدأ

وفي هذه الخطوة يتحقق السلوك، فالمشرعون والفقهاء هم الذين يستفيدون، أو يستنبطون النظام من المصدرين الشريفين: القرآن الكريم والسنة النبوية. ونقوم نحن بدورنا بتطبيق ذلك النظام على سلوكنا، في مجال العبادات والمعاملات والإيقاعات وغيرها، فأنت تصلي وفق الأحكام الشرعية الواردة

في موضوع الصلاة، وهكذا في مجال المعاملات كالبيع والشراء وغيرها، وبالتالي فإنك تطبق الأحكام المأخوذة من الكتاب والسنة، والمدونة في كتب الفقهاء. وهكذا في كل مجالات الحياة الأخرى.

ولا شك أنكم تلاحظون ذلك بوضوح، فلو أن أحداً لم يجد في الرسالة العملية لمرجع التقليد بغيته، فسوف يذهب إلى وكيل المرجع ليسأله، فإن كان يستحضر الجواب أجابه، وإن لم يستحضره فإنه يكتب استفتاءً إلى الفقيه المرجع، والهدف من وراء ذلك كله أن يكون سلوكك موافقاً ومطابقاً للحكم، والنظام الذي تؤمن به.

فهذه الخطوة تعني العمل وفق النظام، فبعد أن ندرك النظام، ونؤمن به نعمل وفق متطلباته ومقتضياته، فإذا فعلنا ذلك كان سلوكنا إسلامياً.

الخطوة الرابعة: الدعوة إلى الإسلام:

من المناسب أولاً أن نسأل عن علاقة الدعوة إلى الإسلام بالسلوك، والجواب أننا ندعو إلى هذا النظام للحفاظ عليه أولاً، ثم لننشره بين الناس بطرق النشر المعروفة (وسائل التربية والتعليم، ووسائل الإعلام على اختلافها) ثم للدفاع عنه ثالثاً.

فلا بد إذن من الحفاظ على هذا التشريع والدفاع عنه، لأنه لو حصل أي انحراف في سلوك الأمة بعيداً عن التشريع، فسوف نكون قد ابتعدنا عن تحقيق السعادة لأنفسنا، ونحن نريد أن نحقق السعادة لأنفسنا، فلا بد أن تكون هناك دعوة تنطوي على عنصرين أو عاملين متكاملين، هما: المحافظة على النظام لئلا يُمسّ، ثم الدفاع عنه، فأي انحراف يقع لا بد أن نتصدى له، وهذا هو الموجود الآن، حيث ترى كتب الرد والنقد عند العلماء كثيرة جداً، دفاعاً عن حقائق الإسلام وأحكامه وتشريعاته.

وبعد هذا كله لا بد من العمل على استمرارية الفاعلية والحركية في النظام، فأي نظام يُطبّق قد يُصاب - لسببٍ أو آخر - بشيء من الجمود والتوقف والركود، فلا بد من التحرك، لنعيد إليه فاعليته في تنظيم علاقات المسلمين بعضهم مع بعض، وعلاقاتهم مع الناس الآخرين، وبالتالي نعطيه حيويته وحركيته وفاعليته.

كل هذا يمكن أن نستفيده من بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿أَلا لله الدِّينُ الخَالِصُ﴾[1]، ومعنى الدين الخالص، أن تأخذ بالإسلام كاملاً، ولاَ تأخذ بغيره، أو أن لا تشوبه شائبة من غيرة، فلو دخل مع الإسلام شيء من غيره لم يكن خالصاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾[2].

أي يتحتم علي أن أعبد الله مخلصاً له الدين، فلا أشوبه بشوائب أخرى، ولا أستورد من الأنظمة الأخرى أفكاراً معينة وأدخلها إلى الإسلام، لأن الإسلام ليس ناقصاً فنحتاج إلى الأنظمة الأخرى، إنما هو دين كامل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[3].

الحدود الفاصلة، والشخصية المستقلة:

من هنا يدخل في البحث عنصر آخر، وهو الالتزام بالحدود الفاصلة. فالمسلمون كأمة لهم شخصيتهم المستقلة، التي بُنيت وصيغت من خلال الحضارة الإسلامية، ومن المفروض أن نحافظ على هذه الاستقلالية.

إن هناك حدوداً فاصلة بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى، وبين الحضارة

---

(١) الزمر: ٣.
(٢) الزمر: ١١.
(٣) المائدة: ٣.

الإسلامية والحضارات الأخرى، فلكي يكون سلوكنا سلوكاً إسلامياً لا بد من المحافظة على الحدود الفاصلة، بأن نحافظ على استقلالية شخصيتنا، لأننا إذا تنازلنا، ولو قليلاً، عن استقلاليتنا فلا يكون سلوكنا إسلامياً كاملاً.

فلأجل أن نحافظ على شخصيتنا الإسلامية لا بد من مراعاة هذا الجانب بدقة.

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

والفتنة هي التي لا يتضح فيها وجه الحق من الباطل، فعندما يحصل الخلاف والصراع بين جماعات من الناس، ولا نعرف الحق في أي جانب، والباطل في أي جانب، فهذه هي الفتنة. أما إذا كان الحق معروفاً من الباطل فلا نسميها فتنة، إنما نسميها الحرب أو الصراع أو الجدال. فالحرب بين أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البصرة في واقعة الجمل في رأي طه حسين فتنة، أما في الواقع الشرعي فهي ليست فتنة؛ لأن الحق معروف، وهو في جانب علي عليه السلام والباطل أيضاً معروف، وهو في جانب الآخرين. فهذه لا نسميها فتنة.

ومن الملاحظ في أوساطنا دائماً أنه عندما يحدث أي خلاف بين مجموعة من الناس يقال: قامت الفتنة بينهم، والأمر ليس كذلك، إنما الفتنة أن لا نفهم الحق من الباطل، وهذه معنى الفتنة من الناحية الشرعية.

ويقول تعالى أيضاً في بيان الحدود الفاصلة: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا

---

(١) الأنفال: ٣٩.

فائدة: جاءت كلمة فتنة من المفاهيم التي فيها شيء من الغموض في أذهان الناس. وقد كتب الدكتور طه حسين بعض كتبه تحت عناوين: (الفتنة الكبرى عثمان الفتنة الكبرى علي وبنوه) لأن كلمة (الفتنة) بمعناها الشرعي غير واضح في ذهنه وقد استخدمها بمعناها اللغوي فقط.

النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1]. فإذا خرج الإنسان من الملة الإسلامية واتبع الملة اليهودية انتهت وتلاشت شخصيته الإسلامية، التي يفترض أن يحافظ عليها.

فالقرآن الكريم يبين لنا الحدود الفاصلة الواضحة، فيقول: إن اليهود لا يرضون عنكم إلا أن تتنازلوا عن الإسلام، وكذلك النصارى، وهذا أمر طبيعي في الحياة، وهو أن المتقدم ينظر للمتأخر أنه منحرف، بينما يبين لنا الله سبحانه وتعالى أن الإسلام ليس انحرافاً، إنما هو الكمال الحقيقي والواقعي، وإذا كان هناك من انحراف فإنه عند اليهود والنصارى الذين ابتعدوا عن دينهم الأصيل.

فلكي نحافظ على شخصيتنا الإسلامية لا بد لنا أن نحافظ على هذه الحدود، وأن لا نتنازل عن شيء من إسلامنا للآخرين، لأن التنازل يفقدنا شخصيتنا. فأرض المسلمين، التي احتلها اليهود يجب أن لا نتنازل عن شبر منها لهم، لأنها ملك للمسلمين، ولا يستطيع أي فقيه في الدنيا أن يُملّكها لليهود، بل حتى المسلمون أنفسهم لا يستطيعون أن يُملّكوا أرضاً لليهود، هذا لأنها أرض لعموم المسلمين.

هذه هي وجهة النظر الشرعية، ولا يهمنا ما يقال وما يُفتى به.

ويقول تعالى أيضاً:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ

(١) البقرة: ١٢٠.

ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾[١].

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أي خرج عن الحدود الإسلامية إلى منطقة غير إسلامية، وهذا لا يجوز.

فإذا أردنا أن يكون سلوكنا ـ كأمة إسلامية ـ سلوكاً إسلامياً، فيجب أن نحافظ على استقلال شخصيتنا، وأن لا نخرج عن حدودنا إلى الحدود الأخرى.

وللمحافظة على سلوكنا أيضاً، ليبقى سلوكاً إسلامياً، لا بد من الترابط داخل كيان الأمة الواحدة، فالأمة الإسلامية تعتبر أمة واحدة، ولا بد أن يكون هناك ترابط بين أفراد الأمة.

يقول تعالى في هذا الخصوص: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

لاحظ كلمة (أُخرجت) التي تعني ما نعنيه في الطالب الذي يدرس في الجامعة، فنقول: (تخرج في الجامعة)[٣]، وكذلك الحال في الأمة التي أُخرجت، أي أنها (كُوّنت)، فأنتم الأمة الإسلامية، وقد كوّنكم الشرع الإسلامي خير أمة، كالطالب الذي يدرس في الجامعة، فتجعله الجامعة عالماً أو متخصصاً.

فأنت في إطار هذه الأمة التي تطبق الشريعة الإسلامية، تتأثر بشكل إرادي أو غير إيرادي، وتطبق الشريعة الإسلامية على سلوكك، فتكون من تلك الأمة الخيرة التي أخرجت للناس، والتي كُوِّنت تكويناً خاصاً.

---

(١) المؤمنون: ١ - ٦.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) ومن الأخطاء الشائعة أن نقول: تخرج من الجامعة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾[1]. فهو يتبرأ من المشركين. ثم يقول: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[2]. إلى هذا الحد نرى أن الحدود الفاصلة تبقى فاصلة، وهذا ما تؤكده بوضوح كلمة (أبداً) التي وردت في الآية، فهذا أمر مؤبد، وبالتالي لا بد أن نحافظ على استقلال شخصيتنا، وعلى حدودنا، فكما أننا لا نسمح لأنفسنا بأن نُغزى أو نسلب، كذلك يجب أن لا نسمح بأن نتنازل.

ويقول نبينا ﷺ: «**المسلمون إخوة، تتكافى دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم**»[3]. أي أن كل فرد من أفراد المسلمين مسؤول بدوره عن المسلمين الآخرين، وبهذا نستطيع أن نوجد أمة سلوكها سلوك إسلامي.

ويقول تعالى أيضاً في هذا السياق: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4]، والولي هو المسؤول، بمعنى أن المسلم مسؤول عن المسلم الآخر والمسلمة الأخرى والمسلمة كذلك، مسؤولة عن المسلم والمسلمة.

فهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والأمر بالمعروف هو نشر الإسلام، والنهي عن المنكر هو تغيير أي انحراف يحدث في سلوك المسلمين، وإعادته إلى نصابه كحكم إسلامي أو كسلوك إسلامي.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ولا يراد بذلك أن تصلي أنت فقط،

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) الكافي، العلامة الكليني ١: ٤٠٣، ١: ٥٤١.

(٤) التوبة: ٧١.

إنما المراد أن تكون الصلاة شعاراً للمسلمين عامة، والزكاة كذلك، وجميع الحقوق المالية.

﴿ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا أيضاً من الحدود الفاصلة، فأنت عندما تطيع الله وتطيع رسول الله، فإنك لا تتأثر بالمذاهب الأخرى.

الأخلاق: أبرز الحدود الفاصلة

هنالك جانب مهم في الشريعة الإسلامية، تفتقر إليه الأنظمة الأخرى عموماً، وهو الجانب الأخلاقي، فالقوانين المعمول بها في الأنظمة الوضعية، وما ينبثق عن الدساتير، لا تعنى بالجانب الأخلاقي، ولا تهتم به، وتعتبر أن الجانب الأخلاقي أمر فردي. وهو في الواقع ليس أمراً فردياً، فالجانب الأخلاقي هو الذي يحافظ على التوازن بين أفراد الأمة، كما أنه يحافظ على مستوى استيفاء الحقوق كاملةً .

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾[1] فأنت تعاهد الله على أن تلتزم بالأحكام الشرعية، ولا تنقض عهدك، لو نقضت عهدك فسوف يحصل خلل وانحراف في السلوك: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[2]. فالمسلم يستطيع أن يرد الشتائم والإساءات، لكنه يصبر ويترفع، وهذا جانب خلقي ينعكس على سلوك الأمة بشكل كبير.

ومن المؤسف أننا اليوم نرى ونسمع في بعض الإذاعات والفضائيات مهاترات رخيصة، فترى المذيع يطلق لسانه بكل ما لديه من ألفاظ، من سب

---

(١) الرعد: ٢٠.

(٢) الرعد: ٢١، ٢٢.

وشتم لمسؤول الدولة الأخرى مثلاً، أو إذاعة الدولة الأخرى وهكذا، وبالتالي ينعكس هذا السلوك على الناس بشكل واضح، فلا يقولون: هذا المذيع سباب، ولا هذا المسؤول هو المقصود، إنما يقولون: إذاعة هذه البلاد مستهترة، فيحمّلون الأمة كلها مسؤولية هذا الفعل، لأن الأمه تستطيع أن تأخذ على يد هذا المذيع وتمنعه من استخدام هذا الأسلوب اللاأخلاقي، فالنقد مسموح به، إلا أن المحذور هو السب والشتم والمهاترات.

لاحظ كيف أن الأخلاق وإن كانت فردية من جانب، إلا أنها تنعكس على سلوك الأمة بأجمعها.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[1].

فهذه كلها جوانب أخلاقية، تمثل السلوك السلبي، والإسلام لا يريدها أن تكون؛ لأنها تنعكس على سلوك الأمة، وتأخذ به نحو الانحراف، إنما يريد الأخلاق الفاضلة التي تحافظ على المستوى العالي لسلوك الأمة.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[2]. والأمانات قد تكون بمعنى الودائع، أو بمعنى الحقوق بشكل عام. وهذا جانب تشريعي وأخلاقي في الوقت نفسه، فلو أن أحداً من قرية أو مدينة ما، لم يقم بتأدية ما عليه من حقوق للآخرين، فسوف يقال: جميع أهل القرية هكذا.

فالله سبحانه وتعالى يأمر بأداء الأمانة والعدل في الحكم، أمراً إلزامياً تترتب

---

(١) الرعد: ٢٥.

(٢) النساء: ٥٨.

على مخالفته العقوبة، ولا يحث عليهما فحسب، ذلك أن أداء الأمانة والعدل في الحكم تنعكس على الأمة بكاملها ولا تقف عند الحدود الفردية.

المسلمون بين التشريع والواقع:

هذا كله من الجانب التشريعي، وما رسمه واختطه الدين الإسلامي الحنيف، ولكن لننظر إلى واقع المسلمين المعاصر، لنرى هل أنهم يتمتعون حقيقةً بشخصيتهم الإسلامية المستقلة ؟ وهل استطاعوا أن يحافظوا على ما يتناسب والتشريع الذي اختصهم الله به؟ إنهم يمتلكون موقعاً جغرافياً مهماً جداً، تبرز أهميته من الناحية الدولية على مستوى الاقتصاد العالمي، وعلى مستوى السياسة العالمية بشكل كبير. كما أنهم يمتلكون الثروات والبحار والأجواء الستراتيجية، والأراضي الزراعية، والمعادن على اختلافها، وأهمها النفط.

أضف إلى ذلك أنهم يمتلكون رصيداً فكرياً هائلاً، كما يملكون الأيدي العاملة وما إلى ذلك من الإمكانيات.

فالمعادلة من هذه الجهة لصالح المسلمين، ولكن، ماذا ينقصنا ؟

إن ما ينقصنا هو أمر واحد فقط، وهو (العمل) المستند إلى العلم. بأن تكون لدينا دراسات وأبحاث مفصلة وموسعة، على أساسها يكون العمل، لنرفع من واقعنا المعاصر إلى ما هو أسمى وأعلى.

وكمثال على دراساتنا ما حصل في المؤتمر الذي عقد في أبو ظبي حول الجزر الثلاث المعروفة علمياً (طنب الكبرى وطنب الكبرى وأبو موسى) لدراسة واقع إيران من الداخل والخارج، حيث اشترك في المؤتمر أكثر من مئة عالم وخبير وأكثرهم من أمريكا.

فمن جملة القضايا التي درست في هذا المؤتمر (زواج المتعة) . وقد يستغرب بعضنا أن تدرس هذه المسألة في مؤتمر مثل هذا، لكن هذه الظاهرة اجتماعية من جانب، ودينية أيضاً من جانب آخر، فالشيعة يؤمنون بإباحة المتعة. وبالتالي فإن هذه الظاهرة قد تكون لها انعكاسات على سياسة إيران. وهذا الاحتمال وارد.

ومن القضايا التي درست في المؤتمر المذكور (ولاية الفقيه) مع أن المشاركين في المؤتمر ليس فيهم فقيه واحد، والمعروف أن هذه النظرية لا يدرسها إلاّ المتخصصون من الفقهاء، ممن بلغوا المراتب العليا في الفقه. فقد درسوا معنى ولاية الفقيه، وماذا تعني الحكومة التي تقوم على أساس ولاية الفقيه، وهل تعني تصدير هذا اللون من الحكم إلى العالم كله أم لا؟ وغير ذلك من القضايا.

فأي عمل نحتاج إلى القيام به لرفع مستوى هذا الواقع المعاصر، لا بد فيه من الأبحاث والدراسات، بأن ندرس الأمور دراسة مفصلة ووافية ثم نقوم بالعمل، وبهذا نستطيع أن نرفع المستوى.

والملاحظ في عالمنا الإسلامي وجود مؤسسات ومراكز للبحث والدراسة في جميع بلاد المسلمين، وهي تعمل بجد وتقدم الكثير. لكننا لا زلنا متأخرين بالقياس إلى العالم، ومحاولاتنا لا زالت فتية.

فهناك انطلاق وتحرك مشهود في الواقع الإسلامي، ولكن فيه نوعاً من (الاختراق)، وهذا الاختراق قد يأتي من أفراد في الداخل تتبناهم مؤسسات من الخارج، ليعملوا على تفكيك وحدة الأمة، وقد يأتي من الخارج، فهناك من يدخل إلى بلداننا من الخارج بعنوان شركات، أو رجال أعمال، أو غير ذلك، فيقومون بعملية الاختراق.

وقد تنبه المسلمون لعملية الاختراق، وعملوا على مواجهتها، ولا يزالون

مستمرين في التصدي لها، والتخفيف من تأثيرها، وقد نجحوا في تخفيف تأثيرها في الواقع. فبينما كان هذا الاختراق قد يصل إلى خمسين أو ستين في المائه أصبح بنسبة عشرين في المائة، وإن كان من الصعوبة أن ينتهي بالكامل؛ لأنه أصبح متبادلاً بين الإسلام والغرب، فكما أنهم اخترقوا المسلمين في جانب، فقد اخترقهم المسلمون في جوانب أخرى، وهم يحاولون اليوم أن يخففوا من غلواء الاختراق الإسلامي هناك، لذلك أثاروا قضية الحجاب وغيرها من القضايا.

وسائل مواجهة الاختراق:

إن أول أساليب ووسائل مقاومة الاختراق هو التماسك الاجتماعي، أي أن الأمة كلها تصبح كأنها جسد واحد، ولا يكون التماسك الاجتماعي إلا بالتكافل والتعاون، بأن يكفل القوي الضعيف، والغني الفقير، وهذا ما كان عليه المجتمع زمن الرسول الأعظم ﷺ حيث أوجد النبي ﷺ التعاون والتكافل عن طريق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

فكان الفقراء يجتمعون في الصُّفّة، وكان كل شخص يأتي برغيف زائد عن حاجته فيعطيه لمن لا يملك رغيفاً، ومن لا يملك إلا رغيفاً واحداً كان يعطي نصفه لهذا ونصفاً لنفسه، وربما أعطى هذا أيضاً وآثر الآخر على نفسه. وكانوا يتفقدون الفقراء في بيوتهم، ويصلونهم بما استطاعوا من الصلة.

من هنا نرى أن المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت كان متماسكاً، واستطاع النبي ﷺ أن يحقق ما أراد تحقيقه عن طريق هذا التماسك.

ومن أساليب ووسائل مقاومة الاختراق: الولاء لله وللرسول ولأئمة المسلمين.

الـولاء: هو أن تنتمـي عاطفياً، وتلتزم بأوامر ونواهي مـن تواليه. فإذا كان حبـك لله تعالى فإنك سـوف تتقبل أوامـره ونواهيه، وقد قيـل في الماضي: (إنَّ المحبَّ لمن أحبَّ مُطيعُ).

وكذلك الولاء لرسـول الله ﷺ وأئمة المسـلمين، وهـم أهل البيت عليهم السلام، ومن كان في امتدادهم وهم الفقهاء العدول.

وفي مقابل الولاء تكون (البراءة) من أعداء الله والرسول وأعداء المسلمين، وقد كان هذا البعد واضحاً في صدر الإسلام والآيات في هذا الباب كثيرة[1].

وهذا البراء ينفعنا في أن تكون شـخصية الأمة الإسـلامية في كل بلاد الأمة الإسلامية شخصية واحدة، لا تعرف الحدود، من أندونيسيا في الشرق الأقصى، وماليزيـا والصين، إلى صحـراء أفريقيا في الغرب، من طنجة إلى جاكارتا، والى كل بقعة في العالم ترتفع فيها كلمة: لا إله إلا الله.

يقول الحق سـبحانه وتعـالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِيـنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِـنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُـوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِـكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]. فهو ناصر الذين آمنوا، ووليهم، وراعيهـم، يخرجهـم من ظلمات الجهل والشـقاء إلى نور العلم والسـعادة. أما الذين كفروا فعلى العكس من ذلك، لأن أولياءهم الطاغوت، الذين يخرجونهم من النور إلى الظلمة.

فـلا بـد إذن مـن التأكيد عـلى الولاء والـبراءة معاً، فـإن لم يكن لدينـا انتماء

---

(١) كقوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُـمْ أَوْ إِخْوَانَهُـمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِـكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيـمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَارُ خَالِدِيـنَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُـمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِـزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢)

(٢) البقرة: ٢٥٧.

للمبدأ، وهو الدين الحنيف، فإننا لا نستطيع أن نجعل سلوكنا يتطابق مع الواقع الإسلامي، والأحكام الإسلامية سواء كنّا أفرادًا أم أمة.

الأسئلة

س١: ذكرتم في بداية المحاضرة أن من الممكن أن تكون للفرد الحرية في اختيار النظام. ولكننا نرى هنا في الجزيرة العربية، أو الأطراف والمناطق البعيدة عن المحور الإسلامي، أن الكثير من المجتمعات تعيش حالة من ازدواجية النظام، فنراهم يطبقون النظام العبادي انطلاقاً من المذهب الأصيل، بينما نرى الحياة العملية والسلوكية مستقاة من النظام القبلي أو الوضعي، فكيف نوفق بين الأمرين، فنجعل أعمالنا مطابقة للنظام الإسلامي؟ وما حكم الأعمال الخاطئة التي يقومون بها ؟

الجواب: من يعيش في بلاد لا تُحكّم الإسلام، مثل أوربا وأمريكا، فإنه يطبق الإسلام في حدود ما يستطيع، في مجال العبادات والمعاملات خصوصاً، وأما الجوانب الأخرى التي لا يستطيعها، فغير مطلوب منه تطبيقها.

أما في البلاد الإسلامية فلا يجوز تطبيق غير الإسلام، وهذا ما لا يختلف فيه فقيه عن فقيه، فكل فقهاء المسلمين من السنة والشيعة والإباضية وغيرهم، يقولون بذلك، فإذا طُبق غير الإسلام فالمسؤولية تقع على عاتق المسلمين.

أما الأساليب التي تتبع في التعامل فتختلف باختلاف الظروف والأحوال.

س٢: إذا كان الإسلام هو الأصل في التشريع، فلماذا تحتاج الدولة الإسلامية لكتابة الدستور مع وجود القرآن والسنة ؟

الجواب: القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية وإرشاد، يشتمل على أصول التشريع والمضامين الكلية للدستور، أما الأحاديث الشريفة، فهي موجودة بكثرة ومستوفية لكل مضامين ومواد وأنظمة الدستور، ولكن لا بد من صياغة هذه المضامين القرآنية والحديثية بشكل قانوني، يسمى في لغة الحقوقيين (تقنين الفقه).

فالدستور الإسلامي مأخوذ من القرآن والحديث، ولكنه مصاغ بلغة قانونية، ولا بد من صياغته بلغة قانونية، لأن ذلك عُرف دولي عام لا بد منه.

س٣: يدعي المتبعون للقوانين الوضعية أن سبب اتباعهم لها إنما هو النقص في التشريع الإسلامي، فكيف نرد عليهم ؟

الجواب: ليبينوا لنا أولاً أين هو النقص ؟ فلو كان في الإسلام أو القرآن نقص، لما استطاع المسلمون أن يقيموا دولة أو أكثر على مدى التأريخ، فالرسول الأعظم ﷺ أقام دولته وقادها بجدارة عالية، وكانت مثالاً للدولة النموذجية في العالم، ومن بعده أيضاً قامت دولة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأمامنا اليوم في عالم السنة الدولة السعودية، وفي عالم الشيعة الدولة الإيرانية، فلو كان التشريع الإسلامي ناقصاً، لما قامت على أساسه دولة أبداً، سواء كانت سنية أم شيعية، وهذا دليل كمالي.

س٤: نعايش في حياتنا نوعيات من البشر ذات تزمت ديني، لا تفشي السلام ولا تردّه، كيف يجب أن يكون سلوكنا تجاه هؤلاء ؟ وهل من السنة عدم إفشاء السلام ؟

هذا ليس من السنة، وإفشاء السلام شعار المسلمين، وهو من أبرز ما يميزهم، وعدم الإفشاء نوع من الانحراف في السلوك، الذي يتطلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتصحيح هذا السلوك، فنحتاج إلى شيء من

التوعية في هذه الجوانب، وإلى حملة تثقيف حول هذه القضايا، لأن الإنسان إذا عاش في هذه المجتمعات التي تكثر فيها الأخطاء فربما يتأثر بالأخطاء، وعلينا أن نحاول جاهدين تلافي تلك الأخطاء.

س٥: سماحة الشيخ نرجو ذكر بعض أسماء الكتب التي تفيد النشء في حياتهم المستقبلية تجاه طريق الإسلام ؟

الجواب : هنالك كتب إسلامية كثيرة، وموجودة في المكتبات بكثرة، وفي البلدان الأخرى، ويمكن لمن أراد أن يبحث عنها، ولا يمكنني حصرها في عدد معين أو عناوين مشخصة.

س٦: ألا تتصورون معنا أن غياب المنهجية في الأوساط الاجتماعية سبب رئيسي لهذا التشتت ،كيف يمكن للجميع الانصياع لمنهج موحد في ظل هذه الظروف ؟

الجواب: هذا صحيح إلى حد كبير، ولكن لا بد من العمل على إصلاح الأمور، وإن كان الطريق شاقاً ومتعباً، فلا شك أننا لدينا تركة ثقيلة جداً، وتصفية هذه التركة تحتاج أيضاً إلى جهود جبارة، والعمل اليوم قائم على مستوى البلاد الإسلامية بشكل عام من هذه الناحية، نحو شمولية النظام الإسلامي، والمنهج الإسلامي.

س٧: يرى البعض أن ظاهرة ما يسمى بالتطرف الديني الإسلامي الحاصل في بعض الدول الإسلامية يؤثر على سمعة الإسلام، فما رأيكم ؟

الجواب: لا يجب أن نحكم على هذه الظاهرة ابتداءً بالتطرف؛ لأنها تختلف باختلاف مقاصد وظروف العاملين، فإذا كان العالم الغربي لمصالحه الخاصة يسميه تطرفاً، فنحن لا نستطيع أن نسميه تطرفاً، نعم، قد يكون فيه شيء من

التطرف، ولكن ليس كل عمل إسلامي هو تطرف، فالبعض لديه وجهات نظر مشروعة في بعض تصرفاته، ولا أقول: كل تصرفاتهم بل بعضها على الأقل.

ولكنني أود أن أشير إلى أمر مهم أوجهه كسؤال: إذا كنا في بلاد إسلامية، والنظام فيها غير إسلامي، وطالبنا بحقنا في إقامة النظام الإسلامي، فنقول: نحن مسلمون نؤمن بنظامنا الإسلامي، ونريد تطبيقه، ولا نريد نظاماً آخر من الخارج، فهل هذا تطرف ؟

فلو أراد المسلم أن يصلي مثلاً، أو أن يقيم شعائره الدينية، ثم يمنع من ذلك، معنى هذا أنه منع من تطبيق نظامه الإسلامي، وبالتالي سوف يكون رد فعله أن يقابل بالمثل، فلا يسمح بتطبيق النظام غير الإسلامي. فإن كان الأسلوب الأول هو المنع فسوف نتوقع أسلوباً مماثلاً ومعاكساً له. نعم، قد تكون هناك أخطاء في الممارسات، ولكن من حيث الأصل يحق لمن مُنع من تطبيق النظام الذي يؤمن به أن يواجه الآخر بالأسلوب ذاته، وهو المنع من إقامة النظام الذي لا يعتقد ولا يؤمن به.

س٨: عندما يكون السلوك إسلامياً صحيحاً، كقضية الحجاب الإسلامي في فرنسا، فإن ذلك يشكل في نظرهم سلاحاً مرعباً، تجند الدولة الفرنسية كافة قواعدها الإعلامية لمحاربته، في حين أن هذه الدولة تعتبر نفسها مثالاً ونموذجاً عالمياً في الحرية الشخصية. فما هو تعليقكم على هذه المفارقة ؟

الجواب: واقع هذه المفارقة أن الغربيين لا ينظرون إلى الأمر على أنه واجب شرعي، ولا يريدون أن يفهموا حتى الآن أن على المرأة المسلمة أن تتحجب بالحجاب الشرعي، إنما ينظرون إلى الحجاب على أنه نوع من الغزو الإسلامي لبلادهم، وهو في الواقع ليس هكذا أبداً، فالمرأة المحجبة لم تأت إلى فرنسا من أجل غزوها، وليس لديها القوة لغزو فرنسا، وليس في ذهنها هذا الأمر

على الإطلاق، وإنما تخاف من العقوبة الإلهية يوم القيامة إن هي تخلت عن الحجاب، فهي تريد أن تخلص نفسها من العقوبة، كما هو حال أكثرنا عندما يصوم؛ ليخلص نفسه من عقوبة الله يوم القيامة.

فالمشكلة أن الغربيين لا يفهمون هذا، وقد كتبت سابقاً في عدة صحف، وكتب غيري كثيراً لكي يفهم الغربيون هذا المعنى، لكنهم لا يفهمون ذلك، ويعتقدون أننا جئنا لغزوهم.

٩- سؤال: هل تؤثر الآداب الإسلامية على غير المسلمين، وكيف نستطيع أن نؤثر عليهم ؟ وما هو حجم التأثير ؟

الجواب: يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية**»[1] أي كونوا دعاةً بسلوككم، فإذا التزم المسلم بالإسلام التزاماً كاملاً فسيكون قدوة للآخرين ويتأثرون به، وربما يكون تأثيره أقوى من تأثير الكلام.

س١٠: كيف يمكن ربط المسلمين مع بعضهم البعض لبناء كيان قوي في ظل غياب الوعي الأممي العالمي ودخول الأيدي الخبيثة وتعدد القيادة في الأمة؟

الجواب: أشرنا سابقاً إلى أن العمل ما زال جاداً وفاعلاً للوقوف أمام هذا الاختراق، والعمل على إشعار المسلمين بأنهم أمة موحدة لها كيانها، ووجودها وحضورها العالمي.

كما أشرت أيضاً إلى أن الاختراق لم ينته ولم يتوقف، وقد لا ينتهي مئة في المائة، ولكن استطاع العاملون، وعلى مستويات عالية، التخفيف منه، ومن

---

(١) الكافي، العلامة الكليني ٢: ٧٨.

الممكن أن يُخفَّف منه أكثر، ويحصل الترابط بين أفراد الأمة. فعندما يشعر المسلم أنه ينتمي إلى أمة قوية فسوف يكون قوياً، والعكس بالعكس.

س١١: لماذا نرى سلوك بعض المؤمنين في الحسينيات والمساجد سلوكاً طيباً، ولكنهم مع إخوانهم وأهاليهم وجيرانهم يخالفون هذا السلوك؟ ما سر هذه الازدواجية؟

الجواب: إنني لا أرى أن من يسيء المعاملة في بيته هو المقصر، بل هو تقصيرنا نحن، لأن المفروض أننا دائماً نُفهمه مسؤوليته، فهذه مسؤولية من يدرك الإسلام، ويفهم الأحكام الشرعية، سواء كان من طلبة الحوزة العلمية أم من غيرهم، فإذا قمنا بهذا الدور عندئذٍ يمكن أن نحاسبه.

س١٢: هل يجب علينا الإحسان إلى المذاهب التي تكفّرنا وتسبّنا وتسيء إلينا؟ وكيف نتعامل معهم؟

الجواب: إذا كان الإحسان بمعنى الصدقة فهذا لا ضير فيه، فالكثير من فقهائنا يجوز الصدقة، استناداً للحديث المعروف: «**في كل كبد حرى أجر**»[1] والبعض لا يجوز الصدقة.

أما الإحسان بمعنى (المساعدة) بمعنى أنك تظهر أمامه التزامك بالإسلام ليعلم بأن مذهب أهل البيت عليهم السلام يربي أتباعه تربية صالحة، فهذا صحيح أيضاً، وقد أمر الإمام الصادق عليه السلام في مواطن كثيرة بمداراة هؤلاء ومجاملتهم ومعاملتهم بالحسنى. قال عليه السلام: «..**فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر**»[2].

---

(١) جامع الأخبار: ١٣٩.

(٢) الكافي، العلامة الكليني ٢: ٦٣٦.

س١٣ : هل من حق الإنسان أن يقلد العامي، وأن يناقش فتوى العالم؟

إذا كان يفهم الدليل وصار مجتهداً فلا بأس أن يناقش أدلة العلماء.

س١٤ : ما هو مفهوم الوعي في السلوك ؟ إنه مفهوم غامض لدى كثير من الناس، فحبذا لو وضحتم لنا هذا المفهوم ؟

الجواب : أنواع السلوك مما يبحث في علم الأخلاق، وعلم النفس، حيث يقسمون السلوك إلى قسمين: سلوك فكري، وسلوك بدني، فالسلوك الفكري هو التفكير، وهو يحتاج إلى ضوابط معينة تضبطه حتى لا تكون نتائج التفكير خطأ.

وأما السلوك البدني فهو عبارة عن تصرفاتنا التي نقوم بها في حياتنا اليومية على اختلاف ألوانها.

والحمد لله رب العالمين.

العلاقة بين الإمامة والأمة

شهر رمضان المبارك شهر العبادة والثقافة:

في البداية لا بد أن أشير إلى أمر مهم، وهو:

نحن الآن في شهر رمضان المبارك، وهو عند المسلمين جميعاً شهر العبادة، ومعنى ذلك أن العبادة فيه تزداد على ما هي عليه في سائر الشهور، لأن فيه الصوم الواجب، والعبادة في هذا الشهر المبارك تتمثل بالصلوات والصيام وتلاوة القرآن الكريم والدعاء والذكر والصدقات وصلة الأرحام وتعويد النفس على الفضائل والابتعاد عن الرذائل وغير ذلك من مظاهر الطاعة.

كما أنه يعرف بشهر الثقافة، ونعني بذلك أن المواسم الثقافية تقام في هذا الشهر الكريم في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأينما وجد المسلمون. حيث الدروس الرمضانية، من التفسير والحديث والفقه والعقيدة والتأريخ وغيرها.

ولا تقتصر هذه الأعمال أو النشاطات الثقافية على عامة الناس، بل إنها تشمل حتى الرؤساء، ولعلكم شاهدتم في بعض السنوات من خلال التلفاز، الأحاديث الحسنية التي كانت تذاع من المغرب، وتحت إشراف ملك المغرب نفسه.

فالمفهوم المأخوذ عن هذا الشهر أنه شهر عبادة وثقافة، حيث يغتنم المسلمون حلوله للقيام بنشر الثقافة الإسلامية.

ونحن هنا جزء من المسلمين في العالم، نقوم بما يقومون به، والمفاهيم الإسلامية التي نتعرض لها، إنما هي من خلال تعليمات أهل البيت عليهم السلام، لإيماننا بأن أهل البيت على حق، ومن يتبعهم على حق. وأقول هذا لأوضح المعنى لكم أولاً، وللآخرين الذين لا يدركونه ثانياً، فقد قامت عندنا الأدلة القطعية التي لا تقبل الشك، على أحقية أهل البيت عليهم السلام، ولا يستطيع أي مسلم في الدنيا، سواء كان من أتباع أهل البيت، أم من غيرهم، أن يقول: إن أهل البيت عليهم السلام ليسوا على حق، فالمسلمون مجمعون على أنهم عليهم السلام على حق، ومن يتبع أهل الحق، فمن الطبيعي أن يكون على حق.

ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن أي مفهوم إسلامي، فإنما نتحدث عنه من خلال فكر أهل البيت عليهم السلام.

موضوعنا الحالي هو **(العلاقة بين الإمامة والأمة)**، ولا بد أن نتحدث عنه من خلال الكتاب والسنة، أي من خلال القرآن الكريم والحديث الشريف المروي عن أهل البيت عليهم السلام أخذاً منا والتزاماً بحديث الثَّقَلين الذي تواترت روايته عند أهل السنة وعند الشيعة. والثَّقَلان هما الكتاب والعترة. وعندما نقول: العترة، فنعني بهم الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

معنى الإمام و الإمامة:

الإمام عندنا يقوم بذات الدور الذي يقوم به النبي صلى الله عليه وآله مع فارقين أساسيين: الأول أنه ليس بنبي، والثاني أن النبي، لأنه نبي، يوحى إليه، بينما الإمام لا يوحى إليه، وإنما يُحدَّث أو يُلهَم، وعندما نقول: إنه يحدث أو يلهم، فهذا غير مقتصر على الفكر الشيعي، إنما اشتهر به الشيعة، وإلا فإن إخواننا من أهل السنة يذهبون إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب محدَّث، وأن كثيراً من الصحابة والتابعين، بل من العلماء، ملهمون.

ففكـرة التحديـث والإلهـام فكرة إسـلامية، فـلا نحتـاج إلى إقامـة الدليل عليهـا، وإن كان الدليل موجوداً، وهـي جملة من الأحاديث المروية الصحيحة والمعتبرة.

فوظيفـة الإمام هي وظيفة النبي ﷺ، مع فـارق أنه ليس بنبي، ولا يوحى إليـه، لكنه يُلهم. وبعبارة أخرى، هناك طريقان لإيصال الأحكام من الله تعالى إلى الأنبياء والأوصياء:

الطريق الأول مختص بالأنبياء، وهو الوحي عن طريق جبريل عليه السلام.

والطريـق الآخر للأوصيـاء أو الأئمة أو المصطفَين مـن البشر، وهو الإلهام والتحديـث، أي تحديـث الملائكة لهـم، لكن لا بصفة الوحـي. والإلهام أن الله تعـالى يلهم أولئك العباد ما يريد إيصاله لهم. وهذا ليس غريباً، فقد أوحى الله تعـالى إلى بعض البهائـم: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1].

بـل إن الأفـراد العاديين مـن البشر قد يلهمـون في بعض الحـالات المعينة، تفضلاً من الله تعالى، أو إنقاذاً منه لمن وقع منهم في مأزق، أو غير ذلك.

أما ما هي وظيفة النبي التي نقول عنها: إنها نفس وظيفة الإمام؟ فإن وظيفة النبي هي (التبليغ والإدارة).

أما التبليغ: فإن النبي ﷺ يتلقى الأحكام من الله تعالى عن طريق الوحي، ويبلغهـا للنـاس، إما عن طريق القرآن النازل إليه وحيـاً من الله، أو عن طريق الحديث، سـواء كان قولاً أم فعلاً أم تقريراً. وقد قام النبي ﷺ بوظيفته هذه أفضل قيام وأحسنه.

---

(١) النحل: ٦٨.

وأما الإدارة: وهي إدارة شؤون الناس، فقد تمت بشكل واضح عندما هاجر النبي ﷺ وآله من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وأقام الدولة الإسلامية. ولا شك أن الدولة فيها حكومة تقوم بإدارة شؤون الناس، وتوفير الحقوق لهم. والمتطلبات التي تحقق للإنسان كرامته كإنسان، هي جزء من الدولة والأمة.

فوظيفة النبي في التبليغ والإدارة، انتقلت هي ذاتها للإمام، حسب معتقدنا نحن الإمامية، أتباع أهل البيت عليهم السلام. فهو يقوم أيضاً بتبليغ الأحكام للناس والإدارة.

الأحكام الشرعية:

في الشريعة الإسلامية هناك أحكام ترتبط بالعقيدة، وهي ما نسميها بأصول الدين، وهي التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد. وأحكام أخرى ترتبط بالعبادات والمعاملات وغيرها، وما يتعلق بسلوك الإنسان وأخلاقه.

وهذه الأحكام بنوعيها، شرعت من الله تعالى، لذا نسميها شريعة، فقد شرعت من الباري تعالى، وأودعت في اللوح المحفوظ، وهذا الأمر جارٍ في كل الشرائع، من أول نبي حتى نبينا محمد ﷺ.

مثل هذه الأحكام الموجودة في واقعنا، يعبر عنها الفقهاء بالأحكام الواقعية؛ لأنها موجودة في واقعها، وهو اللوح المحفوظ، فتنزل على الأنبياء عن طريق الوحي، وتصل إلى الأوصياء عن طريق الإلهام.

وبالإضافة إلى هذين الطريقين (الوحي) للأنبياء، و (الإلهام والتحديث) للأوصياء، فإن الله سبحانه وتعالى أقدر الأنبياء والأوصياء على الاطلاع على واقع الأحكام، أي في واقعها وسجلاتها التي سجلت فيها من قبل الله سبحانه وتعالى. ولا يستطيع أي إنسان، إذا لم يكن نبياً أو إماماً أن يدرك الحكم الواقعي

بواقعه، فتكريماً من الله تعالى للأنبياء والأوصياء أعطاهم القدرة على إدراك الأحكام الواقعية بواقعها.

وقد أحببت أن أوضح هذه النقطة، لأربط بين وظيفة الإمام وبين وظيفة النبي كما نعتقدها نحن. فالأحكام مثبتة في سجلاتها، ومدونة عند الله تعالى هناك، وقد أعطى القدرة للنبي في الاطلاع على سجلاته هناك. فعندما يعطينا النبي ﷺ حكماً فهذا يعني أنه أخذه من واقعه من ذلك السجل، لا تغيير فيه ولا تبديل.

وهذه القدرة التي أعطيت للنبي ﷺ أعطيت للأئمة الاثني عشر عليهم السلام من الإمام علي عليه السلام إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه، فهؤلاء لهم القدرة أيضاً في الاطلاع على الأحكام في واقعها، أي أنه عندما يعطينا الإمام حكماً، فهذا يعني أنه أعطانا الحكم الذي شرعه الله تعالى كما هو في واقعه، لا تغيير فيه ولا تبديل ولا اجتهاد.

والفرق بين الفقيه المجتهد وبين الإمام، أن الإمام والنبي يدركان الحكم الواقعي في واقعه، أما المجتهد فليس لديه هذه القدرة، ولا يستطيع أن يدرك الحكم الواقعي بواقعه، وعليه أن يحاول ويبذل كل جهده، فإن استطاع أن يصل عن طريق النصوص إلى الحكم الواقعي، فيما لو كان النص قطعي السند قطعي الدلالة فبها، وإن لم يستطع فيكتفي بالظن. وهذا الحكم الظني قد يأتي مطابقاً للحكم الواقعي وقد لا يأتي، فإن كان مطابقاً فهو المطلوب، وإلا فإن المجتهد معذور، ومن يقلده معذور أيضاً.

الاثنا عشر في الكتاب والسنة:

هناك حديث ورد عند المسلمين جميعاً بألفاظ مختلفة ومضمون واحد، بل إنه عند أهل السنة أكثر وروداً، وهو وإن لم يبلغ حد التواتر، لكنه صحيح مستفيض، وهو قول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش»[1]، وفي أحاديث أخرى أنهم اثنا عشر، كعدة نقباء بني إسرائيل[2]، وقد روت مصادرهم في ذلك أحاديث صحيحة، لكن الفارق بيننا أن لدينا الأئمة الاثني عشر المعروفين بأسمائهم، أما هم فقد ارتبكوا واضطربوا في تطبيق الحديث على مصاديقه، فاختاروا الخلفاء الأربعة في الدرجة الأولى، ثم بعضاً من الأمويين، وبعضاً من العباسيين، وهكذا لفقوا منهم ما يتناسب مع العدد اثني عشر.

وقد ورد في بعض النصوص أنهم خلفاء[3] أو أئمة[4] أو نقباء كنقباء بني إسرائيل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وأنهم اثنا عشر نقيباً، وهم المصطفون من بني إسرائيل.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل٣: ١٢٩، ١٨٣، و ٤: ٤٢١. سنن البيهقي٣: ١٢١ و ٨: ١٤١ باب الأئمة من قريش. وغيرها من المصادر المعتبرة لديهم.

(٢) راجع: مسند أحمد بن حنبل١: ٣٩٨، ٤٠٦. مستدرك الحاكم٤: ٥٠١. وغيرهما من المصادر.

(٣) جاء في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي٦: ٣٩٣ ما نصه: قال الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسيره تحت قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ بعد إيراد حديث جابر بن سمرة من رواية الشيخين واللفظ لمسلم: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم ... ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ... فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً. راجع تفسير ابن كثير٢: ٣٤.

(٤) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٦: ١٩٩: وقد وجدت البشارات به ﷺ في الكتب المتقدمة وهي أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر... ونحن نورد هنا شيئاً مما وجد في كتبهم التي يعترفون بصحتها ويتدينون بتلاوتها... ففي السفر الأول من التوراة التي بأيديهم في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ما مضمونه وتعريبه: ... وأما ولدك إسماعيل فإني باركته وعظمته وكثرت ذريته وجعلت من ذريته ماذ ماذ، يعني محمداً ﷺ وجعلت في ذريته اثني عشر إماماً.

فهذا الحديث لا ينطبق إلا على الأئمة الاثني عشر، وهو يأتي من حيث القوة في وجوب اتباع المسلمين للأئمة، بعد حديث الثقلين المتواتر، فهو صحيح عند السنة وعند الشيعة، وحديث الثقلين يلزمنا باتباع أهل البيت، الذين هم الأئمة الاثنا عشر.

ومن الملاحظ أن النبي ﷺ كثيراً ما كان يكرر حديث الثقلين، وفي مناسبات مختلفة، فلماذا هذا التكرار؟ أليس من الممكن أن يقوله مرة واحدة ويكتفي بذلك؟ كما أنه كرر حديث الاثني عشر كذلك في مناسبات مختلفة، فلم هذا التكرار؟

الجواب: لأن الإمام لديه القدرة على الاطلاع على الأحكام الواقعية في واقعها، وهذا الاطلاع يرتبط بدوره في تبليغ الأحكام، فهو يبلغ عن الله، وإذا كان يبلغ عن الله فالمفروض أن تكون له القدرة على أن يطّلع على الأحكام التي بلغها الله بواقعها. لذا فإن هذه الأحاديث جاءت لتلزم المسلمين باتباع أئمة أهل البيت عليهم السلام لأن لديهم هذه القدرة في الاطلاع على الأحكام الواقعية في واقعها.

وقد تكون هنالك أحكام لم تبلغ وقتها، أو أنها شرعت ولم تطبّق، لأن زمن تطبيقها لم يحن بعد، وهذا الدور في التبيين والتطبيق يقوم به الإمام.

فامتداد وظيفة التبليغ من النبي إلى الإمام يستهدف تبليغ الأحكام الواقعية بواقعها.

وللتوضيح أكثر نقول: لو لم يكن هنالك أئمة بعد النبي محمد ﷺ، فمن يبلغ الأحكام؟ هل هم الفقهاء المجتهدون؟ لقد بينا سابقاً أن الفقيه المجتهد ليس بالضرورة أن يصيب الواقع دائماً، فقد يصيبه فيما إذا كان النص يساعده على ذلك، وقد لا يصيبه. فيكون التبليغ منه غير التبليغ من الإمام الذي يصيب

الحكم الواقعي في واقعه.

وظيفة الإمام في الإدارة:

كما أن النبي ﷺ كان يقوم بإدارة شؤون المسلمين، فكذلك الإمام يقوم بإدارة شؤونهم. وهنا يأتي السؤال المهم في تشريع الإمامة، من الذي يشرع الإمامة؟

الجواب: في اعتقادنا أن التشريع لا يكون إلا من الله تعالى، وبالتالي لا بد أن تشرع الإمامة من الله تعالى. فالتشريع كله من الله تعالى، وهذا لا يختلف فيه مسلم عن مسلم، والمشرع للأحكام الشرعية هو الله تعالى وحده، وهذه عقيدة جميع المسلمين، والنبي ﷺ واسطة في التبليغ، وكذلك الإمام، والفقيه المجتهد واسطة استنباط، لكن المشرع في الأصل هو الله.

فإذا كان المشرع هو الله تعالى، فمن المفروض أيضاً أن تكون الإمامة من عنده، والقرآن الكريم صريح في هذا حيث يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

فالإمامة جعل من الله تعالى، لا من الناس: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾. وهناك آيات أخرى بهذا المضمون أيضاً.

وقد أثيرت قبل أيام، الكثير من الشبهات والضجيج حول الإمامة، وكونها إبراهيمية جعلت لإبراهيم عليه السلام، وكأن أتباع أهل البيت عليهم السلام قد ارتكبوا جريمة كبرى في اتباعهم لأهل البيت عليهم السلام.

إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان نبياً قبل أن يكون إماماً، فالله تعالى اصطفاه

(١) البقرة: ١٢٤.

وأعطاه النبوة، وهو معصوم كسائر الأنبياء، ثم جعله تحت الاختبار مع كونه معصوماً، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي امتحنه واختبره، وبعد أن نجح في هذا الامتحان أعطاه الإمامة : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾. فلما بلغ تلك الدرجة وهي الإمامة، سأل ربه قائلاً: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فأجابه تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فالإمامة لا تكون إلا لمن لا يظلم نفسه أو غيره، فإن كان مشركاً قبل الإسلام، يكون قد ظلم نفسه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وبنص الآية الشريفة أن الإمامة ـ وهي عهد الله ـ لا تصل إلى الظالمين.

وعند تطبيق هذه الآية على الواقع الخارجي، لا نجد في الصحابة السابقين للإسلام من لم يسجد لصنم، إلا علي بن أبي طالب، لذا يعبر عنه بقولهم: (كرم الله وجهه)، أي عن السجود للأصنام.

فالإمامة لا بد أن تكون من الله بنص القرآن، حتى في اعتقاد المسلمين الذين يقولون: إن التشريع بنص من الله تعالى.

إننا يجب أن نكون في مجالات البحث العلمي موضوعيين، ولا داعي أن يعتقد أحدنا بعقيدة خاصة، قد لا تلتقي مع هذا الطرح فنتعصب، فالآية القرآنية صريحة في الجعل الإلهي للإمامة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامَاً﴾، فالإمامة جاءت لإبراهيم بعد النبوة، وبعد أن وضع في الاختبار والامتحان، وهذا يعني أن الإمامة التي أعطيت لإبراهيم أهم من النبوة، وهذه الإمامة والنبوة اجتمعتا في نبينا محمد ﷺ لذا ورد في الآية الشريفة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2]، وهذا خاص بالنبي محمد ﷺ وليس لكل نبي، والألف واللام هنا للعهد لا للجنس، أي أنه هذا النبي المعهود، وهو محمد ﷺ. وقد أعطي

(١) لقمان: ١٣.
(٢) الأحزاب: ٦.

النبـي ﷺ الولايـة على المؤمنين جميعاً، وأنه أولى بهم من أنفسـهم، لأنه كانت لـه الإمامـة عليهم من الله، والولاية التي أعطيت له هـي نفس الإمامة العامة. فالنبي ﷺ لأنه كان إماماً، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وهذه الولاية والإمامـة التي كانت للنبي محمد ﷺ انتقلت بالنص للإمام أمـير المؤمنين عليه السلام، وليس اعتباطاً منا نحن الشـيعة ولا اجتهـاداً. ففي حادثة الغدير الشـهيرة قـال النبي ﷺ: «**ألسـت أولى بالمؤمنين من أنفسـهم؟ قالوا: بـلى، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه**»[1]، فأعطـى الولايـة التـي كانـت له لابـن عمه عـلي عليه السلام. والمعروف لـدى جميع المسلمين أن النبي لا ينطق عن الهوى، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم، فكل كلامه بنص القرآن الكريم هو وحي من الله تعالى.

فـإذا قيـل: إن الإمام أفضل من النبي، فلا نعني أنه أفضل من جميع الأنبياء، لأن الأنبيـاء على قسـمين، فهناك نبي إمـام، ونبي ليس بإمـام، فمن كان منهم نبياً إماماً، كإبراهيم عليه السلام، فليس الإمام أفضل منه، إنما الإمام أفضل من النبي الذي ليس بإمام، ولا يوجد عندنا نحن الشيعة من يقول: إن علياً عليه السلام أفضل مـن محمـد ﷺ. فنبينا محمد هـو أفضل الخلق على الإطـلاق، ونحن نعتقد أن علياً عليه السلام والأئمة من بعده يأتون بعد النبي في الفضل. واعتقادنا هذا إنما جاء نتيجة النصوص التي وردت في حق علي عليه السلام، بإعطائه الإمامة والولاية.

فعندما يُقرأ في بعض الكتب، أو يقال على ألسـنة بعض علماء الشـيعة مثلاً: إن الإمام أفضل من النبي، فلا نعني به أنه أفضل من النبي محمد ﷺ أبداً، لأن الإمامـة عند الإمام علي هـي ذاتها عند النبي محمد ﷺ، فلا يمكن أن يَفضله.

---

(١) راجـع: مسـند أحـمد بن حنبـل١: ١١٨، ٤: ٢٨١، ٣٧٠. مسـتدرك الحاكـم٣: ١٠٩. وغيرهما من المصادر.

أضـف إلى ذلـك أن النبي محمداً يزيد عليه بالنبوة، فيكون أفضل منه قطعاً. إنما نعني أنه أفضل من سائر الأنبياء الذين لا يملكون الولاية العامة التي هي عند النبي محمد، أما الأئمة عليهم السلام فإنهم يملكون تلك الولاية، وهي أعلى مرتبة دينية وقد أعطيت لإبراهيم عليه السلام بعد النبوة.

من هم الأئمة ؟

إن تعيـين الأئمـة عليهم السلام يكون من الله تعالى بواسـطة النبـي صلى الله عليه وآله وأول نص لدينـا في تعيـين بعض الأئمة هو حديث الدار، عندما جمع النبي صلى الله عليه وآله عشـيرته عنـد نزول قوله تعـالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1]، ثـم حديث الغدير، وهما حديثان متواتران مرويان في كتب سـائر المسـلمين، وبشكل واضح ليس فيه أدنى شـك، وهـذه التأويلات إنما جاءت متأخرة حيـث حدث ما حدث، وحصل ما حصل.

الإمام ووظيفة الإدارة:

لم يمارس أحد من الأئمة الإدارة بشـكل دولة سوى الإمام علي عليه السلام، فبعد مقتل الخليفة عثمان بايعه المسـلمون، فاجتمـع فيه النص والبيعة، وهو الوحيد الـذي اجتمعـت فيه الشـورى التي يذهب إليهـا إخواننا أهل السـنة، والنص الذي يذهب إليه الشـيعة. فمارس الحكم الإسلامي بالشكل الذي مارسه فيه. أمـا بقية الأئمة عليهم السلام فلم يسـتطيعوا أن يصلوا إلى الحكـم. لكنهم قاموا بإدارة بعض شؤون المسلمين، والشيعة على وجه الخصوص.

قبل أسـبوعين تقريباً، جاءني أحد الأشـخاص، ولم أكن أعرفه سـابقاً، وقد ألف كتاباً في الإمام الهادي عليه السلام ـ ومن الجدير بالذكر أن الإمام الهادي والإمام

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

الجواد والإمام العسكري يسمَّون بأبناء الرضا عليه السلام ـ فذكر أن هؤلاء الأئمة الثلاثة عليهم السلام وكذلك الإمام الرضا، ضُيِّقَ عليهم تضييقاً شديداً من قبل العباسيين، ووضعوا تحت الرقابة المشددة.

فالإمام الرضا عليه السلام جلب من المدينة إلى خراسان ليكون تحت رقابة المأمون، إلى أن استشهد مسموماً. والإمام الجواد عليه السلام جُلب إلى بغداد، ليكون تحت رقابة العباسيين أيضاً، والإمام الهادي عليه السلام كذلك، جلب من المدينة إلى بغداد ثم إلى سامراء. وهكذا الإمام العسكري ـ إن كان ولد في سامراء أو في المدينة، على اختلاف في مولده ـ كان تحت الرقابة أيضاً.

فمن كان هذا شأنهم مع الحكام، فماذا سوف يكتب عنهم الكاتب؟ ظننت أن المؤلف المذكور عندما يصل إلى الإمام الهادي عليه السلام، سوف يكتب عنه أنه ولد سنة كذا، وتوفي سنة كذا. فلما قرأت الكتاب، رأيت أن المؤلف قد بذل جهداً كبيراً، واستطاع أن يجمع الوثائق المتعددة والمختلفة، من الحديث والتأريخ وغيرها، فأعطى صورة واضحة عن كون الإمام الهادي، مع ذلك الضغط الذي كان يعانيه من قبل العباسيين، ومع كونه جلب من المدينة إلى بغداد ثم إلى سامراء، وأنزل في خان الصعاليك، إلا أنه استطاع أن يدير شؤون الشيعة. فكانت تجبى له الأموال، وكان لديه وكلاء ومراسلات وكتب، وما إلى ذلك. أي أنه قام بإدارة شؤون الشيعة.

فالإمام قد يتولى السلطة الظاهرية ـ كما يعبر عنها ـ كما تولاها أمير المؤمنين عليه السلام، فيقيم دولة وحكومة، وقد لا تصل إليه لسبب أو لآخر، فعندئذٍ لا يتخلى عن إدارة شؤون الشيعة، وإنما يبقى يمارس التبليغ، كما يمارس الإدارة في حدود الاستطاعة، باستثناء الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الذي كانت فترة مكوثه بين شيعته قصيرة.

فعلى مستوى التبليغ، لدينا أحد عشر إماماً قاموا بهذه الوظيفة، وقد قمتُ بإحصائية لما أعطوا من حديث لرسول الله ﷺ وما أسسوا من فكر يرتبط بالعقيدة والتاريخ والعلوم الأخرى، وقمتُ بمقارنتها مع ما عند سائر المسلمين، وهم أكثر عدداً، فوجدت أن ما أعطاه الأحد عشر يفوق ما أعطاه غيرهم بكثير.

وكمثال على ذلك، نجد أن ما رود في كتاب وسائل الشيعة للمحدث الحر العاملي رحمه الله، وكتاب مستدرك الوسائل للميرزا النوري، من أحاديث الأحكام، يقرب من ستين ألف حديث قمتُ بإحصائها. وبالمقارنة مع أحاديث الأحكام لدى المذاهب الأخرى نرى أنه في سنن أبي داود - وهو أوسع كتب السنن - ما يقرب من خمسة آلاف حديث. ولك أن تلاحظ الفرق الشاسع بين ستين ألف حديث، وخمسة آلاف. والسبب في هذا الفرق الكبير، أن الإمام عليه السلام يرى أن التبليغ واجب عليه، وأنه وظيفته الإلهية التي تتطلب منه ذلك، فهي من الواجبات التي يتحملها أمام الله تعالى، فيقوم بأداء واجبه كاملاً غير منقوص، وإذا حصل النقصان فهو بسببنا نحن لا بسبب الإمام.

نيابة الإمام في عصر الغيبة:

بعد عصر الأئمة عليهم السلام جاء دور العلماء الفقهاء، فلم يترك الأئمة شيعتهم هكذا دون ضبط لحركتهم، فالإمام المهدي عليه السلام وهو آخر الأئمة الاثني عشر، والمسؤول المباشر عن مستقبل الشيعة، وجه خطاباً في مجموعة من الأجوبة، أمر فيه الشيعة بالرجوع إلى الفقهاء العدول من بعده، لذا نعبر عن الفقيه المجتهد العادل الجامع للشرائط، بأنه (نائب الإمام)، أما كلمة (مرجع) فقد جاءت متأخرة عند الشيعة، ولعل أول من أطلق عليه هذه اللفظة هو السيد حسين البروجردي في قم، والسيد محسن الحكيم في النجف الأشرف. وكان قبل ذلك

يقال: مجتهد أو فقيه أو نائب الإمام، وبعد وفاة السيد البروجردي رحمه الله، توحدت المرجعية في السيد الحكيم، وأعطي لقب المرجع الأعلى، وكانت مجلة (الأضواء) التي كنا نصدرها في النجف، هي التي منحته هذا اللقب.

فمن يقوم بدور التبليغ والإدارة بعد الإمام، هم الفقهاء.

والفقيه يقوم بدور الإفتاء، حيث يفتي المسلمين في المسائل الشرعية المختلفة.

ويمكن أن نقسم الإفتاء إلى قسمين:

الأول: الإفتاء الفردي. الثاني: الإفتاء الاجتماعي

فالإفتاء الفردي يكون في الشؤون الفردية، كموضوع الصلاة والصوم، وما يخص الأفراد. أما في القضايا التي تخص الأمة والمجتمع فنسمي الإفتاء اجتماعياً.

ومعنى الأمة في هذا السياق هو المجتمع، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم كثيراً، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1]، أما في علم الاجتماع فيصطلح على الأمة بـ (المجتمع).

وعندما نطلق كلمة المجتمع، أو مجتمع المسلمين، فقد نقصد به المسلمين الذين يعيشون تحت ظل دولة إسلامية، أو الذين يخضعون لحكومة معينة، كما كان الحال في الأزمنة القديمة، وكما هو اليوم. ومجتمع المسلمين موجود في العالم كله، فأينما وجد المسلمون، فهم مجتمع مسلم، حتى من وجد منهم في أوربا أو أمريكا أو غيرها من البلدان، كل هؤلاء يقال لهم الأمة الإسلامية.

فإذا أعطي للفقيه دور التبليغ ودور الإدارة، فإن الإدارة عنده قد تأتي من

(١) البقرة: ٢١٣.

الواقع الذي يعيشه، فقد يكون الفقيه رئيساً لحكومة، ومتصدياً للحكم، كما كان الإمام الخميني قدس سره، فمن الواضح أن من يتبع الحكومة، يخضع للأحكام العامة التي تصدرها، والحكم الذي تصدره الحكومة يسري حتى على المجتهدين الآخرين الذين يعيشون في ظلها، وليس لهم حق الرد والاعتراض، لأنه هنالك حديثاً بلهجة قاسية يحرم الرد على الحكم الذي يصدر من الفقيه الحاكم، بل حتى المجتهد ليس له الحق أن يرد حكمه، وهذا أمر طبيعي، لأن من يعيش في ظل دولة، سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية، يفترض أن يطبق أحكامها، وإلا فلا معنى لقيام الدولة. فإذا رأى كل فرد في الدولة أن الحكم لا يسري عليه، فلا فائدة من الدولة.

فمن يعيش في ظل حكومة الفقيه، ملزم شرعاً بتطبيق الأحكام التي تصدرها الحكومة، كأي حكومة في الدنيا. أما من يعيش في ظل حكومة لا يرأسها الحاكم الفقيه، فهل تسري عليه الأحكام أو لا؟

الجواب: إن الفقيه له وظيفتان، فهو حاكم من جهة وفقيه من جهة أخرى.

فإن كان حاكماً لدولة ما، فالأمر واضح لا لبس فيه، ووظيفته في الحكم نافذة على أفراد دولته، فمن يوجد في تلك الدولة، سواء كان مواطناً أم مهاجراً، يجب عليه أن يخضع لأحكام دولة الفقيه. أما من كان خارج الدولة، فإن كان الحكم عاماً لجميع المسلمين، فيكون معنياً به، وقد يصدر الفقيه الحاكم حكماً لمنطقة من المناطق، أو لبلد من البلدان، أو لجماعة من الجماعات، فعليهم أن يمتثلوا كل بحسبه.

فأحكامه إذن خاصة بدولته، أما من هم خارج تلك الدولة فلا تشملهم، إنما يأخذون بأحكام دولهم التي يخضعون لها كمواطنين أو كمقيمين.

فالأمة قد نفهمها بشكل إداري، وقد نفهمها بشكل عَقَدي، فالشكل الإداري هو ما تخضع إليه الأمة في كل دولة من الدول. أما الأمة العقدية فالمسلمون في كل أنحاء الأرض أمة، لأنهم يعتقدون بالإسلام، ويريدون تطبيقه.

هذا بيان مختصر لعلاقة الإمامة بالأمة.

أما لماذا هذه العلاقة ؟ وهل من الممكن أن يكون المرجع الديني جالساً في محله، ويبعث لمقلديه الرسالة العملية وما فيها من عبادات ومعاملات، ويكتفي بذلك؟

الجواب: إن هذا الأمر يرتبط بما ذكرته سابقاً، وهو أن الله سبحانه وتعالى جعل اثني عشر إماماً بعد النبي، ثم بين أن هؤلاء الأئمة مع الكتاب، ولن يفترقا أو يتفرقا، حتى يردا عليه الحوض. فالإمام المعصوم لا بد أن يكون موجوداً حتى قيام الساعة، والارتباط به إنما يكون لازماً ليبقى المسلم مرتبطاً بالتشريع الإسلامي.

إننا نلاحظ أن البلدان الإسلامية تحكم بالقوانين الوضعية - باستثناء دولتين أو ثلاثة تحكم بالتشريع الإسلامي - وأصول القوانين الوضعية عندهم ثلاثة، وهي: ما يسمى بالتشريع، وهو المصدر الأول عندهم، ويعني اجتهاد المقننين والمشرعين، ثم العرف والدين. فقد يأخذ المشرعون بالقانون الفرنسي أو الروماني أو القوانين الأخرى.

فالشريعة الإسلامية في مجال الحكم والدولة، لا وجود لها في هذه الدول، إلا في مجال الأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والمواريث وما شابه ذلك، فيُرجع بها كل صاحب دين إلى دينه.

أما إذا بقي المسلمون مرتبطين بسلسلة الإمامة، ابتداء من النبي حتى الفقيه

فإنهم يبقون مرتبطين بالتشريع الإسلامي، وهذا ما أراده الله سبحانه وتعالى لهم، حيث جعل العترة مقارنة للقرآن إلى يوم القيامة.

من ناحية أخرى، نلاحظ أنه في كل زمن نبي واحد، أو إمام واحد، فمن المفروض أن يكون في الزمن الواحد فقيه واحد لا أكثر، ليبقى الامتداد مستمراً، ولتتحقق الغاية من الارتباط بين المسلمين وبين التشريع.

وقد يقول البعض: إن ولاية الفقيه من حق كل فقيه، فكيف تحصرونها في فقيه واحد؟

نعم، صحيح أنها من حق كل فقيه، وجميع الفقهاء يقولون بولاية الفقيه، ولكن على تفاوت، فهي من حق كل فقيه، ولكن ليس من حقه أن يطبقها إلا إذا كان حاكماً، وهذا ما جاءت به النصوص الشرعية.

فالمجتهد الجامع للشرائط له ولاية، ولكن ليس له أن يطبقها متى ما شاء، إنما ذلك ينحصر في حال كونه حاكماً. وإلا لم يحدثنا التأريخ في يوم ما، أن الفقيه طبق ولايته، فطلق امرأة من زوجها، إنما ذلك مرهون ومقرون بالحكم.

من هنا ندعو إلى توحيد (المرجعية)، ففي التقليد لا يوجد أي مانع من التعدد، وليكن هنالك ألف مقلِّد، فهذه ظاهرة صحية، ولكن المرجع العام الذي يصدر أحكاماً عامة لجميع المسلمين، لا بد أن يكون واحداً، وإلا فسوف يقع الاختلاف في الأحكام العامة بلا شك.

فعلاقة الأمة بالإمامة، أن يكون هناك ولي فقيه، والناس يرتبطون به في أحكامهم العامة، أما الأحكام الخاصة فمن الممكن أن نأخذها من أي فقيه، ليبقى المسلمون مرتبطين بالتشريع الإسلامي، ولا ينحرفون عنه إلى القوانين الوضعية، والاجتهادات الشخصية.

والحمد لله رب العالمين

الأسئلة

س١: ما قيمة العلاقة التي نطلبها من الأمة تجاه الإمام، وهي ملزمة أو منقادة له دون أدنى شك؟

الجواب: هذا الأمر نبينه للتأكيد والتنبيه والتوضيح، فليس كل شخص تكون هذه العلاقة واضحة لديه، أو قد يفهم أن هناك علاقة موجودة، وهو ملتزم بها، ولكنه لا يفهم حدودها، فتوضح لديه من خلال هذا الطرح.

س٢: كيف يمكن للأمة أن توفق بين اختلاف مواقف الفقهاء الاجتهادية، لتبنّي موقف محدد تجاه قضاياها الحاسمة، في ظل غياب الإمام المعصوم عليه السلام، وتعدد الالتفاف حول فقيه دون غيره، حيث يشكل الفقهاء في عصر الغيبة نواباً للإمام؟

الجواب: لقد أوضحت أن الإمامة قد تشمل كل أعمال المسلمين، فيما إذا كان الفقيه حاكماً للمسلمين جميعاً، أو لدولة معينة فيها مسلمون.

وقد يكون في الإدارة شيء من عدم الشمولية؛ لأن الفقيه غير حاكم، كما كان سابقاً في بعض الأدوار، حيث يقوم في حدود قدرته واستطاعته بإدارة شؤون الشيعة.

وقد أدركت السيد أبا الحسن الإصفهاني وأنا صغير في النجف الأشرف، وهو أبرز مراجع الشيعة في الفترة المتأخرة، وتأريخه معروف ومشهور، فكان يدير شؤون الشيعة في العالم كله، وليس في العراق وحده، حيث كان يتفقد أحوال الشيعة، ويتصل بهم، ويرسل وفوداً لهم، ويدير مشاريع كثيرة. فكان

يدير شؤونهم في حدود المقدور والمستطاع. لأنه يدرك أنه كان مسؤولاً عن الشيعة، ويجب أن يكون في حدود هذه المسؤولية.

س٣: رغم عدم إمكانية توفر حكومة معصومة، حتى في ظل الإمام المعصوم، ومثال على ذلك حكومة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، فعصمة الإمام ليست موجبة لعصمة حكومته. فما هو الموقف المطلوب تجاه من يشترط أن تكون حكومة الولي النائب معصومة، وإلا اعتبرت استبدادية؟

الجواب: المثالية في مثل هذه القضايا أمر غير معقول ولا مقبول، فنحن لدينا تشريع إسلامي، وهذا التشريع إن أخذناه من النبي مباشرةً، بأن نكون معاصرين له، فهذا هو حكم الله، ولا مجال للأخذ والرد.

وإن أخذناه من الإمام المعصوم بأن كنا معاصرين له أيضاً، فهو مثل سابقه، ولا مجال فيه للأخذ والرد. لكن ليس بالضرورة أن يكون الناس مطيعين تماماً للنبي أو الإمام المعصوم، فالتقصير من الأمة وارد ومتوقَّع. فالخطأ في التطبيق لا في النظرية، لأن نظرية الحكم من الله تعالى.

فنحن نقرأ في نهج البلاغة أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وجه الكثير من الكتب إلى ولاته، وبعضها كان شديد اللهجة، مع أنه لم يفعل شيئاً سوى أن الناس كانوا يتوددون إليه لكي يقضي حوائجهم، وقد أقال بعضهم لأنه تقبل الهدايا من الناس. فهذه الأخطاء ليست محسوبة على التشريع ولا على المعصوم، إنما هي من الناس.

فالإمام عليه السلام أراد أن يوجد الحكومة المعصومة، ومن كان يدعى من ولاته من قبل الأغنياء ويلبي دعوتهم، ولا يلبي دعوة الفقراء إذا دعوه، فإنه يعتبر في نظره غير صالح للولاية، لأنه يترك الفقير ويذهب إلى الغني. وكان عليه السلام يعيش عيش الفقراء، وقد علل ذلك قائلاً: «إن الله تعالى فرض على أئمة العدل

أن يقدِّروا أنفسهم بضعفة الناس، كي لا يَتَبَيَّغَ بالفقير فَقرُه»[١]. وقال أيضاً: **«أأقنعُ من نفسي أن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركُهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش. فما خُلقت ليشغلني أكلُ الطيبات كالبهيمة المربوطة هَمُّها عَلَفُها، أو المرسلة شغلها تقمُّمُها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها»**[٢].

وهكذا كان يتحسس آلام الفقر، ويسعى لإنقاذهم، وقد سعى لإيجاد الحكومة المعصومة، لكن الناس لا يزالون متمسكين برواسب الجاهلية، وكانوا يخطئون في التطبيق، فأتعبوه في ذلك.

هذا هو الحال مع الإمام، أما مع الفقيه فالأمر يختلف، لأن الفقيه يجتهد، والاجتهاد قد يصيب الواقع وقد يخطئه، فهو ليس معصوماً، لكننا ملزمون من قبل المشرع الإسلامي باتباع الأحكام التي يصدرها، فالنصوص الشرعية تلزمنا بذلك، أما أن يحصل الخطأ فيكون مبرراً لإلغاء التشريع الإسلامي بكامله، وإحلال القوانين الوضعية محله، فهذا غير منطقي ولا مقبول.

س٤: تفضلتم أن الفقيه الحاكم هو الوحيد الذي له الصلاحية في إصدار الأحكام العامة، بينما نرى أن الميرزا الشيرازي أفتى بحرمة التنباك مع أنه لم يكن حاكماً، فكيف نوفق بين الأمرين؟

الجواب: لقد أوضحت أن الحكم الإداري قد يكون من الفقيه وهو على رأس دولة، وقد يكون منه وهو ليس بحاكم، فهو ملزم بإدارة شؤون المسلمين في حدود المقدور والمستطاع، وقد ضربت لكم مثلاً بالسيد الإصفهاني.

---

(١) نهج البلاغة: ٣٢٤، من كلام له عليه السلام في البصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي، وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة الدار قال: ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج ...إلخ.

(٢) نهج البلاغة: ٤١٨، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وكان عامله على البصرة.

فعندما أفتى الميرزا الشيرازي بحرمة التنباك فإنه قام بذلك بصفته فقيهاً حاكماً، لكن السلطة ليست بيده، وكان بمقدوره أن يفتي وينهي احتكار الشركة الإنكليزية للتنباك، فأفتى وقام بوظيفته ومهمته.

س٥: لقد سمعنا منذ فترة بعيدة بفتوى التنباك للسيد الشيرازي، والآن تصدر فتاوى تجاه بعض المشروبات مثل الكوكا كولا والبيبسي وغيرها، ولكن لا نرى الامتثال لهذه الفتاوى كما كان مع فتوى التنباك؟

الجواب: هناك فتوى وهناك حكم، فتارة يقول الفقيه: يجب أو يحرم أو يستحب أو يبطل أو لا يصح أو هذا صحيح، فهذه نسميها فتاوى. وتارةً أخرى يقول: حكمت، أو يقول: على المسلمين جميعاً، فهذا حكم يجب على كل المسلمين أن يمتثلوا له، حتى لو كانوا مقلدين لمجتهد آخر.

أما الفتوى فلا تلزم إلا من يقلد ذلك المجتهد فقط.

س٦: ذكرتم أنه لا يجوز للفرد في حكومة ولاية الفقيه أن يعترض على الأحكام الصادرة من الفقيه الحاكم، فبماذا تجيبون من يدعي أن ذلك خلاف الديمقراطية وتعدد الآراء والحرية الفكرية، مع العلم أن هناك من يرى عدم أحقية الفقيه في إدارة الدولة الإسلامية؟

الجواب: التفسير الحرفي للديمقراطية أنها حكم الشعب، أي أن الشعب يقوم بانتخاب رئيس الجمهورية، وهناك لجنة من القانونيين تشرع القانون، ثم يعرض على ممثلي الشعب، ليقرُّوه.

فهل أن ممثلي الشعب يفهمون التشريع أفضل من الله؟ إن مصدر التشريع الإسلامي هو الله تعالى، فلا يقارن بأحكام توضع من مستويات أدنى.

مَنْ ينتظرُ مَن؟

توطئة:

إلامَ انتظاري يا بنَ فاطمةَ الزَّهرا
ألا تنقضي أعوامُ غَيبتِكَ الكُبرى
بها طالَ ليلُ الدِّين حتى كأننا
نُمَطي بها باعاً إذا ما دنت شبرا
قَضَيْنا بِها ألفاً ونيفاً وما انقضت
أما مُلئت ظلماً؟ أما مُلئت جَورا؟
فدينـاك قُم من غير أمر وإنَّما
دعوناك أن تُبدي بنا النهيَّ والأمرا
وتجلِبُها قُبَّ البُطونِ شَوازباً
ضَوابحَ لا تُبقي ضَلالاً ولا كُفراً
تُقِلُّ رجالاً كالحديد قلوبُها
بأعيُنها ترنو لأعدائها شَزرا
فأكبادُنا حَرَّى، وأعيُنُنا عَبرى
على ديننا طَوراً وأنفسنا طَورا
نرى فيئَنا فيهم سهاماً مُقَسَّماً
وأيدِيَنا من فيئنا أصبحت صِفرا
على أيِّها يا غَيرةَ الله صبرُنا؟
وكم من دمٍ لله فيها مضى هدرا[1]

---

(١) من قصيدة للعالم الجليل، والشاعر الشهير، أحمد بن حسن بن علي بن نجم الرباحي السعدي، الشهير بأحمد قفطان النجفي، يكنى بأبي سهيل، ولد في النجف الأشرف عام ١٨٠٢ م وتوفي عام ١٨٧٦ م ودفن في النجف الأشرف. كان مصاباً بالصمم، إلا أنه كان آية في الذكاء والحفظ.

محور المحاضرة:

إن سؤالنا الأساس في هذا اللقاء هو: هل نحن ننتظر الإمام المهدي (عجل الله فرجه) أم هو من ينتظرنا؟

لأول وهلة يبدو واضحاً معنى انتظارنا له، فنحن ننتظر ظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. ولكن، ماذا يعني انتظاره لنا ؟ وماذا ينتظر منا ؟

هذا ما سوف نبحثه في هذه المحاضرة.

الانتظار.. وحتمية الظهور:

من المؤكد في عقيدتنا نحن الشيعة الإمامية بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام، ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه). فقد وردت الأحاديث المتواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حتمية الظهور، وكذلك الأحاديث المتواترة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ابتداءً بالإمام علي (عليه السلام) وانتهاء بالإمام الحسن العسكري (عليه السلام).

كما وردت الكثير من الروايات الأخرى عن كثير من الصحابة والتابعين أيضاً، والمأثورات العلمية التي أثرت عن العلماء. وتلك النصوص بمجموعها الذي يبلغ الألف، تدل على حتمية ظهور الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، وأنه لا بد من ظهوره. أما الإجابة على السؤال المطروح، فتقتضي أن نطرح مجموعة من الافتراضات عن الظهور، تساعدنا في إدراك معنى الانتظار. وقبل أن نذكر هذه الافتراضات لا بد أن نذكر مقدمة مهمة.

إن الغرض من ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) هو القيام بواجبه، وواجبه يختلف - إلى حدٍّ ما، من حيث التطبيق لا من حيث النظرية - عن واجب جده

المصطفى ﷺ وأجداده الأئمة الأطهار عليهم السلام، فمن حيث النظرية لا يختلف الأمر عما هو عليه في شأنهم، إنما الاختلاف الرئيس هو أن الإمام عجل الله فرجه سوف يقيم دولة عالمية.

فالرسول الأكرم ﷺ لم يتسنَّ له أن يقيم الدولة العالمية، وكذلك من جاء بعده، سواء من الأئمة الأطهار عليهم السلام أم من غيرهم. والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[1]، وهذا ما لم يتحقق على مختلف مديات التاريخ التي مر بها المسلمون، فلا بد أن يتحقق على يد الإمام المهدي.

من هنا تأتي الافتراضات التي أشرنا إليها، وسوف أذكر تلك الافتراضات والاحتمالات من خلال النصوص والروايات الواردة الشريفة، وكذلك من الناحية العقلية:

الافتراض الأول: أن الله سبحانه وتعالى يحقق هذه الدولة وذلك النظام على يد الإمام المهدي عجل الله فرجه على نحو المعجز، وبذلك لا يحتاج الأمر إلى أية مساعدة، ولا يحتاج عجل الله فرجه أن يبذل أي جهد متواصل من أجل الوصول إلى هذا الهدف. كما أنه لا يحتاج منا أن نقوم بأية مساعدة.

وهنالك بعض الروايات التي قد تشير إلى هذا الموضوع، وربما يُستظهر منها ذلك، أو أنها تُؤوَّل بتأويلات أخرى.

فمن تلك الروايات ما ورد في حال ظهوره، وأنه يصلحه الله في ليلة[2]. فقد يفهم من ذلك أن الله تعالى هو الذي يتولى أمره على نحو المعجزة.

---

(١) التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

(٢) عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «المهدي منا أهل البيت يصلح الله له أمره في ليلة» وفي رواية أخرى «يصلحه الله في ليلة». كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق١: ١٥٢.

الافتراض الثاني: أن يقوم الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) كما قام أي داعية، لأي مبدأ كان، كما هو الحال في جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي الدعاة والمصلحين الآخرين الذين دعوا إلى مبادئ معينة، وقاموا بأدوار إصلاحية أخرى. فهو يسير بسيرة هؤلاء، ويتّبع طريقتهم في الدعوة، وذلك بأن يخرج ويتحرك بشكل سري، كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) في فجر الدعوة، فقد تحرك (صلى الله عليه وآله) ثلاث سنوات بشكل سري، ثم أعلن الدعوة بعد ذلك. فيتصل الإمام سرّاً بالأفراد، ويدعوهم إلى اعتناق هذا المبدأ، أو الاشتراك معه في النهوض بهذه الدعوة، ثم تنتهي المرحلة السرية، وقد تطول وقد تقصر، فيعلن حركته بعد أن تصبح قوية تستطيع أن تصمد وتجابه وتقاوم، لتصل إلى الهدف، كما فعل الأنبياء السابقون، وكما فعل جميع الدعاة والمصلحين. فالمعجز لا يتدخل هنا، لا من قريب ولا من بعيد.

وهذا الافتراض تدعمه روايات كثيرة تشير إلى هذا المعنى، فمنها ما ورد في أن عدد أنصار الإمام المهدي بعدة أهل بدر[1] (ثلاثمئة وثلاثة عشر شخصاً)، وهناك رواية أخرى تشير إلى أنه (عليه السلام) عندما يريد الخروج يتصل بهؤلاء، ويهيّئ معهم للحركة، وكيفية انطلاقها، ويعطي التعليمات بذلك ويتحرك، فيما إذا رأى أن المرحلة السرية مع هؤلاء قد انتهت، وعليه أن يبدأ بالمرحلة العلنية.

الافتراض الثالث: هو أن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يخرج وهناك دولة قد مهدت له، أي أنها هيأت له متطلبات النهوض، بنشر الفكر، وإعداد السلاح والجنود الذين يحتاج إليهم، فيأتي ويتسلم ذلك ويتحرك، وهناك روايات موجودة تشير إلى هذا.

---

(١) عن جابر الجعفي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: «يبايع القائم بين الركن والمقام ثلاثمئة ونيف، عدة أهل بدر، فيهم النجباء من أهل مصر، والأبدال من أهل الشام، والأخيار من أهل العراق، فيقيم ما شاء الله أن يقيم» غيبة الطوسي: ٤٧٦.

وإذا حاولنا أن نقارن بين الروايات الواردة في الاحتمالات الثلاثة، من حيث الكثرة العددية، فإن الروايات التي تقول بالتمهيد هي الأكثر، وهو الاحتمال الثالث.

أما روايات الاحتمال الثاني التي تقول: إنه يعتمد على أنصاره، ويتحرك معهم كما يتحرك أي داعية أو مصلح آخر، فتأتي من حيث الكثرة بالدرجة الثانية، فهي أكثر عدداً مما هي عليه في الاحتمال الأول، إلا أنها أقل بكثير من الروايات التي تشير إلى الاحتمال الأخير (التمهيد)، كما أنها أكثر اعتباراً من حيث الوثاقة.

إذن هناك دولة تبقى ثابتة على الحق حتى ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) وهي التي تهيّئ له الأرضية والقاعدة اللازمة للظهور.

الواقع العالمي والانتظار:

ولو رجعنا إلى الواقع العالمي الذي نعيشه اليوم، ودرسنا الاحتمالات الثلاثة في ضوء هذا الواقع، فأي الاحتمالات هو الأقرب؟

في نظرة سريعة إلى الواقع الدولي، نرى أن الاتحاد السوفيتي السابق، وهو القطب الآخر من القطبين المتنافسين في العالم، قد انهار واضمحل، في حين لم يكن أحد يتوقع انهياره بهذه السرعة، لكن شاء الله تعالى له أن يكون بهذا الشكل. وقد خلف انهياره دولاً متشتتة تعاني الويلات والمصائب، فهناك طبقة اجتماعية متمولة في أعلى درجات التمول، بحيث أصبحنا نقرأ في الصحف أن بعض الأثرياء من بقايا الاتحاد السوفيتي السابق يذهبون اليوم إلى أسواق (مانهاتن) في نيويورك، ليشتروا المجوهرات الثمينة بأغلى الأثمان.

وإلى جانب تلك الطبقة القليلة الثرية، طبقة واسعة جداً معدومة مسحوقة

تماماً، وقد أصبحت هذه الطبقة تعيش حالة اليأس الشديد من دعاة الشيوعية الذين اعتمدت عليهم في أن يرفعوا من مستواهم عندما تبنوا (الاشتراكية) وأنها سوف تحقق التساوي بين الغني والفقير، وترفع من مستوى الفقير إلى مصافّ الغني.

وفي مقابل هذا اليأس هناك تطلُّع إلى مصلح آخر غير هؤلاء الذين أثبتت التجربة فشلهم، فلا بد من مصلح يقوم بانتشالهم من هذا الواقع المزري الذي انتهت إليه شعوب الاتحاد السوفيتي.

أما في القطب الآخر المنافس للاتحاد السوفيتي، وعلى رأسه أمريكا، فإن هذه الدولة تعاني من الناحية الاقتصادية اهتزازات داخلية عنيفة، قد تؤدي بها إلى انهيارات داخلية كما انهار الاتحاد السوفيتي. فهي تعاني من تحلل خلقي فظيع، والإحصائيات التي تنشر اليوم في هذا المجال كثيرة جداً، والمحاولات الحثيثة لتلافي هذا الوضع السيّئ أصبحت تخفق وتفشل ولا تصل إلى نتائج مرضية.

وبالتالي فإن الناس جميعاً أصبحوا اليوم في حالة هي أقرب ما تكون إلى اليأس والسأم، وأصبحوا متطلعين إلى مصلح آخر غير هؤلاء الذين يدعون الإصلاح.

من هنا أصبحنا نسمع كثيراً عن دعوات إيجاد نظام آخر بديل عن الأنظمة الحالية.

فما معنى النظام البديل ؟

أما من حيث الحكم والنظام السياسي، فهنالك نظام دكتاتوري تتجسد فيه الفردية، والانفراد بالسلطة والاستئثار بها من قبل مجموعة من الأفراد،

وهنالك نظام ديمقراطي، ويعني حكم الشعب. فالنظام الدكتاتوري كان يتمثل في الاتحاد السوفيتي السابق، والنظام الديمقراطي يتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي.

وهذا الوضع الذي نشاهده اليوم من التخلخل الحاصل في البنية الاجتماعية والاقتصادية لهاتين الدولتين، يدل وبوضوح على أن الدكتاتورية فاشلة. وأن الديمقراطية المدّعاة فاشلة أيضاً، سواء من حيث النظرية والتطبيق معاً، أم من حيث التطبيق، فهؤلاء جميعاً، من ديمقراطيين ودكتاتوريين، يدَّعون من حيث النظرية أنهم يوفرون للإنسان حقوقه، ولكن عند التطبيق يقع الخلل، ويحصل شيء من التلاعب على حساب النظرية.

وأما من حيث الاقتصاد فلم تحقق الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي أهدافها، وكذلك الرأسمالية في أمريكا والمعسكر الغربي. فقد انتهت الاشتراكية وشعاراتها في الاتحاد السوفيتي، وصارت الحتمية التاريخية التي كان يقول بها ماركس، هباءً منثوراً، في حين كان الاقتصاديون ينعتون ماركس بأنه نبيّ الشيوعيين، وقد وعد بأنه سيُنزل (جنة المتّقين) لمن يعتنق الشيوعية، إلى الأرض بدل السماء، لكنه في النهاية لم يحقق من ذلك شيئاً، وبدل أن ينزل الجنة إليهم، فقد اقتطع قطعةً من الجحيم، ووضعهم فيها.

فالاشتراكية كنظام اقتصادي أخفقت وانتهت، ولا مجال لعودتها بعد هذا الإخفاق الذي وصلت إليه.

وأما الرأسمالية فإن من يتابع الآن ما يكتب في الدوريات الاقتصادية، فسوف يجد أن شركات ومصانع ضخمة بدأت تعلن الإفلاس، أو أنها بدأت تستجدي من الدول النفطية لإنقاذ انهيارها. وقد أصبحت الديون بمستوى عالٍ جداً، بحيث إن الكثير من البنوك عجزت عن الإقراض، وجدولة الديون

في تصاعد مستمر، وهذا يعني أن الرأسمالية أصبحت تتخبط، وأي نظام يتخبط سوف ينتهي من غير شك، وبالتالي خابت الآمال التي كانت تعلقها البشرية على الرأسمالية.

هذا من الناحية السياسية والاقتصادية. أما من ناحية العقيدة، فهنالك المسيحية والعلمانية، إذ ليس للإسلام في تلك البلدان انتشار واسع كما هو الحال في منطقتنا أو مناطق آسيا وأفريقيا، إنما هناك المسيحية والعلمانية. أما المسيحية فإنها نتيجة للثورات المتلاحقة في أوربا، من الثورة الفرنسية وما بعدها، أصبحت تعيش داخل جدران الكنائس، وتعنى بالجانب الأخلاقي في حدود ضيقة.

وقد ذكرت لكم في محاضرة سابقة أن الأمير (جارلس) ولي عهد بريطانيا، كان قد أعلن فشل الكنيسة بشكل صريح في الجانب الأخلاقي، وذلك في محاضرته التي ألقاها في المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد، والتي هزت العالم في وقتها، حيث خاطب الكنيسة وبكل صراحة، بأنها أخفقت في المجال الأخلاقي، ولم تستطع أن تصلح أخلاقيات الناس. وأعلن الأمير جارلس أنه لا بد من الرجوع إلى أخلاقيات القرآن الكريم والإسلام، لإنقاذ الوضع مما هو عليه.

وفي مقابل المسيحية نجد العلمانية، التي تعني اللاعقيدة، وتعتمد على الأخذ بالعلم، وطرح العقيدة الدينية جانباً، لأن العلمانيين يذهبون إلى أن الدين ليس من صنع الله تعالى، وإنما هو من صنع البشر، لأسباب عديدة يذكرونها في هذا المجال، يمكن معرفتها بالرجوع إلى (علم الاجتماع الديني) وهو فرع من فروع علم الاجتماع. حيث يذكرون هناك مجموعة من الأسباب التي يرونها وراء اختراع الإنسان للدين، وبالتالي فإن الدين في نظرهم ليس من الله. وهذا ناتج

أيضاً من إخفاق الكنيسة عندهم، حيث استبدلوا العلم بالدين المسيحي.

ولكن، ماذا حقق العلم على المستوى الاجتماعي والنفسي للإنسان؟ صحيح أن العلم حقق إنجازات هائلة على الصُّعُد المادية، ودخل في مختلف مجالات الحياة، وأوجد العديد من الإنجازات الهائلة، ولكن، هل استطاع أن يحل مشاكل العالم بأجمعها ؟

إن عودة سريعة إلى كتاب: الإسلام في مواجهة الغرب، تكشف عن حجم الكوارث الإنسانية التي تبينها الإحصائيات الصادرة عن المنظمات الدولية، كمنظمة اليونسكو، أو منظمة الصحة العالمية، أو المنظمات الأخرى، حيث تكشف تلك الإحصائيات أن العلم متجه اتجاهاً مادياً بعيداً كل البعد عن الجوانب الروحية أو الجوانب الأخلاقية، وإذا كان كذلك فإنه لا يستطيع أن يصلح من سلوك الناس، وكل ما يستطيع أن يوفره هو الأمن الاقتصادي، فيما إذا كان هناك نظام عادل يراعي الضوابط العلمية. أما أن يهيّئ العلم ضوابط وتعاليم أخلاقية تصلح السلوك الإنساني، فهذا ما لا يمكن أن نتوقعه منه أبداً، لذا نرى التخلف والانهيار الواضح في الحياة الإنسانية على الصعيد الأخلاقي.

سبيل الخلاص:

هذه الأمور وأمثالها دعت الناس إلى أن يفتشوا عن النظام البديل، ولم يعودوا يؤمنون اليوم بهذه الأنظمة التي جربوها نصف قرن أو أكثر، ولم يروا منها إلا الإخفاق، لذا انتابهم اليأس من جميع الأنظمة، وراحوا يفتشون عن النظام البديل الذي يوجد التوازن والعدالة، ويوفر للإنسان حقه كإنسان، بالشكل الذي يجعله يعيش حياةً حرةً كريمة. وليس هناك من نظام سوى الإسلام، وهذا ما أصبح الكثير من الناس يدعو إليه، بعد أن أدركوا أهمية

التجربة الرائدة التي قادها النبي محمد ﷺ في مدة قصيرة.

لماذا الإسلام؟

إن أمريكا مثلاً، بما لديها من أطماع في ثروات العالم، وما تسعى إليه من الاستحواذ على مقدرات الدنيا، إلا أنها ما زالت تدعو إلى الديمقراطية، بالرغم من أن الناس جربوا ديمقراطيتها وأدركوا نتائجها وثمارها.

إن أهم ما يميز الديمقراطية الغربية أنها تفتقر إلى عنصر مهم جداً، يمتاز به الإسلام، فالديمقراطية لا تقوم على أساس عقيدة معينة، بعكس الإسلام والشيوعية، فقد كانت الشيوعية تقوم على أساس عقيدة معينة، ولها أسسها وقواعدها الفكرية، أما الديمقراطية فلا تقوم على أساس من عقيدة معينة، وفي مقابل الشيوعية والرأسمالية يمتاز الإسلام بعقيدة إلهية، هي التوحيد، الذي يعني أن أي سلوك وحركة يقوم بها القائمون على النظام، فإنهم مسؤولون أمام الله تعالى عنها. وبالتالي فإن نقطة امتياز الإسلام عن الرأسمالية بوجود العقيدة، وعن الشيوعية بوجود العنصر الإلهي في العقيدة، الذي يجعل من الإنسان تحت الرقابة الدائمة.

لقد كان علي أبن أبي طالب عليه السلام يستطيع أن يأخذ من بيت مال المسلمين ما يشاء، ويملك ما شاء الله أن يملك، لكنه يشعر أنه سوف يحاسب أمام الله تعالى، فلا يقدم على هذا.

هذا اللون من الشعور والمراقبة الذاتية في الدين الإسلامي، الذي يكبح جماح المسؤولين في أن يطلقوا العنان لأطماعهم، غير موجود في الديمقراطية.

وقد يقال هنا: إن في الإسلام حكاماً لا يراعون هذا العنصر المذكور، ولا يتورعون في جمع الأموال من حلها أو حرامها. وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها،

وهي معروفة في تاريخ المسلمين، قديماً وحديثاً، إلا أن هذا ليس من الإسلام، ولا يمكن أن يحسب على الإسلام، إنما هو مخالفة صريحة للدين الإسلامي، وتقصير من المسلمين في محاسبة الحكام، فالمسلمون هم المسؤولون عن هذه الأموال التي كانت تؤخذ من حقوقهم، وهم المسؤولون عن ضياع حقوقهم إذ لم يدافعوا عنها. أما من حيث الفرق بين النظام الديمقراطي والإسلام فإن هذا العنصر واضح وملحوظ بشكل كبير، لأن الديمقراطية ليس فيها ضوابط روحية تضبط الحاكم من الداخل.

من هنا نجد أن هناك اتجاهاً قوياً في الدعوة إلى الإسلام كنظام عالمي بديل، يقيم دولة عالمية.

كل هذا جعل الناس يتطلعون إلى المصلح. ومن الملاحظ أن الغربيين يهتمون بهذه القضايا أكثر مما نهتم بها نحن هنا، فهم يهتمون بالمستقبل والمصير كثيراً، أما نحن فنهتم بالحاضر أكثر من المستقبل، والمهم لدينا أن نملأ بطوننا، ونشبع شهواتنا، وربما نفكر في أن نؤدي العبادات كي لا نحاسب يوم القيامة، وكثيراً ما نردد قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

من هنا نجد أن هناك تطلعاً للمصلح، وهناك اليوم جمعيات جديدة، وأساتذة جامعيون ينتمون إلى تلك الجمعيات والمراكز، وهناك فروع لتلك الجمعيات المعنية بالتنبؤ بالغيب، فقد أنشئت تلك الجمعيات لتتنبأ بالمستقبل وتدرسه وتتنبأ بالغيب، وماذا سوف يحدث للعالم في المستقبل، وقد ترجمت بعض الكتب في هذا المجال إلى اللغة العربية. كل هذه الأمور خلقت تياراً كبيراً يؤمن بظهور مصلح عالمي ينقذ الناس من هذه الحال.

والـذي جعـل هـؤلاء ينفتحون على الإسـلام، إنما هـو الفكر الشـيعي، إذ انفتحوا عليه أكثر من انفتاحهم على الفكر غير الشيعي، والسبب في ذلك أنهم يتابعون تحركاتنا وأفكارنا، وقد أدركوا الفرق الكبير بين الاتجاهين.

وكمثال على ذلك فإن الحركة الإسلامية في مصر كانت منذ أكثر من خمسين عامـاً تقريبـاً تطرح فكـراً إسـلامياً، وقد أثـرَت المكتبة الإسـلامية بالمئات من الكتب، وأسـهمت إسـهاماً كبيراً في نشر الفكر الإسـلامي، إلا أن هذه المئات مـن الكتـب التي بيعـت وانتشرت وتُرجـم الكثير منهـا إلى اللغـة الإنجليزية والفرنسية وغيرها من لغات العالم، لم تستطع أن تقدم للعالم ما يمكن أن نسميه نظاماً، يحقق للإنسان حقوقه العادلة.

وبالمقابل تحركت النجف، من قبل السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، ثم إيران، فأصدرت كتباً قليلة، قد تكون بالعشرات، لكنها قدمت للعالم مشروعاً جديداً، يتضمن نظاماً إسـلامياً، يصلح أن يكون نظاماً عالمياً بديلاً، سواء على الصعيد الفكري أم الاقتصادي أم السياسي.

من هنا انفتح العالم على الإسـلام الشيعي، ليتعرّف هذا النظام الذي يصلح أن يكون بديلاً لأنظمتهم التي أخضعوها للتجربة فأخفقت.

فالفكـر الشـيعي، الـذي نعني بـه فكر أهل البيـت عليهم السلام استطاع أن يثبت وجـوده في العـالم، وأن يكون له حضوره العالمي، وأن يعطي المؤشر، وبشـكل واضح، أنه يمكن أن يحل الإسلام بديلاً عن الأنظمة التي أخفقت.

ولـو نظرنا إلى البلاد الإسـلامية اليوم، لرأينـا أن هنالك تحركاً كبيراً في هذه البلاد باتجاه الإسلام، وهناك الكثير من الحركات الإسلامية في مصر والسودان والمغرب والجزائر وتونس والبلدان الأخرى.

وهـذا التحـرك يهدف أن يحقق للمسـلم كرامتـه وعزته، وليس لاستبدال أنظمـة الحكم فحسـب، صحيـح أن هذا الهدف يبـدو لأول وهلـة أنه الهدف الوحيـد، ولكن هنالك هدف أسـمى مـن هذا لأولئك الإسـلاميين، وهو أن يحققوا للإنسـان المسـلم كرامته وعزته التي أرادها له الإسـلام، قال تعـالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وقال أيضـاً: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[2].

فقـد أراد الله سـبحانه وتعالى للمسـلم من خلال التشريع الإسـلامي، أن يعيـش عزيـزاً كريماً، وللأمـة الإسـلامية أن تعيش عزيزة كريمة تحكم نفسـها بنفسها.

علامات الظهور:

إن هنـاك العديد من الروايـات الشريفة التي تتحدث عـن علامات ظهور المصلـح العالمـي المنتظر، ومنها ما يحدث للعراق وشـعبه قبيـل الظهور، وهذا مـا نـرى الكثير منه يتحقق اليوم أمام أعيننا. وكذلـك المجازر التي يتعرض لها المسـلمون، بل أبناء البشر جميعاً في كل أصقاع العـالم، وكثرة الحروب والدمار والحوادث.

كل هذا يعطينا دليلاً ومؤشراً أن الأنظمة التي تحكم العالم أصبحت فاشلة، ولا تسـتطيع أن تتحرك بشـكل صحيح، فهذه البوسنة والهرسك تذبح وليس هناك من يستجيب لإيقاف تيار الدماء الجارية من شعبها المسكين، وهذا يعني أن الأنظمة أصبحت لا تمتلك القدرة على إنقاذ الوضع العالمي من الانهيار.

كل هذا يدعونا إلى أن نؤمن بالتمهيد لظهور الإمام المهدي عليه السلام.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) النساء: ١٤١.

لقد كنا نتحدث عن النظام العالمي الموحد، وكان العالم يستهزئ بنا، ويرى أنه من المستحيل أن تتحقق الدولة العالمية، فلم يكن أبناء البشر يفكرون بدولة عالمية موحدة، وكانوا يرون أننا نتكلم في وادٍ والعالم في واد، أما اليوم فقد أصبح العالم كله يتحدث عن النظام الموحد والدولة العالمية.

إن هذه الظاهرة تدعونا اليوم إلى أن نستفيد منها في التمهيد لظهور الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

من هنا نقول: إن الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ينتظرنا أيضاً، ولسنا نحن الذين ننتظره فقط، فالأرضية أصبحت اليوم ممهدة عالمياً، وكل ما نحتاج إليه نحن المسلمين هو أن نتحرك بالشكل الصحيح.

ومن الجدير بالذكر أن الغربيين يدركون تماماً حيثيات هذا التحرك ومواطنه، وما هذه الحملة القوية اليوم لهدم الكيان الشيعي القائم، إلا لأنهم يدركون أن هذا الكيان ربما يكون هو الدولة الممهدة التي تُسلَّم للإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف). ولدينا روايات كثيرة تقترب من هذا المعنى، منها قول الأئمة (عليهم السلام): «**إذا رأيتم الرايات السود قد أقبلت من خراسان فأتوها ولو حبوا على الثلج، فإن فيها خليفة الله المهدي**»[1] وبالمناسبة فإن لفظة (إيران) جاءت في عصور متأخرة، ولم تكن موجودة في العصور السابقة، وقد استُحدث هذا الاصطلاح عندما بدأت المناداة بالقومية الآرية، في مقابل المناداة بالقومية العربية، فكما أن بعض حكامنا نادى بالقومية العربية، رفع حكام هذه البلاد شعار القومية الآرية، وأُطلق على الشاه الحاكم (آريا مهر) يعني رائد القومية الآرية، ومن هنا جاءت مفردة إيران، وقد كانت هذه المنطقة من قبل تسمى خراسان أو بلاد فارس، وهذا ما كان يرد في الروايات الشريفة.

---

(١) كشف الغمة للإربلي٢: ٤٧٢، بحار الأنوار للمجلسي٥١: ٨٢.

وهنالك روايات أخرى تشير إلى أنهم هم الذين يمهدون لظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ويسلمون الدولة له.

في انتظار النور:

السؤال الآن: ماذا نعمل اليوم ونحن في انتظار النور الإلهي؟

ما أريد قوله هنا هو أمر واحد، وهو أن لا نحارب هذا الكيان الشيعي القائم، فإن كنا غير مؤيدين له لأسباب عديدة مثل الكبرياء والشعور بالعظمة وغير ذلك، فعلى الأقل علينا أن لا نحارب هذه الدولة، وأن لا نستمع لأولئك الذين لهم مصالح معينة في محاربتها، فنحارب معهم، هذا لا يجوز.

إن هذا الكيان قد حقق للشيعة وللإسلام عموماً وجوداً لم يحققه أي كيان آخر من الكيانات في العالم. ومن الممكن أن نستفيد من هذا الكيان في التمهيد للظهور، وفي العمل الجاد لتهيئة الأرضية اللازمة للظهور.

فمن أضعف وأقل درجات التمهيد للظهور أن لا نحارب هذه الدولة وهذا الكيان القائم اليوم.

إن الوعد الإلهي الذي وعده القرآن الكريم في وراثة الأرض سوف يتحقق حتماً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

وهذا يتطلب منا وقفة تأييد، وأن لا نتأثر بهؤلاء الذين ينعقون نعيق الغربان، وسوف يلقون مصيرهم عندما يخرج الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) القصص: ٥.

ومن الغريب أن اسم الإمام المهدي لا يدور على ألسنتهم أبداً رغم أن هناك الكثير من الأحاديث الصحيحة لديهم فيه، بل على العكس من ذلك، فعندما يذكر اسم الإمام المهدي ترى وجوههم تكفهرّ وتتجهم.

وخلاصة الأمر هو أننا كما ننتظر الإمام المهدي، فهو ينتظرنا أيضاً، وليكن انتظاره لنا بأن نؤيد ونناصر أولئك الذين يعملون من أجل خروجه وظهوره المبارك، وأن لا نكون مع الآخرين الذين يقفون ضدهم ويحاولون صدهم.

الأسئلة

س١: ما رأيكم في من يتوقع ظهور الإمام الحجة (عليه السلام) ما بين سنة ١٩٩٥ وسنة ١٩٩٩ للميلاد؟

الجواب: لا يمكن أن نركن لذلك على أنه أمر يقيني، ولكن يمكن أن نعتبره تقريبياً.

علماً أنني أشك بالرسم البياني لموضوع الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، وأن الحضارة الغربية بدأت تنحدر منذ ١٩٣٩ فالمؤشر في الرسم البياني يشير إلى أن الحضارة الغربية بدأت تنحدر انحداراً سريعاً، وأن الحضارة الإسلامية بدأت تصعد صعوداً سريعاً، وهم يقدرون بأنه في سنة ٢٠٠٠ سوف يحصل التصادم بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ويقدرون بأن الانتصار سيكون للحضارة الإسلامية. هذه كلها تقديرات وتقريبات لا يمكن الاعتماد عليها، وليس لدينا دليل قطعي على صحتها. لكننا نرجو أن يكون ذلك إن شاء الله.

س٢: هناك رواية ربما يتشبث بها بعض المحسوبين على أهل العلم، تقول إن كل راية تقوم قبل الإمام المهدي فهي راية ضلال، ما رأيكم في ذلك؟

الجواب: أولاً هذه الروايات قليلة جداً وضعيفة سنداً، لا تستطيع أن تقاوم مئات الروايات الأخرى، ومن يتشبث بأمثال ذلك، يخالف الطريقة العلمية المألوفة المعروفة، وهي أن خبر الواحد، خاصة إذا كان ضعيفاً، لا يمكن أن يناهض ويجاري الخبر المتواتر، وبالتالي فلا يوجد عالم يقول بهذه المقالة.

ثم إننا لو تتبعنا رواة هذه الرواية وأمثالها فسوف نجد أن لهم علاقة بالحكام العباسيين، لأن الحكام العباسيين أرادوا أن يوقفوا حركات الحسنيين الكثيرة ضدهم، فوضعوا هذه الروايات على ألسنة رواة معينين.

فهذه الروايات، من جهة معرفة أسباب وضعها، ومن جهة كونها ضعيفة، لا تقابل الكثرة الكثيرة من الروايات التي تعارضها.

س٣: وهل أن مثلها ما ورد في الرايات السود، وأنها شعار العباسيين؟

الجواب: لا، الأمر ليس كذلك، فالشعار الأسود ليس شعار العباسيين، إنما السواد هو شعار العلويين، وأول من استعمل هذا الشعار هو (الشريف الرضي) الشاعر المعروف، عندما كان نقيباً للطالبيين، وعاش في القرن الخامس للهجرة في أواخر الدولة العباسية.

والسؤال هنا: إذا كان أهل فارس هم الذين سوف يسلمون الدولة الإسلامية إلى الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه، وهم الذين يمهدون له في خروجه، فما دور العرب في ذلك؟

الجواب أن العرب لديهم القدرة على رفع الشعارات والإعلام إذا خرج الإمام المهدي، أو تكون لهم أدوار أخرى مساعدة[1].

---

(١) ينبغي التفكيك هنا بين الظهور الفعلي، والتمهيد للظهور، فإن كان هناك دور لغير العرب في التمهيد لظهوره، وعدم وجود الحرية المناسبة للشعوب العربية بأن تأخذ دورها في التمهيد له بسبب الولاة الظلمة وحكام الجور، فإن الروايات الشريفة تؤكد دورهم الرئيسي في الانطلاقة والظهور،

س٤: ما مدى صحة الروايات التي تقول بأن حياة الإمام المهدي تنتهي على يد امرأة يهودية؟

الجواب: لا أستطيع أن أجزم بهذا لأن هناك اختلافاً كثيراً في حياة الإمام المهدي، ومدة دولته، وهل أنه بعد قيامه تقوم القيامة كما هو مفهوم من كثير من الروايات، أو لا؟ وهل أنه بعد ظهوره يستمر وجود أهل البيت عليهم السلام؟ وهل يموت حتف أنفه أو أنه يقتله الدجال المتأخر أو تقتله اليهودية؟ هناك روايات كثيرة لا نستطيع أن نجزم بها، وهي أمور غيبية، ولا يترتب على ذلك أي أثر بالنسبة لنا.

س٥: ما هو دورنا نحن أتباع أهل البيت عليهم السلام في التمهيد للنظام البديل؟ وما دورنا في التمهيد لخروج الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه؟

الجواب: نقول ولأكثر من مرة: المفروض أن يكون لنا دور في هذا المجال، وهو نشر فكر أهل البيت عليهم السلام؛ لأن العالم سوف يصبح عالم معلومات، وسوف يشهد العصر ثورة في مجال المعلومات، وقد بدأ الآن يتحول من العصر الرأسمالي إلى عصر المعلومات، فلا بد أن يكون لنا إسهام في هذا المجال.

وهنالك الآن دوريات كثيرة تصدر في العالم باللغة العربية وغيرها، تتبنى نشر فكر أهل البيت عليهم السلام، فلا بد لنا أن نساهم فيها، مادياً أو معنوياً، وهناك مجال واسع في إصدار الكتب، فعلينا أن نبذل المحاولات الحثيثة في التأليف أو إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام ونشر وتوزيع تلك الكتب. وخلاصة الأمر أننا

وهذا مما لا شك فيه بعد أن اتفقت الروايات الشريفة على بدء النهضة في مكة المكرمة، واتجاه الإمام نحو الكوفة، وكل ذلك يتم بمؤازرة جيش من العرب الذين يلتحقون بالإمام، من أبدال الشام وعصائب العراق ونجباء مصر وغيرهم، وكذلك بعض الأجانب الذين التحقوا به في ليلة الظهور. كما أن الروايات الواردة في هذا الصدد تشير إلى وجود دولة ونظام، ولا تنفي التمهيد الشعبي للإمام من قبل العرب وغيرهم.

يجب أن نساهم في ذلك بكل ما نراه مناسباً، وما نقدر عليه، من وسائل التعليم والتربية، أو المحاضرات والندوات وما شابه ذلك مما هو في مقدورنا.

س٦: يطرح البعض أفكاراً مفادها أن النظام الإسلامي العالمي لا يمكن له أن يتحقق، لأنه يحتاج إلى وجود إمام معصوم، فما هو تعليقكم على هذا؟

الجواب: نحن لا نقول بوجود نظام إسلامي عالمي قبل الإمام المعصوم، إنما نقول: هناك دولة إسلامية، وهذا ممكن، أو تكون هناك عدة دول، كما تكون هناك أجواء عالمية تتقبل النظام الإسلامي بعد أن جربت الأنظمة الأخرى.

س٧: ماذا تعني الصيحة؟ وهل هناك مصاديق لها حدثت في العصر الحديث؟

الجواب: كلمة الصيحة غير محددة المعنى، حتى أنه في الفقه لدينا صلاة الآيات المعروفة في حالات الكسوف والخسوف والزلزلة وغيرها من المخوفات السماوية وحتى الأرضية، ومن مواردها الصيحة، فقد وردت هذه المفردة في النصوص الشرعية، ولكن لا يوجد لها تعريف.

وفي القرآن الكريم جاءت كلمة الصيحة كنوع من أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2]. وقال جل وعلا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[4]. هذا

(١) هود: ٦٧.
(٢) هود: ٩٤.
(٣) الحجر: ٧٣.
(٤) الحجر: ٨٣.

يعني أن الصيحة من نوع العذاب المهلك، والمعنى اللغوي لها هو الصوت القوي الناتج عن الانفجارات مثلاً، أو أمر آخر، والله العالم.

ويبدو أن السائل يعني بسؤاله النداء السماوي، وهو أمر آخر مختلف، فالنداء السماوي غير الصيحة، وهو النداء الذي يبشر بظهور الإمام المهدي (عليه السلام) وهذه من العلامات الحتمية التي لا بد من وقوعها، وربما يكون باستخدام الوسائل الحديثة في الاتصالات كالفضائيات والإذاعات وغيرها.

س٨: هل يجب أن يُملأ العالم بالظلم والجور حتى يُمهَّد لظهور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف؟

كلا، ليس لدينا نص بأنه يجب أن تُملأ الأرض بذلك، إنما تنص الروايات على أن الظلم ينتشر فيملأ الأرض، ليكون ظاهرة بارزة، ويكون طابع الظلم والجور هو المميز لما في الأرض. ومع ذلك تبقى هناك طائفة على الحق، وإلا كيف يتم التمهيد؟

فليس بالضرورة أن يصل الظلم إلى كل بقعة من بقاع الأرض دون استثناء، إنما الحالة العامة المميزة للنظام العالمي هي الظلم.

س٩: هل تتوقع أن يكون الصراع ما بين الحضارة الإسلامية نفسها قبل أن يكون بين الحضارة الغربية والإسلامية؟

الجواب: كلا، لا يكون ذلك؛ لأن أهل السنة يعتقدون بالإمام المهدي والأحاديث لديهم متواترة، وقد سمعت الكثير منهم ممن اشترك في المحاضرات والندوات في أوربا وغيرها، وربما ينصرون الإمام عند خروجه قبل أن نتحرك نحن، وربما ينتظره بعضهم أشد من انتظارنا نحن.

س١٠: يقال: إننا نستفيد من الإمام المهدي المنتظر في غيبته (عجل الله تعالى

فرجه) كما نستفيد من الشمس المحجوبة، فكيف تفسر ذلك؟

هذا مأخوذ من توقيع صادر من الإمام المهدي (عليه السلام) لإسحاق بن يعقوب، وهو توقيع طويل فيه هذا الحديث، الذي يستدل فيه العلماء دائماً على التقليد، وبعضهم على ولاية الفقيه، وهو قوله (عليه السلام): «**وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله**»[1].

وفي هذا الحديث يطرح السائل، وهو إسحاق بن يعقوب، مجموعة من الأسئلة منها سؤال مفاده: ماذا يستفيد الناس منك وأنت مغيب؟ فيجيبه الإمام: «**وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء**»[2]. وهو مثال تقريبي معناه أن اختفاء الشمس وراء السحاب لا يعني عدم الانتفاع بها. ثم يبين بعض أوجه الانتفاع به، وهو الأمان لأهل الأرض، وقد ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) في خصوص أهل البيت (عليهم السلام) أنهم أمان لأهل الأرض، أي أن وجودهم يمنع نزول العذاب الإلهي المهلك، بسبب المخالفات والمعاصي أو المحاربة لله ورسوله.

س١١: ما مدى صحة ما يقال أن المهدي سوف لا تكون لديه فرصة للتبليغ، بل إنه سوف يشرع بالإصلاح بقوة السلاح؟

لا نستطيع نحن أن نقدر الموقف الذي سوف يتخذه الإمام، إنما هو من يحدد ذلك عند خروجه، فإذا كان يرى أن الأمر في بعض المواقف يتطلب القوة والحرب، فإنه يحارب، وإذا رأى في بعضها الآخر أنه يتطلب الكلمة والوعظ فهو أعرف، فهذا مما يرتبط بالإمام من تكاليف، وليس لنا حق تحديد الموقف، حتى المرجع

---

(١) وسائل الشيعة، للحر العاملي٢٧: ١٤٠.

(٢) كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق٢: ٤٨٣.

ليس من شأنه ولا من حقه أن يقول للإمام: افعل كذا ولا تفعل كذا، والإمام هو الأعلم بتكليفه، ونحن الذين نأخذ منه التكليف، لا أن نبين له تكليفه.

س١١: ما دور المرجعية الشيعية في فترة انتظار الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه)؟

الجواب: إن المرجعية الدينية باعتبارها تمثل قياده الأمة، يقع على عاتقها عبء التبليغ ومسؤولية الدعوة، وهذا محسوس وملموس لدى المراجع، كلٌّ في مجاله الذي يستطيع أن يتحرك فيه.

س١٢: لماذا لا يستجاب الدعاء لظهور الإمام المهدي (عليه السلام) رغم كثرته؟

يجب أن نمتحن أنفسنا لنرى ما هي موانع الدعاء؟ لأنك تقرأ في دعاء كميل: اللهم اغفر لي الذنوب التي تحجب الدعاء. ولو أننا كنا صادقين بدعواتنا لاستجيب لنا.

فيجب أن يكون الدعاء بصدق وإخلاص، أما أن يكون الدعاء عادة اعتدناها، فلا يؤثر. فلا بد إذن أن يكون عن إيمان وصدق واستعداد لزمن الظهور.

س١٣: لقد علّمنا آباؤنا أن الإمام (عليه السلام) يخرج بمنطق السيف، فيشهره على كل مذنب، فليست هناك فرصة بعد الظهور. فما مدى صحة ذلك؟

هذا الأمر يعود إلى الإمام نفسه، ولا أستطيع أن أحكم، فهل أنه يقبل التوبة أم أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة؟ وهل أن التوبة تدرأ الحد أو لا تدرأه؟ هذا ما يقرره الإمام.

س١٤: ذكرتم أن الاقتصاد العالمي يعاني كثيراً، وهو في انخفاض مستمر، لكن ذلك ينطبق على العالم الإسلامي بأكمله أيضاً، مع ملاحظة أن هناك دولاً

أخرى، مثل ألمانيا واليابان، يشهد اقتصادها انتعاشاً مستمراً، فما رأيكم؟

لقد تحدثت عن الاقتصاد الأمريكي بالذات، وتحدثت عن الرأسمالية بشكل عام.

وكون اليابان متماسكة حالياً، وكون ألمانيا كذلك لا يعني أنهما سوف لن تتضررا إذا حصل انهيار في الدول الأخرى، بل بطبيعة الحال سوف تتضرران.

س١٥: هل هنالك علاقة بين طول انتظارنا للإمام عليه السلام وبين ذنوبنا وإصرارنا عليها؟

الجواب: في التوقيع الصادر عن الإمام عليه السلام للشيخ المفيد، وهو أحد ثلاثة توقيعات[1] خرجت منه عليه السلام للشيخ المفيد رحمه الله، يذكر الإمام عليه السلام أن بعض أسباب عدم خروجه يعود إلى الشيعة أنفسهم.

س١٦: بعض المفكرين يرى أن الأحاديث والروايات التي تتحدث عن قرب خروج الإمام المهدي عليه السلام هي بمثابة المخدر والمهدئ عن المطالبة بالحقوق، فيبقى الناس متعلقين بظهور الإمام ومتناسين لحقوقهم التي يجب أن ينالوها في زمن الغيبة. فما هو رأيكم؟

الجواب: هذا ما يطرحه بعض علماء الاجتماع، وقد ذكرت في مناسبات أخرى أن علم الاجتماع الحديث لا يؤمن بالدين، ويرى أن الشيعة أرادوا أن يحافظوا على كيانهم فقالوا بغيبة الإمام، وهذا خطأ فادح، فليس الأمر هكذا،

---

(١) التوقيع هنا يعني الكتاب، فهناك توقيع نسميه اليوم بالإمضاء، أما توقيع الكتابة فيكون في ذيل السؤال إجابة عنه. وقد كانت ترفع للإمام عليه السلام الكثير من الأسئلة فيجيب عنها، وهذه الإجابات المكتوبة عن تلك الأسئلة، في ذيل كل سؤال منها، هي التي تسمى التواقيع. وقد صدرت من تلك التواقيع للشيخ المفيد ثلاثة إلا أنه لم يصلنا منها سوى اثنين ذكرا في كتب الحديث.

لأننا لم نقل بغيبة الإمام من أجل أن نحافظ على كياننا، وإنما قلنا بذلك لأن الروايات والأحاديث المتواترة تنصّ على ذلك، فنحن نستند إلى الأحاديث المتواترة، ونستند إلى الدين، والدين عندنا نازل من الله تعالى، فلو آمنا أن الدين ليس من الله، عندئذ يرد هذا الإشكال، ولكننا نؤمن أن الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام هي من الله تعالى، لكنها على لسان النبي والمعصومين. وهذا لا يعني التخدير أبداً، وقد ذُكرت أسباب الغياب وحيثياته في تلك الأحاديث.

س١٧: يرد في بعض التعابير أحياناً أن الشيخ أو السيد الفلاني مسدد برأي الإمام عليه السلام أو أنه يلتقي الإمام فيسدده في الرأي؟

الجواب: هذا ما يسميه الشيخ الطوسي رحمه الله بقاعدة اللطف، فمن باب اللطف أن الإمام عجل الله فرجه يدخل في إجماع العلماء إذا كان هناك خطأ لئلا يكون هناك إجماع، أو يدخل في الإجماع إذا كان صواباً ليسدد القائلين به.

ومن العلماء من يذهب مذهب الشيخ الطوسي، ومنهم من لا يذهب هذا المذهب.

أما ما يسأل عنه السائل فيتعلق برؤية الإمام المهدي عجل الله فرجه من قبل بعض الناس في مسجد السهلة أو في طريق مكة أو أماكن أخرى. وهذه الأمور لا نستطيع أن نصدقها كلها، لكن دعوى الرؤية وردت بين الناس، ومنهم من هو في أعلى المستويات من العلم والتقوى والعدالة، كالسيد ابن طاوس، والسيد بحر العلوم، وغيرهما، ولا نستطيع أن نكذب أمثال هؤلاء.

أما ما يتعلق بعامة الناس ممن لا نعرف عن عدالتهم أو تقواهم أو إيمانهم، ويدعون أنهم رأوا الإمام في اليقظة أو المنام، فهؤلاء لا نستطيع أن نصدقهم، ولا أن نكذبهم، فلا دليل لدينا على صدقهم ولا على كذبهم. وقد يكون البعض

يتصور أو يتخيل أن من رآه هو الإمام، وليس الأمر كذلك.

س١٨: هل صحيح أن بعض العلماء الذين رأوا الإمام (عليه السلام) لم يُعرف عنهم ذلك إلا بعد وفاتهم، ولم يكونوا يريدون التصريح بذلك في حياتهم؟

هـذا صحيـح، لأن الإمام المهدي (عليه السلام) هو الذي يأمـر بعضهم بهذا، أو أن بعضهم يستشكل من التصريح لئلا يكون الإمام لا يرضى بذلك، فيترك الأمر لما بعد وفاته.

س١٩: كيـف نتعامل مـع الروايات التـي تتحدث عن الأمـور الغيبية التي تتحدث عن ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) من جهة القبول أو الرد؟

الجواب: إذا كانت أخبار آحاد فينظر إلى رواتها وسندها، فإن كانت ضعيفة فلا نستطيع أن نتمسك بها، أما إذا كانت متواترة فنأخذ بها.

ولكـن يبقى أن نقول: هل أنها تقع بالكيفيـة المذكورة في الرواية، أو بكيفية أخرى؟ هذا ما لا نعلمه.

المحور الثالث

مجتمعنا الإسلامي

- التجديد والعوائق الاجتماعية
- النقد.. كيف يجب أن يكون؟
- القوة الاجتماعية: مرجعيةٌ أم مرجعيات؟
- الخمس بين الواقع والطموح
- الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

التجديد والعوائق الاجتماعية

كمدخل للموضوع لا بد من تحديد مفهوم التجديد، لأنه من المفاهيم المطاطية التي يمكن أن تُستغل من الإيديولوجيات الخاصة. فلأجل أن نصل إلى نتائج يمكن أن نستفيد منها في الواقع العملي والتطبيق الخارجي، علينا أن نحدد ما يراد بالتجديد.

مفهوم التجديد:

هناك فرق بين الجديد والتجديد، فقد يفهم عموم الناس من التجديد أن هناك ما لم يكن موجوداً ثم وُجد الآن، وهو تصور غير سليم.

فالتجديد يعني: أن هناك ما هو موجود فعلاً، ولكن أثَّر فيه القِدَم لسبب أو آخر، فأصبح لا يستفاد منه الفائدة المرجوة، ولا يؤدي وظيفته المطلوبة كما هي، فنقوم بتغييره وإصلاحه وترميمه وتحديثه، ليصبح جديداً يتمشى مع متطلبات الحياة المعاصرة، ويكون بمستوى أداء وظيفته.

إن ما تلعبه الإيديولوجيات الخاصة على مدى التأريخ أنها توهم الناس أن المراد بالتجديد أن نطرح القديم ونتركه تماماً، ونضع الجديد موضعه.

ومن الشعارات التي طرحت في هذا الباب: أن الدين جاء في عصر النبي ﷺ وأدى وظيفته واستنفد أغراضه في وقته، ولسنا اليوم بحاجة إليه، إنما نحن بحاجة إلى نظام (جديد)! والمقصود بالنظام الجديد هو ما تدعو إليه تلك الإيديولوجية التي طرحت الشعار.

وهذا إيهام للناس أن التجديد يستلزم طرح القديم وتركه بالمرة.

لكنه في حقيقته ليس كذلك، إنما هو نوع من التطوير والإصلاح والتأهيل لما هو موجود سابقاً ليؤدي وظيفته بالشكل الذي يلائم متطلبات العصر.

وبتعبير مختصر: هو المحافظة على الأصالة مع التطعيم بما يصلح للمعاصرة، وبالتالي فهو جمعٌ بين الأصالة والمعاصرة.

فتحصّل لدينا أن للتجديد معنيين: الأول ما تطرحه الإيديولوجيات الخاصة، وهو ترك القديم الأصيل، واعتماد الجديد المعاصر، وهذا تجديد بلا أصالة. والثاني هو التجديد مع المحافظة على الأصالة، وهو ما نريده وندعو إليه.

نماذج للتجديد:

١ - النموذج التعليمي:

إنّ أسلوب الدراسة في القديم كان إلى حدٍّ ما منظماً، وكانت لدينا مدارس هي بمثابة الجامعات اليوم، كالمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية ببغداد، والقرويين في فاس من بلاد المغرب، والزيتونة وجامع القيروان في تونس، والنجف الأشرف في العراق وغيرها. وكانت الدراسة في تلك المدارس فردية، أو ما تسمى بدراسة الحلقات، بحيث يجتمع مجموعة من الطلبة على أستاذ معين ليلقي عليهم الدرس، بلا أسماء مسجلة ولا امتحانات قبول ولا امتحانات تقويم وتخرّج، إنما يرتبط الطالب بالأستاذ من خلال الدرس فقط، وقد لا يعرف الأستاذ اسم الطالب الذي يدرس عنده.

وبعد أن حدث الاتصال الثقافي بيننا وبين الغرب وأوربا، تأثرت الدراسة بالنمط الغربي الأكثر تنظيماً مما هو عليه لدينا، فحصل التغيير الكبير في أساليب

الدراسة عندنا من حيث الامتحانات وشروط الانتساب وجدولة الدروس وغير ذلك مما هو مفيد.

ومن الجدير بالذكر هنا أن المدارس القديمة عندنا لم تكن مقتصرة على الدروس الدينية فحسب، إنما كان فيها الطب والفلك والصيدلة وغير ذلك من مختلف أنواع العلوم. أي أنها كانت عبارة عن (جامعات) كما يصطلح اليوم في التعبير الحديث.

فنحن إذن جددنا في أسلوب الدراسة، والوسائل المستخدمة في التدريس، وطريقة تنظيم المنهج، لكننا حافظنا على الأصالة، وبالتالي فإن التجديد المذكور لم يمس جوهر العلوم الإسلامية التي نبعت من حضارتنا الإسلامية، وارتبطت بالمبدأ الإسلامي. غاية ما في الأمر أن التجديد كان في الأسلوب والطريقة المستخدمة في نقل المعلومة.

ففي كليات الطب لا بد من وجود التشريح، وهو ما لم يكن موجوداً في الطب القديم إلا نادراً، ومن هنا ترى أن الكثير من الاستفتاءات المتعلقة بهذا الموضوع توجه إلى العلماء ومراكز الإفتاء، مما يعني أن المبدأ الإسلامي والأصالة لا زال ضارباً بجذوره في الدراسة، وأننا لا نزال نرتبط بحضارتنا وأصولنا وديننا، وأن التغيير والتجديد لم يمس حضارتنا ومبادئنا وأصولنا.

عوائق التجديد:

إن تأريخ التجديد قديم جداً، يمتد إلى ما قبل التأريخ، ومنذ تلك القرون وإلى يومنا هذا، يدور الصراع بين المجددين والمحافظين، فالمحافظون لا يرون جدوى في التجديد، ويرفعون شعار: ليس بالإمكان أفضل مما كان، بل يرون أن ما وصل إليه الفكر الإنساني هو غاية المرام ومنتهى الطلب وقمة المطلوب. أما المجددون فيرون أن الحياة تتغيير دائماً، وتتطلب منا أن نغير ما عندنا دائماً

ليتناسب مع الحياة، وإلا فإننا سوف نتخلف عن ركب الحياة، فيما يتقدم غيرنا علينا.

فالصراع بين التيارين قديم جداً، يدعونا إلى عدم الاستغراب مما نراه بينهما اليوم من صراع.

ومن أهم العوائق الاجتماعية التي تقف حائلاً دون التجديد:

١ - **سوء الفهم**: فكثير ممن يعارضون التجديد قد لا يفهمون المقصود من الموضوع المطروح. فلو قلنا مثلاً: إننا نريد أن نجدد في الخطابة الحسينية، فإن الكثير من الناس يتوجس خيفة من ذلك، لأنه أدمن القديم، ومن الصعوبة بمكان أن يتقبل الجديد، فيفهم الموضوع بشكل آخر، وهو أن من يدعو لذلك ما هو إلا عدو للإمام الحسين عليه السلام ويريد أن يحارب الخطابة.

وهذا الأمر يمكن أن يعالج فيما إذا كان الطرف الآخر سليم النوايا مستعداً للاستماع والفهم. أما إذا لم يكن كذلك فلا فائدة من الحوار معه، ويبقى الصراع قائماً بين الطرفين، فربما انهزم المجددون وانتصر المحافظون، وربما كان العكس.

٢ - **عدم فهم الحياة**: وهي في مجتمعاتنا شبه معدومة، فنحن نعيش في هذه الدنيا، ونرتبط مع الآخرين بعلاقات مختلفة، فلا بد أن نفهم الحياة وعلاقات بعضنا بالبعض الآخر، ثم نحدد كيفية التعامل مع الحياة. لا سيما أننا أمة تريد أن تشق طريقها نحو الأمام. فالفرد في الأمة لا بد أن يدرك أنه جزء من المجتمع، وأن أي خلل يصيب الفرد يؤدي إلى خلل في المجتمع، كما هو الحال في جسم الإنسان تماماً. فكل فرد لا يفكر في صالح الأمة يصيبها بخلل، كالعضو المشلول في الجسم. صحيح أن الفرد يفكر بمصالحه الشخصية أولاً، لكن عليه في الوقت نفسه أن يفكر في أمته ومجتمعه والمصلحة العامة.

إننا نرى في كثير من الأحيان أن بعض الناس يرمي القمامة في عرض الطريق، وهذا بالإضافة إلى كونه محرماً شرعاً، فإنه يؤدي إلى أذى المارة، والطريق ليس ملكاً لأحد، كما يؤدي إلى انتشار الكثير الأمراض. وسبب ذلك هو التركيز على المصلحة الخاصة في التخلص من القمامة، وأن الفرد لا يحمل ذهنية تفكر في المجتمع.

فلا بد أن نفهم الحياة بشكل صحيح، وأننا جزء من الحياة، لنا ما لها، وعلينا ما عليها. وأننا ينبغي أن نأخذ حقوقنا منها مع المحافظة على حقوق الآخرين.

ومن الأمثلة على عدم التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع، ما نراه من الموائد والولائم التي تقام في شهر رمضان أو الأعراس والمناسبات، وليس فيها سوى التباهي الذي لا ينبغي أن يكون، ولا يتناسب مع ديننا وأخلاقنا. فالوليمة مستحبة في العرس وفي دعوة المؤمنين والفقراء، ولكن إذا دخلها التباهي ذهب الأجر والثواب. أضف إلى ذلك أن الكثير مما يفضل من هذه الولائم سوف يرمى بلا فائدة، وبالتالي نكون قد فرطنا بمالٍ يمكن أن ينفع الكثير ممن يحتاجون إليه. وهو إسراف محرم في الشريعة. كل ذلك مرده إلى أننا لم نفهم الحياة فهماً صحيحاً.

٣ - **تحكم العادة**: فكثير من السلوكيات يتحول بمرور الأيام إلى عادات اجتماعية، وتترسخ مع مرور الزمن، خصوصاً في المجتمعات ذات التغيّر البطيء. ومن طبيعة العادة أنها تلزم صاحبها التمسك بها.

وهذه العادات إذا كانت متوافقة مع الدين، أو مع طبيعة حياتنا، فلا بأس بها، أما إذا كانت مخالفة للدين وطبيعة الحياة، فهي عبء وعائق أمام التجديد، فإن دعا من دعا لتجديدها ثارت الثائرة في وجهه.

فمن العادات في بعض المجتمعات العشائرية، أن الرجل إذا خطب المرأة ورضي وليها، تدخل أعمامها وأقاربها وعشيرتها في الأمر، وطالبوا بما يدّعون أنه حقهم من المهر، وإلا لم يوافقوا. وهذا كله حرام، فلا حق لهم في المهر، فهو ملك المرأة، وليس من حق أحد أن يستحل منه شيئاً إلا برضاها. كما أنه ليس من حقهم منعها من الزواج بالكفء، وهو المؤمن.

فسلطة العادة وتحكمها تؤثر كثيراً في التجديد، وتقف عائقاً أمامه.

٤ـ التقديس: فهناك تقديس لمن هو مقدس فعلاً، كالنبي ﷺ والزهراء (عليها السلام) وسائر أهل البيت عليهم السلام والمقدسات الإسلامية المعروفة، فهؤلاء مقدسون فعلاً، أما ما عداهم فنصيبهم الاحترام وليس التقديس، فنحن نحترم أبا ذر والمقداد وعمار بن ياسر وغيرهم، ولكن لا نقدسهم تقديساً. هذا من حيث الأشخاص، أما من حيث الأفكار فهناك ما هو مقدس فعلاً أيضاً، كفكرة التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد وأمثالها، وضروريات الدين كوجوب الصلاة والصيام والحج وحرمة الخمر والقمار، والمستحبات كزيارة الأئمة وأمثالها من القضايا الدينية الثابتة في الشرع. ولكن هناك قضايا عادية لا تستحق التقديس، فإذا قُدست وجعلت جزءاً من العقيدة، وقفت عائقاً أمام التجديد.

مجال التجديد:

بعد هذه الإطلالة على معنى التجديد والعوائق الذي تعترضه، لا بد أن نبين مجال التجديد الذي يتحرك ويتفاعل فيه.

فهناك ما ندعوه بالثوابت، وهناك ما يسمى بالمتغيرات، فالثوابت لا مجال للتجديد فيها، فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم

القيامة. فلا مجال للتجديد في الصلاة مثلاً، لأنها ثابتة بالضرورة من الدين، وهكذا في الصوم والحج وحرمة الزنا والخمر وأمثالها من الحلال والحرام الثابت بالضرورة من الدين الذي لا يحتاج إلى برهان في إثباته. فمثل هذه الثوابت الدينية في العقيدة وغيرها (خط أحمر) ولا معنى للتجديد فيها.

فلو أن أحداً دعا إلى التجديد في تقديس أهل البيت عليهم السلام والتخفيف من تقديسهم، فلا يقبل منه، ولا مجال للمساومة والأخذ والرد في هذا، لأنه جزء من عقيدتنا، وثابت بالضرورة من المذهب، بل من الدين أيضاً.

وكذا لو دعا من دعا إلى التجديد في العصمة، بدعوى أنها تمنع من الوحدة الإسلامية مثلاً، فهذا غير ممكن، فالعصمة ثابتة بالضرورة من المذهب، ولا مساومة فيها، ولا مجال للتجديد.

أما المتغيرات التي تخضع للاجتهاد فيمكن التجديد فيها، كما هو الحال في حكم أهل الكتاب، حيث أفتى بعض المجتهدين بنجاستهم، وأفتى البعض الآخر بطهارتهم.

فالتجديد لا يطال الثوابت، إنما يطال المتغيرات.

حقولٌ طالها التجديد:

١ ـ **الخطابة الحسينية:** فقد تطورت هذه المفردة مع الزمن، وكانت في أول أمرها عبارة عن مجموعة من الشعراء يدخلون على الأئمة عليهم السلام وينشدونهم في الحسين عليه السلام شعراً، وهذا ما نقلته الكثير من كتب الأدب والتأريخ، ومنها كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني. فقد دخل السيد الحميري على الإمام الصادق عليه السلام وأنشده مرثيته المعروفة:

أمـرر عـلى جـدث الحسيـ ـن وقـل لأعظمـه الزكيـه
يـا أعظـماً لا زلـت مـن وطـفـاء سـاكـبـة نـديـه
وإذا مـــــررت بقـبره فأطـل بـه وقـف المطيـه
وابـك المطهـر للمطهـر والمـطـهـرة الـزكـيـه
كبـكاء معولـة أتـت يـو مـاً لـواحـدهـا المنـيـه

كما دخل دعبل بن علي الخزاعي على الإمام الرضا عليه السلام وأنشده (تائيته) المعروفة، وكان الأئمة عليهم السلام هم الذين يستدعون الشعراء خاصة في يوم عاشوراء إلى بيوتهم، وكانوا يضعون بينهم وبين العيال مُلاءة (ستراً) وكانت النساء تجلس خلف الملاءة يستمعنَ إلى الشعراء، وكان الإنشاد آنذاك هو الطريقة المتعارفة، أي بصوت شجي ولحن عزائي، وكانت أصوات النساء وعويلهن وبكاؤهن يتعالى من خلف الستر.

ثم تطور هذا اللون إلى قراءة المقتل، وبيان سيرة الإمام الحسين عليه السلام منذ خروجه من المدينة حتى استشهاده. ثم تطور الأمر إلى ما هو عليه في العصر الحالي، من قراءة الخطيب المنبري قصيدة من الشعر الفصيح، يتبعه بشعر نبطي باللغة الدارجة، ثم يتحدث عن حادثة تأريخية أو موعظة أو شيء آخر، ثم يتخلص إلى كربلاء، ويقرأ المصيبة.

وأول من استحدث الأسلوب الأخير هو الشيخ كاظم السبتي، وكان عالماً وخطيباً بارزاً.

وكل ما ذكرناه من تطور في الأساليب هو عين التجديد، فكان هناك تجديد في الجلوس على المنبر، وتجديد في مضمون المحاضرة، ووضع مكبرات الصوت. ويمكن أن يكون هناك تجديد في مجالات أخرى، كالبحث في موضوعات أخرى مفيدة غير القصص التي حفظها الخطيب من كتاب (شجرة طوبى)

وغيره من الكتب. أو أن يكون التجديد في التحليل التأريخي وعدم الاكتفاء بالسرد الذي أصبح معروفاً للجمهور بشكل كبير.

وقد استمرت طريقة الشيخ كاظم السبتي إلى عهد السيد أبي الحسن الإصفهاني، المرجع المعروف. حتى وُجدت جمعية منتدى النشر، التي أفرزت فيما بعد كلية الفقه، وهي الكلية التي تخرج منها الشيخ الوائلي وأقرانه. فقد استحدث في جمعية منتدى النشر فرع لتطوير الخطابة الحسينية، لتدريب الخطيب على إعداد المحاضرة، واتّباع الأساليب المناسبة لتثبيت الفكرة في نفوس المخاطبين، وكيفية شد الانتباه، والإثارة، وما إلى ذلك من فنون الخطابة.

وكان من طلاب هذه المدرسة الخطابية في جمعية منتدى النشر الشيخ أحمد الوائلي والسيد جواد شبر والشيخ عبد الحسين الحجار والشيخ مسلم الجابري ومجموعة أخرى أصبحوا فيما بعد من الخطباء الكبار.

وقد أثارت هذه الحركة حفيظة بعض الخطباء الكبار آنذاك، فقد أحسوا أن هذا المشروع سوف ينجح ويسحب ما لديهم من جمهور وامتيازات، فذهبوا إلى أحد المراجع في النجف، وحاولوا إقناعه أن هذه الجمعية لا تريد أن تهدم الحوزة العلمية فحسب، إنما تريد هدم الخطابة الحسينية والقضاء على العقيدة، وضخموا الأمر لديه، وأقنعوه، فخرج إلى الصحن العلوي الشريف، وألقى خطاباً قال فيه: قُتل الحسين مرتين، الأولى في كربلاء والثانية في منتدى النشر!. فأصيب الناس بهياج، وراحوا يبحثون عن طلاب وأساتذة الجمعية ليمزقوهم شرّ ممزّق، فاختفى الجميع في منازل أصدقائهم أو أقربائهم، وبقي الحال أكثر من أسبوع، حتى بلغ الأمر إلى السيد أبي الحسن الإصفهاني، فأمر الناس بالهدوء، وعادت المياه إلى مجاريها. ولكن أغلقت جمعية منتدى النشر، ثم

فتحت بعد سنوات باسم كلية الفقه، ولكن لم يفتحوا فيها فرعاً للخطابة خشية من ردود الفعل. وكانت كلية الفقه تجمع بين العلوم القديمة والحديثة، وقد خرجت العديد من الأفذاذ، ومنهم الشيخ الوائلي الذي يعتبر اليوم مدرسة خطابية علمية ممتازة، وقد عمت فائدته للجمهور، وما قدمه للوسط المتدين والمثقف يفوق ما قدمه جميع من كان قبله مجتمعين. وقد هيمن على عالم الخطابة في الوسط الشيعي في جميع أنحاء العالم، بما لديه من قدرة فائقة على التعاطي مع جميع الطبقات الثقافية، بحيث يستفيد الجميع من حديثة كل حسب مستواه.

فهذا لون من الصراع الذي يحدث عادةً بين القديم والجديد، أو بين المحافظة والتجديد. وما حدث لجمعية منتدى النشر من هزيمة التجديد لم يأت من سوء الفهم، إنما من مصالح شخصية، فقد شعر الخطباء المحافظون بتهديد لمصالحهم الشخصية، وقضوا على الفكرة وهي في مهدها، لكنها مع ذلك أثمرت عن مثل الشيخ الوائلي وغيره.

ولك أن تتصور ما كان يفرزه بقاء الخطابة القديمة على حالها السابق دون تجديد، وكيف يكون حال الفكر والثقافة بدون مدرسة الشيخ الوائلي الخطابية. وهذه هي فائدة التجديد والتطوير.

فمن مساوئ ومآخذ الخطابة القديمة تكرار المعلومة إلى حد الملل، فقد كان أحد الخطباء يقرأ في كل سنة في إحدى الحسينيات أيام شهر محرم الحرام قصيدة السيد جعفر الحلي التي مطلعها:

وجه الصباح علي ليلٌ مظلم وربيع أيامي عليّ محرمُ

فصعد المنبر في إحدى السنوات فنسيها، فقال له أحد الحضور: اقرأها فليس لك غيرها.

وقد رأيت أحد الخطباء في مدينة جدة، كان يحفظ خمسة أبيات من قصيدة دعبل التائية، يكررها ذاتها في كل ليلة، حتى مللنا استماعها.

فمثل هؤلاء الخطباء لم يعودوا بمستوى الواقع الذي نعيشه، ولا بد من التجديد في هذا المجال، بمعنى أن تكون المعلومات التي يحملها الخطيب للجمهور تتماشى والمستوى الثقافي المعاصر، فهناك الكثير من خريجي الجامعات والثانويات والمعاهد، بل حتى من لم يكن من هؤلاء أصبح يتلقى الكثير من العلوم الحديثة من وسائل الإعلام المختلفة.

٢- **الدراسة الحوزوية**: فهي تتميز بالأصالة والعمق، لكنها تحتاج لشيء من التجديد. ومن الأمثلة على دواعي التجديد أن لدينا اليوم البنوك والشركات الحديثة، التي أصبحت موضوع ابتلاء جميع الناس، حتى مرجع التقليد نفسه، فالأموال التي يستخدمها في مأكله وملبسه ومسكنه لا بد أن تكون دخلت البنك، ومرت به. فالمفروض بالفقه، لكي يكون بمستوى الحياة ويرتبط بها وينفع الناس، أن يُدخل البنوك كمادة دراسية فقهية في الحوزة العلمية، لا أن يُستفتى المرجع فقط في هذا المجال. وكذا الحال في الشركات.

وقد توجهت العديد من المراكز العلمية اليوم نحو دراسة هذه المعاملات الحديثة، كما هو الحال في مجمع الفقه الإسلامي في جدة والآخر في مكة المكرمة، ومجلس الشؤون الإسلامية في الأزهر وغيرها مما لا يحضرني أسماؤها، فهناك العديد من الدورات والمؤتمرات والندوات التي تطرح فيها البحوث المختلفة حول هذه المعاملات.

فعندما ندعو للتجديد في الحوزة بإضافة هذه المواد فلأنها موضع ابتلاء، لا أننا نريد هدم الحوزات، بل على العكس من ذلك تماماً، فنحن نريد بناء الحوزات من خلال ارتباطها بالناس، وارتباط الناس بها.

وفي المقابل هناك بعض المواد الدراسية لا زالت تدرس في الحوزة ولم تعد تنفع الناس، فلماذا نضيع الوقت والجهد فيها، بدعوى أن العلماء الماضين درسوها فأصبحوا مجتهدين؟

٣ـ غلاء المهور: وهو من العادات الاجتماعية المستحكمة، وإلا فمن الناحية الشرعية لا أصل لذلك. ففي الشريعة الإسلامية يمكن للزوج أن يدفع ما يشاء من المهر لزوجته وأن تأخذ هي ما تشاء، ولكن إذا تسبَّب دفع المبالغ الكبيرة في المهور إلى ارتفاع في مستواها بالشكل الذي يحرم كثيراً من الناس من الزواج، فإنه لا يجوز بالعنوان الثانوي.

والتجديد في هذا الموضوع إنما يكون بالدعوة إلى التساهل في المهور وتخفيضها، لكي يتسنى للكثير من الشباب أن يتزوج.

كيف نجدد؟

التجديد يتطلب أن نفهم الحياة ومتطلباتها، لأن من لا يفهم الحياة قد يهدم بالتجديد من حيث يريد أن يبني. فيجب مراعاة المصلحة العامة إلى جانب مراعاتنا للمصلحة الخاصة، لا أن تطغى إحدى المصلحتين على الأخرى.

الأسئلة

س١: إذا كان العامي مسؤولاً أمام علماء الدين، فمن يحاسب علماء الدين وطلاب العلم؟ وهل يمكن أن تكون هناك هيئة معنية بمتابعة أدائهم وتقييم ما قدموا للأمة وما لم يقدموا، وهل أنهم بالمستوى المطلوب أو لا ؟

الجواب: لا شك أن ما طرحتموه يمكن أن يكون من الأساليب التي يستفاد منها في التجديد، وهو معمول به إلى حد ما في بعض البلدان. أما كيف يتحقق

فلا أستطيع أن أحدد الكيفية.

س٢: إلى أي مدى يستطيع الفرد أن يساهم في عملية التجديد فيما المجتمع من حوله يحاول أن يقاوم الفكرة ويعمل على تثبيطها؟ وهل على الفرد أن يستسلم ويتخلى عن فكرته أو يستمر؟ وكيف؟

الجواب: أشرت فيما مضى أن الصراع بين المجددين والمحافظين كان ولا يزال مستمراً على مدى التأريخ، لكن هذا لا يعني أن ينهزم المجدد إذا ما أراد التجديد، أمام المعارضين للتجديد. فقد ينتصر وقد ينهزم، وانهزام جمعية منتدى النشر أمام المصالح الشخصية، لا يعني فشلها بالمرة، فقد انتصرت فيما بعد في كلية الفقه، وخرّجت الخطباء المبدعين الذين أثروا كثيراً في تغيير المستوى الثقافي لدى الأمة.

فمن الطبيعي أن يتعرض من يدعو إلى التجديد للمعارضة من الكثير من الناس. ولا يتوقع أن يكون طريقه مفروشاً بالورود. ففي الطريق أشواك وعثرات ومطبات، ولا بد من الصبر والتحمل وخلوص النية لله تعالى، ليكون الله في عونه.

س٣: ما رأيكم في من يستبد بفكرة التجديد ويحاول طرحها بأسلوبه الخاص ولا يحاول أن يشرك الآخرين ويستنير بأفكارهم؟

الجواب: الفردية في مجال التجديد وإصلاح المجتمع مرفوضة، ولا بد من إشراك الآخرين ومشاركتهم في عقولهم، ولا بد من تبادل الرأي، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

س٤: ألا ترون أن طلب استصدار فتوى في حق من يقول كلمة الإنصاف

---

(١) يوسف: ٧٦.

هو نوع من المعارضة للتجديد الفكري؟ وما هي نتيجة إصدار هذه الفتوى غير إثارة البلبلة والفتنة؟

الجواب: الدوافع تختلف باختلاف الظروف والأحوال، فقد تكون الدوافع سليمة لكنها ناتجة عن سوء فهم الموضوع أو أمور أخرى. وعلينا أن لا نسيء الظن دائماً أو نحمل على محامل سوء. وإثارة الفتنة في أي مجال من مجالات المجتمع وبخاصة بين المسلمين لا يجوز، سواء عن طريق الفتاوى أو إثارة الشبهات والمشاكل وغير ذلك، لأن الفتنة حرام، وهي كالنار التي تأكل ما يُلقى فيها من حطب. ويفترض الابتعاد عن كل ما يثير البلبلة والفتنة.

س٥: نلاحظ أن الكثير من الشعراء ترك الأصالة في الشعر العمودي وتحول نحو الشعر الحر، وأكثر من اتجهوا إلى هذا اللون من الشعر أراد أن يتخلص من قيود القافية، أفلا يعد هذا ضعفاً؟ وما رأيكم في الشعر الحر؟

الجواب: يذكر في تأريخ الشعر الحر أنه جاء متأثراً بما ترجم عن اللغات الأخرى في بدايات القرن العشرين، بعد الحرب العالمية الثانية، وكان منها الشعر الفرنسي والإنكليزي، وكانت تلك الترجمات سبباً لانبثاق الشعر الحر. وقيل: إنه دعوة صهيونية لإبعاد الناس عن الشعر العمودي الذي كان له دور كبير في استثارة الجماهير. كما أن فيه دعوة للرمزية والغموض في المعنى.

س٦: تعلمنا في العقائد أن أصول الدين خمسة، أحدها الإمامة، ثم سمعنا فيما بعد من يقول: إنها من ضروريات مذهب الإمامية وغير ملزمة للمسلمين، فهل هذا نوع من التجديد في الطرح؟

الجواب: ليس هذا من التجديد في الطرح، ورأي الشيعة في الإمامة أنها أصل من الأصول، أما بقية المذاهب فيرون أنها فرع، وكونها أصلاً يعني أنها من صلب عقيدتنا، بعكس ما لو كانت فرعاً.

والإمامة في الواقع تعني خلافة النبي ﷺ التي يؤمن بها جميع المسلمين، ويرون أنها ضرورية لا بد منها، والتعبير بكونها فرعاً غير سليم، وهو نتيجة لإفرازات الخلاف الذي حصل في السقيفة، وللتقليل من أهميتها عند الشيعة.

والإمامة ثابتة عندنا بالنص وبالضرورة من المذهب، ولا يمكن المساومة عليها، فهي أصل من أصول الدين، ومن صلب العقيدة. كما أن واقعها من الناحية التأريخية يدل على ذلك.

س٧: هل أن التجديد نوع من الابتداع وبالتالي يندرج تحت عنوان البدعة الحسنة؟ وما الحد الفاصل الذي يمكن من خلاله أن نميز الحسن من السيئ؟

الجواب: لا علاقة للتجديد بما ذكرتم من البدعة، فالبدعة أن تأتي بشيء ليس من الدين، لتُدخله في الدين. وهذا ما لا ينطبق على التجديد، فقد ذكرنا أن الثوابت لا مجال للتجديد والتغيير فيها. أما المتغيرات فتخضع للاجتهاد، أي أنها تخضع للدين. وأما الوسائل والأساليب التي هي مجال التجديد فليست من الدين ليقال إن التجديد فيها بدعة.

س٨: نلاحظ في تجديد بعض الأحكام الشرعية عند بعض العلماء المعاصرين أنهم يؤخذ عليهم مقولة: خلاف المشهور، فما هو المشهور؟ هل هو أحكام القدامى كالشيخ الصدوق والشيخ المفيد أو أنه رأي العامة؟

الجواب: المشهور هو رأي أكثر الفقهاء، وكمثال على ذلك طهارة ونجاسة الكتابيين، فالمشهور بين فقهاء الإمامية نجاستهم، والقائلون بالطهارة قليلون. فيعبر عن الأغلبية الساحقة من الفقهاء قديماً وحديثاً بالمشهور.

النقد.. كيف يجب أن يكون؟

قبل أن أدخل في صميم الموضوع، أود أن أشير إلى مفردة النقد، وما يرتبط بها من حيث اللغة، وماذا كانت تعني عند العرب قديماً، وماذا تعني عندهم في الأزمنة اللاحقة ؟

النقد لغةً:

يستخدم هذا اللفظ في مجموعة من المعاني، أهمها:

١ - كانت هذه اللفظة قديماً تعني (الإعطاء)، يقال في اللغة: نقَدته الدراهمَ، أو نقَدت له الدراهم، إذا أعطيته إياها، فالنقد عندهم هو الإعطاء، وهو ضد النسيئة.

وقد يستعمل بعضنا اللغة الإنجليزية فيقول: (cash) ونحن في كثير من الأحيان - مع الأسف - ونتيجة ضعف الشخصية، نحاول أن نستعمل ألفاظاً أجنبية إنجليزية أو فرنسية أو غيرها، نحفظها بشكل دقيق أو غير دقيق، فالمهم أن من يسمع المتلفظ بها، يقول عنه: إنه خرج من طور البداوة ودخل في دائرة المتحضرين.

بهذه العقلية نعيش حياتنا مع شديد الأسف، في حين أن لغتنا العربية هي أفضل اللغات، لأنها لغة القرآن الكريم، وينبغي أن نعتزّ بها، فهي مقوِّم أساسي من مقومات حضارتنا، والأمة التي تعتز بشخصيتها لا بد أن تعتز بحضارتها ومقومات حضارتها، ومنها اللغة.

نقول في اللغة: أعطيته أو نقَدته الدراهم فانتقدها، أي: أخذها.

٢- وتستعمل أيضاً بمعنى إظهار الغش في العملة، وبيان الصحيح منها من الفاسد المغشوش، فقد كانت العملة قديماً من الذهب والفضة، فالذهب قد يُغشّ بنسبة أعلى من النحاس، والفضة قد تُغشّ بنسبة أعلى من الرصاص، ويكتشف هذا الغش بالنقد، فيقال: نقدت الدراهم أو انتقدت الدراهم، بمعنى حاولت أن أكتشف ما فيها من زيف وغش.

قال أحد الشعراء المتأخرين:

سل عن العسجد مني نيقداً إنني أدرى بما في مذهبي

والعسجد هو الذهب. يقول: أنا أستطيع أن أنقد الذهب وأكشف عما فيه من غش.

٣- ويكون النقد بمعنى (العملة) أي النقود الذهبية أو الفضية، وورد في اصطلاح الفقهاء في الزكاة قولهم: النقدان، ويعنون بذلك الذهب والفضة، لأن العملة القديمة كانت من الذهب والفضة، ونحن نستخدم اليوم هذا المعنى في النقود المعدنية والورقية، ونعني به العملة.

٤ - ومن استعمالاتها عند العرب قولهم: ناقدته الأمر، بمعنى: ناقشته، إذا كنت تريد أن تناقش أحداً في مسألة أو في قضية من القضايا. ولعل من هذا المعنى أُخذت مفردة النقد في الاستعمال الحديث لها.

أما كلمة (نقد) بالمعنى المستعمل عندنا، فهي مترجمة عن الأجنبية، من الألفاظ التي دخلت مع الحضارة الغربية، التي دخلت بلاد المسلمين أو بلاد العرب مع الغربيين، وترجمت اللفظة إلى كلمة (نقد). والأقرب من حيث

اللغة إلى هذا المعنى من الاستعمال الدارج عندنا اليوم، هو المناقشة، من قولهم: ناقدته، أي ناقشته، فالنقد نوع من النقاش، ويتضمن نقاشاً قد يكون بين طرفين أو أكثر، وربما يكون المناقش واحداً.

ماذا نعني بالنقد ؟

يمكن أن نقسم النقد إلى عدة أقسام، أهمها:

١ - النقد الشخصي.

٢ - النقد العلمي: وهو مناقشة الأفكار والمعتقدات.

٣ - النقد الأدبي، وهو خارج عن موضوع البحث هذا، لأن له أسسه وقواعده الخاصة.

أولاً - النقد الشخصي

فالنقد الشخصي: يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام:

نقد الذات، ونقد الغير، ونقد المجتمع.

نقد الذات:

أما نقد الذات، فهو المعروف عندنا في الشريعة الإسلامية بمحاسبة النفس، حيث ورد في الأثر عن النبي الأكرم ﷺ: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**»[1]، وهو مأخوذ من حساب يوم القيامة، حيث إن الله سبحانه وتعالى يوقف الناس للحساب ويسألهم عن أعمالهم، فيفترض أن يحاسبوا أنفسهم قبل يوم الحساب. ولا بد أن تكون المحاسبة وفق معيار وأساس، وهو الشريعة الإسلامية، فمن يريد محاسبة نفسه لا بد أن ينظر: هل أنه ملتزم بالدين التزاماً صحيحاً وتاماً ؟ أو أن هناك خطأ ونقصاً في الالتزام؟ وهل أن العقيدة التي

(١) وسائل الشيعة١٦: ٩٩، باب وجوب محاسبة النفس كل يوم.

اعتقدها صحيحة أو أن فيها خطأ أو نقصاً، وهل أن أعماله اليومية التي أتى بها من عبادات أو معاملات أو تصرفات أخرى موافقة ومطابقة للشريعة أو ليست كذلك ؟ هذه هي المحاسبة المعنية في الشريعة الإسلامية. والتي استعظنا عنها اليوم بمصطلح (النقد الذاتي).

فالنقد الذاتي أن ينقد الإنسان ذاته، أي أنه يحاسب نفسه، وهل أن تصرفاته مع أفراد أسرته ومع المجتمع، وعلاقته مع الكون والخالق صحيحة أو لا ؟ ومن خلال هذا النقد الذاتي والمحاسبة يستطيع أن يصحح أخطاءه، ويكمل النقص لديه.

ومن مصاديق وظواهر النقد الذاتي ومحاسبة النفس ما يفعله الكثير من الناس عندما يعرض كيفية أعماله على العالم أو طالب العلم، فيخبره بكيفية الإتيان بأفعال الصلاة مثلاً، من أول الأذان إلى آخر التسليم، ليرى إن كان فيها خطأ أو نقص؛ ليصحح له العالم ذلك، وهكذا عندما يريد أن يذهب إلى الحج، فيأخذ فكرة كاملة عن أعمال الحج.

فقد يتعبد المسلم حتى يصل إلى الأربعين أو الخمسين، لكن عباداته غير صحيحة، وهو لا يدري أن فيها خطأ، بل يتصور أنها صحيحة، ولكنه إذا عرض عباداته على المتخصص فإنه سوف يرى أنها تامة أم لا، فإذا كانت تامة فبها، وإلا فإنه يصحح الخطأ ويسد النقص؛ لأنه ليس معذوراً أمام الله عن عدم التعلم. فلنكن عمليين، لنستفيد مما نسمعه الآن أو نقرأه في موضوع النقد الذاتي، أو محاسبة النفس، ونقوم بتصحيح أعمالنا، وليس في ذلك عيب ولا منقصة، فليس لدينا إنسان كامل مائة بالمائة، ونحن معرَّضون للنقص والخطأ، وليس من العيب أن يعرض أحدنا صلاته أو عباداته أو معاملاته على من يعرفها، ليكتشف عنده الصحيح من الخطأ.

النقد الاجتماعي:

هـذا عن النقد الذاتي، أما نقد الغـير ونقد المجتمع، فهو ما يصطلح عليه في الفقه أو في الشريعة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعندما أريد أن أنقد سـلوكيات شـخص ما، أو مفارقـات وأخطاء موجـودة في المجتمع، فهذا نسميه إنكاراً للمنكر.

وهنـاك شرائـط ومراتب للأمر بالمعـروف والنهي عن المنكـر، تنص عليها كتب الفقه وأقوال العلماء.

فالخطـوة الأولى في الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكر: أن تعـرف ما هو المعروف وما هو المنكر؛ لأنك لا تستطيع أن تأمر بما لا تعرف، ولا أن تنكر ما لا تعرف.

فالمعروف: كل ما أراده الشرع، سـواء كان من الواجبات أم من المستحبات أم من المباحات. والمنكر: كل ما نهى عنه الشارع.

هـذه هـي الخطـوة الأولى، ثـم تـأتي الـشروط الأخـرى التي نصـت عليها الشريعة.

هدف النقد:

ثـم إن النقـد لا بد أن يكـون في إطار هدف محدد، والمفارقـة الغريبة في أكثر مجتمعاتنـا الشرقيـة أنهـا مجتمعات عاطفية أكثر من كونها عقلانية، والإنسـان فيهـا عاطفـي أكثر من كونه عقلانياً، وقد تصل نسـبة العاطفـة عندنا إلى ٨٠٪ والعقلانيـة إلى ٢٠٪ بينما المطلوب هو العكس، والمفروض أن نكون عقلانيين في جميـع مجـالات الحياة، والعقلاني هو من يسـتعمل تفكـيره، ولا يتصرف إلا لهدف فيه مصلحة له.

فلو حاولنا أن نهيِّئ دراسة تشتمل على إحصائيات ومسح ميداني، لنعرف الهدف من وراء النقد عند الشرائح الاجتماعية المختلفة، فسوف نخرج بنتيجة ربما تصل إلى ٩٠٪ أن الذين ينتقدون الناس إنما ينتقدون للانتقاد فحسب، أي أن الناقد لديه رغبة في الانتقاد، فأينما حل أو ارتحل راح ينتقد ما حوله، لأنه يعيش حالة من حب النقد والرغبة فيه، ويريد أن ينتقد ليشبع رغبته في الانتقاد. وهذا لا يُعدّ هدفاً، لا في رأي الشريعة ولا في رأي العقلاء.

وهناك من ينتقد ويجادل ليثبت وجوده الشخصي، فعندما يجلس في مجلس يحاول أن يحطم شخصيات الآخرين، متصوراً أنه إذا فعل ذلك فسوف يبني شخصيته على أنقاض الآخرين. وهذا ليس صحيحاً، لأن البناء لا يكون من خلال الهدم، فعندما تهدم عمارة أو بناءً ما، فهذا التهديم لا يبني عمارة أخرى.

وبالتالي فإن الهدم لا يعد هدفاً عقلانياً أيضاً، بل إن من يريد أن يبرز شخصيته عن طريق النقد وهدم وتحطيم الآخر يعد إنساناً فاشلاً، يريد أن يغطي فشله بهذا اللون من النقد الذي لا هدف له إلا التغطية على نفسه، وهذه التغطية تأتي بشكل لا شعوري، قد لا يدركه هو نفسه، لكن علماء النفس يفسرونه بهذا التفسير.

فعندما نريد أن ننتقد لا بد أن يكون لدينا هدف، وهو يتألف من عنصرين أساسيين لا بد من مراعاتهما:

١ ـ **إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العبادات**، كالصلاة والصوم والحج، فعندما نقول: عبادة، فهذا يعني أنني عندما أصلي فإنني أتقرب بصلاتي إلى الله لتكون الصلاة مظهراً لعبوديتي لله. وكذلك إذا قلنا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الفريضة من العبادات المفروضة، التي يكون هدفنا منها أن نتقرب إلى الله سبحانه وتعالى لنثاب على أدائها في الآخرة، وهذا عنصر

مهم من عناصر الهدف، وبُعد أساسي من أبعاده.

٢ـ الإصلاح: فلا بد أن ننتقد لأجل الإصلاح، فإذا كان النقد يؤدي دور الإصلاح فهو المطلوب، وإلا فلا وجه له.

فالهدف إذن من النقد، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحصول على الثواب في الآخرة، والإصلاح في الدنيا.

فعندما أريد أن أوجه إنساناً ما إلى الالتزام بالدين، فهذا نوع من الإصلاح، وعندما أريد أن أقاوم خطأً موجوداً في المجتمع، كانتشار المخدرات أو القمار أو الغيبة أو الكذب أو غيرها، فهذا نوع من الإصلاح، وهذا هو الهدف الحقيقي والصحيح من النقد.

فينبغي إذن أن يكون النقد ذا هدف، وإن لم يكن كذلك فلا يعد تصرفاً عقلانياً، ويكون إلى التخريب أقرب منه إلى الإصلاح. وهذا ما يجب أن نعوّد أنفسنا عليه، فنحن بحاجة إلى أن نكون عقلانيين في تصرفاتنا، وأن نطرح العاطفة جانباً، لأن مقياسنا في الأخلاق يختلف عما هو عليه في الحضارات والأمم الأخرى. فعندما تذهب إلى الغرب تجد أن المقياس لديهم هو المنفعة، فلا يُحيِّيك أحدهم بتحية إذا لم تكن له مصلحة عندك، فهو يحسب حساب أن هذه التحية تدرّ عليه أرباحاً، وإلا فلا تحية ولا سلام. وعندما يبلغ الابن أو البنت السن القانوني فإن الأب لا ينفق عليهما ولا يعرفهما، فيتحملان مسؤولية المصير والمستقبل. والشيخ العجوز ـ سواء كان امرأة أم رجلاً ـ لا أحد يعرفه، ويبقى رهيناً لراتب التقاعد، أو تتحمل الحكومة أعباءه عن طريق الضمان الاجتماعي؛ لأنه ليس فيه منفعة.

وقد رأيت هذا بأم عيني في أكثر من دولة أو مدينة من دول ومدن أوربا، فالعلاقات بينهم تقوم دائماً على أساس المنفعة، ومقياس السلوك عندهم هو

الحصول على المنفعة.

وهناك مقياس في الفلسفات القديمة يسمى (دفع الألم، وجلب الملذّات) وهذا كله لا يعترف به الإسلام، إنما المقياس في الإسلام هو رضا الله تعالى، فأي سلوك تسلكه أو فعل أو قول، إن كان يرضى الله تعالى فهو صحيح، وإن كان لا يرضيه فهو مرفوض.

فيجب أن يكون مقياسنا في أعمالنا رضا الله تعالى دائماً، في كل أفعالنا وسلوكياتنا وحركتنا العامة، ولا يختص ذلك بالعبادات دون غيرها، بل في كل حركة إرادية نقوم بها.

وهكذا الحال في النقد، فهو عمل من الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فإن كان هذا العمل يرضي الله تعالى فهو صحيح، وإلا فإنه مرفوض.

فكما ينبغي أن يكون للنقد هدف، ينبغي كذلك أن يقوم على أساس ومقياس، وهذا معنى العقلانية في التصرفات، وأن يستخدم الإنسان عقله في سلوكه وأفعاله.

الحمل على الصحة:

من الظواهر الخطيرة في مجتمعاتنا، التي تخلق العديد من المشكلات الكبيرة، الحكم الابتدائي على الأفعال بأنها غير صحيحة، فكثيراً ما نصدر الأحكام الجائرة على ما يصدر من الناس من أفعال بأنها غير صحيحة، وهذا مخالف لروح الشريعة الإسلامية ومنهجها. فهناك مبدأ عظيم في الشريعة الإسلامية يسمى (الحمل على الصحة) أي أنك عندما ترى أحداً يسلك سلوكاً معيناً، أو يقوم بفعل ما، فإن كان لهذا الفعل وجه شرعي ممكن أن يحمل عليه، فلا يجوز أن تحكم عليه بعدم الصحة.

فيجب إذن أن لا نتسرع في اتهام الناس وحمل أفعالهم على الفساد. وهذا إنما يكون في ما يسمى في الفقه بالمسائل الاجتهادية، أي المسائل الخلافية التي تختلف فيها آراء العلماء وفتاوى الفقهاء، وهو ما يجب أن لا نتسرع فيه.

فالضروريات لا مجال للاجتهاد والخلاف فيها، وهي خارجة عما ذكرناه، وهي الأمور التي ثبتت بالبداهة عند جميع المسلمين، من أول الإسلام إلى يوم القيامة،كوجوب الصلاة، فهو ثابت بالضرورة من الدين، ولا تقليد فيه ولا خلاف، فلو ادعى أحد أن الصلاة ليست واجبة، فهذا منكر، لا مجال فيه للحمل على الصحة، إلا إذا كان عن شبهة فهذا أمر آخر.

ولكن هناك مسائل خلافية يجب أن لا نتسرع فيها بحمل أفعال الآخرين على الفساد، وأنهم يرتكبون منكراً.

فمثلاً: لفقهاء الشيعة الإمامية الاثني عشرية في الموقف من طهارة الإنسان ثلاثة آراء:

١- كل إنسان طاهر، سواء كان مسلماً أم غير مسلم، كافراً كتابياً أم غير كتابي، فالإنسان مهما كان مذهبه أو دينه فهو طاهر، وهناك من المعاصرين من يفتي بهذا.

٢- هناك من الفقهاء من يقسم الإنسان إلى قسمين: مسلم وكافر، ثم يقسم الكافر إلى قسمين: كافر كتابي، وهم اليهود والنصارى، وبعضهم يلحق المجوس، وبعضهم يقتصر على اليهود والنصارى؛ لأنهم أصحاب كتاب، فيقول بطهارة الكتابيين ونجاسة بقية الكفار من الوثنيين والمشركين وغيرهم. أما المسلمون فهم طاهرون جميعاً طبقاً لهذا الرأي الفقهي.

٣- أن كل كافر نجس حتى إذا كان كتابياً، فكل من ليس بمسلم فهو

نجس، أما المسلمون، فهناك من فقهائنا من يذهب إلى طهارة كل مسلم، كما هو رأي السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) وهناك من يستثني بعض الفرق الإسلامية فيحكم بنجاستها كالغلاة والنواصب والخوارج.

وقد ذكرتُ هذه المسألة الخلافية خصوصاً؛ لأنها أصبحت في مجتمعاتنا محل ابتلاء ومنطلقاً للنقد المتسرع غير العقلاني، فقد ترى في مجتمعنا اليوم ـ الذي أصبح خليطاً من جميع الجنسيات – من يأكل أو يشرب مع أجنبي غير مسلم، وهو مع ذلك يصلي ويصوم، في حين أن هذا الأجنبي وثني مثلاً. عندئذٍ نحكم على أخينا المسلم بالكفر، ولا نترك لأذهاننا مجالاً لاحتمال أن يكون مقلداً من يفتي بطهارة الإنسان مطلقاً، ولا نلتفت إلى مبدأ الحمل على الصحة، فإن كان هناك متسع للحمل على الصحة فلا ينبغي أن نتسرع في التكفير.

ومن الأمثلة على ذلك حلق اللحية، الذي تسبب أيضاً في التكفير والتفسيق والتبديع وغيره، فهي مسألة خلافية أيضاً، صحيح أن الرأي المشهور ـ بل الأشهر ـ أنه لا يجوز حلق اللحية، ولكن هناك من الفقهاء من يفتي بجواز حلقها على كراهة، فإذا كانت هناك فتوى بالجواز فهذا يعني أن المسألة خلافية، فليس من الدين أن تحكم على حالق اللحية بالفسق بمجرد أن تراه حليق اللحية، بل قد تستخدم معه عبارات غير لائقة، وهذا كله ليس من النقد، ولا ينبغي أن يكون.

ففي القضايا الخلافية والمسائل الاجتهادية لا بد من الحمل على الصحة، ويجب أن لا نتسرع فنحكم على الإنسان بالمخالفة، وإنما نحمل عمله على الصحة ما وسعنا المجال للتأويل. وهناك أمثلة كثيرة يطول الحديث فيها.

المعرفة من شروط النقد:

إن النقد الصحيح يتطلب المعرفة أولاً، فلا بد أن يكون الناقد عارفاً بما ينتقد. أما نحن هنا في الشرق عموماً، فلدينا عادة جارية وظاهرة متفشية، وهي الخوض بما نعرف وما لا نعرف، فعندما تطرح مسألة ما في العقائد أو الفقه أو التاريخ أو غيرها، في مجلس من المجالس، ترى أن الجميع يخوض فيها، من المتخصصين أو غيرهم، وقد تجد من لم يسمع في حياته بهذه المسألة، ولأول مرة تطرق سمعه، لكنه يتكلم فيها وكأنه عالم متخصص، فتراه يشعّب ويفرّع ويشرّق ويغرّب ويحتد وينفعل، كل ذلك يحصل لأننا أناس عاطفيون، فلو كنا عقلانيين، لعملنا بقاعدة: «ما هلك امرؤٌ عرف قدر نفسه»[1].

وهكذا إذا سئلنا عن مسألة ما، فإن كنا لا نعرفها أو لا نستحضرها ينبغي أن نقول بصراحة: إننا لا نعرف، وهذا ليس عيباً ولا نقصاً، إنما هو عين الكمال، فليس النقص أن تعترف بالواقع، إنما النقص أن تفتي بغير علم، وتستوحي الفتوى من الهوى، وقد تستوحيها من الشيطان وأنت لا تدري.

إن المعرفة مرحلة سابقة للنقد، فكل أمر نريد أن نتناوله وننتقد على أساسه، لا بد أن نكون عارفين به معرفة تامة، وأن يكون واضحاً لدينا، أما إذا لم يكن واضحاً ومعروفاً، فسوف يتحول إما لاستهلاك المجالس، أو قد يؤدي إلى فتنة، بحيث يتحامل عليك الآخر، وأنت السبب في ذلك وليس هو.

الموضوعية في التعاطي:

من شروط وضوابط النقد الموضوعية والإنصاف، فقد تعودنا نحن في حواراتنا السعي إلى تحقيق الغلبة، حتى لو كان ذلك على حساب الحق، بأن يكون الحق في الجانب الآخر والباطل في جانبي، وأنا أعلم أن الحق في الجانب الآخر، ولكنني لا أتقبل أن يغلبني الآخر، لأنني مثلاً ابن الشيخ الفلاني أو

(١) مشكاة الأنوار، علي بن الحسن الطبرسي: ٢٤٥، عن النبي الأكرم ﷺ.

الزعيم المعروف، أو أنني أحمل شهادة معينة أو امتيازاً خاصاً، بل يجب أن أغلبه، ويجب أن أكسر الحق الذي عنده، وأسمح للباطل الذي عندي أن ينتصر. وهذا كله خلاف الموضوعية.

فالموضوعية هي أنك إذا رأيت الحق عند الآخرين يجب أن تسلِّم له؛ لأن الإنسان إذا استعمل عقله يكون رائده الحق والبحث عن الحقيقة ليصل إليها.

فلو أن حواراً ما حصل بينك وبين الآخر، وأوصلك الآخر إلى الحق والحقيقة، فيجب أن تشكر له ذلك، وهذا مقتضى الموضوعية، لأنك باحث عن الحق والحقيقة وقد أرشدك إليهما، لا أن تحاول إخضاعه لباطلك، والقضاء على الحق الذي أرشدك إليه، استجابةً للاندفاع العاطفي، فالعقلانية هي أن تستفيد من الموضوعية، وأن يكون هدفك دائماً هو الوصول إلى الحق، حتى لو حاورك طفل واستطاع أن يثبت أن الحق في جانبه.

المرونة في النقد:

ومن صفات الناقد أيضاً المرونة في النقد، ونحن في حياتنا تعلمنا الخشونة والشدة، بأن يرفع أحدنا صوته إلى أعلى ما يستطيع، ويستعمل من الألفاظ ما يُرهب به الآخر، وهذه مغالبة، في حين يفترض في النقاش أن يكون محاولة للوصول إلى الحق والحقيقة لا أن يتغلب طرف على آخر، فالنقاش ينبغي أن يكون بين طرفين أو أطراف عديدة يتعاونون في الوصول إلى الحق والحقيقة، وينبغي أن تكون لدينا مرونة في الأخذ والعطاء عندما نتكلم وعندما نسمع، وهذا من أهم صفات الناقد.

أساليب النقد:

من شرائط النقد الأسلوب الحضاري المهذب، فيفترض أن يتعلم الناقد الأسلوب الهادئ، وأن يعي ويدرك منذ البداية ما سينتهي إليه النقاش، فقد ينتهي إلى فتنة، أو إلى مشكلة، فلا بد أن يتعلم فن الحوار، وكيف يستطيع أن يهدِّئ أجواء الحوار، وكيف ينسحب منها عندما يرى أن المصلحة في الانسحاب والتراجع دفعاً للفتن والمشاكل، لأن الهدف من الحوار كما قلنا هو الوصول للحقيقة، أما أن ينتهي إلى مشكلة وفتنة فهذا خلاف الهدف.

ولا شك أن النقد المستوفي للشروط مطلوب في الحياة، وله أهميته الكبيرة، وينبغي أن يكون، لأنه هو الكفيل بمحاربة الأخطاء والتقليل منها وتنضيج الأفكار.

هذا ما يتعلق بالنقد الشخصي.

ثانياً – نقد الأفكار والمعتقدات

من المعلوم أن هذا النوع من النقد من أبرز ما تتميز به ساحتنا الإسلامية قديماً وحديثاً، سواء على مستوى المذاهب المختلفة أم على مستوى المذهب الواحد.

والنقد في مجال المعتقدات، إذا كان في المسائل الدينية الضرورية والبديهية – كما أوضحنا – فلا معنى له، كمن يقول: الصلاة ليست واجبة، أو أن الجنة والنار والحساب ليست بحق، فهذا غير خاضع للنقاش والنقد. فالأمور الثابتة في الشريعة والمعلومة ضرورة، لا مجال للنقاش فيها بأي شكل أو آخر، حتى إثارتها كفكرة.

أما المسائل المختلف فيها، وهي المسائل الاجتهادية، أو الخلافيات، فمن

المفروض أن لا تؤخذ بشكل مصادرة، فلو قلنا مثلاً: إن الإمام علياً عليه السلام هو الخليفة الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلا نقول ذلك اعتباطاً، وكذلك الطرف الآخر، الذي لا يقول بقولي، فلا شك أن لديه دليلاً على ما يقول، وإن لم أقبل دليله. فإذا أردت أن أنتقد، فينبغي أن أنتقد الدليل وأناقش الأفكار، لا أن أرتب الآثار على أساس النتيجة النهائية، فأقول: إن الآخر الذي لا يقول بقولي هو كذا وكذا، إنما يجب أن أناقش الدليل حسب الأصول العامة المتفق عليها، فهناك أصول عامة في البحث العلمي لا بد من مراعاتها والاحتكام إليها .

ولكن تعال إلى مجتمعاتنا الإسلامية، ولاحظ أساليبنا في النقد، وانظر، هل ترقى إلى أدنى المستويات الحضارية أو العقلانية؟

انظر إلى الضجة التي تثار حول الشيعة قديماً وحديثاً، ولاحظ كم من الكتب التي ألفت في هذا المجال، وكم من الخطب ألقيت، وكم من المقالات في الصحف والمجلات، وكم من البرامج على الفضائيات، وكم من الأحاديث في المجالس الخاصة أو العامة، فلو أردنا أن ندرس هذا الكم الهائل من الأفكار، لوجدنا أنه لا يتعدى حدود التقليد الأعمى للآباء والأجداد، فهناك نظرة متوارثة من البيئة التي عاش فيها أصحاب هذه الأفكار، حيث تربوا في محيط خلق عندهم قناعة خاصة عن الشيعة. وهذا ما ورد فيه الذم في القرآن الكريم، وهو صفة المشركين والوثنيين والكافرين وليس من صفات المسلم أبداً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[1].

(١) الأنبياء: ٥١ - ٥٣.

وقال جل وعلا: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[٣].

وكمثال على ذلك نرى أن بعض هؤلاء يعتقد أن الشيعة يكذبون فلا يؤخذ بأقوالهم، وهذا نوع من غسيل الدماغ الذي تعرضوا له، حتى تولدت عندهم مثل هذه القناعة، وإلا فأي عاقل يمكن أن يتقبل هذا الكلام ؟ فهل يعقل أن أمة من الناس بهذا الحجم يمكن أن تكون كلها كاذبة ؟ وإن كان فيها من يكذب فهل يجري الحكم في الباقين؟ وهل نستطيع نحن أن ندعي أن السنة كلهم يكذبون إذا وجدنا فيهم من يكذب؟ إن في السنة أناساً من العدول الصادقين الثقات حسب مذهبهم، وفيهم الكاذب أيضاً، فوجود الكذابين في أي فرقة أو جماعة لا يعني أن يسري الحكم للجميع. وهذا هو منطق العقل والحكمة.

لنفترض أن في الشيعة من يكذب، وهذا أمر طبيعي ومعقول، فلا ندعي أن الشيعة كلهم صادقون، كما لا ندعي ذلك لأهل السنة، ولكن هذا لا يعني أن يسري الحكم في الشيعة جميعاً أو في السنة جميعاً.

والذي أريد قوله هنا أن نسبة الكذب للشيعة، لا تصلح أن تكون أساساً للنقد والحوار وردّ معتقدات الشيعة، والسبب في ذلك أنها فكرة سقيمة ومغلوطة من الأساس، فالشيعة طائفة كبيرة، وهي كغيرها من المجتمعات في

---

(١) الشعراء: ٧٤.

(٢) الزخرف: ٢٢.

(٣) الزخرف: ٢٣.

العالم، فيهم الكاذب، وأكثرهم صادقون، كما أن السنة كذلك.

وربما يقال: إن الشيعة يعتقدون بالتقيّة، لذلك فإنهم يكذبون، فنقول: إننا لا نستعمل التقية في كل مورد، وليست التقيّة من مختصات الشيعة وحدهم، وقد راجعتُ هذا الموضوع وكتبت فيه، وخلاصته أن جميع المذاهب الإسلامية تقول بالتقية، فالمذاهب الأربعة كلها تقول بها، من الحنفية والمالكية والحنبلية والشافعية، ولكن لأن الشيعة تعرضوا إلى الاضطهاد والمطاردة والبطش والقمع أكثر من غيرهم، برزت عندهم تطبيقاتها بشكل أوضح. ثم إن هذا أمر طبيعي لا يقتصر على الإسلام فحسب، بل حتى في غير الإسلام، لأن كل من يتعرض للخطر أو الضرر أو القتل، يحاول أن يبعده عن نفسه ويدفعه فيتقي، ولو أن السنة ابتلوا بما ابتلي به الشيعة لما كان الحال مختلفاً عما هو عليه عند الشيعة.

ونحن لا نستعمل التقية في كل مورد ـ كما ذكرت ـ فنرى الشيعي اليوم يصلي ويضع التربة[1] أو الورق في موضع السجود، فإن كان يتقي فلماذا يضع التربة أو الورق ؟ وهكذا نراهم يحملون بأيديهم فراشاً من خوص النخيل (سجادة)، مقابل مسجد النبي ﷺ وينتظرون الجماعة لتنتهي حتى يدخلوا

(١) قد يقول قائل: ما هو دليلكم في الصلاة على التربة الحسينية ؟ هل لأنها أخذت من تراب دفن فيه الحسين عليه السلام فحسب ؟

الجواب: من يقول بأننا نصلي على التربة الحسينية لأنها أخذت من تراب دفن فيه الحسين عليه السلام وهذا دليلنا على المشروعية فهو واهم ولا يعرف الفقه. إنما دليلنا الحديث الصحيح الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام : أنه كان لديه شيء من تربة قبر الحسين عليه السلام وكان يسجد عليه أثناء الصلاة. ونحن نرى أن قول المعصوم وفعله وتقريره حجة علينا وسنة نقتدي بها.

ثم إن الإمام الصادق عليه السلام عند جميع المسلمين عالم من العلماء، وفقيه من الفقهاء، بل إنه عندهم من أكابر فقهاء المسلمين، وهم يعترفون بعدالته ووثاقته، فإذا كان هذا العالم الفقيه الثقة يقوم بمثل هذا العمل، وهو الصلاة على تربة من قبر الحسين عليه السلام ، ويفتي بهذه الفتوى، فيجوز عندئذٍ الأخذ بها، وليس هناك خلاف بين المسلمين في جواز الأخذ بالفتوى من فقيه عادل.

المسجد[1]، فلو كانوا يتقون لما حملوا معهم فراش الخوص هذا، لأنه دليل واضح على عدم جواز السجود على الفرش الموجودة في المسجد، وهذا خلاف ما عليه الآخرون، وهم يجهرون به، فأين التقيّة ؟

كل هذه شواهد واضحة على أن الشيعة لا يتّقون في كل مورد.

بين النقد وقلب الحقيقة:

من النكات الطريفة المؤسفة التي أود التعرض لها - ما دمنا ذكرنا التربة الحسينية - أن هناك تياراً معروفاً ينسب إلى الشيعة أنهم يعبدون الحجر، فمن أين جاءت هذه النسبة؟

هناك ما يسمى بالإيديولوجية، وهي طريقة خاصة في التصرف (لا أريد أن أعبر عنها بالفلسفة في التصرف) وهذه الإيديولوجية يستعملها من يريد أن يقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، لذا تجد أن الإيديولوجيات في الغالب تُستعمل عند السياسيين والمنظمات والأحزاب السياسية، فتوضع خطة معينة، ثم يقال: نحن هدفنا الآن إسقاط هذا الشخص، أو محاربة هذه الجماعة، وتكون هذه الخطة سرية غير ظاهرة، لكن العمل بها يكون تحت شعارات مقبولة.

وهكذا دأب أعداء وخصوم الشيعة في محاربتهم وإسقاطهم، ففي موضوع السجود على التربة الحسينية، يدرك الجميع أنهم إذا قالوا بأن الشيعة يقتدون بالإمام الصادق عليه السلام فإن المسلمين يحترمون الإمام الصادق عليه السلام وهو في نظرهم فقيه عادل، ومن يتبع الفقيه العادل فهو على حق، لذا يلجأون إلى طريق آخر فيقولون: إنهم يعبدون الحجر، وقائل هذا يدرك تمام الإدراك أنهم

---

(١) وإن كنت لا أرى هذا الأمر صحيحاً، بل أراه حراماً، لأن الأضرار التي تترتب عليه أكبر من المنافع، وقد يؤدي إلى الكثير من الإساءة لأبناء هذه الجماعة، ويفتح الباب واسعاً أمام أعدائهم للتشهير بهم، ونعتهم بشتى النعوت.

لا يعبدون الحجر، وأنهم يفرقون بين السجود (لشيء) والسجود (على شيء) لكنه لديه إيديولوجية، يريد أن يصل من خلالها إلى هدف.

وهكذا ما أُثير في الآونة الأخيرة من موضوع (تحريف القران)، فهو أيضاً في سياق ما ذكرناه من الإيديولوجية التي يهدفون من خلالها إلى التشويه والإسقاط، فإذا كان مدار التحريف هو الروايات والأحاديث، فهي موجودة عن السنة أكثر مما هي عند الشيعة[1]، وعلماؤهم يدركون هذا، كما

---

(١) ما ورد عندهم في موضوع تحريف القرآن لا يكاد يحصى ويحصر، فقد ورد في أصح الكتب عندهم كالبخاري ومسلم وغيرهما، وهذه بعض النماذج:

١ - آية الرجم: أخرج البخاري ومسلم، بإسنادهما عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب خطبته بعد مرجعه من آخر حجة حجها، قال فيها: إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس الزمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله. والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف. البخاري٨، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت. ومسلم٤، باب من اعترف على نفسه بالزنا. ومسند أحمد بن حنبل١: ٤٠، ٣٦، ٤٣، ٤٧، ٥٥. وج٥: ١٣٢. وغيرها من المصادر.

وآية الرجم المزعومة رويت بألفاظ مختلفة، منها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة). أو (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم).

وقد حاول عمر كتابتها وإثباتها في المصحف إلا أنه لم يستطع. فقد رووا عنه أنه قال: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها. راجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي٢: ٦٩.

٢ - آية الرغبة: فقد أخرج البخاري عن عمر أنه قال: إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله (أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم) راجع: البخاري٨: ٢٦، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب الاعتراف بالزنا. مسلم١: باب بيان قول النبي ﷺ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر. وغيرهما من المصادر.

٣ - ما حذفه عثمان من القرآن: رووا عن حميدة بنت أبي يونس، قولها: قرأ عليّ أبي، وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون الصفوف الأول) قالت حميدة: قبل أن يغير عثمان المصاحف. الإتقان٢: ٦٧.

وفي حديث عروة عن خالته عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ زمن النبي ﷺ مئتي آية، فلما

أنهم مطلعون بشكل كبير على هذا، ويعلمون أن علماءنا وعوامّنا لا يقولون بتحريف القرآن.

ثم كيف يقال بتحريف القرآن والأئمة عليهم السلام الذين نعتقد بإمامتهم وعصمتهم أرجعونا إلى القرآن ؟ فهل أن أهل البيت عليهم السلام يأمروننا بالرجوع إلى كتاب محرف؟ وما معنى حديث الثقلين إذن ؟ فمجرد وجود الروايات لا يكفي لإثبات أننا نعتقد بتحريف القرآن، كما أن أئمتنا الذين نعتقد بإمامتهم وبعصمتهم، كانوا يقرؤون هذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم، ويرجعوننا إليه، فلم يقولوا لنا: اقرؤوا الفاتحة من القرآن (المخبّأ)، إنما قالوا: اقرؤوا سورة الفاتحة من هذا القرآن الموجود بأيدي الناس، واقرؤوا سورة أخرى منه (دون تحديد) كما أنهم يستدلون بالآيات الشريفة الموجودة في هذا القرآن، وكذلك شيعتهم. ألا يكفي هذا في التسليم بأننا لا نقول بتحريف القرآن؟

ولكن هناك خطة مرسومة، الهدف منها إسقاط هذه الطائفة في أعين الناس، وهناك أهداف أخرى من وراء إسقاطها لا أريد التعرض لها.

والذي أريد أن أوضحه أننا يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من النقد ـ خاصة في الآونة الأخيرة ـ الذي يرتبط بالمعتقدات، يقوم على أساس من إيديولوجيات معينة. فلماذا أثيرت هذه الضجة في هذه الفترة المحددة التي لا أريد أن أصرح ببدايتها؟ ولماذا لم تكن من قبل؟ إذن هناك إيديولوجيات تخطط وتستهدف.

ولكي أكون صريحاً مع الآخرين أودّ أن أنصحهم بأن لا يتعبوا أنفسهم، فالشيعة لن يموتوا ولن ينتهوا، فقد تعرضوا لأبشع أنواع الاضطهاد عبر التاريخ، وكان أكثر بكثير مما يتعرضون له اليوم، فقد كان تاريخهم مليئاً بالدماء

كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا على ما هو الآن. الإتقان٢: ٦٦.

والروايات في هذا الباب كثيرة جداً.

والسجون والمعتقلات، ولكن مع ذلك تراهم ينتشرون كما ينتشر الفراش، ويتكاثرون كما تتكاثر الطيور والأسماك، وهو خلاف القاعدة، فمن المفروض أن يقضي عليهم الاضطهاد الشديد، لكنهم قبس من نور أئمتهم، وأئمتهم نور الله في الأرض ، وسيبقون بعناية الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إلا أَنْ يُتِمَّ نُوْرَه﴾[1].

إن الحملة المسعورة التي شنت على علي عليه السلام وآل علي في العهد الأموي كانت كافية لمحوهم ومحو أسمائهم، لكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى اسم علي وآله. وما دام الشيعة مرتبطين بأهل البيت عليهم السلام فلن تؤثر فيهم هذه التفاهات.

الأسئلة

س١ : تعرض الباري سبحانه وتعالى في كتابه الكريم إلى ذكر البدايات التي تشير إلى أن الإنسان أو الناس بصفة عامة تكره الحق، كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُوْن﴾[2] وغيرها من الآيات. فالإنسان منا عندما تأتي إليه لكي تنصحه، أي تأمره بالمعروف أو تنهاه عن المنكر، يبدو أمامك أسداً، فيجابه الحق بالباطل، في حين أنك تأتي إليه بالأسلوب الطيب، وترغب أن يكون هذا الأخ من هذا المجتمع المؤمن، سائراً في الخط المستقيم، لأنه إذا صلح صلح المجتمع. وحُسن عمل هذا الإنسان ينعكس على أهل البيت عليهم السلام حيث يقال: إنه شيعي ملتزم.

فما توجيهكم سماحة الشيخ لمثل هؤلاء الناس، بحيث إن الإنسان يكون عنده نوع من هدوء الأعصاب، عندما ينصحه الآخر ويأمره بالمعروف وينهاه

---

(١) التوبة: ٣٢.

(٢) المؤمنون: ٧٠.

عن المنكر، فينبغي أن لا يستعجل في الأمر، ولا يثور ويلقي بألفاظ غير لائقة. فما رأيك سماحة الشيخ ؟

الجواب: لقد ألمحت من خلال المحاضرة، إلى أن شعوبنا عاطفية، والعاطفة أو الوضع العاطفي مغروس عندنا ومتأصل فينا، فنحن وإن أصبحنا نسكن المدن، وابتعدنا عن العلاقات العشائرية، ولكن لا تزال الروح العشائرية موجودة عندنا، ولا زلنا نتصف بروح الغلبة، فلا نعطي المجال لشخص آخر يريد أن يتغلب علينا في نظرنا، وهذا ينبع من تحكيم العاطفة لا تحكيم العقل.

إذن لا بد أن أقول: ينبغي أن يكون عندنا حملة توعية مكثفة لننقل حالنا نقلة نوعية من تحكيم العاطفة إلى تحكيم العقل، فإذا استطعنا أن نصل إلى هذه المرحلة فمن الممكن أن يكون للنقد هامش واسع، كما هو الحال في الغرب، فأنت تقرأ وتسمع وربما سافر بعضكم إلى الغرب ورأى أن النقد موجود حتى لأعلى المستويات في الدولة، وبعض الأحيان قد يكون النقد جارحاً حيث تخرج رئيسة وزراء بريطانيا (تاتشر) - وقد شاهدت ذلك في التلفزيون - وتهاجَم هجوماً عنيفاً، وتُنتقد نقداً جارحاً، ومع هذا تقف وترد وتجيب. وكذلك عندما تكون هناك ندوات ومحاضرات، أما نحن فلم نصل إلى هذه المرحلة بعد، لأن العاطفة موجودة، وهي التي تتحكم بنا، فنحتاج إلى زمن لنعوِّد أنفسنا على تحكيم العقل.

س٢: النقد والغيبة، كيف نميز بينهما ؟ فمن ينتقد تصرفات شخص غائب وينتقد كتابات أديب أو رأياً مغايراً لرأيه، أيهما يصح أن يكون نقداً؟

الجواب: إن الأديب عادة يطرح فكرة وينتقدها، ولا ينقد الأديب في حد ذاته، وهكذا تنقد القصيدة، وهذا لا يعني نقد الشاعر. فلو أردت أنا شخصياً أن أجمع ما كُتب عني من نقد في المجلات والصحف والكتب، لخرج من ذلك

مجلدان أو ثلاثة، وهذا ليس معناه أن هؤلاء جاؤوا ليضعوا من مكانتي، أو أنهم يريدون تجريحي، إنما نقدوا الأفكار التي أطرحها وهذا من حقهم، ولا يحق لي أن أمنعهم من ذلك، وإذا اكتشفوا خطأ فلا بد أن أشكرهم عليه.

فيجب أن لا يتعرض النقد للأشخاص، وإنما للأفكار التي تصدر عن الأشخاص، بل حتى التصرف والسلوك، فأنت عندما تنقد التصرف والسلوك فإنما تنقد الفكرة، فمن يتناول المخدرات، ونقول له: هذا التصرف خطأ، فإننا لا ننقد الشخص الذي تناول المخدرات، وإنما الفكرة التي أوحت له بتناول المخدرات، فنقول له: إن المخدرات حرام (وهذه فكرة) لأنه قد يعتقد أنها حلال، فلم يكن النقد له بالذات، وإنما للفكرة.

أما الغيبة فليست كذلك، إنما هي محاولة انتقاص للشخص بالذات، وهذا لا يجوز، لأن الإنسان محترم، ولا شك أنكم تدركون أحكام الغيبة وما يرتبط بها، وفرقها عن النقد.

فالنقد يتناول الفكرة، والغيبة تتناول الشخص.

والنقد هدفه التصحيح والإصلاح، أما الغيبة فهدفها الانتقاص والتسقيط، ولو أننا كنا عقلاء لما احتجنا إلى مجرد التفكير بالغيبة فضلاً عن ممارستها، فما شأننا بالناس وعيوبهم ؟ وماذا يضرنا من أفعالهم ؟ فينبغي أن نعيش بعقولنا لا بعواطفنا.

نادرة:

كان في أيام السيد أبي الحسن الإصفهاني (رحمه الله) رجل كثير الغيبة، وقد سئم من نفسه لكثرة ما يغتاب، وقد كان السيد أبو الحسن الإصفهاني من المراجع المتدينين للغاية، وكانت عنده مرونة عجيبة، فلم يكن أحد يمتلك

من المرونة كالمرونة التي كان يمتلكها السيد الإصفهاني (قدس سره). فذهب ذلك الرجل إلى السيد الإصفهاني وقال له: أنا إنسان خيّر مؤمن، وراح يمدح نفسه، ثم قال: لكنني أغتاب كثيراً، فقال له السيد الإصفهاني: وماذا تريد مني؟ قال: أريد أن تعطيني علاجاً لإبطال الغيبة، فقال السيد: لا بأس، سوف أعطيك العلاج، فكتب له ورقة وقال له: اذهب إلى بائع الحلويات، في أول السوق الكبير (في النجف الأشرف) وأعطه الورقة وهو يعطيك العلاج، فذهب إلى صاحب الحلويات وأعطاه الورقة، فلما قرأها البائع وعرف أنها من السيد قبّلها ووضعها على رأسه، ثم قال له: إن السيد أمر أن أعطيك يومياً ربع كيلو غرام من قطع الحلوى، وكلما نازعتك نفسك إلى الغيبة فما عليك إلا أن تأكل واحدة منها.

ودأب الرجل يومياً على أخذ الحلوى من البائع والانشغال بأكلها. وفي يوم من الأيام دخل إلى الصحن الشريف ورأى رجلاً كان في نظره أنه يستحق الغيبة. فقال: لو أعطاني السيد أربعة أضعاف هذه الحلوى ما صبرت على أمثال هذا الرجل.

س٣: كثر في الآونة الأخيرة في المجتمع الشيعي انتقاد العلماء بواسطة الأوراق والنشرات وكذلك الأشرطة المسجلة، مما يسبب الفتنة في المجتمع، فما هي نصيحتكم في ذلك ؟

الجواب: أنا أفضّل أن يُترك هذا السؤال، ولا ينبغي أن ندخل أنفسنا في القضايا التي هي خارج تخصصنا وخارج إطار عملنا، وهذه المنشورات والأشرطة لم أرها في حياتي إلا هنا، في كل سنوات عمري الستين، وهذه بلا شك تسبب فتنة حقيقية، لأننا عاطفيون، والعاطفي لا يقول: إن هذا الأمر ليس فيه مصلحة لي فينبغي أن لا أدخل فيه، أو أنني لا أفهمه فلا أدخل فيه،

إنما يعتبر نفسه أنه لو خاض فيه لأثبت شخصيته ووجوده، وبذلك يدخل في وسط الفتنة ولا يدري ما هي النتيجة، وكيف ستكون الأمور.

لذا فإنني أرى أن لا تنتشر هذه المنشورات والأشرطة، فأنتم إخوة وأهل وأحباب، والمفروض أن لا يتسبب هذا في تفرقتكم وفتنتكم، وقد تحدثت عن هذا كثيراً في أكثر من مناسبة، فلا أطيل الحديث عنه.

س٤: يتهم الشيعة بأنهم يستخدمون التقيّة في المراوغة والكذب، فحبذا لو تسلطون الضوء على الفرق بين الأمرين، جزاكم الله خيراً؟

الجواب: إن التقيّة لا تستعمل في المراوغة والكذب، لا من قبلنا ولا من قبلهم، لأنها حكم شرعي، والحكم الشرعي عندما يطبق سواء كان من قبل المسلم السني أو المسلم الشيعي فإنه لا يطبق على أساس المراوغة والكذب، ومن أراد أن يعبّر عنه بالمراوغة والكذب فهذا من الإيديولوجية التي ذكرناها سابقاً.

فالتقية - كما ذكرنا - موجودة في فقههم، ومن الممكن العودة إلى بعض الكتب، مثل مجلة الأحكام الشرعية، لأحد قضاة مكة وعلمائها، وهو حنبلي المذهب، وهو كتاب جيد من الناحية العلمية، وقد قام بتحقيقه اثنان من الأساتذة بدرجة دكتوراه في الجامعة في مكة، وقد طبع في تهامة، في دار التوزيع والنشر المعروفة في جدة.

وقد ذكر في هذا الكتاب في فصل البيع ـ على ما أتذكر ـ الفتوى بالتقية عندهم، وهي لا تختلف عما هي عليه عند الشيعة.

كما ذكر الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (وهو شافعي المذهب) الإفتاء بالتقية، وقد ذكرتُ ذلك في (هداية الناسكين) وعرّفت التقية، وبينت

أنها موجودة في المذاهب الأخرى، ونقلت العبارات من كتب أئمة المذاهب الأربعة.

فالتقية ليس فيها كذب ولا مراوغة، لا عند الشيعة ولا عند السنة أبداً، إنما هي حكم شرعي يطبقه الإنسان في مورده، وقد يخطئ في التطبيق وقد يصيب، وهذا بحث آخر، ولكنه حكم شرعي يطبق في مورده. ولذا أقول: لو ابتلي غيرنا بما ابتلينا به لعرف ما هي التقية.

وكثيراً ما تجد منهم الآن من يتقي لسبب أو آخر، وقد رأيت أنا بعيني أن أحد الأشخاص من غير الحنابلة في جامع في جدة، وقد كان في زيارة إلى ولده، في الجامعة، وكان هذا الأخير أستاذاً هناك، فلما أعلنت الحكومة عن ثبوت هلال العيد، ولم يثبت عنده، استعمل التقية، فأغلق بابه على نفسه وجلس في الدار، ولم يمارس مراسيم العيد.

فالتقية موجودة عندهم فتوى وعملاً، وليست هي بمستغربة، ولا فيها أي مراوغة أو كذب.

س٥: ذكرتم في معرض محاضرتكم حول انتظار بعض الأشخاص في المدينة ومعهم (سجادات) من الخوص، وأنكم لا تقبلون بذلك، أو أنه محرم لديكم، أرجو التوضيح أكثر حول هذا الموضوع لأهميته، خصوصاً أنه موضع ابتلاء الجميع. وماذا تنصحون الناس حول هذا الموضوع؟ وما معنى كلمة (حرام) الواردة في هذا الموضوع؟

الجواب: قبل أن أتحدث في هذا الموضوع، لا بد أن أقول: كلمة (حرام) ليست بفتوى، لأنني لست من المفتين، ولا من أصحاب الرأي الفقهي، وإنما أعني أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، لأنني قرأت كثيراً في الصحف في الخارج، تركيزاً كبيراً على أن الشيعة يعملون على تفتيت وحدة المسلمين، ويذكرون هذه القضية

بالـذات، وأنهم لا يصلّون مع جماعة المسـلمين، وأكثر مـن هذا أنهم يقفون أمام باب مسـجد النبي ﷺ، يتحدّون جماعة المسـلمين، فعندما تنتهي صلاة الجماعة ويخرج المسلمون، يدخل الشيعة وبأيديهم هذه السجادات من الخوص.

ولعـل مـن هذا البـاب جاءت فتـوى الإمـام الخميني قدس سره بوجـوب الصلاة للإيرانيـين في الحرمين الشريفـين أيام الحج، وكذلك فتوى السـيد الخوئي قدس سره: باسـتحباب الصلاة خلفهم من باب المـودة لا من باب التقيّة، لأن هذا ليس من موارد التقيّة، إنما هو من باب إظهار المودة، فإذا كان هناك جماعة تقام من إخواننا السـنة، فمن باب إظهار المودة يسـتحب لك أن تصلي معهم وتسـجد على ما لا يجوز السجود عليه وهو الفراش، وكذلك كانت فتوى الشهيد الصدر قدس سره.

فعلماؤنا يحافظون على الوحدة الإسلامية، ولا يرضون بأن يحدث هذا، لكن عامة الناس، بل المرشـدين خصوصاً، هم الذين يتحملون التبعة، فعلى هؤلاء المرشـدين الذين يذهبون مع الناس إلى الحج، أن يتحملوا المسـؤولية كما هي، فإذا أردت أيها المرشد أن تصلي جماعة، فعليك أن تصلي في بيتك مع مجموعتك الذين أخذتهم إلى الحج، ثم اذهب إلى المسـجد بعد الصلاة إن شئت، فالصلاة جماعة في البيت أفضل من الصلاة الفرادى في المسـجد. لكننا نراه يضيع ثواب صلاة الجماعة، من أجل أن يأتي إلى المسـجد ويشكّل صفوفاً متراصة، وكأنه في حـرب، وهذا خطـأ لا ينبغي أن يكون، إنـما يجب أن يكون بيننـا وبين إخواننا أهل السـنة مـودة ورحمة وألفة ووحـدة، صحيح أن هناك مـن يريد أن يفرق، لكـن هذا لا يعني أن الجميع كذلك، إنما الغالب فيهم أنهم لا يريدون التفرقة، إلا شرذمـة قليلة منهـم. فإذا فعلنا ذلـك أمكن لهـؤلاء أن يفهمونا ونفهمهم، وإلا فإنهم قد يصدّقون أقوال المتقولين فينا، أما إذا كان هناك نوع من التقارب والألفة فمعنى ذلك أننا عملنا على فسح المجال للآخر أن يفهمنا ونفهمه.

وهناك مشروع كبير تقوم به إيران، وهو مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية، وهذا لا يعني جعل المذاهب الإسلامية مذهباً واحداً، فهو لن يتحقق، وليس من الممكن أن يتحقق، إنما الهدف منه أن نزيل هذا اللون من الإيديولوجيات التي تعبث بوحدة المسلمين، وتلعب بخيوط التفرقة بين الشيعة والسنة، وهناك عمل دؤوب للتقريب بين المذاهب، فنرى أن هناك وفوداً تذهب وتجيء هنا وهناك، فتارة إلى إيران، وأخرى إلى المغرب، من أجل أن نزيل هذا اللون من التباعد بين السنة والشيعة، والشيعة الآن يمثلون ثلث المسلمين في العالم، ونصف مسلمي آسيا، وهي أكبر قارة من حيث عدد المسلمين فيها.

أما السنّة في القارات الأخرى فقد يكون عددهم أكثر، وإذا أخذنا النسبة المئوية عموماً فهم يمثلون ثلثين ونحن نمثل الثلث، فإذا ابتعدوا عنا خسروا ثلث المسلمين، وهي خسارة ضخمة، وإذا ابتعدنا عنهم خسرنا ثلثي المسلمين، وهي خسارة كبيرة أيضاً، وهذا ما يريده الغرب.

من هنا أقول: لا ينبغي أن تكون هذه التفرقة، وينبغي أن نبتعد عن مواطن الإثارة والاستفزاز، ولا يجوز شرعاً أن نلجأ إلى ما يثير التفرقة والفتنة والتناحر، فنحن في غنىً عن هذا كله، وكل ما نصبو إليه أن نثبت للآخرين أننا مسلمون حريصون على نشر الإسلام، وعلى وحدة المسلمين وتقاربهم.

س٦: في ظل أهمية النقد لإصلاح المجتمع، ومع وجود المعاملة العاطفية بين الناس، ما هي مسؤولية المسؤولين أو الناقدين البنائين في هذه الظروف، وكيف يوفقون بين أهمية النقد ووجود التعاملات العاطفية في مجتمعاتنا ؟

الجواب: كل عمل من الأعمال يحتاج إلى أن يكون له أرضية يتحرك فيها، فلأجل أن نقوم بالنقد البناء نبدأ بإيجاد أرضية مناسبة صالحة، بأن نخفف من

غلـواء هذه العاطفـة، وأن يكون لدينا حملة مكثفة مـن التوعية، للتخفيف من غلواء هذه العاطفة، فإذا أوجدنا هذه الأرضية فإنها ستسـاعدنا على الانطلاق بالنقد إلى المستوى المطلوب.

القوة الاجتماعية: مرجعيةٌ أم مرجعيات؟

نحاول في هذا اللقاء أن نبحث في وحدة أو تعدد المرجعية، وأين تكمن أو تتحقق القوة الاجتماعية، هل في المرجعية الواحدة أو في المرجعيات المتعددة؟ وهذا الموضوع وبسبب الظروف الراهنة فيه شيء من الحساسية، لذا أرجو أن يُفهَم بشكل جيد لئلا يكون هناك لبس يؤدي إلى ما لا نرغب فيه.

وسوف أتحدث في هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

١- ماذا تعني المرجعية الدينية عند الشيعة الإمامية، وما وظيفة المرجع؟ فهذه الأطروحة التي نريد أن نتحدث عنها لا توجد إلا عند الشيعة الإمامية.

٢- ما هي أهمية المرجعية في حياة الشيعة الإمامية ؟ ومن أين تستمد أهميتها؟

٣- عرض بعض النماذج للمرجعية الإمامية التي مرت في التاريخ، سواء كانت بشكل منفرد أو بشكل متعدد. وما هي الآثار التي ترتبت على المرجعية المنفردة، والمرجعية المتعددة؟

وقد أشير أيضاً إلى نقطة أخرى، وهي موقف الحكومات من المرجعية، وكذلك شمولية المرجعية أيضاً، ثم أنتقل إلى بيان التعليم الشرعي حول المرجعية؟ أي كيف ينبغي أن تكون المرجعية من الناحية الشرعية؟.

وظائف المرجع:

أما عن النقطة الأولى فإن وظيفة المرجعية، يمكن أن نلخصها في أمرين:

الأول: الإفتاء، أي أن الفقيه المرجع، هو مصدر بيان الأحكام الشرعية عند الشيعة الإمامية، فإذا أراد المكلف معرفة حكم من الأحكام الشرعية في حياته،فإنه يرجع إلى الفقيه، والفقيه من خلال اجتهاده، ورجوعه إلى المصادر الشرعية المقررة يبين الحكم ويعطي الفتوى. وهذه هي الوظيفة الأساسية للفقيه.

الثاني: رعاية شؤون الطائفة، التي قد يعبر عنها في بعض الكتابات بالأمة، ويراد منها الأمة الإسلامية، لكن واقع المرجعية رعايتها الشاملة للطائفة الشيعية، نعم، قد تشترك مع مؤسسات إسلامية أخرى في تحديد موقف من المواقف، لكن الوظيفة الأصل في ذلك هو رعاية شؤون الطائفة الشيعية في العالم كله.

ورعاية شؤون الطائفة، من العناوين العامة المطاطة، فمن الممكن أن يتضيق أو يتوسع.

فإن حدثت أحداث لفئة أو جماعة من الشيعة، أو حتى لفرد منهم، في بلد ما، وكانت ترتبط بشكل أو آخر بالتشيع كمبدأ، أو بالشيعة كطائفة، فلا بد للمرجع أن يحدد موقفة، ويعطي رأيه بذلك.

ولا بد أن نقف هنا عند اشتراط ارتباط الحادثة بالتشيع كمبدأ أو بالشيعة كطائفة، فليس كل عمل لا بد أن تتدخل فيه المرجعية وتبين الموقف منه، فقد يقوم أحد أفراد الشيعة بسرقة سيارة، وهذا لا يتعلق بما ذكرنا، ولا يتدخل المرجع في مثل هذه القضية، ومن حق الحكومة التي يعيش فيها هذا الفرد

الشيعي، أن تلقي القبض عليه وتحاكمه كأي فرد فيها، وتحكم عليه بالعقوبة المقررة في نظامها وقانونها.

أما إذا قررت إحدى الحكومات مثلاً منع الشيعة من بناء المساجد، فهذا يرتبط بالتشيع كمبدأ، ويرتبط بالشيعة كطائفة، ولا بد للمرجعية هنا أن تقول كلمتها في الموضوع، ولا بد أن تعطي الموقف العملي الذي يعيد للشيعة حقوقهم.

هذا هو معنى رعاية المرجعية لشؤون الشيعة، فهي ترعى الشؤون المرتبطة بالتشيع كمبدأ، وبالشيعة كطائفة. ولا يختص هذا في البلد الذي يكون فيه المرجع، بل يشمل الشيعة في كل أنحاء العالم.

قواعد المرجعية:

وأما عن أهمية المرجعية، ومن أين تستمد أهميتها أو قوتها الاجتماعية؟ فإنها تستمد قوتها أو أهميتها من معادلة: (الدين زائد الأمة).

وبيان ذلك أن الأمة أو الطائفة ترتبط بالمرجع ارتباطاً دينياً، وترجع إليه لأخذ الأحكام التي تختص بالعبادات والمعاملات وما يستجد من شؤون حياته، وقد ذهب المسلمون جميعاً من السنة والشيعة، إلى أن لله في كل واقعة حكماً، وما من شيء في الحياة إلا وله حكم شرعي، جائز أو غير جائز، واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه أو مباح، صحيح أو باطل، فكل شأن من شؤون الحياة، وكل سلوك من سلوكياتها، له حكم شرعي، فمن أين يأخذ المسلم الحكم الشرعي؟ لا بد أن يرجع إلى المرجع الفقيه، ويأخذ منه ذلك.

والأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وإيقاعات وعقود وغيرها، موجودة في الرسائل العملية، وقد سميت الرسائل العملية بذلك، لأنها تبين

للمكلفين الموقف العملي، وما عليه أن يقوم به وفق أحكام الشريعة، فأنت تصلي وفق ما في هذه الرسالة من أحكام، وتصوم وتحج وتقوم بجميع أعمالكم وفقاً لما في الرسالة من أحكام.

ولكن هنالك مواضيع قد لا تكون موجودة في الرسائل العملية، فتؤخذ عادةً عن طريق الاستفتاء.

فالأمة إذن مرتبطة بالفقيه من ناحية تشريعية، وتأخذ الأحكام الشرعية منه، وهذا هو الجانب الديني من المعادلة.

أما الجانب الثاني من المعادلة وهو الأمة، فإن المرجع الديني، وبسبب هذا الارتباط الذي يحصل بينه وبين الأمة، نتيجة ما يأخذونه من الأحكام الشرعية منه، يستمد قوته كقائد ومرجع للأمة. ومتى ما التفّت الأمة حول المرجع، أصبح قوياً، أما إذا تخلت عنه فسيكون قائداً ضعيفاً.

إن المرجع عندما يتحرك في الأمة فإنه لا يملك قوة عسكرية، ولا حكومة رسمية، إنما يتحرك بقوة الأمة التي تلتف حوله، وهذا واقع معروف عند الشيعة.

فالتأثير الاجتماعي، يأتي من ناحية الدين، لأن الأحكام الشرعية يعطيها المرجع لأبناء الطائفة، ليطبقوها في حياتهم. نفترض مثلاً أن الفقيه المرجع الديني أصدر فتوى في موضوع ما، فإن المسؤولية الشرعية لأبناء الطائفة أن يطبقوا الفتوى، وبالتالي فإنها تؤثر في واقع المجتمع.

فمثلاً إذا كانت هنالك شركة من الشركات المنتجة للسيارات، وقفت موقفاً معيناً، فاقتضى الموقف من الفقيه أن يحرم شراء السيارات منها، فإن أبناء الطائفة سوف يلتزمون بهذا الحكم، بنسبة كبيرة على أقل تقدير، حتى لو

كانت ثمانين في المائة، وبالتالي يكون هنالك التزام، وهذا ما نسميه بالظاهرة الدينية. إذ يشيع في المجتمع أن الشيعة لا يشترون هذا النوع من السيارات، لأنهم أخذوا بفتوى المجتهد المرجع، أو بحكمه.

والمعروف في علم الاجتماع، أن الظاهرة، أية ظاهرة، سواء كانت دينية أم اقتصادية أم غير ذلك، فإنها تؤثر في الظواهر الأخرى.

فلو أن نسبة معينة من المجتمع قاطعوا الشركة المفترضة، فإنها ستتأثر اقتصادياً، وهذا التأثر الاقتصادي نتج عن ظاهرة دينية. هذا يعني أن الظاهرة الدينية تأثرت بالظاهرة الدينية، ثم إن الظاهرة الاقتصادية هذه قد تؤثر في الظاهرة السياسية، وهكذا.

قد نتصور أن الفتوى عندما تصدر هي فتوى فردية، وتأثيرها سيكون فردياً أيضاً، ونغفل تأثيرها الاجتماعي، وبهذه الكيفية تكون الظاهرة الدينية مؤثرة في بقية الظواهر الأخرى، وهذه أيضاً تؤثر بعضها في بعض، فتتشكل لدينا مجموعة من الظواهر المتفاعلة في المجتمع، بعضها سياسي وبعضها اقتصادي أو غير ذلك.

من هنا تبرز القوة الاجتماعية للمرجع، في التأثير الديني. فإذا كان هناك نوع من الالتفاف للأمة حول المرجعية نتيجة الارتباط به عن طريق التقليد أو أخذ الفتوى، تكون للمرجعية قوتها الاجتماعية، وتأثيرها الاجتماعي.

تعدد المرجعيات:

من الأسئلة الملحة هنا: هل لنا مرجعية واحدة أو عدة مرجعيات؟

الجواب: من المراجع الذين مروا في تأريخ المرجعية الإمامية، الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي، المعروف بالمجدد الشيرازي،الذي عاش في القرن

التاسع عشر الميلادي، وفي سنة ١٨٧٠ ميلادية، أصيبت النجف بضائقة عيش، بحيث أصبح الكثير من الناس لا يملكون قوت يومهم. فقام السيد الشيرازي بإعالة جميع العوائل في النجف، وهي بالمئات، وكان يمدها بالتمويل اللازم.

وفي السنة ذاتها (١٨٧٠) قام ناصر الدين شاه القاجاري ـ وهو شاه إيران في ذلك الوقت، ومن الشخصيات السياسية القوية آنئذٍ ـ بزيارة النجف الأشرف، فخرج العلماء لاستقباله، إلا السيد الشيرازي، فقد رفض أن يستقبله، وأصر على عدم الخروج. وبطبيعة الحال، لو رجع ناصر الدين شاه إلى إيران، ولم يكن قد استقبله السيد الشيرازي، فإنه يسقط من الاعتبار.

فأراد أن يرد الاعتبار لنفسه، واستخدم مختلف الضغوط على السيد الشيرازي، ليلتقي به، فقال السيد الشيرازي: سوف أزور مرقد الإمام علي عليه السلام، وليأت الملك لزيارتي، أما أن أذهب لزيارته واستقباله فلا. وبالفعل ذهب السيد للزيارة وجاء ناصر الدين شاه، فالتقى به هناك.

هاتان حادثتان من مجموعة حوادث، وقعت لهذا السيد الجليل في النجف الأشرف فحظي بمكانة معنوية كبرى في نفوس الطائفة، والتفوا حوله بقوة.

وفي سنة ١٨٧٤، قرر الميرزا الشيرازي أن يهاجر إلى سامراء، التي كانت قرية صغيرة آنذاك، والشيعة فيها قليلون جداً، فأراد إن يركز على الشيعة والتشيع في هذه المنطقة، لوجود مرقد الإمامين العسكريين (عليهما السلام). فنقل مركز المرجعية من النجف إلى سامراء، وانتقلت الحوزة العلمية معه إلى سامراء.

ومن الاعمال التي قام بها في سامراء، أنه أسس مدرسة دينية، كانت موجودة إلى عهد قريب، وأظن أن النظام البعثي هدمها وقضى عليها. كما أنشأ حسينية

أيضاً، وحمامات للنساء وأخرى للرجال، ولم تكن الحمامات المنزلية معروفة آنذاك إلا الحمامات العمومية، التي جاءت في الأصل من تركيا إلى إيران ثم إلى العراق وغيرها من البلدان. كما أنشأ أسواقاً كبيرة، وبنى دوراً كثيرة، وقام بتوزيعها على المحتاجين. كما أنشأ جسراً معلقاً على نهر دجلة، ولم يكن هنالك جسر، إنما كان الناس يستخدمون القوارب العائمة للعبور من منطقة إلى أخرى، حيث يضعونها جنباً إلى جنب، ويضعون فوقها الألواح، فيعبرون عليها.

والكثير من تلك الأعمال التي قام بها حببته إلى النفوس، وأدرك الناس أنه مرجع يرعى شؤونهم، ويعيش آمالهم ويتحسس آلامهم.

وفي سنة ١٨٩١ عقد ناصر الدين شاه اتفاقية مع شركة إنكليزية لاحتكار (التنباك) الذي كان منتشراً كثيرًا في إيران، وقد تصل نسبة المدخنين إلى ٩٠ ٪ بالمئة تقريباً، فلما عقد ناصر الدين شاه تلك الاتفاقية سمح للشركة البريطانية باحتكار التنباك، أي أن تكون صاحبة الامتياز الوحيد في صناعته وتسويقه. وبالتالي فهي التي تتحكم في السعر. فحاول الناس أن يثنوا ناصر الدين شاه عن قراره، وإقناعه بأن يتراجع عن هذه الاتفاقية، التي تسبب الضرر الفادح للتجار المحليين والباعة الصغار، كما تضر بالمستهلكين أيضاً، فلم يستجب لهم. فبعثوا عدة برقيات للسيد الشيرازي إلى سامراء، ثم بعثوا إليه وفوداً، فأصدر فتواه المعروفة بتحريم التنباك، تلك الفتوى التي صدرت بالفارسية، وترجمت إلى اللغة العربية، ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

«اليوم استعمال التنباك والتتن، بأي نحو كان، بمثابة محاربة إمام الزمان»

فكان تحريماً شديداً وضربةً قاسية لناصر الدين شاه، لأن السيد الشيرازي

كان يعرف مدى قوة ناصر الدين شاه وسطوته، فكان لا بد أن يوجه له ضربه تتناسب مع قوته.

ووصلت هذه الفتوى إلى إيران، وانتشرت في العاصمة الإيرانية والمدن الأخرى، فامتنع الناس جميعاً عن استعمال التتن. حتى أن ناصر الدين شاه دخل إلى قصره فرأى زوجته تكسر (الناركيلة) عملاً بتلك الفتوى، التي هزت إيران هزة قوية، وجعلت ناصر الدين شاه يعيش وحده، بعد أن انفصل عنه الشعب كاملاً، وارتبط بالسيد الشيرازي عن طريق الفتوى. ولو أن السيد الشيرازي في تلك اللحظة قال لهم: اقتلوا ناصر الدين شاه لقتلوه، فاضطر ناصر الدين شاه أن يلغي الاتفاقية، ويسحب الامتياز، ويعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

هذا اللون من المرجعية جمع في وظيفتها بين الخطين اللذين ذكرتهما، وهما الإفتاء ورعاية شؤون الأمة، فقد كان من الممكن له أن يقول: إن ناصر الدين شاه قوي، ولا أستطيع أن أفتي في مقابله، ولا أتدخل في السياسة، واتركوني للمحراب والدرس فقط، وبالتالي فإنه سوف يمارس جانباً من وظيفته ويترك الجانب الآخر. إلا أن السيد الشيرازي الذي لا يملك قوة عسكرية ولا سلاحاً، استطاع أن يفرض وجوده من خلال قوته التي استمدها من التفاف الطائفة حوله. بحيث إن ناصر الدين شاه رأى أنه إذا لم يستجب للفتوى قد يسقط تماماً ويفقد السلطة.

ومن النماذج الأخرى للمرجعيات الدينية: الشيخ محمد كاظم الخراساني، صاحب كتاب الكفاية في علم الأصول، الذي يدرّس الآن في الحوزات العلمية، والذي يعتبر من أهم كتب الأصول.

في سنة ١٩٠٥م أيام حكم الشاه محمد علي القاجاري آخر ملوك الدولة

القاجارية، قامت حركة (المشروطة والمستبِدّة)، وهما لفظتان فارسيتان سوف يتبين معناهما فيما يلي.

أما (المشروطة) فهناك مجموعة من الأحزاب السياسية، التي يلتف حولها الناس، طالبت بالحياة الدستورية، وكانوا يريدون برلماناً ونواباً ينتخبون من قبل الشعب. وهذا أمر طبيعي، لأن البرلمان إذا كان بالتعيين من قبل الحكومة يكون موالياً لها، أما إذا كان بالانتخاب فيكون إلى جانب الشعب.

فكانت هناك مطالبة قوية، وكانت حكومة محمد علي شاه قوية بما فيه الكفاية، فلم تسكت، وقامت بتحريك مجموعة من الأحزاب السياسية، ومعهم بعض العلماء، فدعت إلى رفض الحياة الدستورية. فأصبح المشهد السياسي ذا خطين معروفين يناهض أحدهما الآخر، وكل خط يتزعمه أو يؤيده مجموعة من رجال الدين. فكان على رأس حركة المشروطة عالم دين، وعلى رأس حركة المستبدة عالم آخر، والناس بين هذين الخطين، منهم من هو مع الحكومة ضد المشروطة، وبالعكس. وتفاقم الوضع في إيران، وسقطت قتلى واعتقل الكثير من الناس، وأودعوا السجون، قامت الحكومة بالتخريب ونسبته إلى المعارضة وتأزمت الأوضاع بشكل كبير، فلم يبق إلا النجف، ومرجعيتها الدينية. فأبرقوا لمراجع النجف، فتبنى الشيخ محمد كاظم الخراساني حركة المشروطة، وآثر أن يكون في صف المعارضة، وكان إلى جانبه الميرزا النائيني، الذي تولى المرجعية بعده، وله كتاب حول هذا الموضوع يدعو إلى الحياة الدستورية البرلمانية. وهو باللغة الفارسية، وترجم إلى اللغة العربية.

وقد كان لحكومة محمد علي شاه القاجاري، علاقات وثيقة مع الدول الأخرى، منها علاقات عسكرية، وأخرى سياسية وتجارية وغيرها. فبدأت بتحريض الحكومات الأخرى على مناصرة محمد علي شاه، ضد المعارضة

المتمثلة بالمشروطة.

ومن تلك الحكومات القوية الصديقة للملك القاجاري الحكومة الروسية، قبل قيام الاتحاد السوفيتي، فوقفت إلى جانب محمد علي شاه، وقررت أن ترسل جيشها لضرب المعارضة الإيرانية داخل إيران، والإبقاء على عرش الشاه محمد علي القاجاري، تماماً كما حدث في أفغانستان.

فلما بلغ الأمر الشيخ محمد كاظم الخراساني، الذي الجهاد من النجف. واستدعى العشائر العراقية للمشاركة في الجهاد، فجاءت عشائر (المنتفك) وهي من أكثر العشائر عدداً في جنوب العراق (في الناصرية)، ومن الجانب الآخر من دجلة في مدينة العمارة، عشائر البو محمد وربيعة وبنو حسن، وبنو لام، فتجمعت عشائر كبيرة جداً وتوجهت إلى النجف الأشرف.

ووصل الخبر إلى إيران، بأن المرجع الديني الأعلى للشيعة الإمامية في العالم، وهو الشيخ الآخند ملا محمد كاظم الخراساني، أعلن الجهاد لإخراج الروس من إيران، وإسقاط حكومة محمد علي شاه القاجاري، فحصلت انتفاضة شعبية، أسقطت الملك، وانسحبت الجيوش الروسية من إيران.

ولما وصل الخبر إلى الشيخ الآخند الخراساني، ظل مصراً على أن يدخل إيران ليهدئ الأوضاع فيها. وكان من عادة المراجع إذا أعلنوا الجهاد، أن يخرج المرجع خارج البلاد، وينصب له خيمة ويرفع راية الجهاد، فيتجمع الناس من حوله. فأعلن الآخند الخراساني أنه سوف يخرج في صبيحة الليلة الفلانية إلى إيران.

وفي تلك الليلة توفي الشيخ في ظروف غامضة، وقد اتهم الانكليز بقتله، وكان ذلك قبل دخولهم إلى العراق.

لكن المهمة أنجزت، وحصل ما كان يريده الشيخ، وكان ذلك عام ١٩١١م.

وفي سنة ١٩١٤ م دخل الانكليز إلى العراق، وادعوا أنهم محررون لا فاتحون، أي أنهم يريدون أن يحرروا الأمة العربية من ظلم الأتراك.

وصلت جيوش المحتلين إلى البصرة عن طريق ميناء البصرة، ونزلت قواتهم في البصرة وعسكرت في منطقة الشعيبة، ووصل الخبر إلى المراجع في النجف الأشرف، وكان المرجع آنذاك، السيد محمد كاظم اليزدي، صاحب كتاب العروة الوثقى، الذي يعتبر عمدة التدريس في الفقه، وربما بلغت التعليقات والحواشي عليه أكثر من مئة تعليق حتى الآن.

كان السيد اليزدي إلى جانب المستبدة، وقد اتهم من قبل بعض الكتاب والجامعيين بالتعاطف مع الانكليز، لكنه اتهام باطل، فليس الأمر كذلك، إنما كانت لديه وجهة نظر خاصة، سواء كانت مقبولة لدينا أم مرفوضة، فهو مرجع تقليد، كما أن الشيخ الخراساني مرجع أيضاً.

لقد حدث أيام حركة المشروطة نوع من التأزم بين جماعة السيد اليزدي وجماعة الشيخ الخراساني، وبلغ الأمر أن جماعة الشيخ الخراساني صاروا لا يستطيعون الخروج من النجف إلى كربلاء أو غيرها، لأنهم قد يتعرضون للقتل. ولكن الوساطات والتدخلات ضيقت هوة الخلاف، وهدأت الأوضاع.

أما في الاحتلال الإنكليزي فكان الوضع مختلفاً تماماً في موقف السيد اليزدي، فعندما وصلت البرقيات من البصرة إلى النجف، أعلن الجهاد، وأرسل ابنه الأكبر إلى السيد الحبوبي، وكان السيد الحبوبي قائد حركة الجهاد ضد الإنكليز، فخرج من النجف بتسعين ألف مقاتل، وعندما وصل السيد الحبوبي إلى الناصرية، توفي في ظروف غامضة أيضاً، وتولى قيادة الجيوش بعده،

السيد محسن الحكيم، المرجع المعروف، الذي لم يكن في ذلك الوقت مرجعاً، وهو من تلامذة السيد الحبوبي، فقاد الجيوش، وعاد بها.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد وصلت المرجعية إلى الميرزا محمد تقي الشيرازي، وكان في كربلاء في ذلك الوقت. وكان الانكليز قد دخلوا إلى العراق وسيطروا عليه بالكامل. وأصبح الهدف الجديد هو العمل على إخراجهم من العراق، أو قيام حكومة وطنية.

فقام الشيخ محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الإصفهاني ـ وهو من المراجع الكبار، وتولى المرجعية بعد الميرزا محمد تقي الشيرازي ـ بتأسيس (جمعية سياسية)، وكان تعني في ذلك الوقت حزباً سياسياً.

كما أن الشيخ عبد الكريم الجزائري ـ وهو من المجتهدين العرب، وكان معروفاً ببعد النظر السياسي، وكان المراجع جميعاً من عرب وإيرانيين يرجعون إليه في القضايا السياسية، وكان كل زعيم أو رئيس دولة يأتي إلى النجف، لا بد وأن يقابله ـ أسس هو وأخوه الشيخ محمد جواد الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الحسين مطر، وغيرهم، جمعية سياسية أيضاً.

وفي كربلاء أسس السيد هبة الدين الشهرستاني ـ وهو من المجتهدين السياسيين المعروفين ـ مع مجموعة من العلماء، منهم ابن الشيخ محمد تقي الشيرازي، جمعية سياسية في الكاظمية.

كما أن السيد أبو القاسم الكاشاني، انتقل إلى إيران وقام بحركة واسعة، وأنشأ جمعية إسلامية.

وبدأت تلك الجمعيات بالعمل على جمع الناس وتهيئتهم للثورة ضد الانكليز، فكانت ثورة العشرين المعروفة في العراق، التي حددت الموقف من

الانكليز، واضطرت بريطانيا إلى إلغاء الأحكام العرفية، والخضوع إلى اختيار حكومة وطنية، وجاءت الحكومة الوطنية.

ومن المراجع الذين كانوا يقومون بالوظيفتين المذكورتين (الإفتاء ورعاية شؤون الأمة):

الإمام السيد محسن الحكيم، الذي كان له دور كبير في هذا المجال، فقد كان يتفقد المحتاجين، ويتوسط في قضاء الحوائج، ولم تكن رعايته مختصة بالشيعة، فقد كان السنة يأتون إليه ويستفيدون منه، ويطلبون وساطته في الكثير من قضاياهم، وهكذا المسيحيون، الذين كانت لهم قضية مع الحكومة في بغداد لم يستطيعوا حلها حتى عن طريق الفاتيكان، إلا أن السيد الحكيم بتدخله فيها استطاع إن يحلها، وقد حضر القساوسة في تشييعه وفاتحته.

ومن أبرز ما ميز مرجعيته فتواه ضد الشيوعية، التي استفحل أمرها في العراق، وهيمنت هيمنة كاملة على الوسط الثقافي هناك، وصارت تمتلك قاعدة شعبية واسعة جداً.

ومما تميز به السيد الحكيم ـ كما ذكرت سابقاً ـ أنه كان شخصية لماحة، وكانت عليه ضغوط شديدة بأن يحدد الموقف من الشيوعية، فلم يستجب لها، وكان ينتظر الوقت المناسب ليصدر الفتوى. وجاء الوقت المناسب، وأصدر الفتوى، وتهشمت الشيوعية في العراق وتبددت ثم انتهت.

لقد كانت للسيد الحكيم مشاريع كثيرة، منها المكتبات والمدارس والدور والمشاريع الكثيرة المتعددة.

وهكذا الشهيد السيد محمد باقر الصدر، فهو على صغر سنه قام بدور كبير، وخاصة في مجال التأليف، كما في كتابيه فلسفتنا واقتصادنا، حيث عرف العالم

الإسلامي بل العالم أجمع أن الإسلام فيه نظام اقتصادي.

كما قام بتنظيم عملية الوكلاء، وهو أول مرجع ممن عاصرناهم، نظّم حركة الوكلاء، فكان يختار وكلاء على مستوى معين، ويحدد لهم أعمالهم، وقام بتوزيع حوالي ثمانين وكيلاً في العراق، وقاموا بعمل جيد، وربما كان ذلك من أسباب قتله.

وممن عمل بالوظيفتين المذكورتين السيد الإمام الخميني (رحمه الله)، الذي أقام الدولة الإسلامية، وأصدر الدستور الإسلامي، وأعاد التسلسل القيادي في التشريع الإسلامي على ضوء مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ومن المراجع الذين قاموا بالدورين أو الوظيفتين: السيد علي الخامنئي: وتمثلت حركته بالثورة الثقافية التي أحدثها في الوسط الإسلامي، بحيث جعل الإسلام المتمثل في مذهب أهل البيت عليهم السلام ينتشر في العالم أجمع، ويشكل الحضارة الإسلامية التي تنافس الحضارة الغربية.

ومن أبرز أعماله وأهمها، في مجال رعاية شؤون الطائفة، تأسيس المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام. فهو أول من شيّد هذا الصرح من بين مراجع الشيعة.

والمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، مؤسسة تتألف من مجموعة من العلماء الشيعة في مختلف أنحاء العالم، تقوم بدراسة أوضاع الشيعة في العالم، لوضع الحلول للمشكلات، وسد الاحتياجات للطائفة.

وهناك مشروع الممثليات في الخارج، وهذا العمل لم يكون موجوداً لدى غيره، إنما كان هناك وكلاء، لكنه بالإضافة إلى الوكلاء، فتح مشروع جديداً وهو الممثليات في الخارج، فهناك ممثل في لندن، وآخر في واشنطن وثالث في

بيروت، وهكذا في البلدان الأخرى.

هذه نماذج من المراجع التي جمعت بين الوظيفتين، وقد يكون هنالك مراجع آخرون لم أذكرهم.

نظرة الحكومات إلى المرجعية:

هذا التاريخ الذي مررنا به بإيجاز، جعل الحكومات تنظر إلى المرجعية أنها (حكومة ذات سلطة غير رسمية) فهي سلطة لها نفوذ بلا قوة ولا شرطة ولا جيش. إنما حصل ذلك من خلال الارتباط الديني بين الأمة ومرجع التقليد.

من هنا فإن الحكومات عموماً، شيعية كانت أم غير شيعية أصبحت تخشى المرجعية، لأن المرجع الواحد قد يصدر فتوى فتؤثر في المجتمع، بعكس ما إذا كانت المرجعيات متعددة، فربما أصدر المرجع فتواه بخلاف ما يرى المراجع الآخرون، فلا يكون للفتوى الدرجة ذاتها من التأثير.

كما أن الحكومات تخشى من سعة تأثير ونفوذ المرجعية جغرافياً، لأن نفوذ أي حكومة لا يتجاوز في الغالب حدود الدولة، أما المرجع فإن نفوذه يتجاوز الحدود، فهو في النجف، لكن نفوذه يصل إلى الحجاز وعمان واليمن وغيرها، بل يصل إلى دول أوربا وأمريكا وغيرها من مناطق العالم. وهو في إيران، لكن نفوذه يتجاوز حدوده، فيصل إلى دول الاتحاد السوفيتي السابق، وإلى البلاد العربية والغربية.

التعليم الشرعي للمرجعية:

لدينا في الشريعة الإسلامية ما يسمى بمبدأ القيادة، أو مبدأ الولاية، وهو ما يصطلح عليه اليوم بالمرجعية.

فالولاية في الشرع الإسلامي ـ ليس عندنا وحدنا فحسب، إنما هو عند

إخواننا أهل السنة أيضاً - لله تعالى، وهي من حق الله تعالى وحده لا شريك له، يقول تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لله الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾[1]، ومعنى ذلك أن أي شخص يدعي الولاية من دون أن يكون هنالك نص من الله له بالولاية، فإن دعواه باطلة ولا تقبل منه؛ لأنها حق الله، وإذا كانت كذلك، فإن الله يمنحها لمن يشاء عباده، من فقد أعطى الله تعالى بعضاً من ولايته للنبي ﷺ حيث قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2]، ثم أعطى صلاحية للنبي ﷺ أن يعطي ولايته للإمام علي عليه السلام، وهو ما عليه الشيعة الإمامية. فمن الأدلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3]. فهذه الآية تشير إلى الإمام علي عليه السلام، وغير ذلك من الآيات. ومن السنة المطهرة حديث الغدير: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»**.

ثم لدينا نصوص كثيرة تشير إلى انتقال الولاية من الإمام السابق إلى الإمام اللاحق، إلى اثني عشر إماماً. وبعد آخر الأئمة، وهو الإمام الثاني عشر عليه السلام، تنتقل الولاية إلى نوابه، فقد سئل عليه السلام عمن يرجع إليه من بعده فقال: **«وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»**[4]. فأعطى الولاية لرواة الحديث، وهم الفقهاء العدول الجامعين للشرائط.

---

(١) الكهف: ٤٤.

(٢) الأحزاب: ٦.

(٣) المائدة: ٥٥.

(٤) وسائل الشيعة، للحر العاملي ٢٧: ١٤٠.

المرجعية الواحدة والمتعددة:

والسؤال المطروح الآن: هل أن المرجعية واحدة أو أنها عدة مرجعيات؟ الجواب أن الله تعالى في عالم الألوهية واحد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، وفي عالم النبوة النبي واحد، وفي عالم الإمامة إمام واحد، وفي عهد الحسن والحسين عليهما السلام، كانت الإمامة والقيادة للإمام الحسن عليه السلام، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام يتقدم عليه بشيء، واستمرت الإمامة واحداً بعد واحد. فالأقرب للواقع التشريعي أن تكون النيابة واحدة أيضاً.

كيف نختار نائب الإمام؟

هنالك ثلاثة عناصر، ينبغي أن تتوفر فيمن يكون نائباً عن الإمام ووليا فقيهاً، وهي:

الفقاهة والعدالة والكفاءة، بأن يكون بمستوى القيادة، أي أن تكون لديه أهلية للقيادة، أما أن يكون بعيدًا عن أهلية القيادة، ويكون ما بين الدرس والمنزل فقط، وليس في صميم الحياة، إنما في هامشها فهذا لا يصلح للنيابة، بل إنه بنفسه يرفضها لو جاءته، لأنه لا يستطيع أن يقوم بشيء.

فالكفاءة تعني الأهلية الشخصية وفهم الحياه. لأن النائب مرشح لقيادة طائفة كبيرة، منتشرة في أنحاء العالم، فالشيعة اليوم يمثلون ثلث المسلمين عموماً، ونصف مسلمي آسيا، أي أنهم أكثر من ثلاثمئة مليون نسمة، فكيف يستطيع من لا يمتلك الأهلية أن يدير هؤلاء ويدبر شؤونهم؟

فمن الناحية الشرعية لا بد أن يكون في زمن الغيبة، في كل عصر قائد واحد ومرجعية واحدة.

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

واليوم نرى أن الخطوة الأولى في القيادة تحققت تقريباً، ولكن بقي أن نصل إلى مرحلة أن يكون مرجع القيادة هو مرجع التقليد أيضاً، ولا أحدد هنا شخصاً بعينه، إنما أي شخص تتوفر فيه هذه الشروط المعينة. ولو تعددوا يُصار إلى الانتخاب، كما هو معروف ومذكور دائماً في مواضعه.

قد يقال: لماذا لا يتحقق هذا الأمر في الواقع؟

الجواب: إن من طبيعة القضايا الدينية، أنها إذا ترسخت في الأذهان، وتشبعت بها النفوس، فمن الصعوبة بمكان أن تتغير في يوم وليلة، إنما تحتاج إلى زمن طويل.

ومما يصلح أن أذكره مثالاً بسيطاً هنا أنني دخلت النجف في صغري، حيث كان عمري ١٤ سنة، وكنت معتاداً على قراءة الجرائد والمجلات في البصرة، فكان من يقرأ الجرائد والمجلات في النجف لا يُفَسَّق فحسب، إنما يُكفَّر ويخرج من ربقة الإسلام. لذا يجب على من يريد قراءة المجلة أن يذهب إلى ما يسمى (باب الولاية) خارج السوق الكبير، ليشتري الجريدة أو المجلة من المكتبة ويخبئها، لئلا يراها أحد، فإن رآها فلا حظّ له بعدُ في الإسلام.

وكان قلم الحبر الذي يسمى هناك (باندان) أول ما نزل في السوق حُرِّم استعماله، وكان يجب علينا أن نغمس قصبة أو شيئاً آخر بالحبر، لنكتب به. ولم تكن تلك أموراً شرعية، إنما هو عرف جرى بذلك.

وكذلك الورق الذي يكتب به المجتهد الرسائل والفتاوى، فهو ورق خاص يؤتى به من إيران، وكان المجتهدون جميعاً ملتزمين به، في حين أنه لا آية نازلة بذلك، ولا رواية: تقول يجب أن تكتبوا بالورق الذي تصنعه أو تصدره إيران بالمواصفات المعينة، ولا يحكم بذلك عقل، إنما هو العرف جرى بذلك، فترى أنهم لا يستعملون الأوراق الأخرى أبداً.

فكان أول من استخدم القلم السيد الحكيم (قدس سره) حيث كان جريئاً لا يبالي، كما ركب السيارة، ولم يكونوا يركبونها، إنما كانوا يركبون الحمير والدواب.

وكان صدر المجتهد مفتوحاً دائماً، فلا يضع الأزرّة في ثوبه، وبقي الحال هكذا إلى زمن السيد الحكيم، وقد أدركت أنا بعض المراجع والمجتهدين على هذه الحال، فلما أتى السيد الحكيم، وضع الأزرّة في مكانها، ولم يكن أحد يجرؤ أن يعترض عليه، باعتباره كان مرجعاً كبيراً وضخماً. وكان الشيخ إبراهيم الكرباسي على هذه العادة، إلى أن توفي قبل أربع أو خمس سنين تقريباً.

فالأشياء المألوفة لدى أذهاننا أننا تعودنا على عدة مراجع، فمن الصعوبة أن نألف حالة المرجع الواحد، فنرى أنه الأكفأ، ونعتمده للقيادة والتقليد. فهذا يحتاج إلى زمن، ويجب أن نخطو خطوة أولى، تتبعها خطوات، ليصبح الأمر مألوفاً لدينا.

والخطوة الأولى ـ والحمد لله ـ موجودة حالياً، وسوف نستمر إن شاء الله في تحقيق الخطوات الأخرى. وتوحيد المرجعية في الحقيقة هو توحيد للأمة وقوة لها، وقد رأينا في القضايا التاريخية كيف أن تعدد المرجعية، أوجد شيئاً من التفرقة بين الناس، ولا أقول: التفرقة بين العلماء، فالتفرقة ليست منهم ولا بينهم، إنما هي ممن يستغلون قضية التعدد.

الأسئلة

س١: بعد أن ذكرتم أن القوة الاجتماعية تتأثر بتوحيد المرجعية وتعددها، والمعروف أن القوى الاستعمارية تتدخل حالياً لضرب المرجعية، فهل استطاعت التدخل إلى حدٍّ ما في ذلك؟

الجواب: لا شك أن التدخل موجود على طول الخط، من المعركة بين قابيل وهابيل وحتى اليوم، وسيبقى إلى يوم القيامة، ولكن إذا كان هنالك إصرار كبير ومواجهة شديدة، فإن التدخل لا يؤثر، وهذا ما أثبتته التجارب.

س٢: ذكرتم في محاضرتكم السابقة، أن السيد الخامنئي من دعاة الوحدة تماماً، كما كان الإمام الراحل قدس سره، فما هي أبرز الشواهد على ذلك؟

الجواب: أبرز الشواهد هو الذي ما ذكرته في المحاضرة من أنه أنشأ المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وهناك مؤتمر الوحدة الإسلامية الذي ينعقد سنوياً، ويحضره علماء من جميع الطوائف الإسلامية. ويعمل مجمع التقريب الآن على إصدار مجلة وكتباً في دراسات إسلامية مقارنة، سواء في العقيدة أم في الفقه. وهناك اتصالات مستمرة بين السيد الخامنئي وعلماء آخرين في هذا الصدد. وهذه كلها خطوات جيدة سوف تؤدي إلى نتائج كبيرة.

س٣: الشق الأول: على فرض توحيد المرجعية في مرجع واحد، كما يدعو الآن بعض علماء الطائفة، ولكن بما أنني أخاطب رجلاً من أهل المشورة، لماذا لا يكون تقرير مصير المرجعية في فئة مستقلة؟ وهل أن الظروف السياسية والمحلية مواتية لذلك؟

الشق الثاني: أرى أن المشكلة في التفرقة هي من عند الناس، لكن العلماء كانوا أيضاً ركناً أساسياً في التفرقة، فما تعليقكم؟

الجواب: ما يتعلق بالشق الأول أقول: نحن لا نعيش حياةً وظروفاً مثالية لنأتي بما نريد على نحو الكمال، إنما نعيش في أوساط هذه الظروف، فلا بد وأن نتحرك بمقدار ما نستطيع أن نستفيد من الظروف، أو بمقدار ما نستطيع أن نقهرها، والمثل يقول: إذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع.

وأما عن الشق الثاني: فأنا أبرِّئ جميع العلماء الأتقياء المؤمنين من التفرقة، وإذا كان هنالك شيء، فإنما هو اختلاف في وجهات النظر، وهذا لا يعني أن نتهمهم بذلك، وقد عشنا الأوضاع بأنفسنا، ورأينا أن هنالك أناساً يتحركون حول العلماء، بشكل أو بآخر، هم الذين يقومون بهذه الأدوار.

س٤: هنالك مقولة ربما يراها البعض في جانب من يرى وحدة المرجعية والقيادة، وهي أن المرجعية انطلقت في عهد الإمام الخميني (قدس سره) انطلاقة كبيرة، فتحركت حيث يتحرك الإسلام، ولكنها عادت وانكمشت بعد وفاته مباشرةً، ما هو تعليقكم على ذلك؟

الجواب: كلا لم تنكمش، لكنها أصبحت في الخط التقليدي المعروف الذي ألفناه، وهو أن يمارس المرجع الإفتاء، ولا يتدخل في الأمور الأخرى، وهذا نتيجة للعمل الذي قام به الآخرون، وأبعدونا عن الخط الأصيل، الذي يفترض أن تكون عليه المرجعية، وهو خط الولاية من الله إلى نائب الإمام، والذي دعا إليه الإمام الخميني.

لقد كان لشخصية الإمام الخميني دور كبير في هذا المجال، وعندما توفي (قدس سره)، كان من المتوقع بطبيعة الحال أن تحصل مثل هذه الأمور. وكما قلت سابقاً، إن الإمام الخميني كان شخصية لماحة، استطاع أن يختار الرجل المناسب، في الموضع المناسب، وعادت الأمور تسير في مجراها.

س٥: فيما يتعلق بالفتاوى التي تصدر في وقت معين، من قبيل فتوى تحريم التنباك، هل يبقى حكمها سارياً إلى الأبد ؟

الجواب: كلا، فهذه تسمى في الفقه (عناوين ثانوية) وفي القانون (ظروف طارئة) إذ إن الأمر جائز في نفسه، ولكن يطرأ ظرف استثنائي يستدعي من الفقيه أو القانوني أن يحرمه، ويبقى التحريم ما دام الظرف موجوداً. فالمجدد

الشيرازي أصدر الفتوى في فترة الاحتكار، فتبقى سارية ما دام الاحتكار موجوداً، فإذا ارتفع العنوان المذكور ارتفعت الفتوى، وهذا لا يستدعي فتوى أخرى منه.

س٦: تعتبر القيادة الرشيدة هي الأساس في قوة ومنعة الإسلام، ما هي خصائص هذه الوحدة من منظور الوحدة الإسلامية؟

الجواب: ذكرت أن المواصفات والشروط أو العناصر التي ينبغي أن تتوفر في مرجعية القيادة، هي: الفقاهة والعدالة والكفاءة.

كما أن الظروف الحالية، وتطور الوضع العالمي اليوم، أصبح يتطلب أن تكون هنالك مؤسسة كذلك، وهي ما سمي في زمن الإمام الخميني قدس سره بمكتب الإمام، وكذلك مكتب السيد الخامنئي اليوم والممثليات الموجودة في العالم. كل هذه أصبحت تتحقق بالتدريج شيئاً فشيئاً.

س٧: ما هو الفرق بين الفتوى الحكم؟

الجواب: الفتوى تَنفُذ على المقلِّدين فقط، أما الحكم فينفذ على المجتهدين والمقلدين جميعاً، حتى المقلدين للمجتهدين الآخرين. والتمييز بينهما يكون في التعبير، فإن قال حكمت أو ما شابه ذلك، فهو حكم، وإلا فهو فتوى.

س٨: إذا كان هناك من يرى ولاية الفقيه، لكنه يرى مرجعاً آخر أعلم في المسائل الفقهية، فهل يجوز له أن يجمع بين تقليد المرجع الأعلم، وبين رؤيته في ولاية الفقيه كمرجع آخر؟

الجواب: حسب الخط القيادي الذي فهمناه من أن الولاية لله تعالى وحده، ثم للنبي، ثم للإمام ونائب الإمام،لا بد أن تجتمع القيادة والمرجعية، ولكن إذا كانت الظروف لا تساعد على ذلك، فلا مانع أن يقلد مرجعاً باعتقاد أنه

الأعلم، ولكن القائد هو القائد، أي أن من يقلده فعلاً ليس هو المرجع الأعلم، إنما هو المرجع القائد، فيخضع ويمتثل لما يقوله من أحكام وقرارات.

س٩: هل أن شروط القيادة متوفرة في السيد علي الخامنئي؟، وهل توجد أدلة على قيادته؟

الجواب: ذلك أمر مؤكد، ونحن لاندّعي بلا دليل.

س١٠: ما هو دور السيد الخوئي في شؤون القيادة؟

الجواب: للسيد الخوئي أدوار قيادية كبيرة في ذلك، وإن كان في بعض الجوانب قد ابتعد لأسباب ذكرها هو، وقد تكون مبررة.

لقد قام بإنشاء مؤسسات كثيرة، وحافظ على الحوزة العلمية في حدود استطاعته. ووقف إلى جانب الانتفاضة في العراق، وهذه كلها أعمال تذكر له كمآثر، وتسجل في تاريخه قدس سره.

س١١: ما هو السبب في طرح موضوع المرجعية، في المجلات والصحف وسائر وسائل الإعلام في الآونة الأخيرة؟ وما هو الموقف الشرعي تجاه هذه االوسائل؟

الجواب: أما المجلات والصحف فقد أصبحت من وسائل النشر الحديثة، والأمر طبيعي جداً، فنحن نعيش في هذا العصر، وبعض الصحف تتألف من أربعة وعشرين صحيفة، كما هو الحال في صحيفة الحياة، ولا شك أن مدير الصحيفة يريد أن يملأها، فيبحث عن المواضيع المختلفة، ويرى أن هذه القضية هي حديث الساعة عند الشيعة، فيسعى إلى السبق الصحفي، أو أن الموضوع قد يعطى للمجلة أو الصحيفة لينشر فيها، وقد تكون هناك أهداف لدى البعض، وهذا أمر وارد أيضاً.

س١٢: تحدثتم عن أهمية وحدة القيادة، فإذا كانت هذه القيادة عن طريق الرسالة والإمامة، تكون بالنص الإلهي، فكيف يكون توحيد القيادة و المرجعية؟ وما الموقف من اختلاف آراء العلماء في الأعلمية؟

الجواب: أما موضوع الأعلمية فلي فيه رأي خاص بي أنا. فأنا أرى أنه غير متحقق، أي أننا لا نستطيع أن نقول: هذا أعلم، لأن معرفة الأعلم إنما تكون بالشهادة الحسية، وهذا بإجماع المسلمين السنة والشيعة، فالشهادة لا تكون إلا عن حس، وأي شهادة ليست عن حس فهي مرفوضة. هذا من الناحية الشرعية.

فإذا كان لدينا أربعمئة مجتهد، فالمفروض أن يكون الشاهد بالأعلمية بمستوى اختبار هؤلاء المجتهدين أولاً،

فلا يكون من الطلبة المبتدئين، لأنه ليس بمستوى اختبار نفسه، فضلاً عن اختبار المجتهدين.

ثم إن اختبار هؤلاء الأربعمئة، إما أن يكون بالحضور في أبحاثهم، أو قراءة مؤلفاتهم الاستدلالية إذا كانت موجودة، أو بمناقشتهم، أو بطريق آخر، لتستطيع أن تقول: هذا هو الأعلم، بمعنى أعلم الموجودين جميعاً، وهذا أيضاً غير ممكن، ولم يقم به أحد. نعم، من الممكن أن نقول: فلان أعلم من فلان، ولكنه أعلم الموجودين فغير متيسر.

وأما الشهرة فليس بالضرورة أن تكون مطابقة للواقع، ولا نستطيع أن نجزم بكونها مطابقة للواقع فعلاً. فتحقيق فكرة الأعلم في الخارج، أو الوصول إليها، أمر في غاية الصعوبة.

س١٣: لو حكم الحاكم، ولم ينفّذ حكمه، كما في قضية التطبير التي حكم

بها السيد القائد حفظه الله، حيث حرم التطبير، وعارضه البعض، أو لم يعمل به، فما هو الموقف المتخذ من قبل المجتمع؟

الجواب: لدينا أحاديث متفق عليها بين علمائنا، أنه إذا حكم الحاكم، ولم يعلم خطأ الحكم أو خطأ مستنده،فلا يجوز الرد عليه، والراد عليه كالراد على الله تعالى.

س١٤: عندما يدعو من يدعو إلى وحدة المرجعية والقيادة، أو يتحدث عن ذلك، فقد تظن الأطراف الأخرى أنه إنما يجر النار إلى قرصه، ويدعو إلى تقليد القيادة أو المرجعية المطروحة عنده، فما رأيكم؟

الجواب: إننا لا ننظر إلى القضية من زوايا شخصية، إنما ندرسها من جهة المبدأ، وأن المبدأ ينبغي أن يتحقق، خصوصاً أن هناك أدلة في توضيح هذا المبدأ، ووجوب السير عليه. فيجب أن لا ننظر إلى القضايا من زاوية الجزئيات.

س١٥: للعلماء في بلادنا دور كبير في توحيد المرجعية وجعلها مرجعية واحدة، حيث تعتبر ضرورة من ضروريات العصر، في وقتنا الحاضر. والسؤال هو: لماذا لا تتبنون فكرة إنشاء مجمع لعلماء بلادنا، لتتوحد آراؤهم بحسب الضوابط الشرعية، بحيث يخرجون للناس برأي موحد باسمهم جميعاً عبر هذا المجمع مستقبلاً؟

الجواب: هناك في بعض البلدان محاولة لمثل ذلك، وسوف ننظر إلى تجربتهم، فإن نجحت، وكانت الظروف الموجودة هنا مواتية فربما نقوم بالتجربة ذاتها، أما إذا كانت الظروف مخالفة فلا يمكن للتجربة أن تنجح.

الخمس بين الواقع والطموح

تمهيد: أهمية الموارد المالية في إدارة الأمة

ذكرنا في المحاضرة السابقة أنه لا بد من وجود نائب للإمام كمرجع للشيعة، يقوم بدور تبليغ الأحكام الشرعية عن طريق الإفتاء، وبإدارة شؤون الشيعة في العالم في حدود المقدور والمستطاع.

والمرجعية كقيادة، تحتاج بطبيعة الحال إلى المال، وقد اعتمد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام منذ عهد الإمام الصادق عليه السلام ومن بعده، وبخاصة من عرف من الأئمة بأبناء الرضا عليهم السلام وهم: الإمام الجواد، والإمام الهادي، والإمام العسكري، اعتماداً كبيراً على الأخماس، فكانت تجبى إليهم الأخماس من الشيعة أينما وجدوا، وكانت تنقل إلى الإمام، الذي يقوم بدور توظيف وتوزيع واستغلال هذه الأموال.

وهناك نقطة مهمة جداً يختلف فيها التشريع الإسلامي عن التشريعات الأخرى، ففي القوانين الوضعية الموجودة في الدول، سواء كانت الدول غير الإسلامية التي مرت في التاريخ، أو الدول غير الإسلامية المعاصرة، هناك ضرائب تفرض على الناس، وقد تكون ثابتة ومستمرة لوجود الحاجة الدائمة إليها، وقد تكون مؤقتة بوقتٍ ما ثم تلغى.

أما في الإسلام فهناك حقوق مالية، وضرائب مالية، وهناك فرق كبير بين الحقوق المالية والضرائب المالية، فالحقوق المالية هي التي شرعت في القرآن

الكريم أو في الأحاديث المروية عن النبي ﷺ عن طريق أهل البيت أو الصحابة، وباختصار هي الحقوق التي شرعت في الكتاب والسنة، كالزكاة والخمس والخراج والمقاسمة وغيرها مما يذكر من الحقوق المالية، فمن حيث التشريع، تشرع هذه الأموال عن طريق الكتاب أو السنة.

فالخمس والزكاة تشريع مالي إسلامي، وردت فيهما آيات صريحة من القرآن الكريم، أما الخراج والمقاسمة فقد شرعا بالسنة الشريفة، وهكذا الحقوق المالية الأخرى التي شرعت عن طريق الأحاديث المروية عن النبي ﷺ.

هذا ما يخص الحقوق المالية، أما الضريبة فتفرضها الدولة، حيث تكون في حاجة لها، نتيجة عجز الميزانية، أو كمورد تستفيد منه في الميزانية، كما هو الحال في الجمارك والمكوس، فهذه ضرائب، تعتبر موارد للدول التي تفرضها. وقد تفرض بعض الضرائب التي تحتاج إليها الدولة، كضريبة الطرق، المعمول بها في كثير من بلدان المسلمين، نتيجة قيام الدولة ببناء الجسور وتعبيد الطرق، ويكون ذلك عادة نتيجة العجز، ومتى ما حققت الدولة سد العجز ألغت الضريبة.

وقد تفرض الدولة ضريبة على الماء والكهرباء للحاجة إلى ذلك، وتلغى الضريبة عندما تنتهي الحاجة.

فالضريبة ترتبط بالدولة والحكومة التي تفرض الضرائب، نتيجة الحاجة المالية لها، لسد عجز قائم في موازنة الدولة أو ميزانيتها.

فالحق المالي يمكن أن نعبر عنه بالفريضة، بينما الضريبة، فهي كما سميت في مجالها، ولا تسمى فريضة. وقد لاحظت هذا الخطأ في التعبير في عناوين بعض الكتب التي كتبت من كتاب مسلمين، حيث يعبرون عن الزكاة بضريبة الدخل أو ضريبة الزكاة، وعن الخمس بضريبة الدخل أو ضريبة الخمس،

وهي في الواقع ليست ضرائب، إنما هي حقوق مالية.

وهناك فارق آخر بين الضريبة والحق المالي، هو أن الضريبة علاقة تقوم بين المواطن والدولة فقط. أما الحق المالي فهو بين الإنسان وربه.

فالزكاة عبادة مثل الصلاة، ومن مقومات العبادة وخصائصها، نية التقرب بالفعل إلى الله تعالى، فعندما تدفع الزكاة لا بد أن تصاحبها نية التقرب إلى الله، والخمس كذلك. فهما عبادة وعلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى. واشتراط النية هو الرأي المشهور عند فقهائنا، إلى ما يقرب من الإجماع، ولعل بعض الفقهاء المعاصرين يرون في باب الخمس أنه لو لم ينو سقط عنه الواجب.

وهناك فارق ثالث بينهما، فالحق المالي له مصارف معينة بنص التشريع الإسلامي. ففي الزكاة هناك ثمانية أصناف نص عليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]. فلا تصرف الزكاة لغير هؤلاء، وكذلك في الخمس، هنالك جهات تصرف فيها ولا تصرف في غيرها.

أما الضريبة فإن كيفية صرفها ترجع إلى الحكومة، حيث تتصرف بها في حدود المصلحة، فليس هناك نص أن تصرف ضريبة الطرق على الفقراء مثلاً، إنما تتصرف الدولة في هذا المال الذي يجمع كضرائب وفق ما تراه مناسبًا.

والجهات التي ورد ذكرها في مجال الخمس ست جهات، بيّنها قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ

(١) التوبة: ٦٠.

الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. هذه هي الجهات الست في مصارف الخمس.

قسما الخمس:

كما أن الخمس يقسم إلى قسمين: سهم الإمام، وسهم السادة، وهم بنو هاشم، فما كان لله أو للرسول أو لذي القربى يكون للإمام، فالأسهم الثلاثة الأولى هي للإمام، والأسهم الثلاثة الباقية هي لبني هاشم، فهناك جهات صرف معينة.

وأما مِمَّ يؤخذ الخمس؟ فهناك مواد معينة يؤخذ منها، وهي:

١ - الغنيمة في الحرب أو من أرباح المكاسب، الواردة في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ﴾، وقد فسرت الغنيمة بغنائم الحرب، وهذا متفق عليه لا خلاف فيه بين المسلمين السنة والشيعة، فهناك إجماع من جميع علماء المسلمين أن غنائم الحرب فيها الخمس.

وعندنا نحن الشيعة ـ وهذا ما نختلف به عن أهل السنة فقهياً ـ أحاديث كثيرة، بعضها مروي عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر أو الإمام الرضا عليهم السلام تفسر الغنيمة بكل فائدةٍ يحصل عليها الإنسان، فلا يقتصر في الغنيمة على غنائم الحرب، وإنما تشمل كل ما يغنمه الإنسان. ومن هنا دخلت أرباح المكاسب، وهي الأرباح التي نحصل عليها من التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو من أي شيء آخر، فهذه الأرباح والفوائد تدخل ضمن الغنائم، وهناك روايات كثيرة خاصة بأرباح المكاسب.

ومن أمثلة ذلك فوائد الدخل السنوي، كأن يكون هناك موظف يحصل على

---

(١) الأنفال: ٤١.

راتب شهري، أو أن يكون غير موظف، ويكسب بعض المال، فما يزيد عن دخله خلال السنة، وهو ما يعبر عنه في كتب الفقه والرسائل العملية بفاضل المؤنة. فللمرء أن يتصرف بماله في حدود الأكل والشرب والملبس وغيرها مما يعتبر مؤونة، وفي نهاية السنة يخمس الزائد عن ذلك.

وللمؤنة معنيان: الأول التموين، وهو ما ينفقه الإنسان من جهد ومال في عمله، والثاني المواد التي نستهلكها، كالفرش والملابس والسيارة والغذاء وغيرها.

٢ - المعادن.

٣ - الكنوز التي يعثر عليها الإنسان، ففي القديم لم يكن هناك بنوك، فكانوا يضعون أموالهم في البيوت ليحافظوا عليها، وكان في القديم سراق كثيرون، لأن الوصول للمال كان أسهل، فكانوا كثيراً ما يضعون أموالهم في حفرة في الأرض ليحافظوا عليها، وكانت أموالهم هي الذهب والفضة فقط، ولم يكن عندهم بقية المعادن. فكانوا يضعون ما لديهم من ذهب أو فضة في أوانٍ من الفخار أو الزجاج، ثم يدفنونها في الأرض، أو يحفرون في حائط ويضعونها فيه. وفي بعض الأحيان ينسون الموضع الذي وضعوها فيه، وهكذا تُفقد عند الموت، فلا يعرف الأبناء والذرية أين مصيرها. وعندما تحفر الأرض فيما بعد ويعثر على المال يسمى كنزاً.

هذه الكنوز التي يعثر عليها الإنسان يجب فيها الخمس.

٤ - الغوص.

٥ - الأرض التي يشتريها الذمي من المسلم.

٦ - المال الحلال المختلط بالحرام، الذي لا يعرف فيه الحلال من الحرام.

ويشرع الخمس عند أهل السنة في الكنوز والمعادن والمال الحرام وأمور أخرى، وليس لديهم خمس في أرباح المكاسب ولا فاضل المؤنة، إنما لديهم زكاة.

وقد ذكرنا أن الدليل الأوضح على مشروعية الخمس هو القرآن الكريم في الآية التي ذكرناها، كما أن هناك العديد من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق

مصطلح الوحدة:

الوحدة تعني الولاء، وقد عبر عنها القرآن الكريم بالاعتصام، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾[1]، فالمراد من الاعتصام هو (الوحدة)، والغرض من اعتصام الإنسان بأمر ما، أن يحفظ نفسه ويمنع العوائق التي يمكن أن تطرأ عليها.

ونحاول هنا أن نقرأ آيتين من القرآن الكريم، ورد فيهما ذكر الاعتصام، وأن نستوحي منهما ما ينفع في هذا الموضوع:

الآية الأولى - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والخطاب هنا للمسلمين، وهكذا كل آية بدأت بخطاب الذين آمنوا، أما الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود والنصارى، ثم يقول تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[2]. فهذه الآية تشير إلى واقع كان المسلمون يعيشونه وقت نزول الآية الكريمة، وهو أن جماعة من الكافرين، كانوا يحاولون أن يردوا المسلمين عن إسلامهم إلى الكفر.

ثم يقول جل وعلا: ﴿وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3]. فالقرآن الكريم

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) آل عمران: ١٠٠.

(٣) آل عمران: ١٠١.

يتساءل مستغرباً ومتعجباً، كيف يكفرُ هؤلاء المسلمون مع وجود الآيات التي تنزل عليهم، ومع وجود الرسول ﷺ؟ ومن يعتصم تعني من يتمسك بدين الله.

والفقره الأخيره من الآية تبين لنا السبب الذي يدعونا إلى التمسك بالمبدأ وتوحيد صفوفنا، فما هو السبب ؟

إننا إذا تمسكنا بالدين، فلأنه منزل من الله تعالى، والله سبحانه وتعالى لا يصدر منه خطأ، وبالتالي فإن الدين الذي ينزل منه تعالى لا بد أن يكون معصوماً ليس فيه خطأ. فعندما نعتصم بالدين ونتمسك به، فإننا نأمن من الخطأ والضلال، بعكس ما لو تمسكنا بغيره، إذ لا نأمن الخطأ ولا الضلال .

فسبب التمسك بالدين، هو أن لا نقع في الخطأ أو الضلال.

ومن الدعوات التي يدعو إليها الدين، توحيد صفوف المسلمين، ووحدة الأمة الإسلامية، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعَاً﴾ يطرح دائماً كشعار في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والآية الكريمة تدعو إلى التمسك بدين الله تعالى، والتأكيد على عدم التفرق: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1]. فالله تعالى يذكّرهم بما كانوا عليه في الجاهلية من الكفر، إذ كانوا قبائل متفرقة متناحرة يقتل بعضهم بعضاً.

لقد كانت كل قبيلة في الجاهلية تركز على ذاتها، وتحاول أن تعلو على القبيلة الأخرى. وطبيعة التركيز على الذات، ومحاولة التقدم على الآخرين تؤدي إلى

(١) آل عمران: ١٠٣.

الفرقة والتناحر والعداء، والأحداث التي وقعت في الجاهلية بهذا الشأن كثيرة جداً.

ومن العوامل التي تقف عائقاً أمام الوحدة عندنا، أننا نحن العرب بالذات، لا نزال نعيش الرواسب القبلية حتى الآن، وإليكم هذا المثال البسيط:

انظروا إلى الحسينيات الموجودة بكثرة، التي تنتسب كل منها إلى قبيلة أو عشيرة أو عائلة معينة، فالكثرة والتعدد مهم ومفيد جداً، لكن لا على أساس القبيلة أو الجماعة أو الفئة، فلو اجتمعت هذه القبائل أو الجماعات في حسينية واحدة، لأدى ذلك إلى التآلف والتعاون وتبادل المصالح والمنافع، بعكس ما إذا تمسك كل شخص بحسينية معينة.

فكثرة الحسينيات أمر لا ضير فيه، بل هو مرغوب فيه، ولكن يجب أن لا تقوم الحسينية على أساس من القبيلة، لتبقى مستمرة في أداء رسالتها، وهو ذكر أهل البيت عليهم السلام، وإحياء أمرهم، وينبغي أن نبتعد بها عن الأطر الضيقة، فعندما نسمع أن هذه الحسينية لآل فلان، وتلك لآل فلان، فإن هذا التعبير يوحي للإنسان نفسياً أن يكون مشدوداً إلى قبيلته في مقابل القبائل الأخرى، وهذا أمر مرفوض، لأنه يقف عائقاً أمام الوحدة الإسلامية والتوحيد.

فالآية الكريمة المار ذكرها تشير إلى أن العرب كانوا قبائل متفرقة، متناحرين متباغضين، فلما جاء الإسلام ألف بين قلوبهم، فأصبحوا إخواناً. وينبغي أن نتأمل في التعبير القرآني الدقيق حيث يقول: فألف بين قلوبكم، ولم يقل: فألف بينكم، أي أنه جعل المحبة في قلب كل واحد منكم للآخر. ومن الواضح أن المحبة إذا تأصلت في قلب الإنسان لأخيه الإنسان، فإن المحب مستعد أن يتنازل عن كثير مما لديه لإسعاد محبوبه. وبالتالي فإن القرآن الكريم جاء لينتزع الرواسب الجاهلية السوداء، ليضع محلها المحبة والود والأخوة.

ماذا نستفيد من الآيتين؟

بما أن الموضوع مخصص للبحث في الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق، فإننا ندرسه أولاً من ناحية نظرية، ثم نبحث في إمكانية التطبيق.

إن المسلم عندما يطيع الكافر، ويخرجه بكفره عن الإسلام إلى الكفر، فهذا يعني الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة. فالله سبحانه وتعالى أعطى للأمة الإسلامية دور القيادة للبشرية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، ومعنى «أخرجت» مقارب لقولنا إن فلاناً تخرج في الجامعة، أي أن الجامعة ربته تربيه خاصة، وكونت شخصيته بهذه الكيفية.

وهذا يعني أن الأمة المسلمة، رُبيت تربية خاصة، وصيغت شخصيتها بشكل خاص، لتكون مؤهلة لقيادة العالم والبشرية جمعاء. فعندما نخرج من الإسلام، ونطيع الكافرين فهذه هزيمة وتخلٍّ عن دور القيادة، وهو ما يرفضه الإسلام. وكل مسلم واعٍ يدرك أنه ينتمي لأمة قائدة، لا يسعه أن يتخلى عن هذا أبداً، لأن القيادة شرف، ولا يمكن لأحد أن يتخلى عنها ليصبح مقوداً لا قائداً. فالتخلي عن الدين والخروج منه يلحق بنا ضررين، فهذا هو الضرر الأول، أي الهزيمة النفسية الداخلية.

أما الضرر الثاني، الذي يترتب على إطاعة الكافرين، أو عندما يتحول المسلم إلى كافر، فهو الشك في أن الإسلام غير قادر على تنظيم الحياة، وقيادة الناس.

فعندما كانت الدعوات القومية قائمة في بعض البلاد الإسلامية، سواء كانت الدعوة إلى القومية العربية أم الفارسية أم التركية، أم للقوميات الأخرى، طُرح ما يشبه الشعار، وهو أن الإسلام جاء لفترة من الزمن وأدى رسالته، واستند

(١) آل عمران: ١١٠.

أغراضه، فما عاد يصلح لهذا الزمن.

والمعروف في علم النفس السياسي، أن هذه إحدى الطرق والأساليب النفسية التي تجعل الآخر يشكك فيما لديه من فكر، فأنت لا تستطيع أن تكسب الآخر إلى جانبك إلا إذا انتزعت الفكرة من ذهنه وأصبح ذهنه فارغاً، عندئذٍ تستطيع أن تضع فيه ما لديك من أفكار بديلة.

فالخطوة الأولى لانتزاع الفكرة: هي التشكيك، بأن يطرح المقابل بعض الأمور التي تجعلنا نشكك في صحة إيماننا بالإسلام، أو بالإسلام ذاته. فعندما يقال: إن الإسلام جاء لفترة معينة واستنفد أغراضه وانتهى، ولم يعد ينفعنا اليوم، ويسمع ذلك من هو ضعيف الإيمان، فقد يحصل في نفسه شك في الإسلام، وهذه هي الخطوة الأولى، ثم تأتي الأساليب الأخرى لزعزعة التفكير، حتى ينتهي الأمر إلى سلخ الإسلام من نفسه.

فالقرآن الكريم يحذرنا من أن نكون ضحية لمثل هذه الأساليب.

واقعية القرآن:

قد يتبادر إلى أذهان البعض أن القرآن الكريم يطرح موضوعات خيالية بعيدة عن واقع الناس، يصعب تطبيقها في واقعهم، أو أنه وإن كان كتاباً مقدساً، إلا أن ما يطرحه لا يمكن تطبيقه في حياة الناس. ومثل هذا التصور المثالي لا يقتصر على القرآن وحده، إنما له الكثير من النظائر في حياتنا.

فنحن نرى أن بعض الناس يقدس بعض العلماء تقديس الأئمة عليهم السلام وينظر إليهم نظرة مثالية لا تحتمل الخطأ مطلقاً، بحيث إنه يرى أن كل عمل يعملونه وكل قول يقولونه إنما هو صحيح لا يحتمل الخطأ. ولكن لو أخطأ هذا العالم كما يخطئ الناس، أو حصل بين أحدهم وبين أحد العلماء خلاف شخصي،

سقط من عينه، وأصبحت حسناته سيئات، وأصبح الحق لديه باطلاً، وهذا من قصور المعرفة، فالعالم يحترم، ولكن يجب أن لا يقدس كما يقدس المعصوم. كل هذه السلبيات سببها التفكير المثالي، ونحن مع الأسف نعيش دائماً في عالم المثاليات.

وهكذا الحال مع القرآن الكريم، ولكن مع فارق العصمة له من الخطأ، فنحن نقدس القرآن، ولكننا نرى أنه مثالي، في حين أنه يلامس الواقع تماماً ويدرسه، ويدفع الإنسان إلى أن يفهم الواقع، بخطأه وصوابه. فمن أراد الإفادة من الحياة، لا بد له أن يتعامل مع الواقع ويتفاعل معه، ويفهمه كما هو، ثم ينتهج الطريق المناسب للتعامل مع واقع الحياة، ليحصل على حقوقه كاملة، ويعطي الآخرين حقوقهم، وهذا ما يحاول القرآن أن يعلمنا إياه.

وبالعودة إلى الآيات الشريفة نرى أن القرآن الكريم ينهى عن طاعة الكافر، لأن الكافر يصدك عن دينك، والسبب في ذلك أنه يدرك أن الإسلام أعطاك صفة القيادة، ولا يمكن له أن يحقق مصالحه إلا إذا انتزع منك صفة القيادة، ليكون هو القائد وأنت المقود، وبالتالي يستطيع أن يحصل على ما يشاء من مصالح. وأول الخطوات في سلبك تلك الصفة تبدأ من الزعزعة الداخلية بحيث يجعلك تهزم من الداخل، وتشكك في مبادئك ثم تتخلى عنها.

الإغراء والإغواء:

من الأساليب التي ابتلينا بها من قبل أعداء الأمة: الإغراء والإغواء، حيث يبدأ الكافر بإغرائك أولاً، ثم إغوائك.

لتوضيح ذلك نقول: إن الإنسان بطبيعته ميال إلى التأثر بالمغريات، إلا إذا كانت لديه مناعة تمنعه، فإذا تأثر بالمغريات اهتزت لديه العقيدة، وأمكن انتقاله إلى عقيدة أخرى.

ومـن الأمثلة على ذلك ما يعرض على شاشـات التلفاز من محطات مختلفة، في المسلسـل المدبلج (رهينة الماضي) الـذي يصور واقع الحياة، لكنه في الوقت نفسـه يطـرح أمام النـاس مغريات من نوع خـاص، ليتأثر بها مـن يتأثر ممن لا يمتلـك مناعة كافية. وهذه المغريـات باختصار هي التقدم الغربي في المجالات التكنلوجية المختلفة، بحيث يوحي للمشـاهد أننا إلى اليوم لم نستطع أن نصنع شيئاً. فما هي قيمتنا أمام حضارة هؤلاء؟! وفي الوقت نفسه يربط هذا المسلسل بين التحضر وبين طريقة اللبس والأكل والكلام وما إلى ذلك. بحيث لا يؤمَن على البعض أن يتعرض للإغواء بعد الإغراء.

وهكذا في الأفلام التي تعرض، فهناك محطة جنسية كاملة في أمريكا، يمكن لأي مشاهد أن يشاهدها. وقد وصل بهم الحال إلى أن الكثير من غير المتدينين، ممن لهم شرف وغيرة، أصبحوا يستنكرون ما يعرض في مثل هذه المحطات.

فـما حال الشـاب الذي ينخـرط في مجتمع مفتـوح هناك؟ إنه كثـيراً ما يردد الحديـث: «القابـض عـلى دينه،كالقابض على جمـر الغضى» وهو أشـد أنواع الجمر حرارةً.

إن هذه المغريات الموجودة في الغرب وأوربا، ربما تؤثر بشكل أو آخر حتى في أولئك الذين لا يتأثرون في دينهم وعقيدتهم، فنحن اليوم كثيراً ما نردد مقولة: إن هـؤلاء أصحاب حضارة، لكن الواقع أنك لا ترى من هذه الحضارة، أينما ذهبت في تلك البلدان، إلا ثلاثة أمور، هي: التصنيع المتقدم، والعلوم الحديثة في الجامعات، والفسـاد والإفساد. أما الجانب الأخلاقي فأصبح في معزل عن الحياة، لأن من يعطي الجانب الأخلاقي هو الدين المتمثل هناك بالكنيسة، وقد أصبحت الكنيسة في معزل تام عن الواقع.

إن هذه المغريات تستعمل بشكل فعال، ولكن يفترض بنا أن يكون لنا دين،

ويجب أن نتمسك به، ليشكل حاجزاً قوياً بين هؤلاء وبين استلاب خيراتنا، لأن هؤلاء غير مهتمين بديننا وعقيدتنا بقدر اهتمامهم باستلاب خيراتنا، من خلال إضعاف الدين في نفوسنا أولاً.

ففي مدريد مثلاً، تذهب إلى الشوارع الرئيسية والأسواق، فترى المحلات الصغيرة لبيع الحلويات، تباع فيها الصحف والمجلات العلمية والثقافية أيضاً، ومنها المجلات الجنسية، وهذا نوع من الإغراء، وبعد الإغراء يأتي الإغواء. وقد انهارت الكثير من البلدان والمجتمعات بهذا الطريق.

فالقرآن دائماً يمس الواقع تماماً ويلامسه، والآية الشريفة تخاطب المسلم طالبة منه أن لا يصغي للكافرين الذين يريدون أن يردوه عن دينه، باستخدام هذين الأسلوبين، وهما الإغراء والإغواء، وهذا هو الواقع الذي نعيشه نحن اليوم.

ومن عوامل التغيّر إلى ما هو أسوأ، ما يأتي من الخارج، ومنها ما يكون من الداخل.

فما كان من الخارج فهو الإغراء والإغواء الذي ذكرناه.

نحن نرى أن القرآن الكريم لا ينفك عن ذكر المنافقين، ويهاجمهم بشدة، لأن الدور الذي يقومون به خطر جداً، فالعدو الخارجي قد يكون معروفاً ويمكن أن تتنبأ أحياناً بما سيفعل، وتعد العدة لمواجهته، أما المنافق فلا يمكن أن تكتشفه بسهولة، لأنه يتحرك بهيئة لا يمكن أن يتهم أو يكتشف من خلالها، وقد يكون على جبهته أثر السجود، إلا أنه يتظاهر بخلاف ما يبطن. وهكذا كان دور المنافقين أيام الرسول ﷺ وبعده، وقد لعبوا ولا زالوا يلعبون دوراً خطيراً جداً، ولا زالت تشترى العقول والضمائر والنفوس، لبث الضعف والوهن في كيان الأمة، ليتمكن الطامعون أن يدخلوا ويستلبوا الخيرات.

فالأسلوب الآخر المهم في سلب الهوية الإسلامية من المسلم، هو بث المنافقين في الداخل، ليلعبوا دوراً كبيراً جداً في بلبلة المجتمع.

فتجد أن قضيةً ما تحدث، وتمر عليها السنة والسنتان، وقد تنسى، لكن المنافقين قد يثيرونها ويتمسكون بها إذا ما رأوا أن مصالحهم اقتضت ذلك، ولأنهم يريدون أن يبقى خط التفرقة والتمزيق فعالاً في صفوف الأمة والمجتمع.

والسؤال الآن: هل نجح الكفار والمنافقون في ذلك أم لم ينجحوا؟ وإلى أي مدى استطاعوا أن ينجحوا؟

الجواب: أما من ناحية الصراع الحضاري بين حضارتنا وحضارتهم فقد أخفقوا، بل انتقل الصراع الحضاري إلى ديارهم، وأصبح الجدل حول الإسلام يدور عندهم، وقد انقسموا إلى قسمين: فمن المفكرين والساسة لديهم من يدعو إلى محاربة الإسلام، لأن الإسلام غزاهم في بلادهم كما يرون، ومنهم من دعا إلى التعايش السلمي مع الإسلام والمسلمين.

والنتيجة أنهم على مستوى التحدي الحضاري لم يحققوا شيئاً، لذا تجدهم يلجأون إلى أساليب الإغراء، وهذا اعتراف بالفشل في عدم القدرة على مواجهة الإسلام مواجهة حضارية، فلم يجدوا إلا هذه الأساليب الرخيصة من الإغراء والإغواء، أو تحريك المنافقين أو التشبث بكل ما من شأنه أن يشكك المسلم في عقيدته. كما يفعل التاجر المفلس الذي لا يريد الاعتراف بإفلاسه.

قبل فترة من الزمن أعيد طباعة كتاب (في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين، الذي صدر منذ فترة طويلة، عندما عاد الدكتور طه حسين من جامعة السوربون في باريس، وهو يحمل معه الأفكار الغربية، ويحاول أن ينشرها، وقد اصطدم بالأزهر، وحصلت مشاكل كثيرة، فمنع الكتاب، ولم يطبع. وقد

بلغني أخيراً أنه أعيد طبعه من جديد، وقد نشر هذا الخبر في العدد الأخير من مجلة العربي.

كما أعيد طبع كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، للشيخ عبد الرازق، من علماء الأزهر، وكان هذا الكتاب قد أحدث ضجة كبيرة عند صدوره، حيث ادعى فيه أن الإسلام ليس فيه سياسة ولا حكم، ويجب أن يبتعد عن هذه المجالات، ويصبح مثل الدين المسيحي تماماً.

وهكذا راحوا يبحثون في المكتبات، لعلهم يجدون كتاباً قديماً يثير ضجة حول الإسلام، ليتألم منه المسلمون نفسياً على أقل تقدير، حتى لو أنه لم يؤثر فيهم عملياً، لأن العدو يشعر بالارتياح عندما يتألم الطرف الآخر نفسياً.

فاستعمال هذه الأساليب المغرية، إنما هو دليل على الإفلاس، أي أن الحضارة الغربية لا تستطيع أن تمشي بقوتها كحضارة، فتلجأ إلى مثل هذه الأساليب. وهذا ما أعتبره نوعاً من الانتصار للحضارة الإسلامية.

فالحضارة الغربية ما عادت تستطيع أن تنفذ إلى البلاد الإسلامية، وتُقبل كحضارة، فلما انهزمت عادت إلى هذه الأساليب من الأفلام والمجلات، وطباعة الكتب المثيرة للخلافات وما إلى ذلك.

الوحدة الإسلامية ... الأسس والتطبيق:

إن الوحدة الإسلامية تتحقق بالولاء للإسلام، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[1] أي أن نظام الحياة الذي منحتكم إياه وأنزلته إليكم مستقيم لا عوج فيه ولا خطأ، وبه تتحقق مصالحكم، فلا تبتعدوا عنه إلى السبل

(١) الأنعام: ١٥٣.

الأخرى، وهي الأنظمة المخالفة له.

أما من حيث الأسس، فلا بد أولاً أن ننظر إلى الأسس التي تقوم عليها الوحدة عموماً وفق أية نظرية، وبالأخص الوحدة القومية، وهذه الأسس تتمثل في أربعة عناصر، هي: الوطن واللغة والتاريخ والمصير.

وهناك عناصر أخرى لأنواع أخرى من الوحدة، سوف أشير إلى بعضها:

فهناك نظرية العرق، التي طرحها الألمان النازيون، وهم مظهر من مظاهر الرأسمالية. فهؤلاء كانوا يؤمنون بأن الدم النظيف (غير الملوث) لا يجري إلا في عروق الشعوب الآرية، والنازيين بشكل خاص، فهم أفضل الشعوب، وينبغي أن يتحدوا ويقودوا العالم بأسره. وعلى هذا الأساس تحرك أدولف هتلر، وأراد أن يسيطر على العالم كله، باعتباره يحمل الدم النقي، والباقي يحملون الدم الملوث. وقد فشلت هذه النظرية، وانتهت على يد الغربيين الذين حاربوها ، وانتهى هتلر أيضاً.

ومن النظريات الأخرى (الحتمية التاريخية) التي نادى بها كارل ماركس (نبي الشيوعيين) الذي كان يقول: إن المجتمعات سوف تتطور من مرحلة إلى أخرى حتى تصل إلى مرحلة الشيوعية، وهي تعني الجنة التي وعد الله بها المتقين، لكنها سوف تنزل إلى الأرض .

وهذه الحتمية التاريخية لم تتحقق، ولم نصل إلى مرحلة الشيوعية، وانهار الاتحاد السوفيتي وهو في مرحلة الاشتراكية، حيث كان من المفترض أن ينتقل إلى مرحلة الشيوعية. وبذلك انتهت الحتمية التاريخية، وأصبحت من تراث الماضي.

العقيدة أساس الوحدة:

ومن الأسس الأخرى للوحدة بشكل عام العقيدة، وهي أساس الوحدة لدينا نحن المسلمين، إذ يفترض أن يكون لدينا ولاء وحب للمبدأ، وأن نقدم الدين على أنفسنا، كما فعل الإمام الحسين عليه السلام.

إننا نرى الآن من خلال الواقع، أن أية وحدة لا تقوم على أساس العقيدة فهي إلى زوال واضمحلال، ولنأخذ مثالين من واقعنا المعاصر:

المثال الأول: الرئيس جمال عبد الناصر، الذي كان رائد الحركة العربية الثورية لدينا، ونادى بالوحدة العربية، وبعد قضايا فلسطين وما جرى فيها، شعر الرئيس بأنه لم يحقق شيئاً من الهدف، فدعا أن يكون الرئيس من بعده زكريا محيي الدين كخليفة له، لأنه كان يحمل فكرة الوحدة العربية، لتستمر الدعوة إلى تلك الوحدة، ولكن لم يأت زكريا محيي الدين، وإنما أتى أنور السادات، فلم يهدف لا إلى وحدة عربية ولا إلى وحدة إسلامية، وإنما حقق وحدة يهودية.

والمثال الثاني: الإمام الخميني (قدس سره) الذي كان من دعاة الوحدة الإسلامية، وطرح أكثر من شعار يدعو المسلمين إلى الاتحاد.

وللمقارنة بين الحركتين نجد أن جمال عبد الناصر، عندما اختلطت الأوراق في حياته، لم يستطع أن يصمد، وأقصي زكريا محيي الدين، وجيء بالسادات، فضاع الهدف المفترض، وهو الوحدة العربية.

أما الإمام الخميني (قدس سره)، فعندما حصلت صراعات واختلطت الأوراق في حياته، كانت شخصيته شخصية لمّاحة استطاعت أن تفرز الأوراق وتبقى سائرة باتجاه الهدف. وهذا واقع تاريخي لا بد أن نفهمه، فقد عايشت

مجموعة من المراجع الذين كانوا ذوي شخصيات لمّاحة، ويستطيعون أن يثبتوا عندما تختلط الأوراق، ويصلوا إلى هدفهم. فكان منهم الإمام السيد محسن الحكيم (قدس سره) الذي كان ذا شخصية لماحة قوية، يستطيع عند اختلاط الأوراق أن يفرزها ويصل إلى الهدف.

وهكذا الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) على صغر سنه، كان شخصية لماحة، ويستطيع أن يثبت ويفرز مهما اختلطت عليه الأوراق، وقد كنا نعيش معه جنباً إلى جنب، حتى في التحركات السياسية، ولاحظنا بدقة أنه كانت لديه قدرة كبيرة على فرز الأوراق، واكتشاف السر، والمحافظة على الهدف.

فالإمام الخميني، لو لم يكن ذا شخصية لمّاحة، واختلطت عليه الأوراق، حيث أتى فلان وذهب، وأتى الآخر وذهب، لأصبحت نتيجة الدولة غير مرضية اليوم، لكنه استطاع أن يختار من الناس من ينادي بالوحدة الإسلامية، فاختار السيد الخامنئي، وقد وُجِّهتْ إليه انتقادات حول هذا الأمر، أي أنه اختار هذا الرجل مع وجود مراجع كبار في السن، كانت لهم أدوار كبيرة في الحركة والنهضة.

والآن انكشف السر واتضحت الخطوط، وأثبت الزمن أن الإمام الخميني اختار فعلاً من يستطيع أن يواصل مسيرة الوحدة الإسلامية. وفي رأي السياسيين الغربيين اليوم، أن السيد الخامنئي أخطر من الإمام الخميني.

لقد بادر السيد الخامنئي إلى تفعيل نهج التقريب والوحدة، وأنشأ المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، وكان ولا زال التجاوب جيداً من المسلمين من مختلف المذاهب لهذه الدعوة، وعندما ينعقد المؤتمر في كل سنة أو سنتين، يكون هنالك حضور مكثف. والدعوة إلى التقريب هي الخطوة الأولى نحو الوحدة

الإسلامية.

فمن الناحية التطبيقية نرى أن الخطوة الأولى للوحدة الإسلامية موجودة، ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن الوحدة الاقتصادية والسياسية وغير ذلك.

الأسئلة

س١: في عصر الغيبة واتحاد الهدف بين عدة شعوب، ما هي مقومات الوصول إلى الهدف المنشود ألا وهو الوحدة؟

الجواب: ذكرت في آخر المحاضرة أن الدعوة إلى تقريب المذاهب، خطوة أولى نحو الوحدة. وكذلك المؤتمرات التي تعقد لإيجاد تقارب اقتصادي، أو سياسي، أو حتى تقارب عسكري، كل هذه تصب في صالح الوحدة الإسلامية.

والشعور موجود الآن عند المسلمين عامة بضرورة الوحدة الإسلامية، وقد ذكرت في محاضرات سابقة أن بعض الدول الإسلامية اليوم دخلت في مجال التصنيع، وأصبحت تنتظر الوقت الذي تنافس فيه الصناعات الغربية الثقيلة، بل إن الغربيين بدأوا ينقلون الكثير من صناعاتهم إلى بعض الدول الإسلامية، خاصة بعض البلدان العربية، وهذه كلها تصب في صالح الوحدة الإسلامية، وتمهد لها.

س٢: هل ترون أن الاتفاق على مبدأ ولاية الفقيه، أمر يساعد على الوحدة، أم أنه أمر يعمق الهوة والخلاف بين أبناء الطائفة؟

الجواب: ليس لدينا فقيه واحد لا يقول بولاية الفقيه، إنما الاختلاف بين الفقهاء في مدى سعة أو ضيق دائرتها.

وفي خضم الواقع الحالي الذي كثر فيه الحديث عن ولاية الفقيه، بحيث أصبح الحديث فيها يصل إلى غير المتخصصين، لا بد أن أوضح هذا الأمر بإيجاز:

المقصود من ولاية الفقيه هو حاكمية الفقيه، وهذا ما يراه جميع الفقهاء، لكن هذه الولاية قد تكون محدودة في إطار الأمور الحسبية فقط، وقد تكون أوسع من ذلك، فتشمل الحدود وبعض القضايا التي ترتبط بالحكم، وإقامة الحكم الإسلامي.

فإذا كانت ولاية الفقيه تعني (الحكومة الإسلامية) فلا أظن أن هناك مسلماً واحداً يرفض حكم الإسلام، ويريد حكم الكفار، كما أنه لا يوجد فقيه واحد يرفض حكم الله، ويدعو إلى حكم الجاهلية، وما يثار حول ذلك من كلام إنما هو كلام رخيص يستغل للتفرقة.

فالالتفاف حول الحكومة الإسلامية، مطلوب من جميع المسلمين، وكيف تتحقق لديهم الوحدة إذا لم تكن لديهم حكومة إسلامية؟ إن الحكومة الإسلامية هي النواة الأولى للوحدة، والعامل القوي الذي يساعد على إقامة الوحدة الإسلامية.

س٣: هل أن إمكانية تحقيق الوحدة أمر يتوقف على خروج الحجة عجل الله تعالى فرجه؟ وإلا ما معنى عدم تحققها لحد الآن؟ وهل يمكن أن يطلب الباري تعالى من الناس الاعتصام، وهو يعلم عدم إمكانية تحققه على أرض الواقع؟

الجواب: كلا، فمن الممكن أن تتحقق الوحدة الإسلامية على أرض الواقع قبل ظهور الإمام، وليس هناك ما هو مستحيل هنا. أما الوحدة التي تكون في زمن الإمام المهدي (عليه السلام)، فهي وحدة العالم بأسره، وليست وحدة المسلمين فقط.

إن الوحـدة المثالية التي نتصورهـا ممكنة التحقيق، وإن كانت صعبة، ولكن من الممكن أن تكون لدينا وحدة اقتصادية وعسكرية وثقافية.

ففـي أوربـا اليوم تحققـت الوحـدة الاقتصاديـة، وفي دول أخـرى تحققت الوحـدة العسـكرية أو الثقافيـة أو غيرها، وما نـراه من المنـاداة في دول مجلس التعـاون الخليجي حـول توحيد المناهج والمقررات الدراسـية، إنما هو نوع من الوحدة أيضاً.

س٤: التحـدث عـن الوحدة قـد يكون نظرياً أكثـر من كونـه عملياً، فهل هنالك تجارب سابقة أثبتت عكس ذلك، خصوصاً ونحن نعيش انقساماً كبيراً بين أصحاب الفكر الواحد؟

الجـواب: كلا، لا يوجد انقسـام بهـذا المعنى. قد يكـون هنالك اختلاف في وجهـات النظر، وهذا أمر طبيعي، ولا نسـميه انقسـاماً. فالدعـوات للوحدة كانـت موجـودة، ولكن كانت ولا تـزال أطماع الغربيين في البلاد الإسـلامية، تقـف عائقاً أمامها بالدرجـة الأولى، فهؤلاء الطامعون يملكون من الوسـائل والأسـاليب مـا يقف عائقاً أمـام الوحدة، ولكن تنامي الوعي لدى المسـلمين اليـوم، جعـل الغربيـين يفهمـون الإسـلام، إذ لم يكونـوا في السـابق يفهمون الإسلام بهذه الكيفية، وإلى حدٍّ قريب كانوا يعتقدون أننا في الجزيرة العربية ما نزال نركب البعير ونعيش في الصحاري، في حين أنهم يصدرون لنا السيارات التـي تصل أثمانها بالملايين، ومع ذلك يظنون أننا لا زلنا نركب الناقة ونسـكن الخيام. أما الآن فأصبحوا يؤمنون بأننا تطورنا ولدينا قصور وحدائق وشوارع وأننـا نركب السـيارات وليس الإبـل، وبالتـالي أصبحنا مثلهـم. وبالتالي فقد فهموا أن المسـلمين ذوو حضارة وثقافة وهم يسعون لرفع مستوياتهم وتطوير قدراتهم.

س٥: كثيراً ما نسمع عن مؤتمر الوحدة الإسلامية، الذي يقام سنوياً في إيران منذ أيام الإمام الخميني (قدس سره) وتحضره الكثير من الاتجاهات المختلفة، والسؤال هنا:

ما مدى الفوائد والخطوات العملية الملموسة لهذا المؤتمر؟

الجواب: كل ما نقوم به من الأمور العامة لا بد أن يبدأ بخطوات معينة محددة، فالخطوة الأولى أن تطرح الفكرة. فلو أردت أن تقوم بإنشاء مستشفى أهلي مثلاً في هذه المنطقة، فلا بد أن تطرح الفكرة أولاً، ثم تعمل على نشرها بين الناس، ثم تبين جدول وبرنامج المشروع، وأهدافه وفوائده المتوخاة. فإذا وصلت الفكرة إلى مستوى رأي عام، بمعنى أن أكثر الناس أصبحوا يؤمنون بها، فسوف تنزل إلى مجال العمل.

كذلك الحال في المؤتمرات التي تعقد كدعوة للوحدة الإسلامية، فهي من نوع نشر الفكرة لتصل إلى مستوى رأي عام، ثم يساعد الرأي العام على تذليل العقبات والصعاب.

فالوحدة الإسلامية من الناحية العملية ممكنة التحقيق، لكنها ليست غرفه صغيرة نستطيع أن نبنيها خلال أسبوع واحد، إنما يحتاج إلى زمن طويل، لأن العوائق موجودة وكبيرة.

فالمؤتمرات والندوات والمجلات التي تصدر وما ينشر في الصحف، كل هذا يساعد في تحقيق الهدف، لكن علينا أن لا ننسى أن الموضوع شائك، ويحتاج إلى زمن طويل، وجهد كبير.

س٦: يرى بعض الناس أن الخلافات التي تطفو على السطح بين العامة، ما هي إلا انعكاسات لما يجري بين الكبار والقادة، فما تعليقكم على هذا الرأي؟

الجـواب: إذا كانـوا كباراً حقـاً فينبغي أن لا يتسرب منهـم شيء إلى العامة، لأن طبيعـة البشر هـي النقاش والتفاعل مع الحدث، فالله تعالى أعطاهم العقل كما أعطاهم العاطفة.

أمـا مـا هـي طبيعة وحـدود النقـاش، فينبغـي أن لا يصل النقـاش إلى حد التفرقـة والعداء، وهـو ما يؤخذ علينـا الآن، بأننا نتحرك خلـف عواطفنا، لا خلف عقولنا، الأمر الذي يفسد أكثر مما يصلح من هذه الناحية.

المحور الرابع

مفاهيم قلقة

- المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي (١)
- المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي (٢)
- كيف نقرأ التاريخ؟

المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي -١

نظرية المعرفة، حق الحياة، الحرية، الدين
الفكر، الوعي، الهوية، السياسة

تمهيد:

هناك مجموعة غير قليلة من المفاهيم، التي يمكن أن نسميها بالمفاهيم (القلقة) وهي التي لا تستقر على مدلول أو معنى معين واحد.

ويمكن أن نسمي بعض المفاهيم الأخرى بالمفاهيم (الحائرة) وهي التي لا يعرف معناها بالضبط، وبعضها الآخر نسميه بالمفاهيم الضيقة، وهي التي تستعمل في أكثر مما تدل عليه من معنى.

وسبب ما يحدث لهذه المفاهيم قد يرجع إلى ترجمة الألفاظ من اللغات الأخرى، كالإنجليزية والفرنسية، إلى اللغة العربية، فيكون المترجم ليس بالمستوى الذي يستطيع أن يفهم مدلول هذا المصطلح أو معنى هذا المفهوم، فيتصرف فيه من عنده وفق مستوى ثقافته وعلمه، فيحصل شيء من الارتباك أو الخلط في معنى هذا المفهوم.

كما أن بعض هذا الخلط جاء نتيجة التفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة الغربية، فمن طبيعة الحضارات التقارب في الألفاظ، حيث تأخذ كل حضارة من ألفاظ الحضارة الأخرى، وتعطي من ألفاظها لتلك الحضارة. وغالباً ما يحصل هذا بشكل تلقائي، وإذا

ما حصل بالشكل التلقائي، فإنه يحصل شيء من القلق أو الضيق أو السعة في المفهوم.

إن هذه المفاهيم التي سوف أستعرض بعضاً منها بشكل خاص للتوضيح فقط، لا زالت تتلى إلى الآن على الألسن بكثرة، في وسائل الإعلام والصحافة والمجالات العلمية على اختلافها في العلوم الإنسانية وغير الإنسانية.

من هنا لا بد من محاولة تحديد دلالات هذه الألفاظ من وجهة نظر إسلامية، ولنأخذ نماذج معينة من تلك المفاهيم:

١ - مفهوم المعرفة:

من تلك المفاهيم المشار إليها، والتي تستعمل بكثرة، مفردة (معرفة) فنقول: معرفة، ونجمعها على معارف. فماذا نعني بكلمة معرفة ؟

المعرفة: هي الفكر الذي يدور في ذهن الإنسان.

فأنت تلتقي بإنسان ما، فتقول: عرفت هذا الإنسان، ومعنى أنك عرفته أي انطبعت صورته في ذهنك، وهذه الصور المنطبعة في ذهنك له نسميها (فكرة) كما نسميها (معرفة).

وقد بحثت المعرفة في أقدم بحوثها ودراساتها في موضوع الفلسفة، ومن أقدم الفلسفات التي بحثت المعرفة هي (الفلسفة الإغريقية) أو (الفلسفة اليونانية) حيث بُحثت المعرفة كموضوع من موضوعات الفلسفة، وتحدّرت من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفات الأخرى، وخاصة الفلسفة الإسلامية.

والفلسفة الإسلامية اليوم تبحث في موضوعين أساسيين[1]، هما: نظرية المعرفة ونظرية الوجود.

---

(١) للمزيد من الاطلاع راجع كتاب فلسفتنا للشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره.

فإلام يهدف الفلاسفة من بحثهم في نظرية المعرفة؟

إن الفلسفة بشكل عام، واليونانية منها بشكل خاص، التي تأثرت بها الفلسفات الأخرى، كالفلسفات الغربية المعاصرة على اختلاف أنماطها، وكذلك الفلسفة الإسلامية القديمة والمعاصرة أيضاً، إنما تبحث في (مصادر المعرفة).

فمن أين نحصل على هذه المعارف الموجودة لدينا؟ وما هي المصادر والوسائل التي نحصل من خلالها على الأفكار والمعارف والمعلومات؟ كل هذه الأمور تبحثها نظرية المعرفة.

لماذا تبحث الفلسفة عن مصادر المعرفة؟

إن الفلسفة تبحث دائماً في العلل، أو العلّة الأولى للأشياء، فهي تبحث في أصل الوجود.

فمثلاً: عندما يرى الفيلسوف هذه البناية فإنه يسأل: من الذي شيدها ؟ وإذا كان الإنسان هو الذي بناها، فمن خلق الإنسان؟ وهكذا يبحث حتى يصل إلى العلّة الأولى، وهي الله سبحانه وتعالى في اعتقادنا نحن أصحاب الأديان، وربما يكون في اعتقاد الآخرين أمر آخر.

كما تبحث الفلسفة عن الأصل الذي جاءت منه المعارف، ففي الفلسفة اليونانية، وحتى في الفلسفة الإسلامية، يذكرون مصدرين للمعرفة، هما: (الحس) و (العقل) فأنت تنظر للأشياء بعينيك، فتصبح محسوسة لديك، وتنتقل صورها إلى ذهنك، فتنطبع هناك، وبالتالي تكون تلك المعرفة قد اكتسبت عن طريق الحس. وهكذا في سماعك ألفاظاً وأصواتاً، أو لمسك أشياءً معينة، أو إدراكك إياها عن طريق إحدى الحواس.

ونحن نرى أن معظم المعارف التي يمتكلها الإنسان إنما يأتي عن طريق (الحس). فاللغة يكتسبها الطفل من الأبوين، ومن الأسرة، ومن الناس الآخرين، عن طريق الحس.

فالمصدر الأوسع لحصول المعارف هو الحس (الحواس الخمسة).

أما المصدر الثاني الذي يذكره الفلاسفة فهو: العقل.

ما هي وظيفة العقل؟

من الطريف أن نذكر هنا أن العقل من المفاهيم التي اختلف في تعريفها اختلافاً واسعاً. ففي أحدث ما توصلت إليه الفلسفة الحديثة من تعاريف، لم تتوصل إلى تعريف جازم لمعنى العقل. ولكننا ندرك بلا أدنى شك أن لدينا عقولاً، وذلك من خلال التفكير، فهذا التفكير إنما ينطلق من جهازٍ ما، وهذا الجهاز يمكن أن نسميه (العقل)، سواء كان هذا الجهاز مادياً، كأن يكون المخ والمخيخ والنخاع، أم غير مادي، المهم أن هناك جهازاً للتفكير، نسميه العقل، أينما كان موطنه، في القلب، أو في موطن آخر.

إن تلك المعلومات التي نحصل عليها عن طريق الحواس، تنتظم وتُنَظّم في أذهاننا، وإذا نُظمت في أذهاننا، فإنها توصلنا إلى معلومات أخرى، وهذه المعلومات الجديدة إنما توصلنا إليها عن طريق العقل.

فأنت مثلاً ترى شخصين متشابهين تشابهاً كاملاً، فتحكم من خلال هذا التشابه أن هذين توأمان، فكونهما متشابهين جاء عن طريق الحس، وكونهما توأمين جاء عن طريق العقل، فالعين لا تحكم بكونهما توأمين، إنما الذي يحكم بذلك هو العقل.

فالعقل يتحرك في دائرة المحسوسات والمعارف التي أخذناها عن طريق

الحس، ويستخرج منها معلومات أخرى جديدة نسميها: (معلومات عقلية) وهذا ما يذكره الفلاسفة من المسلمين وغير المسلمين.

موقف الإسلام من نظرية المعرفة:

والسؤال الآن: ما هو موقف الإسلام من (نظرية المعرفة)؟ فهل يرى أن مصادر المعرفة تنحصر في العقل والحس فقط؟ أو أن هناك مصادر أخرى للمعرفة؟

لو رجعنا إلى القرآن الكريم لرأينا أنه يشير إلى مصادر معرفية أخرى غير ما ذكرته الفلسفة، وهذه المصادر الجديدة هي (الوحي) و (الإلهام)، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1] أي ألهمه ذلك، وقال أيضاً: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2]، أي ألهمناها.

فالقرآن الكريم يشير إلى مصدرين إضافيين آخرين غير العقل والحس، وهما الوحي والإلهام، مع إقراره بالمصدرين السابقين، فهو يعتبر أن العقل والحس مصدران من مصادر المعرفة، لكنه يضيف إليهما الوحي والإلهام.

ما هي المعارف التي حصلنا عليها عن طريق الوحي؟

من أمثلة المعارف التي حصلنا عليها عن طريق الوحي معرفة (الملائكة) فنحن لم ندرك الملائكة بحواسنا، كما أن العقل لا يحكم بوجودها أو عدم وجودها، ولو لم يرد ذكر الملائكة في الكتب الإلهية لما كنا نعتقد بها، بل لما كنا نعرف شيئاً عنها، فمعرفة الملائكة مصدرها الوحي.

---

(١) النحل: ٦٨.

(٢) القصص: ٧.

ومـن أمثلة تلك المعـارف (الجنة والنـار) فنحن لم نر الجنـة ولا النار، لكننا نؤمـن إيماناً يقينياً بأن هناك جنـة وناراً، فمن أين حصلنا على هذه المعرفة؟ لقد حصلنا عليها من (الوحي)، والقرآن الكريم هو الذي أخبرنا بوجودهما.

فقـد أضاف الإسـلام إلى مـا ذكرته الفلسـفة من مصادر المعرفـة مصدرين آخرين، هما: (الوحي والإلهام) ولدينا الآن الكثير من المعارف، خاصة في مجال العقيدة، استفدناها من طريق الوحي، أي عن طريق الأنبياء والكتب الإلهية، أو عن طريق الإلهام.

إذن مفهـوم المعرفـة، أو مصـدر المعرفـة، يعتبر مـن المفاهيـم الضيقة، لأنه ينحصر - كما يقول الفلاسـفة - في العقل والحس فقط. وإذا كان الأمر كذلك فـلا نسـتطيع أن نؤمـن بالكثير مـن القضايـا الدينية التـي لا طريـق للعقل أو الحـواس إليها، ولكن لأننا نؤمن بالوحي، ونؤمن بأن الدين من الله، نسـتطيع أن نؤمن بها.

فلا بد إذن من توسعة مفهوم المعرفة، لأنه مفهوم ضيق.

ومن الجدير بالإشـارة هنا أن الفلسفة الحديثة، والعلوم الإنسانية والطبيعية الحديثـة، كلها لا تؤمن بالغيبيات، ولا تؤمـن بالله، لأنه غيب، ومعنى الغيبية: أنـه لم يقع تحت متناول الحواس. لذا ينفي هؤلاء كثيراً من القضايا التي تقع في دائرة الغيب.

ولتصحيح هذا المفهوم لا بد من إضافة مصدرين آخرين كما ذكرنا، فنقول: للمعرفة أربعة مصادر، هي: الحس والعقل، وهما ما ذكرهما الفلاسفة، والوحي والإلهـام، وهما ما أضافهما الدين ليصحح مصـادر المعرفة، لكي يصح الإيمان بكل الغيبيات من الجن والملائكة والجنة والنار والإله، وما شابه ذلك.

٢ - حق الحياة:

ومـن المفاهيم الحديثة التي لا بد أن ندرسـها كما درسـنا مصادر المعرفة، ما يعرف بحق الحياة.

يتكرر دائماً في الإذاعات والصحف ووسـائل الإعلام المختلفة وعلى ألسنة النـاس، عبـارة (حقوق الإنسـان) وهنـاك وثيقة عالميـة تسـمى وثيقة حقوق الإنسـان، أو الإعـلان العالمي لحقوق الإنسـان، تتضمن مجموعـة من الحقوق التي تعتبر حقوقاً أساسية للإنسان، بحيث لا بد من توفرها لكل إنسان.

ومن هذه الحقوق حق الحياة، فما المراد بحق الحياة؟ والحال أن من الطبيعي أن يكون للإنسان حق الحياة، فما معنى وثيقة حق الإنسان في الحياة، والقوانين التي تبنت وثيقة حقوق الإنسان في الحياة؟ وماذا يريدون بحق الحياة؟

المفهـوم من حـق الحياة لـدى عموم الناس هـو أن يعيش الإنسـان في هذه الحياة، وذلك بأن يتوفر له المأكل والمشرب والملبس والمسـكن، فإذا توفرت له هذه الأمور فإنه يستطيع أن يعيش.

ثم إن حق الحياة يقوم على أساس الإيمان بأن الإنسان يعيش في مجتمع معين مـن المجتمعـات، أو في ظل دولـة من الـدول، فيكون له حق طبيعـي في ثروة تلـك الدولـة، أو ذلك البلد. والثروة هي الأموال، سـواء كانت نقوداً أم مواد أخرى.

فـكل إنسـان له حق طبيعي في ثـروة البلد الذي يعيش فيـه، وهذا الحق هو الذي يوفر له حق الحياة. ولكن كيف يوفَّر له هذا الحق؟

في القوانين المنبثقة أو المتأثرة بحقوق الإنسان، أو التي تعتمد في أسسها على مفاهيم حقوق الإنسان، يكون ضمان حق الحياة بتوفير فرص العمل للإنسان،

وبالتالي على الدولة أن توفر للمواطن فرص العمل، لكي يعمل ويعيش من خلال عمله، ويهيئ لنفسه المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وبالنتيجة تكون قد منحته حق الحياة. لو أن ما وفرته له الدولة لم يفِ باحتياجاته المذكورة، أي أن المواطن عمل، واستثمر فرصة العمل، لكنها لم تكفه ولم توفر له احتياجاته الأساسية، فماذا يصنع؟

بعض الدول تعتمد مبدأ الضمان الاجتماعي للعاجزين عن العمل، أما تكملة النقص المذكور فلا شأن لها به.

وهنا نصل إلى نقطة البحث المهمة، وهي أننا لو أخذنا مفهوم حق الحياة بالمعنى الذي ذُكر، أي بتوفير فرص العمل، فإنه يُصبح من المفاهيم الضيقة.

موقف الإسلام من حق الحياة:

إن مبدأ الإسلام ونظريته في هذه القضية هو أن الإنسان إذا عمل، غير مُتكاسل، وكان ما يحصل عليه عن طريق العمل لا يسدّ حاجته، فإن الإسلام يُلقي مسؤولية تكملة حاجته وسدها، على المجتمع وعلى الدولة. فعلى الدولة أن تكمل النقص الحاصل عنده، وهو ما نسميه بالضمان الاجتماعي، وإذا لم تقم الدولة بمسؤوليتها، فعلى المجتمع أن يقوم بتكملة النواقص، وهذا واجب عليه، نسميه بالتكافل الاجتماعي، أي أن كلاً منا يجب عليه أن يكفل الآخر، سواء عن طريق الحقوق المالية من الخمس والزكوات وأمثالها، أم غير ذلك.

ونقطة الفرق الجوهرية بين الإسلام وغيره من النظريات هي كرامة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1] فالإنسان في نظر الإسلام، له حق الحياة أيضاً، مع إضافة شرط الكرامة، بأن تكون الحياة مع الاحتفاظ بالكرامة، وأن

(١) الإسراء: ٧٠.

يمنح الحياة الحرة الكريمة.

يقول الإمام علي عليه السلام عن الناس: «**فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، وإما نظيرٌ لك في الخلق**»[١]. أي أن الإنسان إما أن تحفظ كرامته كمسلم، أو كإنسان.

أما بالنسبة إلى المحتاج، فلا بد أن تحفظ كرامته كإنسان، وهو ما يشير إليه الحديث النبوي المعروف عند جميع المسلمين: «**لكل كبِدٍ حرَّى أجرٌ عند الله**»[٢]، بمعنى أنك لو رأيت إنساناً محتاجاً وتصدّقت عليه فإنك تحصل على الأجر والثواب، بل في كل كائن حي محتاج، حتى لو كان حيواناً.

فالنقطة الجوهرية بين الإسلام والقوانين الأخرى، التي تحدد ضيق المفهوم أو سعته، هي (الكرامة). فالإسلام دائماً يريد أن يحافظ على كرامة الإنسان، سواء كان ذلك الإنسان مسلماً أو غير مسلم، فنحن نعطي الإنسان حق الحياة، ولكن لا نعطيه هذا الحق بمستوى الحيوان، بأن يأكل ويشرب ويسكن فقط، لأن الحيوان أيضاً يعطى المشرب والمأكل والمأوى، ولكن هناك فرق بين الإنسان والحيوان وهو ما نسميه بالكرامة.

ومن الأدلة على أن الإسلام يحفظ للإنسان كرامته مع توفير المأكل والمشرب وغيرها، أنه ينهى عن التصدق مع المنّ والأذى، لأنه سوف يجرح كرامة الإنسان، والمفروض أن نحافظ على كرامة الإنسان. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾[٣].

وقد ورد في سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام، أنه عندما توفي وجاءوا به

---

(١) نهج البلاغة، كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر.
(٢) جامع الأخبار، تاج الدين الشعيري: ١٣٩.
(٣) البقرة: ٢٦٤.

ليغسلوه رأوا آثار حمل الجراب على ظهره، فقد كان يحمله على ظهره، ويخرج في عتمة الليل المظلم، ويذهب إلى بيوت الفقراء، دون أن يعرف الفقراء بأن هذا علي بن الحسين عليه السلام، لأنه كان يريد أن يحفظ كراماتهم.

وقد بلغ به الأمر أن الناس لم يكونوا يعرفون في حياته أنه هو الذي كان يوصل إليهم تلك الصدقات، فلما مات انقطع عنهم ما كان يصل إليهم منه، والسر في ذلك الإخفاء أنه كان يريد أن يحفظ كراماتهم.

٣ - مفهوم الحرية:

من المفاهيم الحديثة، التي تخضع للسعة والضيق (مفهوم الحرية).

فالحرية معروفة في الإسلام، لكنها مذكورة في مقابل العبودية، أي في مقابل الرق، وهو ملك الإنسان للإنسان.

فعندما ظهر الإسلام كان الرقيق منتشراً في العالم بشكل كبير، ففتح الإسلام أبواباً كثيرة للقضاء عليه، ولم يبق للرق إلا منفذ واحد فقط، وهو أسرى الحرب، وقد انتهى الرق في العالم كله تقريباً.

وهذا المعنى ليس هو المقصود اليوم، والحرية المقصودة في تعبيراتنا اليوم، عندما نقول: نريد حريتنا، أو لماذا لا يعطوننا حريتنا، أو عندما يقول الولد لأبيه: لم لا تعطيني حريتي، ليس المقصود بها ما يقابل الرق، إنما يقصد بها معنىً آخر كما سيأتي.

إن أبرز مشكلة في الحرية، بل أبرز مشاكلها على الإطلاق، هو عدم وجود تعريف محدد لها، فقد كُتب عنها الشيء الكثير، ولكن لا يوجد لها تعريف واضح لنفهم معناها من خلاله، لذا يقال: إن الحرية من المفاهيم الحائرة، فلا نستطيع أن نشخص معناها بدقة.

إن كلمة الحرية بهذا المعنى انتقلت إلينا من الحضارة الغربية، وهناك في وثيقة حقوق الإنسان ما يسمى بالحريات الأربع، كما أن هناك وثائق أخرى صدرت بعد وثيقة حقوق الإنسان، نصت على الحريات التي ينبغي أن تعطى للإنسان، ومنها حرية الرأي، وحرية الكلام، فمن أين جاءت هذه التحديدات؟

لقد جاءت هذه التحديدات تبعاً لأنظمة واقعية موجودة في العالم، ومنها أنظمة الحكم، فقد قسموا أنظمة الحكم إلى ملكية وجمهورية، ثم قسموا الملكية إلى قسمين: دكتاتورية ودستورية.

فالملكية الدكتاتورية تعني أن يكون الملك مستبداً، لا يخضع لنظام أو دستور، إنما يتصرف من خلال ما يراه من المصلحة هو.

أما الملكية الدستورية ففيها نظام ودستور، بحيث ترجع الدولة كلها في قراراتها، بما فيها الملك، إلى النظام والدستور.

وكذا الحال في الجمهوريات، فهناك جمهورية ذات حكومة شعبية، وفي كثير من الأحيان يتسلط رئيس الجمهورية على مقدرات الناس، ويضع النظام جانباً، ويحتكم إلى سلطته الخاصة.

ففي مثل هذه الحالة، أي إذا كانت الدولة ليس فيها نظام، أو كان فيها نظام لكنه معطل، ويكون الحاكم عادةً رئيس الدولة، فإنه يستبد، ويسلب حريات المواطنين.

من هنا كانت المناداة بالحرية في الغرب في وجه أولئك الذين كانوا يسلبون حريات المواطنين، فكانوا يطالبونهم بالحرية. وكان جواب المستبدين أنهم لا مانع لديهم من إعطاء الحرية، ولكن ما هي الحرية المطلوبة؟ وما هي حدودها؟

لقد تولد في أذهان الناس خلط كبير بين الحرية والإباحية، إلا أننا إذا رجعنا إلى مجموعة النصوص الواردة في الشريعة الإسلامية، ومن خلال تعامل إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام أيام توليه السلطة مع مواطنيه، نرى أن الحرية تعني أن كل فرد من المواطنين يُعطى حقهُ كاملاً كما ينص عليه النظام، ومن دون أن يكون هناك اعتداء على حقوق الآخرين. فلك أن تأخذ حقك كمواطن وفق ما ينص عليه النظام من دون أن تعتدي على حقوق الآخرين. وهذا لا يتحقق إلا في حالة واحدة فقط، وهي أن يكون النظام عادلاً، وأن يكون القائم على تطبيق النظام عادلاً أيضاً.

فالنظام يجب أن يكون عادلاً بأن يراعي كل المواطنين على حد سواء، وكذلك القائم على النظام وتطبيقه. فلا نستطيع أن نوفر الحرية من خلال نظام جائر، حتى لو كان الحاكم عادلاً، فلا بد من شرط العدالة في النظام والحاكم القائم على تطبيقه، وفي مثل هذه الحالة نستطيع أن نوجد الحرية، لأنني سوف أستوفي حقي كاملاً، ولا يوجد من يعتدي على حقي، وأنت كذلك تأخذ حقك كاملاً، وليس هناك من يعتدي على حقك. أما إذا لم يكن النظام عادلاً، فسوف تُسلب الحريات، وكذلك إذا كان القائم على النظام غير عادل أيضاً.

من هنا كان التأكيد في الشريعة الإسلامية على العدل الاجتماعي، وعدالة النظام، وعدالة الحاكم، وخاصة عند المذهب الشيعي الإمامي، وبعض المذاهب الأخرى أيضاً، فمن أهم شروط الحاكم عندنا (العدالة)، ولكن بعض المذاهب ترى أن الحاكم إذا جار، فله حكم آخر، ويجب طاعته وعدم الخروج عليه، إلا في حال الكفر البواح، أما في المذهب الإمامي فإذا زالت العدالة عن الحاكم فإنه يسقط بشكل تلقائي، ولا يجوز اعتباره حاكماً بأي شكل من الأشكال.

فلا بد من توفر شرط العدالة فيه من حين تسلمه الحكم إلى نهاية المطاف،

لنحقق بذلك الحرية، حيث يعيش الجميع بكامل حريتهم، ويستوفون حقوقهم كاملةً، وتكون كراماتهم محفوظة.

إذن لا بد أن نقف عند هذا المفهوم (مفهوم الحرية) وهو من أهم المفاهيم، ولا بد أن نعطيه حقه من خلال النظام العادل، والحاكم العادل، وإلا فلا يمكن أن تكون هناك حرية دون تحقق هذين الأمرين معاً، حتى لو نادينا بإطلاق الحريات التي ينادى بها دائماً من خلال منظمة حقوق الإنسان التي توجه خطابات مستمرة للدول في مختلف أنحاء العالم، تطالبهم فيها بإطلاق حريات المواطنين، لأنها تنظر للقضية من جانب واحد، وهذه مفارقة ومؤاخذة مهمة تؤخذ على المنظمات الدولية المعنية بحقوق الإنسان، فهي تنظر إلى القضية من جانب الحاكم فقط، ولا تنظر إليها من جانب النظام، فقد يكون النظام نفسه، الذي يحكم به الحاكم، نظاماً جائراً. فليس من الصحيح أن نطالب الحاكم بالعدل في حين أنه يعتمد نظاماً جائراً.

لذا يفترض بتلك المنظمات أن تنظر إلى قضية الحرية من خلال النظام أيضاً، وتلاحظ مواطن الخلل والوهن والخطأ في الأنظمة، وتسعى إلى تصحيح هذه الأنظمة، لا أن تركز على الحكام فقط.

ويجب أن نلاحظ هنا أن أي نظام في العالم لا يمكن أن يكون عادلاً مطلقاً ما دام مصدره هو عقل الإنسان، وقد أثبتت التجارب أنه لا يمكن أن يكون هناك نظام عادل مائة بالمائة، ما لم يؤخذ من الله سبحانه وتعالى، لأنه هو العادل الوحيد المطلق.

٤ - مفهوم الدين:

هناك مفهوم آخر وهو (الدين)، فكلمة الدين منذ دخول الحضارة الغربية إلى بلادنا الإسلامية، وإلى يومنا هذا، تتعرض إلى صراع في تحديد مفهومها،

فماذا يعني الدين؟ هل يعني ما تعنيه المسيحية المعاصرة؟ فالمسيحية القديمة لم يكن معروفاً عنها هذا المفهوم معرفة كاملة، لأن هناك من يقول: إن شريعة السيد المسيح عليه السلام هي شريعة أخلاقية، وهناك من يقول: إنها شريعة فيها نظام كامل للحياة، ولكن لأن الأناجيل التي وصلت إلينا وقع فيها شيء من التغيير والتبديل، فلا نستطيع أن نفهم الدين إلا من خلال الكنيسة، وما في الكنيسة من الدين إنما هو طقوس عبادية، فيوم الأحد يكون هناك دعاء، وهو الصلاة عندهم، حيث إن صلاتهم نوع من الدعاء، وكذلك في مجال الأحوال الشخصية من العقد والطلاق وغير ذلك، أي أن ما نراه من الدين المسيحي ينحصر في حدود فردية وشخصية ضيقة،كالعبادات والأحوال الشخصية فقط ومنها الزواج والطلاق والميراث والحضانة والرضاعة، وهو ما يتعلق بالنظام الأسري بشكل عام.

أما الدين الإسلامي فليس الأمر فيه هكذا، لأنه نظام شامل لكل مجالات الحياة.

ومن هنا جاء التداخل والخلط في مفهوم الدين، فالغربيون طبقوا مفهومهم للدين المسيحي، أو دين الكنيسة على الدين الإسلامي، ووقع الصراع والنزاع بيننا وبينهم، فالدين في نظرهم بعيد عن الدولة والسياسة، وهذا صحيح، لأن دين الكنيسة ليس له علاقة بالدولة ولا السياسة. أما الدين الإسلامي فيختلف، حيث أقام النبي صلى الله عليه وآله دولة لها أسسها ونظامها السياسي، أما السيد المسيح عليه السلام فلم ينقل عنه تاريخياً أنه بنى دولة، إنما بقي يبشر ويدعو إلى الله إلى أن رفعه الله تعالى.

فالدين الإسلامي فيه نظام ودولة وسياسة، لأن رأس الدين الإسلامي، وهو النبي محمد صلى الله عليه وآله أقام دولة في المدينة، وجاء من بعده أمير المؤمنين عليه السلام

وتولى الحكم، وكانت كل متطلبات الدولة موجودة.

من هنا فإن مفهوم الدين أصبح بسبب الغربيين من المفاهيم الضيقة، قياساً على دين الكنيسة المسيحية، أما واقع الدين الإسلامي فيختلف تماماً عن ذلك.

٥ - مفهوم الفكر:

ومن المفاهيم المماثلة لذلك مفهوم (الفكر)، فقد كثر استعمال مفردة الفكر في الآونة الأخيرة، ورحنا نسمع عن الفكر الإسلامي مثلاً، أو فكر أهل البيت عليهم السلام وما أشبه ذلك.

فماذا تعني مفردة (فكر)؟

إن كلمة فكر تعني التفكير نفسه، كما تعني نتاج التفكير، وما يتوصل إليه العقل بعد التفكير.

وأكثر ما يطلق الفكر اليوم على الآراء التي يبديها الناس، سواء كانت تلك الآراء علمية أم غير علمية.

إن الفكر هو معرفة ـ كما تقدم ـ وقد ذكرنا سابقاً أن مصادر المعرفة لدينا تختلف عما هي عليه عند غيرنا، بزيادة مصدرين آخرين هما الوحي والإلهام.

أما كيفية جعل الفكر مؤثراً ومقبولاً، فهو ما لم يتناوله مَن كتب عن الفكر.

ونحن شيعة أهل البيت عليهم السلام، ومن خلال عملية الاجتهاد عندنا، نستطيع أن نستفيد من العناصر التي تجعل الفكر مؤثراً ومقبولاً، وهذه العناصر هي:

١ - الأصالة: بأن يكون الفكر أصيلاً، أي أن لا نكون مقلدين لغيرنا، ففي مقابل الأصالة يكون التقليد.

فمثلاً: هناك نظرية في الغرب وخصوصاً في ألمانيا ـ وهي في الواقع غير علمية، لكن كانت هناك محاولات لأن تكون علمية، لكنها في الواقع نظرية سياسية ـ تقول: إن الدم الغربي أفضل من الدم الشرقي، لأن الدم الغربي يمكن أن يخترع ويطوِّر، لكن الدم الشرقي جامد. وهذا خلاف الواقع فعندما كانت السيادة لنا قديماً، وكان الغربيون رعاة، كانوا يستجدون الأفكار من الشرق.

وطبقاً لهذه النظرية فإن بعض من يقرؤها لأول وهلة يقول: هذا صحيح، فنحن لم نخترع طائرات، ولا صنعنا سيارات، ولا غيرها، فيتبنى هذا الرأي، وهو ما نسميه التقليد، والسبب في ذلك أن هذا القارئ لم يدرس واقع الشرقيين وتأريخهم، وواقع الغربيين وتأريخهم، ومن خلال الدراسة توصل إلى هذا الرأي، إنما أخذ الرأي جاهزاً، متأثراً بغيره، وهذا خلاف الأصالة، فالأصالة أن تدرس بنفسك، وتتوصل إلى النتائج، ولا تقلد غيرك.

٢ – العمق: بأن لا يكون تناولك للأمور سطحياً ساذجاً. فالتعمق سوف يكشف عن الكثير مما تنتجه من أفكار، فمثلاً في بعض المسائل الفقهية، قد يبقى الفقيه شهراً أو شهرين أو ثلاثة، ولا يستطيع أن يعطي الرأي في المسألة، لأنه كلما تقدم فيها شوطاً تقدمت معه أيضاً وتعقدت، ولا بد له أن يصل إلى نقطة يطمئن فيها إلى ما يقدم عليه من رأي.

هذا هو العمق في الفكر، أما السطحية فإنها تنتج فكراً ضعيفاً هزيلاً سرعان ما ينكشف، وتبدو فيه الثغرات بشكل واضح.

٣ – الاستقلالية: بأن تستقل أنت بنفسك في إعطاء رأيك، دون الاستعانة بالآخرين. بمعنى أن تكون أفكارك ودراستك مستقلة عن غيرك، فلا تستورد بعضها وتلفقها مع بعض آخر.

٤ - الشمولية: بأن تستوعب كل أطراف الموضوع ولا تكتفي بجانب على حساب الآخر.

٦ - مفهوم الوعي:

ومن المفاهيم التي تحتاج إلى توضيح وبيان مفهوم الوعي، فكثيراً ما نسمع عن التوعية وبث الوعي، فما هو الوعي؟

الوعي في اللغة: هو الفهم، يقال: وعيت الأمر، أي فهمته. وفي العرف العام يعني الذكاء، أما في الفلسفة فيعني الإدراك.

والذي يعنينا هنا هو: متى يكون الوعي مؤثراً؟ أو أن الفهم أو المعرفة أو الإدراك، متى تكون مفيدة؟

الجواب على ذلك أن يبدأ الإنسان بذاته فيعيها ويدركها، فإن أدرك ذاته فسوف يعمل لرفع مستواها. وكذا الحال في الأمة، حيث يفترض بها أن تدرك ذاتها أيضاً، فإذا أدركت ذاتها فسوف تستطيع أن ترفع مستواها. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى أعطى الأمة الإسلامية المركز الوسط، فلا إفراط ولا تفريط، والفكر الإسلامي من أوله إلى آخره إنما هو فكر وسطي، وكمثال على ذلك العقيدة الإسلامية، التي تؤمن بالإله الواحد، وهذا الإيمان أمر وسط بين الشرك، الذي يؤمن بتعدد الآلهة، وبين الإلحاد، الذي لا يؤمن بإله.

وهكذا الحال في كل جوانب الفكر الإسلامي، حيث نراه أمراً وسطاً. وكلمة (وسط) تعني: العدل والعدالة، فيكون معنى (جعلناكم أمة وسطاً)،

---

(١) البقرة: ١٤٣.

أننا وضعنا هذه الأمة بكل أفكارها في مركز العدل، كي تستطيع أن تعطي العدل للآخرين.

من هنا عندما نقول: على الأمة الإسلامية أن تعي ذاتها، أي أن تفهم وتدرك المركز الذي أعطاه الله تعالى لها، وهو هذه الوسطية ومركز العدل.

٧- الهوية:

من المفاهيم التي يكثر الحديث عنها الهوية، وهو مأخوذ من قولنا: ما هو، أو ما هي، حسب المسؤول عنه، مذكراً كان أو مؤنثاً، فنقول على سبيل النَّحْت: هَوية، أو هُوية.

فما هي هويتنا نحن المسلمين؟

عندما يطرح هذا السؤال، تكون الإجابة عنه محيِّرة، فهناك انتماء إلى الأرض وتربة الوطن، التي يحن إليها الإنسان ولو ذهب إلى آخر الدنيا، لأنه منتمٍ إليها، وقد نشأ وترعرع فيها، وبطبيعة الحال فهو ينتمي إليها عاطفياً، ويرتبط بها روحياً.

وهناك الانتماء إلى الجنس، فالعربي ينتمي إلى العرب، وكذلك الهندي ينتمي إلى الهنود، وهكذا.

وقد جاء الإسلام فألغى كل هذا الانتماءات على أساس الجنس وغيره، فهي انتماءات عاطفية تعمل على خلق الفوارق والفواصل، وجعل الانتماء إلى المبدأ فقط، فالانتماء والولاء الحقيقي إنما يكون للدين، لله ولرسوله وللأئمة عليهم السلام ولجماعة المسلمين.

فإذا كان انتماؤنا إلى المبدأ، وأدركنا أن هويتنا هي الانتماء للإسلام، فإن هذه الفوارق سوف تزول وتندكّ، فلا تشعر بالفرق بينك وبين المسلم الآخر الذي

يعيش في باكستان، أو الهند، أو بنغلادش، أو إيران، أو عمان، أو غيرها من البلدان، فالإسلام يلغي هذه الفوارق كلها، ولا يعترف بهذه الحدود القومية أو غير القومية.

لذا يفترض بالمسلم عندما يسأل عن هويته أن يقول: أنا مسلم. وهذا لا يمنع أن يكون مرتبطاً عاطفياً بوطنه أو قومه أو غير ذلك، إلا أن الانتماء الأول يجب أن يكون إلى الإسلام، وأن يشعر المسلم بمسؤوليته أمام المسلمين الآخرين، كما أنه لا بد أن يشعر الآخرون بمسؤوليتهم تجاه الفرد المسلم.

٨ - السياسة:

وهي من المفاهيم التي يُختلف في تفسيرها اختلافاً كبيراً، فهي تختلف في مفهومها الإسلامي عنه في الحضارة الغربية، وعندما أقول: في مفهومها الإسلامي، لا أريد بذلك واقع التاريخ الإسلامي، لأن هناك الكثير من الحكام في التاريخ الإسلامي لم يلتزموا بالسياسة الإسلامية.

أما في الغرب، فالسياسة عندهم من خلال الواقع تختلف عما هي عليه في الشريعة الإسلامية.

فالسياسة في الشريعة الإسلامية تعني: إدارة شؤون الأمة الإسلامية وفق الشريعة الإسلامية. بأن يأتي علي بن أبي طالب عليه السلام مثلاً ليكون على رأس المسلمين، ويدير شؤونهم، ولكن وفق الشريعة الإسلامية.

ومن المؤسف أن نجد في السياسة الإسلامية أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يكاد يكون الحاكم الوحيد من حكام المسلمين، الذي التزم بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً على نفسه وعلى الآخرين، عند رعايته شؤون الأمة.

ومن الأمثلة على عدله ورعايته موازين الإسلام أنه كان ذات مرة في بيت

المال لحساب ما فيه من أموال، وقد أشعل شمعة يستضيء بها، وكان لا يشعلها إلا إذا بدأ العدّ والحساب، فدخل عليه بعض المسلمين، من ذوي الحاجات والشؤون الخاصة، فأطفأ أمير المؤمنين الشمعة، وراح يحدثهم وسط الظلام، فلما سألوه عن ذلك أجابهم أن هذا من مال المسلمين، وليس لي أن أنفقه في غير شؤونهم.

هذه هي السياسة الإسلامية، فالحاكم لا يجيز لنفسه أن يختلس حتى هذا المقدار الضئيل الذي لا يكاد يذكر من المال.

فمعنى السياسة عندنا أن نلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية في إدارتنا لشؤون الأمة، وأن لا نخرج في ذلك عن أحكام الشريعة وحدودها.

أما في الغرب فإن مفهوم السياسة يختلف عما هو عليه عندنا، فالسياسة عندهم تقوم على أسس الخداع والتضليل والكذب والغش، وهكذا نرى اليوم، أن بعضنا عندما يرى كذّاباً محتالاً كثير الغش قال عنه: إنه سياسي، فيتصور أن السياسة هي نوع من (الشطارة) أو المهارة في التغلب على الآخر. هذا هو واقع السياسة الغربية، بل هو واقع السياسات التي لا تلتزم بالشريعة الإسلامية.

أسئلة

س١: هل يمكن أن نعتبر ما في الجمهورية الإسلامية في إيران نموذجاً للسياسة الإسلامية ؟

الجواب: إن الدولة في إيران لا تزال ناشئة وحديثة، وتحتاج إلى زمن طويل، وهذه المفاهيم عليها تراكمات كثيرة خلال الفترة الزمنية التي مرت بها، فتحتاج إلى زمن معقول. وهناك محاولات جادة من حيث الكتابة ومن حيث التطبيق،

لكن التركة ثقيلة، وتحتاج إلى شيء من الزمن إلى أن تنتهي إن شاء الله.

س٢: إننا اليوم نواجه صعوبات كثيرة في القضاء على الفقر، أو تقليل المعاناة الاجتماعية، وإذا وجد الفقير في المجتمع، فلن نستطيع إيجاد مجتمع متكامل من حيث الحرية المعيشية والفكرية والأدبية، فعلى من تقع المسؤولية في ذلك؟

الجواب: إذا كان الحديث عن بلادنا، فإن الحكومة لديها مشروع ضمان اجتماعي، ولا أتحدث هنا عن مدى سعته أو ضيقة، بل إنني لا أدري عنه تفصيلاً، لكنه موجود، وهناك الكثير من الناس يستفيدون منه.

أما التكافل الاجتماعي فهو مسؤولية جميع الناس، وهذا يمكن أن يكون عن طريق الجمعيات الخيرية، وأن تكون هناك دراسات دقيقة للواقع، وأن تدرس الأوضاع المعيشية لأبناء كل مدينة وكل قرية، ومن خلال النتائج التي تتوصل إليها الدراسات، نستطيع أن نفهم مستويات الناس، ويمكن عن طريق الجمعيات أن يتحقق الشيء الكثير.

لاحظوا مثلاً في إيران اليوم، هناك جمعية ضخمة للتكافل الاجتماعي، وفيها ملايين الدولارات، وهي جمعية ليس لها علاقة بالدولة.

ويمكن هنا أيضاً، بالإضافة إلى الضمان الاجتماعي الذي يستفيد منه الناس، أن يكون هناك تكافل اجتماعي.

س٣: من المفاهيم الجاهلية التي كانت سائدة آنذاك، مفهوم الظلم، وقد قيل في أمثالهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، إلا أنّ الإسلام وضعه في مفهومه الصحيح، ولكن جاءت في العصور المتأخرة أنظمة غيرت هذا المفهوم انطلاقاً من مشاعر عرقية، وألبسته لباس الإسلام، فهل من تعليق على هذه المفارقة أو هذا المفهوم المغلوط؟

الجواب: هذا الأمر يلتقي مع تفسير مفهوم السياسة، فالسياسة الإسلامية تعني الالتزام بالدين الإسلامي، ومبادئ الشريعة، أما إذا كانت السياسة هي محاولة الوصول إلى الغاية بأي وسيلة، على قاعدة (الغاية تبرر الوسيلة) فيمكن أن نتوقع الكثير من الأمور.

إن السياسة اليوم في جميع أنحاء العالم، تعتمد على الشعارات، فهي تطرح الشعارات وتهيِّئ وسائل الإعلام لنشرها وتغذيتها ودفعها وغلغلتها في نفوس الناس، لتصل عن طريقها إلى أهداف معينة.

س٤: كيف استطاع الغرب أن يُدخل مفهوم فصل الدين عن السياسة في عقول أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام وفي أوساط الحوزويين والفقهاء، حتى أصبح بعض الفقهاء يحرّمون قيام دولة إسلامية في زمن الغيبة؟

الجواب: ليس هناك فقيه شيعي واحد يحرّم قيام دولة إسلامية في زمن الغيبة، لا من المتقدمين ولا من المتأخرين، ولا من المعاصرين. إنما هناك من يرى أنه من غير الممكن أن تتحقق، أما أن يقول بعزل الإسلام، والسماح للكفر بأن يحكم المسلمين، فلا .

أما قولهم بصعوبة ذلك أو عدم إمكانه فهو ينبع عادةً من انعزال الإنسان عادةً عن الحياة، وعدم فهمه بشكل كامل لما يدور حوله، فهو يسمع أن هناك دولاً ضخمة مثل الاتحاد السوفيتي وأمريكا وغيرهما، فيقول: هذه الدول الضخمة لديها قوة هائلة من الصواريخ والطائرات والدبابات، ولا يمكن أن نقابلها نحن بما لدينا من وسائل ضعيفة. لكن التجربة أثبتت إمكانية ذلك، حيث قامت دولة إسلامية بالقرب من الاتحاد السوفيتي السابق، ولم يكن لديها من الإمكانيات ما لدى الاتحاد السوفيتي السابق.

فليس في فقهنا نحن الشيعة من يحرم قيام الدولة، إنما هناك من يرى صعوبة

أو استحالة قيامها. بينما لم ير الآخرون استحالة ذلك، فأقدموا على ذلك، كما أقدم الإمام الخميني (رحمه الله) الذي عاش إمبراطورية إيران أيام الشاه، وهي تعتبر إمبراطورية ودولة ضخمة، وكان من الصعوبة تغييرها وإزالتها، لكنه استطاع أن يسقط دولة الشاه. فالتجربة أثبتت إمكانية ذلك، وها هي الدولة اليوم قائمة.

أما كيف تغلغل الغرب واستطاع إقناع المسلمين بفصل الدين عن الدولة، فإن الغربيين عندما دخلوا إلى بلداننا، وخاصة إلى العراق وإيران والبلدان الأخرى، استطاعوا أن يبثوا أفكارهم المذكورة باستخدام وسائل الإعلام القوية والفاعلة، وسيطروا على وزارات التربية والتعليم، وكان باستطاعتهم إسكات من يعارضهم في ذلك الوقت، وإثارة الكثير من الشبهات حوله. وقد أثمرت تلك الحملة الكبيرة ثمارها.

س٥: هناك قيادات في بعض الحركات الإسلامية طرحت مسألة الولاء للوطن، وأن الحركات الإسلامية في العالم اليوم ولاؤها للوطن، وأن مفهوم الولاء له إيديولوجيات مختلفة، أو قيادات في الخارج، فما هو رأيكم؟

الجواب: ليس في قاموس الحركات الإسلامية أن الولاء يكون للوطن، فالولاء عندهم للإسلام، ولكنهم يستندون إلى التحرك في الوطن، ورعاية شؤونه وقوانينه، فمثلاً: لو كانت هناك مجموعة تعيش في بلد من البلدان، فإنها تتحرك في داخل ذلك البلد، وتحاول أن تصل إلى الحكم، أو إلى تطبيق الإسلام في ذلك البلد. ومن هنا يفهم الناس من ذلك أنه (ولاء للوطن) ولكن في الحقيقة هو ولاء للمبدأ.

فنحن نلاحظ مثلاً بالنسبة إلى العراق، أن جولة الأخ السيد محمد باقر الحكيم خاصة بالقضية العراقية، فكل تفكيره في العراق، في حين أن الإسلام

ليس منحصراً في العراق، لكنه يريد أن يخلص العراق من واقعه الحالي، وأن يحكم الإسلام في ذلك البلد، فهو ابن العراق، ويستطيع أن يتحرك باسم العراق، ومن أجل العراق، لكن ليس معنى هذا أن ولاءه للعراق، إنما ولاؤه للإسلام، ويسعى إلى تطبيقه في هذا الإطار.

س٦: كثيراً ما تمر علينا بعض المفردات في الكتب عندما يدور الحديث حول الإمامة والخلافة، ومنها: الأطروحة، والأيديولوجية، والثيوقراطية. فما معنى هذه المفردات؟

الجواب: الأطروحة مأخوذة من أطروحة الماجستير والدكتوراه، وتعني الرسالة أو الرسالة الجامعية.

أما الإيديولوجية فهي مؤلفة من كلمتين (Edia) بمعنى الفكرة، و (Logy) بمعنى العلم، أي العلم المعنيّ بدراسة الأفكار، هذا في الأصل، ثم نقلت من علم الاجتماع إلى مجال السياسة، فأصبحت تعني الفلسفة والمنهج الذي يسير عليه الفرد أو الجماعة أو الحركة أو الدولة، فيقال: هذه إيديولوجيته، أي فلسفته في الحياة.

أما الثيوقراطية، فهي ترتبط بالحكم، لأن مفردة (قراطي) تعني الحكم، وكل ما نسمعه من هذه المصطلحات المنتهية بكلمة (قراطي) إنما يرتبط بالحكم. والثيوقراطية تعني فئة من الشعب، وهي الطبقة الثرية، أو طبقة رجال الدين، أو ما أشبه ذلك.

س٧: كنت في زيارة لأحد المراجع المعاصرين ممّن يؤمن بفصل الدين عن السياسة، حيث دار الحديث عن هذا الموضوع، فقال المرجع المذكور: إن ما كان يفعله الإمام علي عليه السلام من عزل الولاة وقيادة الجيش، ليس من السياسة، إنما كان من الدين. فما مدى صحة هذا الرأي؟

الجواب: عندما يريد المرجع المذكور أن يقول إن ذلك ليس بسياسة، فهو يفهم السياسة بمفهومها الغربي، ونحن لا نستطيع أن نطبق السياسة بمفهومها الغربي على الإمام علي عليه السلام، لأنه ظلم وكفر، فهو إمام معصوم لا ينحرف ولا يلتوي ولا يحيد عن الشريعة. فالمرجع المذكور، لأنه يفهم السياسة بمفهومها الغربي يقول إن هذا العمل من الإمام ليس بسياسة، فيعني بذلك أنه ليس بسياسة من مفهومها الغربي، إنما هو دين، فهو لا يريد أن ينفي كون الدين فيه نظام حكم، فإذا نفى ذلك فما معنى أن الإمام كان يطبق نظام الحكم، ويعزل ويولّي؟

س٨: ما هو مفهوم القيادة الإسلامية؟ وما هي أبعادها على مستوى الأمة الإسلامية عامةً بغض النظر عن الحدود السياسة؟ وهل أن من يعادي القيادة الإسلامية أو يواليها يعتبر معادياً لله أو موالياً له؟

الجواب: إذا كانت القيادة الإسلامية تتجسد فيها شروط القائد الإسلامي، فإن موالاته موالاة للإسلام بلا شك، أما إذا كان القائد يدعي الإسلام ولا يلتزم به، فلا أحد يواليه ويدعي أنه يوالي الإسلام.

س٩: من المعلوم أن العلمانيين أو العلمانية قد اتهموا الدين تهماً خطيرة، ودعوا إلى فصل الدين عن الدولة، والسياسة عن الدين، ورد عليهم أحد علمائنا الأعلام قائلاً: نحن قوم عبادتنا سياسة، وسياستنا عبادة. والسؤال هنا: ما هو منشأ هذه العلمانية؟ وما هو مدى خطر العلمانيين على الإسلام؟

الجواب: مفهوم العلمانية تطرقنا له في محاضرة سابقة في الأحساء، ولا أريد الاسترسال فيه هنا، فالعِلمانية أو العَلمانية، تؤمن بأمرين أساسيين: هما فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن التعليم، وهي من المفاهيم الغربية الوافدة إلينا، فلم يكن مثل هذه الأمور مألوفاً في مجتمعات المسلمين ولا عند الأمة

الإسلامية.

فالغربيون، ونتيجة لما عانوه من الكنيسة واضطهاد رجال الدين، قاموا بفصل الدين عن الدولة و عن التعليم، وقد قلنا سابقاً إن الدين عندنا يختلف عما هو عليه عند الغربيين ولدى الكنيسة، وإذا كان الأمر كذلك فلا مسوغ لفصله عن الدولة أو التعليم.

والعلمانيون مهما كان لهم من الوجود في البلاد الإسلامية، فلا يشكلون خطورة على الواقع الإسلامي، لأن الصراع في داخل البلاد الإسلامية، لم يعد اليوم بين العلمانيين والمتدينين، وإنما أصبح بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

س١٠: على ذكر التكافل الاجتماعي في الإسلام، في الأسبوع الماضي شاهدتُ بأُمِّ عيني طفلتين في سوق اللحوم تجمعان أرجل الدجاج، ولما تحققت من الأمر اتضح بأنهما طفلتان يتيمتان لا كافل لهما. والسؤال هو: ألا يجب علينا نحن الحاضرين أن نحقق، ولو شيئاً يسيراً من التكافل الاجتماعي بدون تأخير؟ فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ، وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظم.

الجواب: في مثل هذه الحالة يجب أن أتحدث عن التكافل الاجتماعي بشكل عام، ولكن هذه قضية خاصة، ويجب إنقاذ الطفلتين بشكل فوري، وهذا واجب شرعاً، وعلى من يعرف هاتين الطفلتين إنقاذ الوضع وبشكل فوري كمساعدة لمن يستطيع، ومن لا يستطيع يكون واسطة خير ويطلب من الآخرين مساعدتهما، ومن لا يعرف يسقط عنه التكليف .

و الحمدُ لله رب العالمين

المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي - ٢

(الايديولوجيا، الأصالة، المعاصرة، التراث)

هنـاك ألفـاظ تجري على الألسـن وفي وسـائل الإعـلام المسـموعة والمرئية والمقروءة، وعلى مسـتوى العالم، وأصبح الاختلاف في مدلولاتها ومعانيها من أهم مشكلات الثقافة العالمية.

وبسبب هذا الاختلاف أصبحت تُستغل اسـتغلالاً كبيراً وخطيراً في مجال الصراع بين الأفكار والآراء.

ومـن تلك الألفاظ: الأصالة والتراث والمعاصرة والحداثة، وآخر (تقليعة) صرنا نسـمعها منذ سـنة تقريبـاً هي (الإرهـاب)، وهناك ألفـاظ غيرها. فأين نتعرف معاني تلك الألفاظ مع الاختلاف المذكور في مدلولاتها؟

أول مـا نبحث فيه عن معـاني تلك الألفاظ هو المعاجـم الدلالية، والمعجم الدلالي هو ما يتتبع تأريخ الكلمة، ومتى اسـتخدمت؟ وفي أي مجتمع؟ وكيف انتقلت مع الأجيال وفي المجتمعات وحملت هذه المعاني المتعددة؟

وليـس هنـاك معجـم دلالي وافٍ باللغـة العربيـة، أما في اللغـات الأخرى فهناك معجم أكسـفورد، وهو أبرز معجم دلالي عالمي. أما المعاجم الأخرى، كالمعجم الكبير الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة، فربما يتعرض لشيء مـن دلالات الألفـاظ المختلفة ويرجعها من الناحيـة التأريخية أو الجغرافية إلى

أزمانها ومواطنها.

والسؤال الآن: كيف يقع الاختلاف والتعدد في تلك الألفاظ؟ فهل يحصل بشكل تلقائي كما يقع لألفاظ اللغات الأخرى أو ألفاظ اللغة الواحدة؟

فمن الأمثلة على تغير المعنى في اللفظة الواحدة كلمة (مستهتر) فهي تستخدم اليوم في جميع البلدان العربية تقريباً لإدمان الفرد على عمل غير مرغوب فيه، فلا يبالي بالأخلاق الفاضلة والآداب. لكن الأصل اللغوي للكلمة لم يكن لهذا المعنى، إنما وضعت لمن له ولع بأمر محبوب[1]، فمن أحب الصلاة مثلاً يقال عنه قديماً: إنه مستهتر بالصلاة، أما لو قيل عنه اليوم لفهم أنه لا يقيم للصلاة وزناً.

ومن ذلك كلمة (مُدمن)، التي تستخدم اليوم في من أدمن على شرب الخمر، أما في اللغة فتعني الإكثار من الشيء، وقد ورد في تراجم الكثير من العلماء: أنه مدمن حج مثلاً.

وهذا التغير حصل بشكل تلقائي نتيجة التغير الاجتماعي والتفاعل بين اللهجات واللغات، ولكن هناك تغير يحدث بشكل مقصود يراد منه تحقيق أغراض معينة.

الأيديولوجيا:

كثيراً ما نسمع عن مفردة الإيديولوجية، وهي كلمة معربة نقلت إلى العربية وأضيفت لها التاء لتصبح مصدراً صناعياً، وأصلها (Ideology) وهي لفظة فرنسية تحدّرت من اللاتينية، وهي مركبة من كلمتين: (Idea) بمعنى فكرة و (Iogy) بمعنى علم، فتكون الترجمة المناسبة لها (علم الأفكار) أي العلم

---

(١) في الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام: لسان البرّ مستهترٌ بدوام الذكر.

الـذي يـدرس الأفكار. وعادة ما تكـون تلك الأفكار هـي العقائد. أو بمعنى أكثر شمولية، أنه يدرس الفلسفة التي يؤمن بها الإنسان أو المجتمع أو مجموعة مـن الناس، وتعطي فكرة عن الكون، وهل أنـه قديم أو مخلوق؟ ومن خلقه؟ وهـل أنـه يتطور أو لا ؟ وهل له نهاية أو لا ؟ فهو يدرس الفلسـفة التي تتناول الكون والمجتمع والإنسان.

ولا شـك أن كل أمـة لديها فكرة عـن الكون و المجتمع والإنسـان، بل كل فرد في المجتمع أحياناً. كما أنه لكل فرد سلوك يختلف به عن الآخر ولو جزئياً، ولـن تجد اثنين يتطابقان تماماً في سـلوكهما، فلا بد من فـرق بين هذا وذاك ولو بشـكل جزئي. وهذا أحد مظاهر قدرة الله تعالى، ويسـمى في الفلسـفة اختيار الفاعـل، فالفاعـل المختار ينتج الكثير المتنوع، أمـا الفاعل المضطر فلا ينتج إلا نوعـاً واحـداً أريـد لـه أن ينتجه، كـما هو الحـال في المصنع. وهـا أنت تجد بين مخلوقات تعالى الكثير من الفروق، حتى في الإنسان نفسه.

فالسـلوك الإنساني بكل أبعاده يخضع لفلسفة يحملها الإنسان في نفسه دون أن ينتبه إليها أحياناً، وهذه أيضاً (إيديولوجية).

هـذه هـي معـاني الإيديولوجية، ولكـن نتيجـة للصراعات التـي حصلت بـين المجتمعـات والدول والأفـراد انتقل معنـى الإيديولوجيـة إلى معنى آخر وهـو الاسـتراتيجية أو الخطـة، فهنـاك منظمات عالميـة لكل منهـا إيديولوجية (استراتيجية وخطة مرسومة) وهي تسير وفق هذه الخطة والاستراتيجية.

وهذا المعنى مـن الإيديولوجية، وهو خطة العمل والتحرك في الحياة، يتأثر أيضاً بما يحمله الإنسـان من فكـر ومنطلقات ومصالح، أما المبادئ، فلا تدخل هنـا مـن الناحية العلميـة، لأن المبدأ يعني الاسـتقامة والثبـات في الخط، فمن مبادئ الإسـلام مثلاً حرمة الكـذب، إلا عند الضرورة، كدفـع الضرر الكبير

مثلاً، وهذا الأمر ثابت منذ بدء الإسلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. وهكذا وجوب الصلاة وعدم سقوطه في أي حال من الأحوال، حتى في حال المرض والحرب وغير ذلك. فهذه مبادئ مستقيمة وثابتة، لأنها مرتبطة بطبيعة الإنسان، ووجدت لتحقيق مصلحة مستمرة ودائمة. أما ما يدخل في موضوعنا فهو المتغيرات المرتبطة بمصلحة فرد ما، أو فئة معينة، في ضوء العلاقة مع الآخرين، فتتغير خطة العمل أو الاستراتيجية طبقاً للمصلحة، وهكذا يكون الكذب والنفاق والاحتيال والسرقة وغيرها حيثما تكون الحاجة والمصلحة، فالوصول إلى الغاية يبرر الفعل مهما كان، وهكذا رسموا مبدأً يحكم هذه الستراتيجية وهو (الغاية تبرر الوسيلة) بغض النظر عن طبيعة الوسيلة وهل أنها نظيفة أو لا. أما المبدأ الإسلامي فهو: لا يطاع الله من حيث يعصى، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فالألفاظ التي ذكرناها أولاً، وهي الحداثة والمعاصرة والأصالة والتراث وغيرها، أخضعت للإيديولوجيات، وتصرفت فيها حسب ما تراه، كوسائل موصلة لغايات مقصودة.

الأصالة إسلامياً:

ولنتحدث قليلاً عن (الأصالة)، التي كانت تعني في اللغة العربية، وحتى في غير العربية، معنىً لطيفاً شريفاً، فنقول: هذه فكرة أصيلة، أي نابعة من الحضارة والبيئة التي ينتمي إليها الإنسان، والأصل الذي يعتمده، والمحيط الذي يعيش فيه، وليست دخيلة عليها.

ولو تتبعنا هذه اللفظة في الكتابات والمقالات من خلال الصحف والمجلات وغيرها، وما طرأ عليها خلال خمسين عاماً تقريباً، فسوف ننتهي إلى نتيجة حتمية، هي أنها ذات معنىً مطاط، وكلٌّ يحمِّلها المعنى الذي يوصله لهدفه.

فقد كنا قبل ربع قرن تقريباً نتحدث عن الأصالة في مقابل المعاصرة، ومعنى ذلك أن الأصالة تعني التراث والأفكار القديمة التي تلقيناها من القديم، أما المعاصرة فهي الأفكار الحديثة وما جاء به العصر الحديث. وهذا نوع من التلاعب بالألفاظ، لأن الأصيل هو ما يقابل الدخيل. فلو أن أحداً كان يحمل فكرة قديمة تتناسب مع الحياة المعاصرة، وتنفع الناس في العصر الحديث، أمكن أن تعد أصيلة ومعاصرة في الوقت نفسه.

وكمثال على ذلك أنني كنت أقرأ في مجلة (عالم الفكر) التي تصدر في الكويت ـ وهي مجلة فصلية تعنى بشؤون الفكر ـ وكان فيها بحث عن الكون، يمتاز كاتبه بالموضوعية البالغة، فكان يستعرض النظريات المختلفة التي تدرس نشوء الكون، من الفلسفة الإغريقية واليونانية والفارسية والهندية والإسلامية وغيرها. ثم ينتهي إلى نتيجة أن هذه النظريات جميعها لا يمكن أن تفسر نشوء الكون إلا نظرية واحدة، وهي نظرية الدين.

ولتوضيح الفكرة أقول: إن هذا العصر يسمى عصر العلم، وقد بدأ منذ أوائل القرن العشرين، ونعني بالعلم هنا ما يقابل الفلسفة، من العلوم الطبيعية والتجريبية المتنوعة.

والعلم الحديث يؤمن بالمنهج التجريبي فقط، ويرفض المناهج الأخرى كالمنهج العقلي الذي تعتمده الفلسفة، أو المنهج النقلي الذي تعتمده الأديان. وملخص هذا المنهج إخضاع الأمور جميعاً للتجربة عن طريق المختبر أو المعمل أو الدراسات الميدانية الخاضعة للمشاهدة والملاحظة. وبالتالي فإن الكون لا يمكن أن يسعه مختبر ولا معمل، ولا يمكن أن يخضع للمشاهدة والملاحظة، وعليه فإن النظريات العلمية كلها لا تستطيع أن تفسر الكون؛ لأنها لا تستطيع إخضاعه لمقاييسها التجريبية.

لـذا فـإن جميع النظريـات العلمية التي قيلت في تفسـير الكـون جاءت عن طريق اسـتنتاجي لا إسـتقرائي، والمنهـج التجريبي كما أشرنـا لا يؤمن بالمنهج الاستنتاجي، إنما يؤمن بالمنهج الاستقرائي التجريبي. فالعلم في مجال الاستنتاج أضعف بكثير من الفلسـفة، لأنها تسـتخدم المبادئ العقلية العامة، وقد تخطئ أحياناً، لكنها أقدر من العلم في هذا المجال.

ثم إن هناك الكثير من الأمور لا تخضع للعقل، كالملائكة والجن التي ذكرت في القرآن الكريم، ولا يمكن الإيمان بها عن طريق العقل، كما أنه لا يمكن ذلك عـن طريـق العلم التجريبي، فلا يمكن أن تشـاهد أو تدخل المختبر، وهذا هو مجال الغيبيات.

إذن في مجـال المعرفـة، هناك ماديـات، وهي التي تخضع للحـس والتجربة، وهنـاك عقليات مجالها الفلسـفة، وهناك غيبيات مجالها مـا وراء العقل، وهو ما نأخذه الدين.

وبالتـالي فإننا لا نسـتطيع أن نفسر شـؤون الكون إلا عـن طريق الدين، كما يرى الكاتب الذي ذكرناه سابقاً.

هـذا مـا يتعلـق بالأصالـة، ومـا حصـل لهـا مـن تغيـير في المدلول حسـب الإيديولوجيات المختلفة.

المعاصرة إسلامياً:

وكـذا الحال في المعاصرة، فهنـاك الكثير من الأفكار التي تعـم العالم اليوم. فكيـف نميـز بين مـا هو معاصر وغـير معاصر؟ وما هـي الضابطـة في التمييز بينهما؟

لـو تتبعنـا الأفـكار في العالم فإننـا لا نجد معيـاراً محدداً نسـتطيع من خلاله

التمييز بينهما، لكن صاحب الإيديولوجية يحدد المعنى الذي يشاء، ويدعي أنه المعنى المقصود.

ما هو التراث؟

التراث في اللغة ما ترثه ممن قبلك، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أرى تراثي نهباً**» وهنا أيضاً لا بد من الإشارة إلى أنه لا يمكن تعيين الحد الفاصل بين الماضي والحاضر لكي نميز القديم من الحديث ونعتبره من التراث. نعم، هناك بعض الأمور يمكن تحديدها من خلال جوانب فنية معينة، أو من خلال ضوابط موضوعة، كالمخطوطات التي كانت قبل ظهور المطابع. فاليونسكو كمنظمة عالمية (ومركزها في باريس) حددت لنا ضابطة في تحديد المخطوط، وهي أنه إذا مر عليه مئة عام يعتبر من التراث، وإلا فلا.

إذن لا يمكن أن نضع ضابطة عامة للتمييز بين القديم والحديث، فهناك العديد من النظريات منذ زمن الإغريق واليونان وغيرهم، لكنها ما زالت تُعتمد اليوم. كما في نظرية الجبر أو حرية الإرادة، حيث ذهب الشيعة إلى الأمر بين الأمرين، كما في قول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين**». فقد تناولت الفلسفات القديمة والحديثة على حد سواء هذه النظرية وبينت الموقف منها، فلا يمكن أن نعتبرها قديمة ومن التراث. صحيح أن نشأتها قديمة، إلا أنها لا زالت تتفاعل في كل عصر.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾[1]. فنحن نعرف أننا عندما نريد مناقشة فكرة ما فإننا نطرح مجموعة من التساؤلات لنصل إلى النتيجة المطلوبة. وهكذا طرح القرآن الكريم هذا التساؤلات، ليجيب الإنسان نفسه عنها.

---

(١) الطور: ٣٥.

فطريقة التساؤل في البحث ليست حديثة كما يتصور بعضنا، إنما هي قديمة تعود إلى أيام النبي إبراهيم عليه السلام، حيث طرح مجموعة من التساؤلات حتى انتهى إلى التوحيد الذي كان يؤمن به منذ نعومة أظفاره، فنحن نعتقد أن النبي معصوم منذ الولادة، لكن إبراهيم عليه السلام طرح هذه التساؤلات كطريقة علمية في البحث الميداني، فنبه قومه إلى خطأهم وما كانوا يعتقدون به من الأصنام. وهذه طريقة علمية اعتمدت من قبل إبراهيم عليه السلام في زمن الدولة الأكدية التي هي من أقدم الحضارات، ولا زالت تستخدم إلى يومنا هذا. فلا يمكن أن نسميها تراثاً، لأنها لا تزال تعيش معنا.

توظيف المصطلحات:

وهناك بعض الإيديولوجيات تقول: إن الدين الإسلامي ما هو إلا تراث، وتفسر التراث بالأفكار التي جاءت لفترة معينة واستنفدت أغراضها. فهذه الإيديولوجيات لا تستطيع أن تصرح بأن الإسلام استنفد أغراضه، فتثير حفيظة المسلم، إنما تطرح الأمر بشكل آخر، وهو قولها: إن الدين الإسلامي تراث.

ومما يطرح في هذا الباب مثلاً: إن الإسلام يتعارض مع العلم، ولم يحقق الإنسان ما حققه من صناعات وتقدم تكنولوجي هائل إلا بالعلم، وليس بالدين. والحال أن الدين شيء والعلم شيء آخر لا يتعارض معه ولا يتنافى، ففي القرآن الكريم الكثير من الحقائق العلمية والحث على العلم والتعلم، وهكذا في الأحاديث النبوية التي تحث أتباع الدين الإسلامي على اتباع العلم. بل إنك تلاحظ أن الكثير من أصحاب المستويات العلمية الكبرى في العالم هم من المسلمين. ومنهم عبد السلام الباكستاني الذي كان عضواً في أكثر من ٥٠٠ جمعية عالمية، ولديه من النظريات العدد الكبير، فلو كان الدين يتنافى مع العلم

لما كان هذا وأمثاله. وهكذا بعض علماء الذرة، فقد التقيت أحدهم في لندن، وكان متديناً جداً، وربما فاق تدينه الكثير من أقرانه.

فالتلاعب بالألفاظ من قبل الإيديولوجيات المختلفة أمر في غاية الأهمية والخطورة، لأن تلك الإيديولوجيات تسعى لبلوغ أهداف خاصة بها، ومنها إبعاد المسلم عن دينه. فليس كل موروث تراثاً، بمعنى أنه حقق أغراضه واستنفدها.

وما أريد التنبيه له في هذا المقام هو أن لا ننخدع بالألفاظ، بأن يؤتى بلفظ مطاط يحتمل المعاني المتعددة، ويراد منه معنى واحد معين.

والحمد لله رب العالمين

المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي - ٣

كيف نقرأ التاريخ؟

يمكن أن نعرّف التاريخ بأنه عرض مكتوب لحوادث الماضي، يمكّن الأجيال أن تقرأه وتطلع عليه. وهو مَعلم من معالم الحضارة لأية أمة، فكل أمة لا تملك تاريخاً مكتوباً، ليس لها نصيب من الحضارة.

من هنا فإن المسلمين انطلقوا، ومنذ القرن الأول تقريباً، لتدوين التأريخ الإسلامي.

والفائدة المرجوة من قراءة التأريخ هي معرفة واقع الأمة أفراداً وجماعات وحكاماً ومحكومين، كما يستفاد منها معرفة التطور الذي مرت به الأمة.

والتطور لا يعني التقدم، كما يتبادر للكثير من الأذهان، إنما هو التغير من حال إلى حال، أو من طور إلى طور. فربما يصدق على التقدم أو على التخلف على حد سواء، فالتخلف نوع من التطور، لكنه تغير في الأطوار والأحوال إلى الوراء.

لذا يمكننا من خلال قراءة التأريخ أن نعرف نوع وحجم التطورات التي مرت بها الأمة، وفي أي حقبة زمنية ازدهرت، وفي أي فترة تخلفت وتأخرت. وبالتالي فإننا نستطيع أن نحدد الأسباب التي دعت إلى التخلف أو التقدم، وقد نستفيد من هذه الأسباب في الحاضر أو المستقبل، وذلك بالأخذ بأسباب النجاح، أو تجنب أسباب الفشل.

والكتب التأريخية التي وصلت إلينا كثيرة، منها تأريخ الأمم والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، والكامل في التأريخ لابن الأثير، وتأريخ ابن خلدون، وتأريخ اليعقوبي، ومروج الذهب للمسعودي، وغيرها من الكتب التي أرخت لحياة المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام حتى وفاة المؤرخ الذي تولى التدوين.

موقفنا من التأريخ المدون:

لا شك أن كتب التأريخ فيها مفارقات عديدة، ففيها عرض للواقع كما هو، وفيها أخطاء وتشويه واختلاق وتزوير أيضاً، فما هو موقفنا منها وهي في هذا الحال من وجود الحسنات والسيئات؟

لدينا في هذا المضمار مجموعة من النظريات:

١ - النظرية الأولى: أننا يجب أن نرفض التأريخ المدون جملة وتفصيلاً، فلا ينبغي أن نرجع إلى كتب التأريخ مطلقاً.

وهذا ما تتبناه الكثير من الاتجاهات الحديثة، والعديد من الحداثيين، فهم يدعون إلى فصل الأمة الإسلامية عن تراثها، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها التأريخي، حيث يترك التأريخ بخيره وشره، ونبدأ حياتنا من جديد من خلال الواقع المعاصر كما يرون.

٢ - النظرية الثانية: أن نأخذ بكل ما ورد في التأريخ من خير أو شر، أو خطأ أو صواب، فلا نناقش ما فيه مطلقاً.

وكمثال على ذلك، الموقف من عدالة الصحابة، حيث يذهب أكثر علماء أهل السنة، خصوصاً في الوقت الحاضر، إلى حرمة الدخول فيما شجر بين الصحابة، لا من قريب ولا من بعيد، ولو عثرنا في كتب الجرح والتعديل على

قول ما لأحد العلماء من أهل السنة، يطعن في صحابي، فلا ينبغي الأخذ به حسب رأيهم.

ويعلل هؤلاء نظريتهم بأن إثارة هذه القضايا قد يؤدي إلى وقوع فتنة بين المسلمين، لا نريد لها أن تقع.

٣- النظرية الثالثة: وهي أمر بين أمرين، فلا ترفض التأريخ جملة وتفصيلاً، كما في النظرية الأولى، ولا تأخذ به على علاته، وإنما تسلك طريقاً وسطاً بين هذا وذاك، وترى أن نقرأ التأريخ، بعقل ناقد بصير، ثم نأخذ بالنتائج الصحيحة المستحصلة بعد النقد.

وهذا هو الرأي السائد والمعمول به اليوم، في مختلف المؤسسات الثقافية في العالم، من جامعات ومعاهد علمية وغيرها. وهو ما دأب عليه الشيعة والكثير من أهل السنة أيضاً.

النقد التأريخي:

النقد لغة هو تمييز الدراهم، وإخراج الزيف منها[1]، فقد كانت العملة المتعارفة سابقاً هي الذهب والفضة، وكان الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة، ومن الطبيعي أن يحدث الغش في هذين الأمرين، فيأتي دور الصيرفي ليشخص المغشوش من غيره، كما هو الحال اليوم في الآلات المعدة لاكتشاف العملة المزورة.

فالنقد يعني ضبط الغش في النقود، ثم استعمل في الأدب والتأريخ واللغة ومختلف العلوم.

فإذا أخضعنا التأريخ للنقد، هذا يعني أننا سنبين ما فيه من غش وتزوير

---

(١) لسان العرب: مادة نقد.

واختلاق وزيادة ونقص. وبالتالي يثبت ما ثبت بالنقد، ويُرفض ما لم يثبت.

مصادر التأريخ:

من المعلوم لدينا أن المؤرخ لم يكن حاضراً في الحوادث التأريخية في الأعم الأغلب، وإن كان قد يحضر بعضها فيسجلها. إلا أنه في غالب الأحيان يأخذها إما عن طريق الوثائق المكتوبة أو الآثار أو الرواية.

وفي تأريخنا الإسلامي خصوصاً، لم يكن هناك اهتمام كبير بالآثار، إنما كان المصدر الرئيس للتأريخ هو الرواية بشكل واسع، ثم الوثائق.

ومعنى الرواية التأريخية، أن يأخذ المؤرخ عمن سمع ممن قبله في العصور الماضية، واحداً بعد الآخر، حتى يصل إلى الحادثة، وهذا ما يعرف بالسند، فترى أن الطبري يقول في تأريخه: حدثنا فلان عن فلان ... حتى يصل إلى الراوي الأول الذي شاهد الحادثة.

وهذا شبيه إلى حد كبير بما يقوم به الصحفيون ومراسلو وكالات الأنباء اليوم، فليس من الضروري أن يكون المراسل حاضراً ومشاهداً للحدث، إنما يأخذه في كثير من الأحيان عمن شاهد الحادثة أو حضرها.

ولا شك أن هذا الأسلوب في تدوين الحوادث، مدعاة للكثير من التزوير والاختلاق.

فلا بد أولاً أن نبدأ بسلسلة الرواة الذين جاءت الرواية من طريقهم، وأن نقوّم كلاً منهم من جهة الوثاقة وعدمها، فإن وجد في طريق الرواية من ليس بثقة فإنها تسقط من الاعتبار، ولا يعتمد عليها.

أما إذا وجدنا أن الجميع ثقات، فإننا نتحول إلى دراسة الحادثة بعينها، فإنها قد تكشف أحياناً عن خطأ فيها، كأن يكون فيها ما هو غير معقول الوقوع، أو أن

يكون فيها فاصلة زمنية بعيدة بين بعض شخوصها أو أماكنها أو تواريخها.

فدراسة حال الرواة لا يكفي لوحده دليلاً على صحة وقوع الحادثة، ولا بد حينئذٍ أن ندرس الرواية ذاتها من حيث المضمون.

وكمثال على ذلك، ما ورد في تفسير آية التطهير، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]. فهناك من روى أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ وفي أبنائه، وهو ما اختلقه بعض الرواة في عصر العباسيين، ليتزلفوا إلى الحكام[2].

كيف نقرأ التأريخ؟

لكي نثبت أو ننفي حادثة ما من حوادث التأريخ، لا بد أن ندرس الأمور التالية:

١- أن نبدأ بالمؤرخ، فندرس عصره الذي عاش فيه، ونتعرف الأجواء الثقافية والسياسية، ومدى تأثيرها فيه، فلا يمكن للإنسان أن ينفكّ عن محيطه الثقافي والسياسي، وللبيئة تأثير كبير في شخصية الإنسان بلا شك، ومن الطبيعي أن يكون لذلك انعكاس على ما يكتبه المؤرخ.

٢- من اللازم أيضاً أن ندرس عقيدة المؤرخ، فلا شك أيضاً أن لذلك أثراً

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) وهذا يكشف دور الأنظمة السياسية في صياغة الكثير من الأحداث، وفي علم الاجتماع المعاصر ما يعرف بالرأي العام، وهو مادة دراسية تعنى برأي الجمهور، ومن المعروف أن الأنظمة السياسية في جميع أنحاء العالم تهتم بالرأي العام، وتتابع رأي الجمهور في القضايا ذات العلاقة بالدولة والنظام السياسي، وتعمل على إشغاله أحياناً، كما يحدث في ظروف إبرام المعاهدات التي لا يرتضيها الشعب، حيث تعمل الحكومة على اختلاق الأحداث التي تشغل بها الرأي العام، ومن ثم تمرر ما تريده من معاهدات أو اتفاقات. وهذا ما رأيناه في العراق سابقاً، في الكثير من الأحداث التي شغلت فيها الحكومة الرأي العام، وأبرمت ما كانت تريد إبرامه.

فقد تُختلق الحادثة لإشغال الرأي العام، ثم تصبح فيما بعد من حوادث التأريخ، مع أنها لا واقع لها.

بالغاً في موقفه من الأحداث، فهو يحاول أن يجرّ النار إلى قرصه، وأن يوجه الأحداث بما يتلاءم مع معتقداته.

٣ - لا بد أن ندرس الميول السياسية له، من حيث كونه موالياً أو معارضاً للسلطة مثلاً، وفي ما تكتبه الصحف اليوم خير دليل على أثر الموقف من السلطة في صياغة وتوجيه الأحداث، فما تكتبه صحف المعارضة للحكومة يتباين بشكل واضح مع ما تكتبه الصحف الموالية. وهكذا يصعب، أو يتعذر معرفة الحقيقة الضائعة بين هؤلاء وهؤلاء.

٤ - ثقافة المؤرخ: فقد يكون المؤرخ ذا ثقافة اقتصادية موسعة تنعكس على كتاباته. فهناك المذهب الرأسمالي أو الاشتراكي في الاقتصاد، فإن كان المؤرخ متأثراً بمذهب اقتصادي معين فسوف يؤثر ذلك في رؤيته للأحداث، وقد كنا نقرأ في مجلة الطليعة المصرية قبل سنوات عديدة أن علي بن أبي طالب عليه السلام وعمر بن الخطاب وغيرهما، كانوا اشتراكيين شيوعيين!.

٥ - المستوى الفكري للمؤرخ: فقد يكون ذا مستوى رفيع من الذكاء، يدرك ما يدور في فلك الحادثة، وقد يكون متوسط الذكاء فيفوته الكثير مما لا يلتفت إليه.

نموذج من رواة الزور:

من الأمثلة على أثر الراوي في صناعة التأريخ، عكرمة مولى عبد الله بن عباس، وهو أحد رواة البخاري، فلهذا الرجل موقف عجيب من أهل البيت عليهم السلام وقد كان له أثر كبير فيما يراه أهل السنة من تفسير آية التطهير في زوجات النبي صلى الله عليه وآله.

فلو أننا رجعنا للأحاديث النبوية الشريفة الواردة في تفسير هذه الآية لما

وجدنا حديثاً واحداً ينص على أنها في أزواج النبي ﷺ لا في كتب السنة ولا في كتب الشيعة، بل إن جميع الأحاديث التي فاقت حد التواتر، تقول: إنها نزلت في الخمسة أصحاب الكساء، نعم هناك أحاديث آحاد أشرنا إلى بعضها تقول: إنها نزلت في بني العباس، أو في بني هاشم وهم بنو علي وبنو عقيل وبنو جعفر وبنو العباس[١].

هذا كل ما ورد في شأن تفسيرها، ولا توجد رواية واحدة تقول: إنها في زوجات النبي ﷺ. فمن أين جاء هذا الرأي الذي تتبناه الملايين؟

أصل الأمر وجذوره تعود إلى عكرمة هذا، الذي نسب إلى ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في زوجات النبي ﷺ وكان يجوب الأسواق وهو يقول: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ خاصة[٢].

فلو أردنا أن نعرف الحقيقة فعلينا أن ندرس حياة عكرمة وتأريخه وثقافته. وبالعودة إلى كتب أهل السنة، نرى أنه مجروح عند أشهر علماء الرجال عندهم.

ففي كتاب ميزان الاعتدال للذهبي، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، وهما أهم كتب السنة في الجرح والتعديل، نرى أنهم يذكرون ما يقرب من خمسة عشر قولاً لأكابر علمائهم كيحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وغيرهم، وكلهم يفسق عكرمة ويراه كذاباً[٣].

فمما ورد فيه أن عبد الله بن الحارث، دخل على علي بن عبد الله بن عباس،

---

(١) راجع: صحيح مسلم٧ : ١٢٣.

(٢) مسند ابن راهويه٤: ١٥. راجع أيضاً: تحفة الأحوذي للمباركفوري ٩: ٤٩. تفسير ابن كثير ٣: ٤٩١. الدر المنثور للسيوطي٥: ١٩٨.

(٣) راجع: ميزان الاعتدال للذهبي٣: ٩٣، ت ٥٧١٦. تهذيب التهذيب لابن حجر ٧: ٢٣٤، ت ٤٧٦.

فإذا عكرمة في وثاق عند باب الحش[١]، فقال له: ألا تتقي الله؟! فقال: إن هذا الخبيث يكذب على أبي[٢].

أما من حيث العقيدة فكان خارجياً، وموقف الخوارج من أمير المؤمنين عليه السلام معلوم.

ثم إنه لا يروي ذلك باعتباره حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما يذكره باعتباره رأياً وقولاً لابن عباس، فكيف يمكن أن نقبل ذلك منه؟

أضف إلى ذلك كله أن هناك روايات عديدة تروى عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله أن آية التطهير نزلت في أهل البيت عليهم السلام وهم الخمسة أصحاب الكساء[٣].

وبذلك يتضح أن الآية لا تقبل التفسير إلا في الخمسة أصحاب الكساء، وهو ما يفترض أن يجمع عليه المسلمون جميعاً بلا جدل ولا رد، ولكن كيف أصبح تفسيرها موضع خلاف بين المسلمين بهذا الشكل؟

لا شك أن للتراكم الزمني تأثير كبير، فتبدأ القضية بشكل بسيط، ثم تحاط بهالة من الدعاية، لأسباب ودواع عديدة، فتتراكم مع الزمن حتى تصبح عقيدة، بل تكون أقرب إلى كونها ضرورة من الضرورات التي لا تقبل النقاش[٤] عند

---

(١) أي في المرحاض.

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ٣: ٩٤. الضعفاء للعقيلي ٣: ٣٧٣، رقم ١٤١٣: عكرمة مولى ابن عباس.

(٣) في مرحلة التحضير لرسالة الدكتوراه في مصر كنت أسأل بعض أساتذتي: ماذا تعرف عن الشيعة؟ فيقول: إنهم فرقة يقولون: خان الأمين، أي أن الرسالة كانت لعلي، لكن جبرئيل أخطأ فأعطاها لمحمد. فأقول: أنا الشيعي لم أسمع بذلك طيلة حياتي، ولا أعتقد به. فيقول لي: لا، إنهم يقولون بذلك، وهذا معروف ومتسالم عليه عندنا.

إن سبب ذلك كله هو التراكم الزمني، فقد بدأ الأمر من نقطة صغيرة في عهد الأيوبيين في مصر، وكثر ترديدها على الألسن، وبمرور الزمن كوّنت هذا التصور السلبي.

بعض المذاهب.

والنتيجة أن رجلاً مثل عكرمة لا يمكن الاعتماد على روايته مطلقاً بعد كل ما رأيناه من جرح وعدم توثيق، وإلا فإن المعايير العلمية في نقد الرواية تسقط وتفقد قيمتها العلمية.

مختلقات تأريخية:

من الأمثلة على الحوادث التأريخية التي ينبغي التوقف عندها ودراستها، ما يروى في عبد الله بن سبأ، فعندما تقرأ التأريخ تجد أن هناك شخصية تأريخية بهذا الاسم، كانت تعيش في المجتمع الإسلامي، وقد قام بنشر أفكار الغلو عند الشيعة، وأصبح لديه أتباع كما يدعى.

وقبل عشرات السنين، رأى الأستاذ مرغليوث، أستاذ التأريخ في جامعة السوربون في فرنسا، أن هذا الرجل شخصية خيالية وهمية لا وقع لها، ثم تبعه تلميذه الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى، وأكد أنه شخصية خيالية لا واقع لها في التأريخ.

إذن من أين جاءت هذه الشخصية التي امتلأت بها كتب التأريخ والعقائد وغيرها؟

لقد تتبع السيد مرتضى العسكري فيما بعد جميع الروايات التي تروى في شأن عبد الله بن سبأ[1]، فوجد أنها تنتهي إلى راوٍ واحد يدعى سيف بن عمر التميمي، وهو رجل، أقل ما يقال فيه أنه كذاب مختلق، وإلا فإن الكذب لو قدر له أن يجسد لكان سيف بن عمر ذاته، وقد كذبه ولعنه جميع المؤرخين والمحدثين والعلماء من السنة والشيعة، فلا تجد في تأريخ الإسلام من يقيم له

(١) راجع كتاب: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى للسيد العسكري.

وزناً أو يمنحه شيئاً من الوثاقة.

فقد لعب سيف بن عمر لعبته، واختلق هذه الشخصية، ونسب إليها ما يريد، فتركت وراءها ذيولاً، لا زلنا نعاني منها إلى يومنا هذا. فكثيراً ما تسمع وتقرأ أن أصل التشيع من عبد الله بن سبأ اليهودي، وهذا هو الهدف الرئيس من اختلاق هذه الشخصية.

السلطة السياسية والتأريخ:

لقد قام معاوية بن أبي سفيان، بإصدار المراسيم الملكية التي من شأنها أن تبعد علياً عليه السلام عن الذهنية الإسلامية وتنفرها منه، فقد أمر بسبه على المنابر بشكل رسمي في خطب الجمعة والعيدين، والمعلوم أن خطبتي الجمعة تكونان قبل الصلاة، فيضطر المصلون لسماعهما بما فيهما من السب والشتم، أما في العيدين فتكونان بعد الصلاة، فكان المسلمون في بعض الأماكن يصلون وينصرفون، فلا يستمعون إليهما، كراهة أن يسمعوا سب علي عليه السلام فاضطر الأمويون إلى تقديمهما على الصلاة. كل ذلك لتشويه صورة علي عليه السلام كي لا يقال: إن له ولآله حقاً في الخلافة.

ومن المراسيم التي أصدرها معاوية، أن توضع أحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله في فضل عثمان، بمقدار ما روي لعلي عليه السلام من الفضائل عن النبي صلى الله عليه وآله. فتحرك رواة البلاط الأموي بهذا الاتجاه فوضعوا ما وضعوا من الأحاديث، حتى بلغت حداً كبيراً من الكثرة، فأصدر مراسيم جديدة، بأن توضع أحاديث أخرى في فضل سائر الصحابة. ومن أراد التفصيل فعليه أن يرجع إلى شرح النهج لابن أبي الحديد، وغيره من المصادر.

ومما وضع في هذا الباب رواية عن إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله أن النبي صلى الله عليه وآله رأى علياً والعباس قادمين فقال: إن سرك أن تنظري إلى رجلين من أهل

النار فانظري إلى هذين[١].

ومما وضع أيضاً أن أحد أبرز الرواة المعروفين، وهو أبو هريرة، دخل مسجد الكوفة مع معاوية في العام الذي سمي عام الجماعة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله وأحرق نفسي بالنار؟! والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لكل نبي حرماً، وإن حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها. فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاه المدينة[٢]».

فللسلطة السياسية دور كبير في صياغة التأريخ، ولا زلنا نرى إلى يومنا هذا من يختلق حوادث لا واقع لها بدافع سياسي.

أبرز المصادر التأريخية:

أشير هنا إلى كتابين مهمين، أحدهما لمؤرخ شيعي، وآخر لمؤرخ سني، وهما كتاب سُليم بن قيس الهلالي، وهو تابعي ثقة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أدرك الإمامين الحسنين عليهما السلام والإمام زين العابدين عليه السلام وتوفي في زمانه.

وقد ألف كتاباً جمع فيه العديد من الروايات التي رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي ﷺ وأكثرها في الحلال والحرام، كما روى عن سلمان وأبي ذر والمقداد.

وقد كان هذا الكتاب موجوداً في عصر الأئمة عليهم السلام وكانوا يولونه عناية

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي٤: ٦٤. أصول الحديث للدكتور عبد الهادي الفضلي: ١٣٨.

(٢) المصدر السابق ٤: ٦٧.

خاصة، ويحثون شيعتهم على الرجوع إليه، وهو أحد الأصول الأربعمئة التي أخذ عنها العلامة الكليني صاحب الكافي.

ويبدو أن الكتاب فُقد في الغيبة الصغرى، كما هو حال الكثير من الكتب الشيعية التي فقدت، فاستغل بعض المؤلفين هذا الحال، معتمدين على أهمية الكتاب وعناية الأئمة عليهم السلام به، فاختلقوا أحداثاً تأريخية ونسبوها إليه، إلى أن جاء الشيخ المفيد رحمه الله، فأنكر أن يكون هذا الكتاب هو ذاته الذي كتبه سُليم بن قيس، حيث اكتشف من خلال قراءة الكتاب المذكور أن سليماً يعتقد أن الأئمة ثلاثة عشر، وأن الثالث عشر هو زيد بن علي، وهذا غير صحيح، ثم تتبع الأمر حتى وجد أن واضع الكتاب كانت له علاقة برجل آخر من الزيدية.

وبالتالي فقد رفضه الشيخ المفيد، كما رفضه علماؤنا في العصور التالية حتى يومنا هذا.

أما الكتاب الآخر فهو الإمامة والسياسة، المعروف أنه لابن قتيبة، فقد رفض بعض الباحثين من أهل السنة نسبة الكتاب لابن قتيبة، لأن فيه أحداثاً تلتقي مع عقيدة الشيعة، لكن البعض الآخر لا يرتضي ذلك، ويصحح نسبته لابن قتيبة. وتبقى المعركة العلمية قائمة بين الطرفين.

فمن الأحداث التي وردت فيه أن عُقبة بن أبي مُعَيْط ـ وهو أخو عثمان لأمه، وكان عثمان قد عينه على الكوفة أيام خلافته ـ كان ماجناً يشرب الخمر، فخرج يوماً إلى صلاة الفجر وهو ثمل، فصلى ثماني ركعات، فغضب الكوفيون، وشكوه إلى عثمان، فاستدعاه عثمان، وأقام عليه الحد.

من هنا فإن البعض شكك في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة، بحجة أن عقبة بن أبي معيط صحابي، والصحابي عادل، فلا يصدر منه مثل هذا، فالكتاب برأيه

ليس لابن قتيبة، إنما هو لمؤلف شيعي!

وهذا لون آخر من النقد التأريخي، الذي يخضع التأريخ للمعتقدات والمباني الفكرية.

أثر الاعتقاد في التأريخ:

كان التأريخ الإسلامي - وما زال - مشحوناً بالصراع ما بين الفرق والمذاهب، وخصوصاً ما بين النواصب والروافض، وكثيراً ما تجد هاتين المفردتين في تراثنا الإسلامي، وقد أصبحتا من ألفاظ النبز والشتيمة والاستخفاف عند كلا الطرفين.

وعند تتبع أصل هاتين المفردتين نجد أن أقدم من استعمل لفظ الرافضة، هو الإمام الباقر عليه السلام وذلك أن أحد أصحابه من أهل الكوفة - ويدعى المغيرة بن سعيد - كان يروي عنه، وكان من الثقات، ومن المعروف لدينا أن الكوفة تقع على حدود الحيرة، وكانت الحيرة معقلاً دينياً من معاقل النصارى، وكانوا يترددون على الكوفة، وكان المغيرة بن سعيد يلتقي بامرأة نصرانية[1]، ومن المعروف أن النصارى يغالون في السيد المسيح عليه السلام.

والغلو ضربان: غلو ارتفاع، وهو أن نرتفع بمستوى الأولياء، فنمنحهم صفة من الصفات الخاصة بالباري عز وجل، كأن نقول: هذا الولي يحيي ويميت، أو يغني ويفقر، وهذه كلها من صفات الله تعالى، وهذا محرم عند جميع المسلمين من الشيعة والسنة. وهناك غلو انخفاض، وهو أن نجعل الولي بمستوى الإنسان الاعتيادي، فلا فرق بينه وبين غيره، وبذلك نجرده من الصفات التي يستحقها، وهذا ما يفعله النواصب مع أهل البيت عليهم السلام حيث

(١) وفي رواية أنها يهودية، ففي رجال الكشي ٢٢٥. عن الإمام الصادق عليه السلام: لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق..

جردوهم من الإمامة والعصمة وغير ذلك، وهذا نوع من الغلو، لكنه في الدنو لا في العلو.

فكان النصارى يغالون في السيد المسيح غلو ارتفاع، فتأثر المغيرة بن سعيد بأفكارهم، ورأى أن هذا المستوى هو ما يناسب الولي، لا ما يعتقده سائر الشيعة من أصحاب الباقر عليه السلام. وقد يكون للنظام الأموي تأثير فيه بشكل أو آخر، لكثرة وجود النصارى في البلاط الأموي.

فظهر من المغيرة الغلو في شخصية الإمام الباقر عليه السلام فادعى أنه نبي، وأنه إله، فبلغ الإمام الباقر عليه السلام ذلك فتبرأ منه ولعنه وأمر شيعته بلعنه والتبرؤ منه، فلما سمع المغيرة بن سعيد وأصحابه بذلك، رفضوه، وخطّأوا الإمام الباقر عليه السلام، فقال الإمام الباقر عليه السلام: لعن الله هؤلاء الرافضة[1]، أي الذين رفضوا قوله ورأيه، واستبدوا برأيهم في الغلو.

فأول من أطلق هذا اللفظ على الغلاة هو الإمام الباقر عليه السلام الذي عاش في العهد الأموي، فلما رأى النواصب أن الإمام الباقر عليه السلام استخدم هذه اللفظة في تنفير الناس من الغلاة، وسّعوا استخدامها لتشمل الشيعة قاطبة، لتنفير المسلمين منهم، فاختلقوا حادثة تأريخية ـ وهي حادثة مذكورة حتى في كتب الشيعة مع الأسف ـ مفادها أن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام ـ وهو من أعاظم الشخصيات العلوية، ومن كبار علماء أهل البيت عليهم السلام وله منزلة عظيمة عند الأئمة عليهم السلام ـ أعلن الثورة على الأمويين، بعد أن كاتبه الكوفيون كما كاتبوا جده الحسين عليه السلام وكان زيد معروفاً بالشجاعة، وله كلمة مشهورة، وهي قوله: لم يكره قوم قط حر السيوف إلا ذلّوا[2].

---

(١) الإرشاد، للشيخ المفيد٢: ١٧٠.

(٢) كشف الغمة، للإربلي٢: ١٣٠.

وقبل أن يتوجه نحو الكوفة جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام ـ وكان يقول بإمامته، وهذا ما يرويه أبو خالد الواسطي[1]، وهو راويه الخاص، كما أن موقف الأئمة عليهم السلام منه يدل على أنه لم يكن لديه ما يخالفهم ـ فلم يمنعه من الخروج كما يدعي البعض، إلا أنه قال له: إني نظرت في كتاب علي عليه السلام فرأيت أنك سوف تقتل ثم تصلب ثم تدفن، وبين له تفاصيل ما يحدث.

فخرج زيد بن علي، وخرج معه الشيعة، ولم يمنع الإمام الصادق عليه السلام أحداً من الخروج معه، بل إنه أعطى الضوء الأخضر للخروج معه. وقد خرج معه أتباع أبي حنيفة بأمر من إمامهم، كما قام بتمويل حركة زيد، وهو ما دعا بعض الباحثين إلى أن يعدّ أبا حنيفة من الشيعة.

ونصل هنا إلى موضع الشاهد، فقد اختلقت قصة مفادها أن زيداً دعا الشيعة للخروج معه، شرط أن يتولوا أبا بكر وعمر، وأن يعترفوا بمن سبق علياً عليه السلام من الخلفاء، فرفضوا ذلك، فسماهم الرافضة.

وهي قصة مختلقة لا واقع لها، لكنهم تمسكوا بها، وجعلوها نبزاً للشيعة.

فانظر كيف يتحرك التأريخ، وكيف تنتقل المفردات وتتغير معانيها من حال إلى حال.

فنحن إذن أمام تأريخ مليء بالمتناقضات والألغام، فعلينا أن لا نتسرع في إطلاق الأحكام بناء على ما يذكر في كتب التأريخ.

ويجب على خطباء المنبر الحسيني أن يدرسوا علم التأريخ، وأن يدرسوا أصول محاكمة الأحداث التأريخية، وأن لا يعتمدوا كلياً على ما كتبه العلماء والكتاب في هذا الشأن، حتى لو كانوا في أرفع درجات الدقة في البحث

العلمي.

فلا بد أن نقرأ التأريخ بمنتهى الحذر واليقظة والوعي، وأن نحاكم الحادثة التأريخية من خلال الضوابط والندوات العلمية الموضوعية، ولا نأخذ بها أو نرفضها حتى ننتهي إلى النتائج.

وأود في نهاية البحث أن أذكر حديثاً نسب إلى علي عليه السلام في خصوص الإمام الحسن عليه السلام وهو قوله: لا تنكحوا الحسن فإنه رجل مطلاق[1]. لكننا عندما نعد زوجاته في الواقع نجد أنهن أقل بكثير من زوجات الصحابة.

وقد وضع هذا الحديث في أيام معاوية، لإشعار الناس أن الإمام الحسن عليه السلام لا يصلح للخلافة، ولا ينبغي للمسلمين أن يرضوا به خليفة.

فيجب أن لا نتسرع في الأحكام التأريخية، وأن نقرأ التأريخ بعقل واع ناقد، يستخدم الأسباب والوسائل العلمية الصحيحة في الوصول إلى النتائج.

الخطباء والتأريخ:

من الملاحظ أن خطباء المنبر - باستثناء الشيخ الوائلي ومدرسته - يقرأون سواداً في بياض، دون تمحيص ولا تحقيق، فيذكر الخطيب على المنبر كل ما وقع عليه بصره في الكتب.

لاحظ مثلاً، أن المعروف لدينا جميعاً أن شمر بن ذي الجوشن هو الذي احتز رأس الحسين عليه السلام أما كتب التأريخ والمقاتل فتذكر أنه سنان بن أنس، إلا أن أحد المقاتل ذكر أنه شمر، فهل كلف أحد الخطباء نفسه لدراسة هذه القضية والخروج بنتائج ذات فائدة؟

---

(١) الكافي٦: ٥٦. وقد استعرض صاحب الحدائق هذه الروايات، وحاول الإجابة عنها، إلا أنه قال ما نصه: وبالجملة فالمقام محل إشكال، ولا يحضرني الآن الجواب عنه، وحبس القلم عن ذلك أولى بالأدب. الحدائق الناضرة، المحقق البحراني٢٥: ١٤٨.

إذن لا بـد من إعـادة النظر في قراءة كتب التأرخ، وعـدم القبول بما فيها إلا بعد التمحيص والتحقيق والتدقيق.

الأسئلة

س١: نرجـو إرشـادنا إلى بعـض الكتـب التأريخية القديمـة أو الحديثة التي تنفعنا في معرفة التأريخ الصحيح.

الجواب: ليست هناك كتب تأريخية صحيحة مئة بالمئة، إلا أن هناك كتابات معاصرة تعتمد منهج التحقيق، كما في كتاب الصحيح من السيرة للسيد جعفر مرتـضى العاملي، وكتب السـيد هاشـم معروف الحسـني، والشـيخ العلايلي، وغيرها. ولكن يبقى أن ندرك أنه ليس هناك ما هو صحيح مئة في المئة.

وقـد يكون للمنهجية المتبعة في كتابـة التأريخ دور وأثر في تصحيح أو عدم تصحيـح الحادثة التأريخية، فهناك أكثر من عشر نظريات في المنهجية التأريخية، فقـد تكـون الحادثة التأريخية وفقـاً لمنهجية معينة صحيحـة، لكنها غير مرضية طبقاً لمنهجية أخرى.

س٢: كيف يمكن للقارئ العادي غير المطلع على علم الدراية والرجال أن يميز بين الصحيح والسقيم في التأريخ؟

الجـواب: مـن لا يسـتطيع أن يميز، يمكنـه أن لا يتسرع في قبـول كل ما في التأريـخ. فإن كان هنـاك عذر في عدم المعرفة والتخصـص، فليس من عذر في التسرع وقبول الغث والسمين.

أما كيفية التمييز، فهناك كتب لدى الشـيعة والسنة في علم الرجال والجرح والتعديـل، يمكن الرجـوع إليها للتعرف على شـخصيات الـرواة، وهل أنهم

ثقات أو لا؟

س٣: كيف يمكننا أن نعيد كتابة التأريخ من جديد؟ وهل هناك اليوم من يتولى ذلك بالفعل؟

الجواب: هناك دعوات كثيرة في هذه الأيام لإعادة كتابة التأريخ، لكن من الصعوبة أن تتحقق مثل هذه الدعوات، لأن هناك أحداثاً وقعت فعلاً فيما مضى، وكان لها ملابسات وقرائن كثيرة، لكنها اختفت في حينها، إلا أننا مع ذلك كله نستطيع أن نحقق جزءاً من المهمة في هذا المجال، فإن لم نستطع الوصول إلى الحقيقة كاملة، فلا شك أننا نستطيع الوصول إلى نسبة كبيرة منها.

س٤: ما رأيكم بكتاب الملحمة الحسينية للشهيد المطهري، الذي فند فيه الكثير من الأحاديث والأحداث التأريخية في واقعة عاشوراء، في حين أن الكثير من خطباء المنبر الموثوقين لا زالوا يذكرونها على المنابر؟ وكيف يفترض أن يكون موقفنا من تلك الأحداث؟

الجواب: لم أطلع على الملحمة المذكورة، ولم أقرأها.

س٥: أورد القرآن الكريم قصصاً، وذكر شخصيات تأريخية، من قبيل قصة هاروت وماروت، وهذا ما يدرجه بعض الكتاب الغربيين ضمن الأساطير، وكذلك في قصة إبراهيم وإسماعيل، اللذين اعتبرهما طه حسين في وقت ما شخصيتين وهميتين، فما تعليقكم على ذلك؟

الجواب: هذا الأمر لا يحتاج إلى تعليق، لأن القرآن الكريم معصوم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزل من عند الله تعالى، وما ذكره القرآن من الشخصيات والحوادث أمر لا شك فيه، وهو أوثق وأقدم وثيقة عربية على الإطلاق، يرجع إليها في التأريخ وغيره، فلا مجال للتشكيك فيما ورد فيه

إطلاقاً.

أما ما نسب للدكتور طه حسين من اعتباره إبراهيم وإسماعيل شخصيتين وهميتين، فإنه بعد عودته من فرنسا كان متأثراً بمنهج الشك الديكارتي، وكان يُخضع الكثير من الأشياء القابلة للتشكيك، للبحث العلمي، لكن بالمقابل، هناك الكثير مما لا مجال للتشكيك فيه، لأن دليله معه.

س٦: لاحظت أنك ترفض فكرة أن يتسع بساط صغير لمئة شخص، ولكنك تعتقد كمسلم، بتسبيح الحصى في كف النبي ﷺ وحنين الجذع، فهل أنك تؤمن ببعض ولا تؤمن بالبعض الآخر؟

الجواب: لقد حدث تسبيح الحصى وأمثاله على نحو المعجز، لإثبات نبوة النبي ﷺ وهو ثابت بالنقل الصحيح، أما ما عدا ذلك فهو بحاجة إلى إثبات. وليس هناك من هو في درجة النبي ﷺ ليكون بحاجة إلى إثبات ما يدعي.

ولا بد هنا من الإشارة إلى نقطة مهمة، هي أن موارد الإعجاز يكون الفعل فيها لله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1]. فالمعجز من الله لا من النبي ﷺ والغرض من وقوعه إثبات نبوة النبي ﷺ. أما ما يرد من الأخبار هنا وهناك، مما هو خلاف الأمور الطبيعية، فلا وجه فيه للإعجاز.

---

(١) الأنفال: ١٧.

المحور الخامس

ندوات فكرية

- القرآن دستور المسلم
- الوعي القرآني
- نظرات في المنبر الحسيني

القرآن دستور المسلم

ندوة مشتركة بين سماحة العلامة الفضلي وسماحة السيد حسن النمر

بين يدي الندوة:

(الشيخ الفضلي): تعقد الندوات عادةً ويكون المقصود منها توضيح فكرة من الأفكار، للمستمعين، سواء كانوا جمهوراً أم متخصصين، أو لتوضيح مشكلة، أو محاولة لطرح الحلول لمشكلة ما، ليخرج المستمع من الندوة بفائدة، إما بمعلومات جديدة، أو بمعلومات اتضحت وأصبحت ذات تأثير عليه في سلوكه.

وهذا لا يتأتى إلا إذا أخذت الندوة طابعها المطلوب من الحوار، وقد يكون هذا الأمر غريباً علينا، لأننا لم نعتَدْ ممارسة هذا اللون من الحوار الذي ذكرته، ولكن هذا لا بد منه، لنكون بمستوى رسالتنا في هذه الحياة، ولنواكب الأمم الأخرى المتطورة التي تستفيد من الندوات.

في كثير من البلدان تتكرر الندوات يومياً وبكثرة، وباستطاعة الفرد في يوم واحد أن يحضر العشرات من الندوات.

والفرق بين الندوة والمحاضرة هو المحاورة، فالندوة ليست محاضرة أو خطبة منبرية يكون فيها طرف محاضر وآخر مستمع، إنما يكون المستمع في الندوة مشاركاً لا متلقياً فقط. فعندما يُطرح السؤال من المحاور، ويجيب الضيف عن السؤال، يأتي دور المستمع، الذي يتلخص في ثلاث نقط:

١ - المناقشة: فإذا كانت لدى المستمع خلفية ثقافية، ومعلومات وافية حول الموضوع فإنه يستطيع أن يناقش المحاور أو الضيف.

ومن صفات النقاش، أن المناقش ينبغي أن يكون مرناً في نقاشه، فلا ينفعل، وهذه من طبيعتنا الاجتماعية المتركّبة تركيبة عشائرية، تعتمد على (المغالبة) فإذا كان هناك نقاش في مجالسنا، فعادةً ما تعلو الأصوات وتصل إلى خارج المجلس، وربما أدى النقاش إلى عداء. فلا بد إذن أن نتمرن على الطريقة المألوفة، بأن نكون مرنين هادئين في النقاش. لأن الحوار لا يعني أننا في حلبة صراع، لإبراز عضلات المناقِش والمناقَش، وإنما ينبغي أن يكون الوصول إلى الحقيقة هو رائد كل طرف منهما. وهذا لا يمنع أن أخطئ أنا فتصحح أنت، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]. وهذه حقيقة وقاعدة وضعها القرآن الكريم، وسوف تبقى ثابتة.

فأنت تستطيع أن تناقش أكبر العلماء، إذا كانت لديك معلومات وخلفية حول الموضوع المطروح للنقاش، وكونه عالماً كبيراً لا يعني أنه عالم مطلق، لديه علوم العالم كلها.

٢ - المساءلة: فقد يكون المستمع لا يملك خلفيات ثقافية حول الموضوع، لكنه يريد أن يستوضح ويستفهم، أو أن الفكرة لم تتضح له كاملة. فيمكن عندئذٍ أن يناقش في مجال استيضاحه، وأن يتصدى المسؤول لتوضيح الفكرة.

٣ - الملاحظة: عندما يُطرح السؤال، قد لا يجيب عنه الضيف الجواب الكافي، أو أن يجيب بجواب عليه مأخذ وملاحظة، فليس المحاضر معصوماً، ولا عالماً بجميع علوم الدنيا.

---

(١) يوسف: ٧٦.

وهنا يمكن للمستمع أن يبدي الملاحظة، ولكن عليه أن يلتزم بأخلاقيات الحوار، ومنها أن لا يكون منفعلاً، وأن لا يتحدى المقابل، كما نرى في بعض الأحيان، بل هو المألوف في حواراتنا، بسبب خلفياتنا وتركيبتنا العشائرية، بأننا نحاول أن نخرج غالبين غير مغلوبين، لا أن يكون الهدف أن نصل إلى ما هو مفيد.

القرآن هوية المسلم:

إن وجود المسلمين في هذه الحياة مرتبط بوجود القرآن الكريم، فمصداقيتهم واعتبارهم إنما هو رهن بمصداقية واعتبار القرآن الكريم. ومتى ما توثقت علاقة المسلمين بالقرآن الكريم، بحيث انعكست أفكاره ومفاهيمه على تصرفاتهم وسلوكياتهم في هذه الحياة، كانوا بالمستوى والمركز الذي أراده الله تعالى لهم.

معنى (القرآن):

ولأهمية القرآن، ولأجل أن نستفيد من هذه الندوة، نبدأ بمعنى كلمة (قرآن).

القرآن: اسم لهذا الكتاب المقدس عند المسلمين، الذي أُنزل من الله تعالى على نبينا محمد ﷺ. فعندما يقال (قرآن)، لا ينصرف الذهن إلا إلى هذا الكتاب المنزل المقدس عند المسلمين، فهي علم على هذا الكتاب الكريم.

أما في اللغة، فإنها مصدر من قرأ يقرأ، قراءةً وقرآناً، فهي والقراءة بمعنىً واحد.

وهناك معنىً ربما وقف عليه بعضكم، وحصل خلط بينه وبين المعنى الذي ذكرناه، وهو (القَرْء)، بمعنى الجمع، فقد ذكر بعضهم أن من معاني

القرآن (الجمع)، أي أنه من القرء، بأن تجمع شيئاً إلى آخر، وتضمه إليه فيسمى (قرآناً)، وهما في الواقع معنيان مختلفان، فالقَرْء غير القرآن، فإذا قلنا: قرأ يقرَأُ قراءةً وقرآناً، فهو يعطي معنى التلاوة. أما إذا قلنا: قرأ يقرَأ قَرْءاً، فهذا هو معنى الجمع.

وقد وردت كلمة القرآن في بعض الآيات الشريفة، ومنها قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1]. وقد فسر بعضُهم القرآن هنا بمعنى الصلاة، لأن الصلاة فيها قراءة سورة الفاتحة، وسورة أخرى، وقد يطلق اسم الجزء على الكل من باب التجوّز. وبعضهم فسر القرآن بمعناه الحقيقي.

هذا ما يرتبط في الجانب اللغوي لكلمة قرآن.

جمع القرآن:

سؤال (للسيد حسن النمر): في أي عهد جُمع القرآن الكريم؟

الجواب: للجمع معانٍ أربعة، وهي مسألة ليست تفسيرية عادةً، إنما يُتعرض لها في مباحث علوم القرآن الكريم:

١ - الحفظ في الصدور: وهذا الأمر متحقق في زمن النبي ﷺ وهذه مسألة متفق عليها، حيث إن الرسول ﷺ هو الذي تولى توزيع الآيات والسور.

والدليل على أن هذا الجمع كان موجوداً، هو استشهاد سبعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ من حفاظ القرآن في بئر (مَعونة)، وكانوا جميعاً يحفظون القرآن. وكذلك في الحروب التي تلت وفاة النبي ﷺ في حرب مسيلمة الكذاب. فقد استشهد ما يقرب من سبعين رجلاً أيضاً من قراء القرآن

(١) الإسراء: ٧٨.

الكريم، وهذا يعني أن القرآن قد جُمع في عهد النبي ﷺ، ولكن بهذا المعنى، أي أنه حفظ في الصدور.

٢ـ كتابة القرآن الكريم وتدوينه على العظام والأحجار والأخشاب التي كانت في زمن النبي ﷺ وقد كان القرآن مجموعاً أيضاً بهذه الطريقة في زمن النبي ﷺ، وكانت تلك الصحائف محفوظة عنده ﷺ أو عند الأمام علي عليه السلام أو عند غيره من الصحابة.

فهذان الجمعان كانا في زمن الرسول ﷺ بالاتفاق.

٣ـ التدوين في المصاحف: وهذه المسألة اختلف فيها، حيث روى الشيعة[1] أن الإمام علياً عليه السلام باشر جمع المصحف، أو جمع الآيات والسور القرآنية في مصحف واحد بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، حيث اعتزل الناسَ فترة من الزمن، ليقوم بهذه الوظيفة الكبرى. وكان ذلك في المصحف المعروف بمصحف أمير المؤمنين عليه السلام وهو ليس موجوداً لدينا اليوم، ويقال إن فيه شيئاً من التفسير.

وفي هذا النوع من الجمع (الثالث) كانت هنالك نسخ متعددة، منها نسخه لدى أمير المؤمنين بتدوينه، ونسخ عند الآخرين[2]. وقال غير الشيعة: إنه جمع في زمن أبي بكر وعمر في خلافة أبي بكر.

٤ – توحيد المصاحف: أي تدوين القرآن في نسخة واحدة، يجتمع عليها الجميع، وإلغاء ما عداها من النسخ المختلفة، وهذا ما حصل في زمن عثمان بن

---

(١) والسنة أيضاً، من حديث أشعث عن محمد بن سيرين. راجع: كتاب المصاحف لابن أبي داود، ج١ص١٦ : جمع علي بن أبي طالب القرآن في مصحف.

(٢) راجع كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني (٢٣٠ هـ ـ ٣١٦ هـ) ج٢ ص٦٠، باب اختلاف مصاحف الصحابة.

عفان، حيث جمع الناس على قراءة واحدة.

فتحديد المراد من هذا الجمع هو الذي يسهل علينا عملية البحث في هذه المسألة، والظاهر أن هذا هو المقصود بالسؤال.

س: إذن نستفيد من ذلك أن القرآن الكريم قد جمع في عهد النبي ﷺ ؟

الجواب: نعم، الجمع الأساسي، بمعنى أن ترتيب آيات وسور القرآن الكريم ترتيب توقيفي، وليس من قبل غير النبي ﷺ[1].

صيانة القرآن من التحريف:

سؤال (للشيخ الفضلي): اتهم الشيعة بموضوع التحريف، أو أنهم يؤمنون بتحريف القرآن الكريم، فما هو رأي المسلمين جميعاً بالتحريف؟

الجواب: ذهب المسلمون جميعاً إلى أن القرآن لم يحرَّف ولم يبدل، وأنه ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]. كما أثبتت الدراسات الحديثة المقارنة بين القرآن الكريم والكتب الإلهية الأخرى (الإنجيل والتوراة) أن القرآن الكريم لم يحدث فيه أي تحريف ولا تغيير. وهو كما أُنزل على رسول الله ﷺ، وتلاه على المسلمين، وتناقله المسلمون جيلاً بعد جيل، ووصل إلينا، ليس فيه أي تحريف ولا تبديل ولا تغيير.

أما ما أثير ويثار حول قول الشيعة بالتحريف، فإنه ناظر إلى النقص لا

---

(١) هناك العديد من الشواهد التي ذكروها تفيد أن ترتيب السور خصوصاً لم يكن من النبي ﷺ إنما هو من اجتهاد غيره. فقد رووا عن ابن عباس أنه سأل عثمان بعد جمع القرآن: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتوهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ ... إلخ.

(٢) فصلت: ٤٢.

(٣) الحجر: ٩.

إلى التغيير، حيث ادعى هؤلاء أن الشيعة يقولون بنقص القرآن، استناداً إلى روايات مزعومة ذكرت أن هناك آيات أو سوراً[(١)] نزلت ولم تكتب في القرآن. ومعظم تلك الروايات إما أنه ضعيف لا يؤخذ به، أو أنها ناظرة إلى تحريف المعنى، أو أن فيها زيادات تفسيرية تبين المعنى المراد.

أما الصحيح منها فإن لم يمكن حمله على وجه صحيح يتناسب مع الأصل في عدم التحريف عندنا، فلا مناص من ردها، لمعارضتها لصريح القرآن.

وهذا الأمر موجود أيضاً عند إخواننا أهل السنة، حيث ادعوا أن هناك سورتين غير موجودتين في القرآن وهما الحفد والخلع[(٢)]، اللتين ذكرهما

---

(١) لم يرد في روايات الشيعة أن هناك سوراً حذفت من القرآن، إنما ورد ذلك في كتب غير الشيعة، ومثال ذلك سورتا الحفد والخلع المزعومتان، كما ثبت عن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف ولا يعتبرهما سورتين من القرآن. وما زعم من وجود سورة الولاية إنما هو زعم باطل جاء به أحد المؤلفين الهنود المغمورين في القرن الحادي عشر الهجري، وأودعه كتاباً يدعى (دبستان مذاهب) وذلك أيام الاحتلال البريطاني للهند، وقد اختلف في مذهب المؤلف، فقيل إنه مجوسي، وقيل إنه (كَيواني) واسمه كيخسرو اسفنديار.

وأول من أشاد بالكتاب وروج له هم البريطانيون، وبالتحديد فرنسيس غلادوين، حيث ترجمه إلى الإنكليزية عام ١٧٨٩. وفي عام ١٨٠٩ طبع الكتاب لأول مرة بأمر من المندوب السامي البريطاني السير ويليام بيلي، وهكذا استمرت طباعته ونشره في مناطق الهند وإيران. ثم تناقلته بعض الأيدي التي لا هم لها سوى الكيد للشيعة فنقلوا عنه ما يريدون، كما فعل محب الدين الخطيب في خطوطه العريضة. فالسورة المزعومة: هندية المنشأ والصناعة، بريطانية التعليب والتصدير، تلقفتها أيدي المتعصبين أو المرتبطين بالأجانب أو الجهلة، أو الباحثين عن الشهرة بأية وسيلة، فنشروها في كتبهم.

أما عن الآيات التي ظاهرها النقص، فقد ناقشها علماء الشيعة، ووجهوها بما يتناسب وعقيدتهم في سلامة القرآن وصيانته من التحريف، على أن العديد منها ـ كما ذكر الشيخ ـ ضعيفة السند، أو موضوعة، والكثير منها نقل عن أحمد بن محمد السيّاري، وعلي بن أحمد الكوفي، وهما متهمان بالكذب وفساد المذهب عند علماء الرجال، أما أحمد بن محمد السياري فقد اتفق علماء الرجال على فساد مذهبه وأنه يقول بالتناسخ. وأما علي بن أحمد الكوفي فقد ذكر علماء الرجال أنه كذاب وفاسد المذهب.. راجع: البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي. صيانة القرآن من التحريف، للشيخ محمد هادي معرفة، وغيرهما.

(٢) وصورتهما على بعض الروايات: (اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجدّ، إن عذابك بالكفار (بالكافرين) ملحق.

الزركشي في كتاب البرهان في علوم القرآن، والسيوطي في الإتقان، وغيرهما.

فهذه الروايات كلها مرفوضة من قبل علماء المسلمين، ولا يُعمل بها، لأن القرآن تناقله المسلمون حفظاً في الصدور، ومكتوباً، وكانت الكتابة تخضع لمشايخ الإقراء والقراءات في كل زمن من الأزمنة، وهذه ضمانة من النقص أو التحريف.

فلا تحريف إذن ولا تغيير ولا زيادة ولا نقص في القرآن الكريم، وهذا رأي جميع المسلمين.

وأما ما يثار من الشيعة ضد السنة، أو من السنة ضد الشيعة، إنما هو نوع من (الستراتيجية العرجاء) التي لا تؤدي إلى نتيجة، إنما تكب صاحبها على وجهه.

وجوه الإعجاز القرآني:

سؤال (للسيد حسن النمر): ما هي وجوه الإعجاز في القرآن الكريم؟

الجواب: يذكر عادةً في أصول الدين، أو علم العقائد، أن لكل نبي معجزة، لكي يفرض قبول نبوته على الأمه التي بعث إليها. ومعنى المعجزة: الأمر الخارق للعادة، لا بمعنى اختلال القوانين العقلية، وإنما أمر لم يعتد الناس على وقوعه، أو لا يقدرون ـ حسب الظروف الطبيعية ـ أن يقوموا به، فيقع على يد هذا النبي أو ذاك إثباتاً لدعوى نبوته.

وقد كان لكل نبي معجزته الخاصة به، التي تتناسب وثقافة عصره، لأن المقصود هو إقناع من يخاطبه بالدرجة الأولى.

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ونؤمن بك ونخضع لك ونخلع من يكفرك (يفجرك)).

وباعتبار أن نبينا محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء، ورسالته هي آخر الرسالات وخاتمتها، وجب أن يكون لديه من المعجزة ما يؤكد نبوته.

ولكن يجب أن يضاف إلى معجزة النبي محمد ﷺ شرط لا نشترطه في معجزات الأنبياء السابقين، وهو استمرار الإعجاز وديمومته، نتيجةً وتبعاً لاستمرار الرسالة. فلأن الرسالة خالدة، يجب أن تكون هذه ا لمعجزه خالدة.

والسؤال هو عن إعجاز القرآن الكريم بالخصوص، وليس عن معجزات النبي الأخرى، فقد كانت هناك معجزات آنية انتهت في وقتها.

لقد بحث علماء القرآن الكريم أيضاً في وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد أنهاها بعضهم إلى ثمانين وجهاً، بعضها وجوه استحسانية، قد لا تنهض ولا يدعمها الدليل الكافي، ولكن أقتصرُ على ذكر خمسة منها مما يتفق عليه أغلب من كتب في هذا المجال:

الوجه الأول: البيان والبلاغة: وهو أهم الوجوه تقريباً وأبرزها، لأن أمة العرب هي التي خاطبها النبي ﷺ أولاً، وكان قبولها بالقرآن الكريم يعتبر الأرضية التي تسهل اختراق نفوس من يأتي بعد تلك الأمة، لقبول هذه الحقيقة الأكيدة، وهي أن هذا القرآن هو كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ.

وقد ذهب النَّظَّام من المعتزلة إلى إنكار هذا النوع من الإعجاز في القرآن الكريم، وقال بنظرية (الصَّرْفة) بمعنى أن الله عز وجل صرف قدرة الناس عن معارضة القرآن الكريم، وإلا فإن البشر بمقدورهم الإتيان بمثله لو أن الله عز وجل لم يَسلب عنهم القدرة. وهذا رأي شاذ لم يوافقه عليه أحد تقريباً.

وإدراك طبيعة البلاغة القرآنية في كثير من الأحيان، لا تخضع إلى قوانين، فأنت قد تصل من خلال دراسة قوانين البلاغة، إلى إدراك العجز عن إدراك

الحقيقة الإلهية. وذلك مثل مسألة الجمال، فمن الصعب جداً أن نضع قوانين ومقاييس محدده لذلك، وكل ما نعتمد عليه في إدراك الإعجاز البلاغي في كثير من الأحيان إنما هو الذوق والحس، كما يتذوق الأديب القصيدة الشعرية أو المقطوعة النثرية.

فهذه المسألة متفق عليها، وهي أن بلاغة القرآن الكريم بلغت حداً لم يجرؤ معه أحد أن يتصدى لمعارضته في هذه الجهة.

الوجه الثاني: أنه نزل على مثل النبي محمد ﷺ وهو الشخص الأمي الذي لم يحمل من الثقافة الأكاديمية ما يحمله العلماء. وهذا من وجوه الإعجاز الواضحة، ولذلك حاول المشركون الطعن في هذا الجانب باتهام النبي ﷺ بأنه كان يستمع إلى (حدّاد رومي) كان يعيش في مكة، ولكن الله عز وجل نفى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1]. أي أنه لا يمكن أن يكون أي أساس لهذه الشائعة، وهي منتفية تماماً.

الوجه الثالث: إلاخبار بالمغيبات، كقوله تعالى لما وقعت المعركة بين الفرس المجوسيين والروم النصرانيين، وكان المسلمون يتعاطفون مع الروم باعتبارهم أصحاب كتاب وديانة سماوية، في حين أن المشركين كانوا يتعاطفون مع الفرس، باعتبار أنهم أقرب إلى الوثنية: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. ولم تتجاوز السنون السبع أو الست حتى انتصر الروم.

---

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) الروم: ٢ـ٤.

الوجه الرابع: عدم الاختلاف:

لعل من عايش مسألة الكتابة والتأليف، يدرك هذه المسألة، وهي أن المؤلفين والكتّاب من الصعب عليهم جداً أن يحتفظوا بنسق واحد، وعلى منهج واحد في تأليف واحد، خصوصاً إذا طالت المدة.

أما لو لاحظنا أن القرآن الكريم نزل مدرّجاً على النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين سنة، لأدركنا صعوبة التوفيق بين هذه المضامين مجتمعةً. فقد نزل القرآن في الليل والنهار، ونزل في مكة وفي المدينة، وفي الحرب والسلم، وهناك حالات نفسية مختلفة كانت تعترض النبي ﷺ فكان ينبغي للقرآن ـ لو لم يكن من الله عزه وجل ـ أن يتأثر بهذه الظروف المختلفة، قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾[1].

وصفة الكثير هنا ليست قيداً احترازيًا، إنما هي قيدٌ توضيحي، بمعنى أن الله عز وجل يقول: سوف لن تجدوا مجرد الاختلاف في القرآن الكريم، لأنه من الله، ولو لم يكن من الله، فسوف تجدون الاختلاف الكثير.

ولو كان قيداً احترازياً لكان المعنى أن الله عز وجل ينفي الاختلاف الكثير في القرآن الكريم دون القليل، وليس هذا هو المراد.

الوجه الخامس: الأصول المعرفية في القرآن الكريم.

فلا يزال القرآن الكريم هو محور دراسات الفقهاء والأصوليين والحكماء والفلاسفة والعرفاء، ولا يزالون يُقِرُّون بالتواضع الجم في مقابل ما يشاهدونه من تعاليم سامية في القرآن الكريم.

سؤال (للشيخ الفضلي): من مباحث علوم القرآن التي لقيت عنايةً بالغة،

---

(١) النساء: ٨٢.

واهتماماً كبيراً، موضوع الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم. حبذا لو ألقيتم الضوء على هذا الأمر.

الجواب: وردت الأحرف السبعة في رواية من طريق إخواننا أهل السنة، ولم تروَ عن طريقنا نحن الشيعة. وقد وردت في أكثر من مصدر، وأكثر من إسناد، وبألفاظ مختلفة، مفادها أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

ولكن، ما هي هذه الأحرف السبعة؟

ذكر علماء علوم القرآن أوجهاً متعددة لمعنى الأحرف السبعة، وقد تعددت الأوجه بتعدد ثقافات أولئك العلماء واتجاهاتهم، وما يقفون عليه من قرائن.

فمما فسروا به الأحرف السبعة، أنها: الأمر والنهي، والحلال والحرام، والمحكم والمتشابه، والأمثال. أي أن القرآن الكريم، من حيث التبويب الموضوعي، ينطوي على هذه العناوين، أو المعاني السبعة.

ومما فسرت به الأحرف السبعة أنها اللغات أو اللهجات العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وهي: لغة قريش، ولغة هذيل، ولغة هوازن، ولغة اليمن، ولغة كنانة، ولغة تميم، ولغة ثقيف.

وللوقوف على اللهجات المذكورة في القرآن الكريم ـ وهي في الواقع أكثر بكثير من هذه المعاني السبعة التي يذكرها هؤلاء ـ يمكن الرجوع إلى كتاب كنز المعاني، لشعلة الموصلي، وشرح الشاطبية، وهي منظومة لكتاب التيسير في القراءات السبع للداني، الذي يعتبر أهم وأوثق كتاب في القراءات السبع.

حيث تلاحظ أن صاحب كتاب كنز المعاني يحاول دائماً أن يُرجع الألفاظ الواردة في القرآن الكريم إلى لهجاتها عند القبائل العربية في الجزيرة.

كما فسرت الأحرف السبعة أيضاً باختلاف القراءات، فنقول مثلاً: الحمدُ

لله، بضم الدال، وهناك من يقرأ (الحمدَ) بفتحها، وهي قراءة شاذة، لا يجوز أن نقرأ بها في الصلاة. وهناك من يقرأ (الحمدِ لله) بالإتباع، وهي شاذة أيضاً. وهذ اختلاف في القراءات ناشئ من اختلاف الحركة، من ضمة إلى فتحة إلى كسرة. وقد يكون الاختلاف ناشئاً من التشديد والتخفيف، كما في (يَطْهُرْنَ) بالتخفيف، و (يَطَّهَّرْنَ) بالتشديد.

كما فسرت الأحرف السبعة أيضاً بالاختلافات، وأحصيت تلك الاختلافات في سبعة عناوين.

ولكن لو أردنا أن نقرب المعنى نقول: إن كلمة (حرف) في اصطلاح علم القراءات، تعني القراءة ذاتها، فيقال: حرف (مالِك) في سورة الفاتحة، ممكن أن تُقرأ (ملِك) وتنسب هذه القراءة ـ في رأي بعض علمائنا ـ إلى أهل البيت عليهم السلام. فقراءة (ملِك) حرف، وقراءة (مالِك) حرف.

والحديث ـ كما ذكرنا ـ من طريق إخواننا أهل السنة. ويبدو أنه ناظر إلى التيسير في القراءات، حيث سُمح به بالشكل الذي يكون قليلاً، وقد وصل إلى سبع قراءات، هذا إذا صح صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث إن علماءنا، ومنهم السيد الخوئي (قدس سره) ينفون صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

سؤال (للشيخ الفضلي): من أسس التعاليم الدينية (التدبر في القرآن) وهناك آيات كثيرة تدعو إلى التدبر فيه، وعندما نعود إلى رواياتنا نجد أنها تؤكد المعنى ذاته، فهي تأمر بالتأمل في القرآن الكريم، من أجل استخراج معالمه وكنوزه الدفينة، فما هي شروط التدبر؟ أو لنقل: ما هو المنهج الصحيح لتدبر القرآن؟

الجواب:

قراءة القرآن الكريم تكون على نوعين:

الأول: التلاوة، وهو ما ورد فيه الاستحباب في الروايات الشريفة. كما هو الحال في قراءة الفاتحة والسورة بعدها في الصلاة، فلا يشترط في القارئ هنا أن يفهم معاني هاتين السورتين، إنما المطلوب من العربي وغير العربي، وعلى نحو الوجوب، هو التلاوة فقط.

الثاني: قراءة التدبر: ومعنى التدبر هو محاولة القارئ فهم ما يقرأ من القرآن.

ولعل السؤال المطروح يتناول النوع الثاني، وهو فهم المعنى.

والنقطة الأهم هي: كيف نتدبر؟ وما هي الأسس المعتمدة؟ وهل أن المعنى المتبادر لأذهاننا لأول وهلة هو المعتمد؟

الجواب: كلا، لأن القرآن الكريم فيه محكم ومتشابه، وفيه معانٍ نَصية، حيث تعطي الكلمة الواحدة معنى واحداً فقط لا أكثر،كما أن فيه معاني ظاهرية، تحتمل فيه اللفظة معاني أخرى أيضًا.

وكما يقول علماء التفسير والفقهاء، فإن الظواهر يؤخذ بها، ولا تعد من التفسير بالرأي، أما ما عداها، من المتشابه وأمثاله، فلا يجوز فيها الحمل على الظاهر، ولا بد أن يستند المفسر فيها إلى دليل ما، للوصول إلى المراد.

أما عن منهج التعاطي مع المتشابه، فهناك رأيان: أحدهما يذهب إلى أنه لا يجوز تفسير المتشابه، ويذهب الآخر إلى أنه ينبغي أن يفسر من خلال المُحكم، وهو الذي عليه أكثر علمائنا.

ونحن مأمورون أن نقرأ القرآن الكريم محكمه ومتشابهه قراءة تدبر، إلا في المواضع التي أريد فيها منا التلاوة فقط، كما في الصلاة، وذلك لأن القرآن هو رسالة المسلمين، ويحتوي الكثير من المعاني في المجالات الحياتية المختلفة،

فلأجل أن نستفيد منه في حياتنا، لا بد أن نتدبره، فهو ـ كما أشرت في أول الندوة ـ يمثل مصداقية واعتبار المسلمين، وأن مصداقيتهم واعتبارهم متوقفة على مصداقية واعتبار القرآن، ولا يتأتى هذا إلا إذا قمنا بخدمته بالدرجة الأولى، ثم بخدمة أنفسنا من خلال تدبر معانيه.

سؤال (للشيخ الفضلي): كيف يتسنى لإنسان عادي أن يعرف المحكم والمتشابه، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن؟

الجواب: المحكم والمتشابه مصطلحان في علوم القرآن، وكذلك المطلق والمقيد، والعام والخاص. والمصطلحات العلمية لا تفهم عادةً إلا من المتخصصين. وبالتالي نحن بحاجة إلى ثقافة دينية أولية، فيجب أن تكون لدينا حملة تثقيف دينية لتعريف الناس بالثقافة الدينية الأولية. ومن خلال هذا يأتي تعريف المصطلحات بشكل مبسط وميسر. وقد نجحت هذه الطريقة في بلدان كثيرة.

وفي أكثر من مرة، ومن خلال هذا المنبر والمنابر الأخرى، كنت أدعو أهل العلم، من العلماء وطلاب العلوم الدينية، أن يقوموا بهذه المهمة، وهي تعليم الناس أوليات الدين في مختلف العلوم الدينية التي يحتاجون إليها في حياتهم، وتطوير واقعهم. وهذا الأمر ممكن التحقيق، من خلال أئمة الجماعات مثلاً بعد الصلاة، حيث يمكن أن يطرح إمام الجماعة مسألة أو مسألتين، ويوضحها بشكل مبسط.

ومن الممكن كذلك أن تعقد دروس في التفسير وغيره، كما هو الحال في سيهات والقطيف والأحساء وصفوى وغيرها، فقد انتشرت الدروس الميسرة والمبسطة، لتعريف الناس بهذه الأوليات.

فإذا فهم الناس هذه الأوليات، استطاعوا أن يتدبروا القرآن ويفهموا معانيه.

سؤال (للسيد حسن النمر): هنالك شبهه حول غموض بعض الآيات؟ فكيف يتسنى لنا التدبر وهنالك آيات غامضة؟

الجواب: إن مسألة التدبر قد لا تتيسر، بل إنها لا تتيسر قطعاً إلا لمن حاز على مجموعة من الشروط الأولية. كما أن عامة الناس إذا تمكنوا من التدبر، وحازوا على تلك الشروط، لا يمكنهم أن يستوعبوا جميع مضامين القرآن الكريم، ولا بد أن تبقى بعض المضامين القرآنية في متناول العلماء المتخصصين فقط، ويجب أن يبقى بعضها أيضاً في متناول أهل العصمة عليهم السلام فقط. وإلا فإننا إذا تصورنا أن عامة الناس أو حتى المتخصصين منهم استطاعوا أن يستوعبوا جميع مضامين القرآن الكريم، لما كان معجزة.

إن حركة القرآن الكريم وجريانه جريان الليل والنهار، يدعو إلى أن يكون هنالك بعض المضامين يُحتفظ بها للأزمنة المقبلة أيضاً.

وما ذكر في السؤال من أن هنالك بعض الآيات الغامضة، لعل المقصود من غموضها أنها تتحدث عن المعاني الكلية بشكل عام. وإلا فإنه ليس هناك أي غموض في القرآن الكريم، فإن كان هناك غموض لغوي فينبغي الرجوع فيه إلى قوانين اللغة، وإن ادُّعي التناقض فلا، أما إذا كان هناك عمق، فيحتاج أن يكون المتدبر ذا عمق ثقافي ومعرفي يؤهله ويمكنه أن يكون بمستوى إدراك المعاني العميقة، وإلا فإن القرآن الكريم هو كتاب هدًى ورحمة، ولا يمكن أن يكون غامضاً في بعض جوانبه. نعم، ذكر أن هنالك بعض المتشابهات، قد يتيسر لعلماء المسلمين الوصول إليها، وقد يقفون عند بعض معانيها، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1]. فقد ناقش الشيخ جعفر السبحاني الآراء الواردة في هذه الآية، ونقضها جميعاً، ثم وقف عاجزاً أمام إبداء أي رأي فيها، وهذا من تواضع العلماء. وأحال القضية إلى المستقبل، عسى أن يأتي من يكون قادراً على إعطائنا رأياً يناسب المعارف القرآنية.

سؤال (للسيد حسن النمر): هل هذا يعني أن آيات القرآن التي تحث على التدبر نحن غير مخاطبين بها ؟

الجواب: كلا، نحن مخاطبون بها، ولكن هذا لا يعني أننا سوف نتوصل إلى كل معاني القرآن الكريم، إنما يمكن أن نتوصل إلى ما يؤهلنا إلى أن نستفيد من القرآن الكريم، ونوظف مضامينه للوصول إلى ساحل الأمان.

سؤال (للسيد حسن النمر): التدبر السطحي قد يؤدي أحياناً لتطويع القرآن لآرائنا، فهل نكتفي بالتلاوة إذا لم نعرف معاني الكلمات والآيات؟

الجواب: الوقوف عند حد التلاوة مرفوض، والسعي نحو التدبر مطلوب جداً، ولكن اتّباع الهوى مرفوض أيضاً.

والتدبر السطحي إنما يقتصر عليه في الغالب من يريدون أن يستغلوا آيات القرآن الكريم في سبيل تحقيق مآرب معينة، مرفوضة قرآنياً، وأمير المؤمنين عليه السلام يقول في صفات الإمام المنتظر عليه السلام: «يعطف الهوى على الهدى، إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي»[2].

فلا ينبغي التلاعب بآيات القرآن الكريم، وهناك بعض المضامين القرآنية

(١) الأعراف: ١٧٢.
(٢) نهج البلاغة: ١٩٥.

الكريمة لا يمكن أن يستخرجها إلا المتخصص، قال تعالى واصفاً القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾[1].

فكما يفتي الفقهاء بأن آيات القرآن الكريم المكتوبة لا يجوز لغير المتطهر أن يمسها، كذلك مضامين القرآن الحقيقية، لا يمكن أن يمسها إلا أهل الطهارة، وبمقدار ما تكون طهارة الإنسان، تنفتح أمامه آفاق لا تتيسر لغيره ممن لم يحمل نفس هذه الدرجة من الطهارة.

فالتسطيح ناتج من قلة الوعي، أو الانحراف السلوكي ـ والعياذ بالله ـ أو الانحراف الفكري.

السؤال (للعلامة الفضلي): لو تدبرت في بعض الآيات وقادني هذا التدبر إلى الوقوع في خطأ، هل يعتبر ذلك معصية؟ وهل يعتبر ذلك تفسيراً بالرأي؟ وقد ورد في بعض الروايات الشريفة عن النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه، أو بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار»[2]، وكذلك: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[3].

الجواب: التفسير بالرأي هو ما لا يستند إلى دليل عقلي أو دليل شرعي، في فهم المعنى المطلوب من الآية القرآنية. فهناك نوع من التفسير يعتبر استغلالاً وتوظيفاً للقرآن لصالح فكر معين.

في السنة الماضية جاء إلى هنا أحد (الدكاترة) ومعه كتاب، وطلب إليّ أن أقرأه وأعطي رأيي فيه، وقد كان نوعاً من التفسير. فقرأت قسماً منه في أماكن مختلفة، فوجدت أن المؤلف كان يبني تفسيره لغوياً على (البنيوية) وهي نظرية

---

(١) الواقعة: ٧٧ - ٧٩.

(٢) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور الأحسائي١: ١٧٤.

(٣) عوالي اللآلي، ابن أبي جمهور الأحسائي٤: ١٠٤.

من النظريات، التي تعتبر اليوم حديثة، وهي ليست كذلك، إنما هي نظرية قديمة، لكنها طورت وأصبحت حديثة.

أما من حيث المعنى فكان يعتمد الماركسية، التي لا تلتقي بأي من مفاهيمها مع القرآن الكريم، لا من قريب ولا من بعيد، لأن كارل ماركس لا يعترف بوجود الله أصلاً، فكيف يعترف بالقرآن؟ وإذا أراد أن يعترف به، فإنما يرى أنه موضوع من قبل النبي محمد ﷺ.

مثل هذا اللون من التفسير تكون فيه بلا شك أخطاء ومفارقات كثيرة، وهذا لا يجوز مطلقاً، لأن القرآن الكريم يجب أن يقدَّس، وعلى الإنسان أن لا يقتحم هذا المجال، إلا إذا رأى من نفسه أنه لو أخطأ يكون معذوراً عند الله، وإلا لو فتحنا هذا الباب فإنه سوف يُستغل، وقد استُغل من قبل المذاهب العقائدية على طول التاريخ، حيث إنها تستدل بالآيات القرآنية، وقد تكون هناك آية واحدة يستدل بها أحد العلماء على الجبر، ويستدل الآخر بها على الاختيار، وهكذا.

فعندما نريد أن نفسر القرآن الكريم يجب أن تكون لدينا خلفية ثقافية دينية، بحيث إننا لو فسرناه بما نمتلك من أدلة عقلية وشرعية، ثم نخطئ فإننا نكون معذورين أمام الله، ولا يجوز أن نقحم أنفسنا في غير هذه الحالة.

سؤال (للسيد حسن النمر): هل أن السبب الذي استدعى نزول الآية يُخصص أو يُقيد المدلول القرآني العام لها؟ بمعنى أنه إذا نزلت آية معينة لسبب من الأسباب، هل تقتصر على ذلك السبب ولا تتعداه إلى غيره من الأمور والوقائع المطابقة؟

الجواب: القرآن الكريم كتاب هداية، وهو الدستور الأساسي لرسالة النبي محمد ﷺ التي هي الرسالة الخاتمة والخالدة أيضاً، وهذا ما يوضح لنا الإجابة

عـن هذا التسـاؤل. فالقـرآن الكريم لا يمكـن أن يقيد بأسـباب النزول، وإلا لأصبحـت جميع الآيات التي كان لها سـبب نزول خـاص بواقعة معينة عديمة الجدوى، ولعلها تبلغ ثلث أو نصف القرآن.

الوعي القرآني

ندوة مشتركة بين سماحة العلامة الفضلي وسماحة السيد حسن النمر

المحور الأول: التدبّر

تمهيد: إذا نزلت الآية في قوم وماتوا ماتت الآية ومات القران، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين.

الله (عزّ وجّل) كان يتذرع بأمثال هذه الحوادث لينزل يعني ليكون أكثر استقرارًا في النفوس باستغلال هذه الحادثة، كما يأتي الزعيم والمسئول والرئيس ليستغل حدوث حدث معين فيعطي توجيهات حتى يكون الربط بين هذه الحادثة والمضمون يبقي المضامين في نفوس الناس، فالعبرة بعموم لا بخصوص السبب - كما يقول علماء التفسير- لا ينبغي أن أتقيد في مثل هذه الموارد إلا إذا كان هناك دليل قائم على أن هذه الآية خاصة بهذا المورد.

يحتاج أن نتتبع هل هناك آيه وارده أو نزلت بسبب معين وهي خاصةالآن ليس لي إحاطة بهذه المسألة.

السؤال الأول: كيف نجمع بين الآية التي تقول: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وبين الآية التي تقول - بالنسبة إلى الوضوء-

﴿يا أيها الذين أمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجُلِكم﴾ أو «وأرجُلَكم» هل هنا هذا يقع في

نطاق التحريف أم هناك شيء ثاني؟

الجواب: ـ يرتبط بموضوع القراءات ـ والقراءة في رأي عموم المسلمين السنة يعني رواية تروى عن النبي ﷺ أو عن أحد المعصومين.

القراءة بالجرّ مثل كلمة (أرجُل) والقراءة بالنصب كلتا القراءتين متواترتان، قراء القراءات المتواترة المعروفون سبعة،كل قارئ له راويان يرويان عنه، القرآن الموجود ألآن عند المشارقَ بقراءة (عاصم بن أبي النجود) ورواية (حفص) وله رواية ثانيه عن طريق (شعبه)، بقية القراء كل واحد منهم له قارئان، ثلاثة من القراء قرأو بالنصب طبعاً يريدون هذه القراء الآن يوسعوها إلى النبي (صلى الله عله وأله) روايات موجودة وتعتبر طبعاً متواترة لأنه انتقلت من جيل إلى جيل.

ثلاثة من القراء قرأو بالجر يعني (ثلاثة بالجر وثلاثة بالنصب)، عاصم صاحب هذا القرآن الذي في روايته طبعاً في المغرب يأخذون بقراءة (نافع أبن أبي نعيم) وهو قارء المدينة براوييه (ورش)و (قالون)، في السودان يقرؤون بقراءة (أبي عمر أبن علاء البصري) مقرئ البصرة وبرواية (الدوري) عنه.

(عاصم) برواية (حفص) قرأ بالنصب « وأرجُلَكم » وبرواية (شعبه) قرأ بالجر « وأرجُلِكم » فمعنى أن القراءتين متوازنتين تماماً وكل من القراءتين مروي عن النبي ﷺ، يبقى التوجيه النحوي و الخلاف الفقهي إذا لم يستند إلى الموضوعات البيانية ولم يستند إلى روايات أخرى إذا كان اقتصر على الآية القرآنية يبقى الترجيح إلى القواعد النحوية، (هل نرجح قراءة النصب على قراءة الجر أو نرجح قراءة الجر على قراءة النصب؟) فهذا لا يتنافى مع أن القرآن محفوظ لأنه الاختلاف في القراءة إذا كان مروي عن النبي ﷺ يكون من ضمن القرآن، دائماً يذكرون إذا كان القراءة المتواترة قرآن لأن القرآن لا

يثبت بالتواتر فإذا كانت القراءة متواترة إذن هي قرآن.

المحور الثاني: التفسير

السؤال الأول: ماذا عن التفسير الموضوعي؟- فيا حبذا إعطاء فكرة عن التفسير الموضوعي و أهميته -

الجواب: مناهج التفسير مختلفة طبعاً أقدم منهج هو (التفسير اللغوي) واستعمله أبن عباس بكثرة، والتفسير المنسوب لابن عباس أو التفسير المجموع من روايات أبن عباس وصدر مؤخراً عن أحد الأساتذة في جامعة أم القرى.

التفسير اللغوي: يفسر الكلمة بكلمة أوضح منها.

عندنا أيضاً من أنواع التفسير (التفسير الفلسفي) الذي يستعمل المنهج الفلسفي و المبادئ العقلية الفلسفية ويُخضع الآيات لها كما في تفسير الرازي، الرازي عالم جدلي إلى أبعد حدود الجدلية ومتأثر كثيراً بالفكر الفلسفي.

هناك التفسير بالمأثور، عندنا نحن الشيعة (البرهان في تفسير القرآن) للسيد هاشم التوبلي البحراني (رحمه الله) يفسر الآية بالروايات الواردة في تفسير الآية، والآية التي لم ترد رواية في تفسيرها لا يفسرها.

عند السنة كتاب (الدر المنثور في التفسير المأثور) لجلال الدين السيوطي -كذلك هذا نوع من أنواع التفسير -.

بالآونة الأخيرة أصبح عندنا التفسير العلمي، تفسير القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة وأشهر تفسير (تفسير الجواهر) للجوهري الطنطاوي من علماء مصر، هذا دائماً يفسر الآيات وفق النظريات العلمية الحديثة وطبعاً كثير ما يخرج عن الحقيقة وعن الواقع وحتى عن الحق بعض الأحيان، مثلاً:

(يريد يبين أن الطائرة «الطائرة لحديثة» موجودة في القران «كلٌ يطيرُ بجناحيه» فالطائـرة أيضـاً عندها جناحين وتطير) هذا هو التفسـير العلمي موجود حتى الآن ـ في الكثير ممن يحاول أن يفسر بهذا -.

بعد أن ترجمت كتب علم الاجتماع للغة العربية وحتى تدرس في الجامعات، وعلم الاجتماع كأي علم له منهج بحث خاص، في منهج البحث تذكر المناهج الخاصة لدراسـة المناهـج الاجتماعية منها منهج الجشـتالت، في علم الاجتماع يترجـم منهج (الهيئة). الهيئة: أن نأخذ الموضـوع بكل أبعاده وأطرافه وندرس الموضوع ككل لا كأجزاء.

بعـض المفسريـن المعاصرين تأثروا بهذا المنهج وأقدم من تأثر به هو الشـيخ محمود شـلتوت شيخ الأزهر (الذي أعترف بحقيه مذهب أهل البيت وجواز التعبد به) عنده تفسـير ليس تفسـيراً كاملاً وإنما مجلد فيه تفسير كان يجمع كل الآيات التي كانت ترتبط بموضوع واحد ويفسرها في إطار ذلك الموضوع، بعد هـذا انتشر هذا اللون من البحث وهو التفسـير الموضوعي، ولم يفسر التفسـير الموضوعـي لكنه كتب في هذا المنهج التفسير الموضوعـي وأهميته هو الخطيب المعروف الشيخ أحمد الوائلي.

أيضاً تناول التفسير الموضوعي تفسيراً لا شرحاً السيد الصدر (قدس سره) تنـاول السـنن التاريخية في القـرآن وجمع كل الآيات التـي ترتبط بهذا الموضوع وألقي مجموعة من المحاضرات وكان هذا التفسير في أخرياته سبباً من الأسباب التي أدت إلى استشهاده.

- هذا معني التفسـير الموضوعي- طبعاً التفسـير الموضوعي له أهميته جداً لأنك تسـتطيع أن تخرج أوردت آيات كثيرة مثـلاً في النبي إبراهيم مرت آيات مختلفة في القرآن الكريم لو جمعنا هذه الآيات وتحدثنا عن شخصية النبي إبراهيم

وسيرة النبي إبراهيم عليه السلام من خلال هذه الآيات، سنخرج بصورة ربما تكون مكتملة المعالم عن شخصية وسيرة النبي إبراهيم، كذلك لو أخذنا الفلكيات ما يرتبط بالشمس بالقمر وجمعناها كما هي في كتاب الآيات الكونية في القران المؤلف يتناول هذا الموضوع، نستطيع أن نأخذه، فالتفسير الموضوعي يعتبر من أهم المناهج في تفسير القران الكريم.

السؤال الثاني: هناك مناداة للتوجه للتفسير الموضوعي ـ مثل ما ذكرت ـ لأهميته، وأفهم من إجابة الشيخ أنه يميل إلى هذا الرأي، فهل تنصح الشباب بالاقتصار على هذا النوع من التفسير أو لا؟

الجواب: نحن لا نريد أن نقتصر على منهج واحد لتفسير القرآن، لكن التفسير الموضوعي ربما يفضل على بقية المناهج لأنه يستطيع أن يعطي الصورة الكاملة أو شبة الكاملة عن الموضوع فتأتي أهميته من هذه الناحية وإلا لا نستغني عن التفسير اللغوي ولا نستغني عن التفاسير الاخرى في ما يمكن أن تستعمل كتفسير.

المحور الثالث: علاقتنا مع القران

س١: (إلى السيد حسن النمر): (تحجيم التعامل مع القرآن) ظاهرة واضحة فلقد حصرت الاستفادة من القران في مجالاتٍ محدودة، فالقران يقرأ في بداية الاحتفال أو الندوة ريثما يكتمل الحضور أو يتلى في مجالس الفاتحة أو عند الاستخارة، فما هي العوامل التي أدت إلى ذلك الفصل؟

الجواب: في الواقع هذه إحدى المشكلات التي تعتري حياة المسلمين نتيجةً للخلل العام في البنية الإسلامية بالفرد المسلم والمجتمع المسلم، وإلا فواقع القرآن الكريم وحقيقة القران الكريم أنها عهد الله (عزّ وجل) بين الله وبين

خلقه وورد في الروايات التأكيد على أنه لا ينبغي للمسلم أن لا يقرأ القرآن الكريم وأقل ما فرضته الآيات في هذا المجال هو خمسين آية يقرأها الإنسان بتأمل وتدبر، بالضبط كما تفعل الأحزاب والمنظمات عادةعندهم مواثيق (ميثاق كذا..، وميثاق كذا..) ويفرضون على أتباعهم أن يقرئوا هذا الميثاق ويتعرفوا على بنوده وبالضبط كما يرجع المحامي ويحفظ النصوص القانونية (المادة كذا .. والمادة كذا ..) فإذا أراد أن يترافع أمام القاضي يحتاج هذه المواد مشيراً حتى إلى أرقام هذه المواد.

إن القرآن الكريم بالنسبة إلى المسلم هو الضياء فقط، غيره لا يمكن أن يكون ضياء حتى السنة الشريفة ليست إلا تفصيل للآيات القرآنية يعني تشرح الآيات القرآنية تبين للقرآن الكريم فإذا أهملنا القرآن الكريم وجعلناه على الرفوف سوف يتقدم الشكوى إلى الله (عزّ وجل) كما ورد في القران الكريم ﴿ يا رب إن قومي اتخذوا هذا القران مهجورا ﴾ وهجران القران الكريم له أشكال متعددة جداً وجود المصحف في البيت النسخ المتعددة في البيت بحيث يعلو أحد هذه النسخ التراب والغبار نتيجة عدم مباشرة القراءة فيه كما ورد في الروايات ـ أنه يكون مورد للمسائلة والمؤاخذة من الله (عزّ وجل) لهذا المسلم.

فطبعاً تراجع القران الكريم في ذهنية المسلم وفي ثقافة المسلم إلى هذه الدرجة هو الذي أدى بالواقع الإسلامي إلى أن يتخلف على جميع الأصعدة وعلى جميع المستويات، فالشرط الأساسي لنهضة المسلم فرداً ونهضة المسلمين اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً هو إحياء موقع القرآن الكريم وإعادة الأمور إلى نصابها بالنسبة له خفظًا وتلاوتاً وتجويداً وفهماً وتدبراً وتفاعلاً أيضاً، وألاّ نقتصر على هذه الشكليات يعتبر إهمال واضح لهذا الدستور الذي ينبغي أن نتأمل في آياته

صباحاً ومساءاً - تعتبر هذه مشكلة - نسأل الله (عزّ وجل) أن يقيض لها من أبناء الأمة من يعيد إحياء واقع هذا القران الكريم.

س٢: نرى أن علماء أهل السنة أهتموا بموضوع القرآن من خلال إنشاء حلقات التجويد أو تأسيس جمعيات كثير لدعم حلقات التجويد ومباحث علوم القرآن وما شابه، أين موقع علماءنا من هذا الموضوع ؟

الجواب: طبعاً العلماء كغيرهم مطالبون وإن كانوا يطالبون أكثر من غيرهم في هذه المسألة مع عدم التهوين من شأن هذه المساءل التي قد يعدها البعض أنها شكلية صحيح هذه المسائل تكون شكلية إذا اقتصرنا عليها وأما إذا جعلناها ممر ومعبر لتأكيد القران الكريم تعتبر معلم أساسي لحب الفرد المسلم لهذا القران الكريم، طبعاً يحتاج أن يقوي العلماء المسلمين دورهم ويؤكدون من دورهم في هذا المجال من خلال إصلاح نفس المناهج العلمية التي قد يتعرض لها بعض المحاور الأخرى .

س٣ - موجة للشيخ الفضلي-: هل غياب القرآن عن الحوزات العلمية ساهم في الفصل بين القرآن والحياة المعيشية وله أحد العوامل؟

الجواب: طبعاً أنا أتحدث عن النجف لأنه عشت حوزة النجف ـ ربما أشير إشارة إلى ما يبلغني عن حوزة قم وهما الحوزتان الكوعيان للشيعة، نتيجة عوالم متعددة قد يرتبط بعضها بالمنهج وقد يرتبط بعضها بغير المنهج هذه العوامل أدت بالحوزة العلمية بالاقتصار على تخصص الفقه فقط.

فلا يسمح بدراسة موضوعات أخرى لا ارتباط لها بالتخصص بالفقه.

الجامعات فيها تخصص أيضاً، لكن هناك منهجان للوصول إلى هذا التخصص و تحقيق هذا التخصص، في بعض الجامعات من البداية يبدءون

بدراسة التخصص (طالب من السنة الأولى يبدأ بدراسة مواد التخصص حتى السنة الرابعة في البكالوريوس إذا كان النظام نظام سنوات، أو حتى ينتهي من الساعات المطلوبة إذا كان النظام نظام ساعات محتملة).

هناك طريق آخر لتحقيق التخصص أن يأخذ الطالب بالإضافة إلى مواد التخصص مواد عامة كثقافة عامة لها علاقة بالتخصص، قد تكون علاقتها قريبةً وقد تكون بعيدة.

يبدأ في بعض الجامعات يأخذ ثقافة عامة ١٠٠٪ لا يأخذ شيء من مواد التخصص، في السنة التي تليها يأخذ ثقافة عامة ٧٥٪ و ٢٥٪ مواد تخصص، في السنة الثالثة ٥٠٪ ب٥٠٪، في السنة الرابعة مواد تخصص خالصة.

في الحوزة العلمية كانت تأخذ من البداية مواد تخصص، مواد تخصص بالنسبة إلى الفقه هناك مواد اللغة العربية ويدرسون منها الصرف و النحو والبلاغة، ومواد عقلية يدرسون منها المنطق وقد يدرسون علم الكلام ويدخل أيضاً في المواد العقلية، ثم يبدأ التخصص بالأصول والفقه - يدرسون الأصول والفقه معاً في آن واحد -،

الملاحظ كان - عندما كنا نعيش في ذلك الوقت - طرح هذا السؤال أنه لماذا لا يدرس التفسير مثلاً، لا تدرس علوم القرآن الأخرى ولها ارتباط بشكلٍ ما مباشر وبشكل آخر غير مباشر، فالقرآن الكريم ٥٠٠ آية تسمى بـ(آيات الأحكام) ترتبط هذه بالفقه، المفروض في طالب تخصص الفقه أن يدرس هذه الآيات (يدرس طريقة أو منهج التفسير لفهم محتوى هذه الآيات)، ـ هذا الشيء غير موجود وما كان موجود ـ ممكن أن يدرس التفسير ككل وهذه تأتي من الضمن، التفسير ككل قد يلقي شيء من الضوء على فهم النصوص من حديث أو عرفيات ترتبط بقضايا الفقه وآيات الأحكام ترتبط بشكل مباشر.

كانت هناك ضغوط كثيرة ومطالبة كثيرة وكان المتصدي أكثر مما يرى من العلماء لهذه الشؤون (شؤون الحوزة) وليس شؤون الرواتب التي يعطوها للطلاب ـ كل المراجع كان يعطون رواتب وهو في وقته ما كان يعطي ـ هو السيد الخوئي (قدس سرّه) فكان مطالبة من الطلاب كثيرة والرجل تفهم الموضوع بشكل جدي واستجاب وقام بالتفسير في ليلتي الخميس والجمعة ـ طبعاً الحوزة عطلتها يوم الخميس والجمعة ـ فليلة الخميس ليلة عطلة وليلة الجمعة ليلة عطلة بعد الصلاة (الساعة واحدة عربي) يعني بعد الغروب بساعة كان يقوم بتدريس التفسير وكتابه (البيان المطبوع) درسه كمدخل للتفسير ثم أردفه بتفسير الفاتحة، ثم ترك ذلك الجهد بسببين:

١ – إن كثيراً من الذين يروا أنفسهم غيارى على واقع الحوزة وواقع تخصص الحوزة كانوا يضغطون عليه أن يترك التفسير وربما يترك الطلاب التفسير ويتجه إلى الفقه.

٢ – إنه لم يكن هناك ضبط للحضور (أي طالب يرغب بالحضور يحضر) المفروض يكون على مستوى ولكن (أي طالب يرغب بالحضور يحضر)، طالب بالأمس دخل النجف واليوم ليس العمامة ورأى نفسه أنه من حقه أن يحضر وحضر وطبعاً هذا لم يدرس النحو ولم يدرس الصرف ولا البلاغة فالتفسير يتوقف عليه بشكل واضح.

فالسيد الخوئي (رحمة الله) رأى أن الفائدة تصبح قليلة من التفسير فترك التفسير ـ طبعاً هناك كانت ضغوط ـ ووعد بأنه يكتب في آيات الأحكام في فقه القرآن ـ وليس لدي علم بأنه كتب أو لا ـ وبقي الوضع هكذا ثم كررت المناداة، ومن محاولات الاستجابة ما قام به أحد العلماء، وهو السيد (محمد جمال الهاشمي)، فقد قام بتفسير وكان ينشر تفسيره في مجلة (الأضواء) وربما

مجـلات أخرى إلى فترة وانسـحب ـ أيضاً كانت ضغـوط علية من هذه الناحية ـ ثم السـيد الصدر (قدس سره)، والسـيد الصدر كان قوي الشـخصية جداً (إذا آمـن بـشيء يكون عنده تصميم وعـزم على أن يحققه) فـكان يؤمن بتطوير الحـوزة ويسـعى لتطوير الحـوزة، بعد أن توسـع في تدريـس البحث الخارجي للفقه والأصول و أصبح علم من أعلام أساتذة الحوزة أصبح له مركزه ـ طبعاً المركـز يدعم الشـخص عادةً ـ من هـذا المنطلق واعتماداً عـلى مركزه بدأ درس التفسير وانهى التفسير الموضوعي.

كان في آخـر محـاضرات التفسـير شيء أثار حول وكان سـبب من أسـباب الإقـدام على قتله (رحمة الله)، وعندما استشـهد توقفت الحوزة ولا يوجد فيها من يقوم بالتفسـير، وجود التفسـير أو علوم القران شيء ضروري بالنسـبة إلى الحوزات.

القـرآن هـو أهم ما لدينا من ثروة فكرية لا الفقه يرتفع إلى مسـتوى القران ولا الحديـث يرتفع إلى مسـتوى القـرآن ولا أصول الفقـه ولا أي ثروة فكرية أخـرى ترتفـع إلى مسـتوى القـرآن، فينبغي على الحـوزات أن تقـوم بتدريس التفسـير وعلوم القرآن، وهذا ماقام به السـيد الخوئي بمركزه ومكانته العلمية والسيد الصدر بمركزة ومكانته العلمية قاما بهذا لأنهما أدركا أهمية إدخال هذه المادة في المقرر الدراسي للحوزة.

ـ على ما أسـمع ـ هناك توجه في دراسـات الحوزوية في قـم إلى إدخال مواد علـوم القـرآن ومادة التفسـير ـ طبعاً الحوزات عادةً (منغلقـة) لا أقول مغلقه ولكن هي منغلقة على نفسها فتحتاج إلى زمن لتطويرها ـ .

س٤ – موجه للضيفين الكريمين بصيغة اتهام –: يتسـاءل صحة ما ينسـب للشيعة خصوصاً علمائهم بأنهم لا يحسنون قراءة وحفظ القران الكريم ....؟

الجـواب: لا نريد أن نزكّـي أحداً، نعم هناك إهمال واضح من قبل الشـيعة بشـكل عام وعلماء الشـيعة أبناء الشـيعة فهناك هذا الإهمـال واضح ولكن لا نريد أن نقول بشائر الخير لم تبتدئ بالظهور في هذا العقد الأخير.

في الحـوزة العلميـة في قم الآن دراسـة علوم القران بالنسـبة إلى الطلاب في مرحلة السطوح تعتبر إلزامية، كان أي طالب لا يتقدم بامتحان في علوم القران وفي مادة التفسير أيضاً يعتبر راسب في الحوزة لا يرتقي المرتبة العليا.

وأيضاً هناك دروس تفسـير يقوم بها الكثير من العلماء وأبرز هذه الدروس هو درس آية الله الشيخ آملي، وهناك أيضاً دورة تخصصية يدرس فيها الطلاب التفسـير - طبعاً حسـب الرغبة ـ إذا أمتحنوا الكفاية والمكاسب تحت إشراف بعض العلماء أيضاً فليعتبر بمثابة المعهد العالي فهناك توجه ينفتح عليه.

ولكن مسـألة أنهم يحسـنون أو لا يحسـنون فلا، هناك مقدار معين يحسنونه ولكـن يمكن نتيجـة هذا الإهمال قد يسيء البعض من العلماء فيما إذا لم يحسـن القراءة قد يسيء إلى عامة الشيعة بشكل عام.

س٥ -للشـيخ الفضلي-: طرحت بمحاضرة قبل ٦ سنوات تقريباً وكانت حـول (علاقـة المجتمـع بالقرآن) وتركـت تلك المحـاضرة آثارهـا الواضحة، فأُقيمت على إثرها دورات قصيرة في التجويد .. والسؤال: ما تقييمكم لحاضرنا قياساً مع الفترة السابقة؟

الجواب: المحاضرة التي أشـار إليها الأخ كانت بسـبب الإثارة يعني زرت أحد العلماء في منطقة (....) وكان هناك قارئ يقرأ القران ولكن سبحان الله من مـدة ٦-١٠ دقائـق لا توجد أي آية يقرأها صحيح - طبعاً هذا يثير - خرجت من هذا العالم، طبعاً اسـتنكرت،وكنت أرد على هذا القارئ ويخطأ وأرد وكان يتضايـق وبالتأكيد عندما خرجت ارتاح القارئ، ذهبت إلى بيت أحد الوجهاء

وكان أيضاً قراءة قران موجودة كان عنده قارئان (شيبة) حقيقة هذا قارئ مجيد لا يخطأ أبدا وقارئ ثاني يتعلم -طبعاً في مجالس شهر رمضان لا يوجد مجال أن يأتون بقارئ يخطأ وهذا جالس كأنه من وراء الكواليس يلقنه كلما يخطأ-، لاحظت أن هناك مكبرة تخرج الصوت إلى الخارج والمنطقة فيها مصريين كثيرين (والمصريين يجيدون قراءة القران) فيها سودانيين (والسودانيين أيضاً يجيدون قراءة القرآن) سيأخذون علينا أن الشيعة لا يحسنون قراءة القران وليس هكذا طبعاً الشيعة كثير منهم يحسن قراءة القرآن وقراءته جيدة وليس فيها أخطاء، فأثرت الحقيقة الموضوع وطالبت وانبرى الإخوان هنا وعملوا دورة لتحفيظ القران وتجويد القران وكانت ناجحة، وأصبح إقبال عليها كثير من الفتيان، كانت في مسجد ثم توسعت إلى مسجدين، ثم كانت مطالبة من جمعية سهات -طبعاً أنا طالبتهم- أول مرة تكلمت ويبدو هم قالوا نحن جمعية اجتماعية لا علاقة لها بالثقافية حتى لو كانت ثقافة قرآن، فأنا لم أقتنع بهذا والحقيقة هاجمتهم لأن ينبغي أن يهتموا بالقران أكثر من اهتمامهم بالمجتمع (القران هو أساس المجتمع)، يبدو أنهم رأوا أن هذا هجوم من على المنبر وربما يكون غداً هجوم مسلح فلنخلص أنفسنا.

فذهبوا وقدموا وحصلوا على شهادة بسهوله الحكومة أجازتهم طبعاً الاهتمام بالقران شيء جيد، وضعوا المنهج وسلم لي أحد الأشخاص وجاءني مرة أو مرتين في الليل بعد هذا يبدو أنها أصبحت من العوائق كما قال الأخ في سؤاله ولا أعلم هل هي نوع من العوائق أو نوع من التخلص لأنه يقول أنه لا يوجد إقبال على مدرسة تحفيظ القران لو فتحت، بينما نحن رأينا الإقبال في المسجدين الآخرين - وأنا في رأيي هو سيتحمل مسؤولية هذا أمام الله وسوف يحاسب أمام الله حساباً عسيراً لأنه كان باستطاعته أن يعمل لتذليل هذه

الصعوبات إذا كانت هناك صعوبات وينبري لخدمة القرآن ـ فأنا لا أجامل فالإجازة موجودة وليترك هذا الشخص وليتقدم منكم من يهتم بالقرآن ويقوم بفتح هذا المركز أو المدرسة لنكون على الأقل مع المسلمين الآخرين في هذا الجانب فأرجوا أن تعيد جمعية سيهات النظر في الموضوع وتسحب الأوراق من هذا الشخص وتعطيها إلى أشخاص آخرين يهتموا بهذا الجانب وإذا كان صعوبات يمكن أن تذلل هذه الصعوبات وإن كان فأنا لا أرى صعوبات لأن الدورة التي مرت أثبتت أن الرغبة موجودة وملحة، وأرجو أن نهتم كما يهتم غيرنا من هذه الناحية .

وحفظ القرآن والتجويد ليس من الأمور العادية ولكنها مهمة والعلماء يدعون إليها وأثبتت أهميتها من خلال التجارب التي رأيناها وهي كثيرة.

س٦ -موجه للسيد حسن-: يصف البعض دورات التجويد وما شابه بالهامشية و الأحرى أن تصرف الجهود في مجالات أكثر تأثيرًا وفائدة بدلاً من الاهتمامات القشرية، فما هو تعليقكم على ذلك؟

الجواب: ليس التجويد مسألة قشرية حتى لا نهتم بها، التجويد يعتبر نوع من أنواع التصحيح للقراءة وأحياناً بغير التجويد تكون القراءة باطلة فتكون الصلاة أيضاً باطلة، فليس هذا نوع من القشرية بل هو أحد أوجه الاهتمام بالقرآن الكريم، إذا كان هذا يتهم التجويد بالسطحية غداً إذا سألناه بحفظ القرآن يقول: هذا فيه شيء من الصعوبة وغير مهمة أيضاً فهذا نوع من الفرار والكسل.

س٧: بالنسبة إلى المحور الأول والمحور الثاني وموضوع السطحية في القرآن أو تحريف القرآن على حسب المصالح الشخصية والأهواء النفسية، نلاحظ أن بعضهم أو بعض الحركات الإصلاحية يرفع مثلاً آيات الجهاد حينما تكون

خطةً في مجال الجهاد أو الجهاد العسكري وإذا جنحت للسلم نراها ترتل آيات السلم وإذا تطلبت المصلحة الفئوية أو المصلحة الشخصية نوع معين من الحركة نراها ترتل الآيات التي تتناسب مع هذه الحركة، فهي تتخذ القرآن كغطاء إلى حركتها فنراها مثلاً حين جنحت للسم اتخذت آيات السلم كغطاء لسلمها وسلم الإمام الحسن والإمام عليعليه السلام أو سلم الإمام الراحل مع العراق، فالسؤال هنا من شقين:

١ - الشق الأول -موجه للدكتور - مار أيكم في هذا النوع من الاستغلال للقرآن وما هو المنهج القرآني في التعامل معه؟

الجواب: استعمال القران كشعار طبعاً هذا موجود وليس هو شيء جديد- القران لأهميته عند المسلمين ولقوة تأثيره في نفوس المسلمين قد يتخذ من بعض آياته التي ترتبط بموضوع معين شعاراً، اتخاذ الآية شعار لا يعني أن هذه الحركة تفتي بمضمون هذه الآية، (لا) الفتوى شيء عندما تريد أن تفتي أو الرأي شيء عندما تطرح رأي وأخذ الآية شيء آخر.

ينبغي أن ينزه القرآن عن أن يستعمل في أمور لا تدخل تحت هذا الشعار لأنه إذا كان هكذا يعتبر هذا استغلال وهذا مما لا ينبغي.

بالمناسبة أنا أذكر قبل ٢٠ أو ٣٠ سنة في العراق أصدرت الحكومة العراقية بيان: أن كل طلب يقدّم للحكومة يجب أن يبدأ بـ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وفي الغالب إذا كان الطلب يرتبط بقضايا عامة ينشر بالصحف المحلية، وفي يوم ما نُشر في الصحف: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إني الموقع عدنان جرجس.. أرجوا التفضل بمنحي إجازة حانوت خمر! كيف تتناسب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مع حانوت الخمر؟

إن مثل هذا الشخص كان من اللائق به أن يكتب فوق كلماته المعروضة

(الشيطان الرجيم).

٢- والشق الثاني - موجة إلى سماحة السيد حسن - ما هو نهج الإمام الراحل في التعامل مع هذه الأفكار وهذه الحركات وكيف يمكن التعايش معها ضمن هذه الأطروحات التي تظلل عقول الناس بأخذ الآيات القرآنية كغطاء للباطن؟

الجواب: هناك أية ينبغي الإشارة إليها للإجابة على هذا السؤال ﴿**وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه**﴾ ذكر سماحة العلامة أن القرآن الكريم يحظى في قلوب المؤمنين بتأثير كبير فكلما أراد الإنسان أن يؤثر في الناس ينبغي أن يستفيد من القران الكريم، ولكن الاستفادة قد تكون عن نية حسنه وعن وعي وبصيرة وأحياناً عن وعي خبيث بحيث تكون هناك فتنه يراد استغلال القرآن وتمشية هذه الفتنه على آيات القران الكريم.

في الإجابة عن موقف الإمام (رحمة الله) أذكر موقفه الذي قام به بعد انتصار الثورة الإسلامية أتباع من الثورة كانت إسلامية وشعارات إسلامية فابتدأ الحركيون الماركسيون والإسلاميون في إنشاء دروس للتفسير، (مسعود رجوي) كان عنده درس تفسير للقرآن، (إبراهيم يزدي) كان عنده تفسير قران، (بازركان) كان عنده تفسير قران فرفعوا المشكلة للإمام (رحمه الله)، فاقترح علية أو هو تصدى لتدريس التفسير أسبوعيا على شاشات التلفزيون وتعمد الإمام أن يكون طابع التفسير طابع عرفاني جداً حتى يتبين للناس أن هذا الكتاب أسمى وأعلى من أن يتطاول عليه مثل هؤلاء الأقزام ويدلوا بدلوهم في هذا المجال.

فكتب أو هذا الكتاب الموجود في الأسواق (تفسير البسملة) من القرآن الكريم يعتبر مجموعة من الدروس التي أعاقه عنها الأزمة القلبية التي ألمت به

فقطعته عن التفسير، ولكن على كل حال كانت هذه ضربه كافيه لإيقاف هذا المد الانحرافي عن الاستمرار والتمادي في هذا المجال.

والحمد لله رب العالمين

نظرات في المنبر الحسيني
ندوة مشتركة مع السيد حسن النمر

نظرات في المنبر الحسيني

هل يمكن الجمع بين العِبرة والعَبرة؟

وهل يمكن الاستفادة من طاقات وخبرات مفكرينا الذين لا يتمكنون من أداء الدور الذي يقوم به عادةً خطباء المنبر الحسيني من استثارة عواطف الجمهور عن طريق الرثاء الحسيني؟

المنبر الحسيني تاريخياً:

سؤال للشيخ الفضلي: حبذا لو تقدمون لنا لمحة تاريخية عن المنبر الحسيني.

بدأت فكرة المنبر الحسيني بدعوة أئمة أهل البيت عليهم السلام الشيعة إلى أن يذكروا ما يرتبط بأهل البيت عليهم السلام من تاريخ أو فكر، فكانت المجالس تعقد في المناسبات وغير المناسبات، ويتحدث في تلك المجالس عن أهل البيت عليهم السلام بذكر فضائلهم ومناقبهم وما جرى عليهم من خلال تاريخهم وسيرتهم.

وركز الأئمة عليهم السلام، وبخاصة الإمام الصادق عليه السلام على إحياء يوم عاشوراء، وكانوا يدعون الشعراء لنظم الشعر في المناسبة، وعقد المجالس بإلقاء الشعر واستماعه. وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ـ وهو من أهم الكتب التاريخية الأدبية ـ أن الكميت بن زيد الأسدي دخل في يوم عاشوراء على الإمام الصادق عليه السلام فدعا الإمام الصادق عليه السلام النساء، وضرب ستراً بينهنّ

وبين المجلس، وطلب من الكميت أن ينشد شعره في المناسبة.

كما دخل عليه السيد الحميري، وضرب الإمام ستراً بينه وبين الحرم، وطلب من السيد أن ينشد شعره في ذكرى الإمام الحسين عليه السلام، وقال قصيدته المشهورة الشجية، التي كُتب عنها الكثير في تاريخ الأدب العربي، ولعل أبرز من أشار إليها الدكتور شوقي ضيف في دراساته لتاريخ الأدب العباسي، وعلق عليها تعليقاً جيداً من ناحية شجاها وتأثيرها في القارئ والسامع.

وبعد فترة طويلة من الزمن أخذ الناس يقرؤون المقاتل في يوم عاشوراء، ومن أشهر هذه المقاتل مقتل أبي مخنف، كما ألفت في الآونة الأخيرة مقاتل كثيرة.

ولدينا ملاحظة على هذه المقاتل بشكل عام، وهي أن الغالب فيها لم يعتمد الرواية الصحيحة، إذا استثنينا منها اللهوف للسيد ابن طاووس، فهو من أحرص من ألّف في المقاتل اعتماداً على الرواية الصحيحة، ومن بعده السيد عبد الرزاق المقرّم في مقتله المعروف.

فكانت تلك المقاتل تقرأ في المجالس التي يعقدها الشيعة يوم عاشوراء، وكذلك تُقرأ في مجالس يعقدها أهل السنة يوم عاشوراء، وحتى اليوم، وفي كثير من البلدان، وفي بلادنا هذه أيضاً في المدينة المنورة وفي مكة المكرمة، وفي مجالس أخرى في بلدان أخرى، تقرأ المقاتل الحسينية في يوم عاشوراء من قبل إخوتنا أهل السنة.

وبعد فترة من الزمن قريبة من عصرنا هذا، ألفت المجالس الوعظية، بحيث يقرأ مجلس وعظي ثم يُتخلص منه إلى ذكر الإمام الحسين عليه السلام.

واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن جاء الشيخ كاظم السبتي، وهو من

خطباء النجف المعروفين ـ وأهل السبت كلهم خطباء تقريباً ـ فانتقل من الطريقة الوعظية إلى الطريقة التاريخية، فكان يذكر حادثة تاريخية، ثم يحاول أن يقارن بينها وبين ما وقع في الطف، ويتخلص إلى موضوع كربلاء والإمام الحسين عليه السلام.

وبعد الشيخ كاظم السبتي، تطورت المدرسة التاريخية على يد الشيخ محمد علي اليعقوبي بالخصوص، وهو من أكابر خطباء الشيعة على مستوى العالم الشيعي، وقد طور المدرسة التاريخية تطويراً جيداً.

وإلى جانب هذه المدرسة التاريخية كانت هناك المدرسة التي تعتمد خطب أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، فكان الخطيب يقرأ الخطبة أو مقطعاً منها، ثم يقوم بشرح فقرات مختارة، ثم يتخلص إلى موضوع الطف وذكر الإمام الحسين عليه السلام. ومن أبرز الخطباء الذين اشتهروا في مجال حفظ خطب نهج البلاغة والتعليق عليها بالشرح والتفسير، هو الشيخ عبد الحميد الهلالي الأحسائي، الذي كان جيداً في هذا الجانب إلى حد كبير.

وبعد هذا جاءت المدرسة العلمية التي ابتدأها الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، الذي تأثر في مدرسته هذه بكلية منتدى النشر، التي كانت قبل كلية الفقه، والتي جرت فيها محاولة لفتح فرع خاص لتطوير الخطابة، ولكن مُني هذا الفرع بمعارضة قوية، ولم يقدَّر له أن يفتح. ثم دخل الشيخ الوائلي في كلية الفقه، وكان منهج كلية الفقه يشتمل على دراسة العلوم الإنسانية بالإضافة إلى علوم العربية والعلوم الشرعية، فاستفاد كثيراً من هذا الجانب، وطور في مدرسته العلمية إلى أن وصلت الآن إلى مرحلة النضج.

هذا باختصار ما يرتبط بتأريخ أو نشأة الخطابة الحسينية وتطورها.

الإطار المؤسسي للخطابة:

سؤال للسيد حسن النمر: انطلاقاً من النظرة الوحدوية في الكون، وأنه يسير بنظام دقيق، وأن هناك مؤسساتٍ اجتماعية انبثقت في المجتمع، هل ترون من حاجة ماسة لتشكيل نقابةٍ للخطباء؟ وما هي ضوابط تشكيلها؟

الجواب: في تقديري أن الفكرة طَموحة جداً، إلا أنها ليست عملية في الفترة الحالية؛ لوجود أكثر من عامل، سواء عوامل داخلية في الوسط الشيعي، أم عوامل خارجية لا ترتبط بالوسط الشيعي، ولكن هذا لا يعني عدم إيجاد مستوى من التنسيق بين أهل المنبر في كل منطقة وبين المناطق المختلفة المنتشر فيها الوجود الشيعي بشكل خاص، فيمكن إيجاد مستويات من التنسيق تؤدي إلى إيجاد تحولات إيجابية في مستوى الأداء للمنبر الحسيني، وهذا أمر ضروري.

لذا بات من الواضح أن المنبر الحسيني الذي نعيشه اليوم قد تغير كثيراً عما ألفه آباؤنا وأجدادنا، وكذلك الأوضاع التي نعيشها تغيرت إلى حد كبير، مما يحتاج إلى إيجاد تحولات تتناسب مع طبيعة التغيرات التي حصلت في الأصعدة المختلفة، الثقافية منها أو الاجتماعية أو الفكرية، التي بلغها المجتمع الشيعي، وكذلك الشرائح التي تخاطَب من خلال المنبر الحسيني. فالمنبر الحسيني اليوم لا يراد منه الاقتصار على الموضوعات التي اعتاد الخطباء سابقاً تناولها ومناقشتها، إنما يتوقع اليوم من المنبر الحسيني الكثير من العطاء، لأنه يعتبر أفضل وسيلة لا تزال متاحة في أيدينا، نمارس من خلالها الدعوة إلى الإسلام

في الأوساط غير الإسلامية، وتعميق الوعي الشرعي والديني في الأوساط الشيعية.

فبملاحظة تلك التغيرات، يفترض إيجاد مستوى من التنسيق إن أمكن إيجاده، كما هو الحال عند أهل الفقه، الذين استطاعوا إيجاد حوزة علمية بهذه الكيفية، بحيث تنسق الوحدات العلمية فيما بينها. فإذا أمكن إيجاد معاهد أو مؤسسات علمية ترتبط بالمنابر الحسينية وتنسق من حيث الموضوعات ومن حيث الكيفية وتطوير الأداء، فهذه تعتبر خطوة جيدة، ولكن الوضع الفعلي اليوم لا يساعد في الكثير من جوانبه، ولا توجد العوامل المساعدة لتطبيق هذه الفكرة في الخارج، وإلا فهي فكرة جيدة لو أمكن تحقيقها.

سؤال للدكتور الفضلي: بما أن المنبر الحسيني يعتبر مؤسسة من المؤسسات، وكل مؤسسة تقوم على أسس وضوابط من شانها أن تجمع الأفراد المؤهلين للدخول فيها وتمنع الأغيار الذين يفقدون الشرائط، فما هي شروط ارتقاء المنبر الحسيني؟ ومن يحدد ذلك؟

الجواب: المفترض في الخطيب الحسيني أن يكون موسوعي الثقافة؛ لأنه بطبيعة وظيفته يتناول آراءً وأفكاراً مختلفة. بالإضافة إلى هذا، لا بد وأن يكون لديه اطلاع وإلمام كافٍ ومركّز، على مبادئ علوم اللغة العربية، ومبادئ العلوم الشرعية، ومبادئ العلوم الحديثة.

واليوم توجد محاولات لتطوير واقع الخطابة الحسينية، وهناك معهد للخطابة في لندن بإشراف السيد حسين الصدر، وهناك ما يماثله، وربما أوسع منه، في قم، بإشراف الشيخ المالكي، وكذلك توجد معاهد خطابة في باكستان والهند، وربما في مناطق أخرى.

وهناك خط جديد لا باس به لتطوير الخطابة الحسينية وإدخالها في الدراسة

الحوزويـة، رأيته في حـوزة الخوجه في لندن، وكذلك في بعـض الحوزات التي اطلعـت على برامجها ومناهجها في باكسـتان، حيث يدربون الطالب الحوزوي عـلى الخطابة، ويحاولون أن يفتحوا أمامـه الأبواب للإكثار من القراءة، لتكون لديه حصيلة واسعة من الثقافة العامة.

أما وضع الضوابط، فنحن لا نسـتطيع، ولا تسـتطيع أي مؤسسـة أخرى أن تفعـل ذلـك، وإن اسـتطاعت أن تضـع الضوابط للموضوع، فلا تسـتطيع أن تفرضهـا على الخطبـاء، لأن الخطابة مفتوحـة كالحوزة، أو ليس لهـا باب أبداً، ومن شـاء أن يكون خطيباً فباسـتطاعته ذلك، سواء كان بالمستوى المطلوب أم لا. وبالتالي لا نستطيع أن نقرر هذه الضوابط، لترقى إلى مرحلة التطبيق، اللهم إلا بالإكثار من فتح معاهد الخطابة، فعندما نكثر من فتح هذه المعاهد، وينتشر خريجوهـا في العالم، ويرى الناس لوناً جديداً من الخطباء بالمسـتوى المطلوب، عندئذٍ من الممكن أن تفرض هذه الضوابط من قبل الناس الذين يطبقون هذه الضوابط على من يرقى المنبر، فمن كان بالمستوى المطلوب يقبل، وإلا فلا.

سـؤال للسـيد حسـن النمر: تقريراً لما طرحه سـماحة الدكتور الشـيخ عبد الهـادي الفضلي في جوابه عن السـؤال الأول، من قراءتـه الموجزة لتاريخ المنبر، هناك تصور قد يسـتجد، وهو أن المنبر الحسـيني أنشئ على أساس العاطفة، لا سـيما في محرم الحرام، وهناك من يرى أن المنبر الحر في محرم الحرام لا بد منه، وفي قبـال هذه اللابدّية، هناك دعوة لما يفصل بـين العاطفة والفكر. فكيف يرد على مثل هذه الدعوة؟

الجواب: لقد أريد للمنبر الحسـيني على مر التاريخ أن يحتفظ بجانب العَبرة وتهييـج الجانب العاطفي، إذ لا شـك أن الجانب العاطفي يعتبر أحد المؤثرات القويـة في فكر الإنسـان وحركتـه الخارجية، لأن الإنسـان لا يسـتطيع بالفكر

وحده أن يتحرك أو يتبنى فكرة معينة، بل لا بد إلى جانب كل فكرة يتبناها الإنسان، من عاطفة تدفعه نحو تحقيق هذه الفكرة في الخارج، لذلك لا يمكن الاستغناء عن المنبر الحسيني في جانب العَبرة، ولكن التشدد والتسلط في أن يكون الطابع الغالب على المنبر الحسيني طابعاً عاطفياً، يعتبر تحجيماً لدوره إلى حد كبير، وقد يؤدي هذا إلى أن يتسلق هذه المنابر التوجيهية من لا حظّ له في الفكر، وليس له من رصيد سوى أنه يمتلك من القدرات التأثيرية في الجانب العاطفي الشيء الكثير، وإذا عوّدنا عامة الناس أن يحتفظ المنبر الحسيني بهذا الطابع فقط، فإنهم سوف يركضون وراء من يملك هذا النوع من القدرات العاطفية، دون أن يلتفتوا إلى مقدار ما يملكه من الجانب الفكري والعلمي، وبالتالي سوف يتحرك الناس نحو الولاء لأهل البيت عليهم السلام وإحياء الشعائر الحسينية، ولكن بشكلٍ خالٍ من المضمون تماماً، وهذا تشويه كبير.

فلا مانع، بل من الضروري جداً أن نحتفظ بكلا هذين الخطين، ونجعل منهما مسارين متوازيين، لا نغلّب هذا على ذاك، ولا ذاك على هذا.

وهذه التجربة موجودة في إيران بشكل واضح، فهناك صنفان يتحركان في أجواء المنبر الحسيني في إيران، صنف يسمى بالمداحين، وصنف الخطباء.

فالمداحون في إيران لا عمل لهم إلا جانب الرثاء فقط، حيث يأتون بالأبيات الشعرية الحسينية، ويقرؤون القصيدة، وغالباً ما يكون هناك اثنان، أحدهما مداح، والآخر خطيب يطرح الموضوع، وهو واحد من خريجي الحوزة مثلاً، وقد يكون يحسن الجمع بين الوظيفتين في أن يتولاهما معاً، وقد لا يحسن ذلك، فيكتفي بإلقاء المادة العلمية، ثم يتبعه شخص آخر من المداحين، ليجمع بين هذين النحوين من العمل في الشعائر الحسينية.

فلا مانع من إيجاد أو اعتماد هذه الطريقة، خصوصاً إذا كانت هناك قلة

مـن الخطباء الذين يتمكنون من معالجة القضايـا المهمة للناس من خلال المنبر الحسيني بالشكل المتعارف.

والمعـروف لديكـم أن الخطبـاء في هذا الجانـب يتمايزون فيما بينهـم، فهناك مـن الخطباء من المؤثرين جـداً في الناحية الفكرية، وقد لا يحسـنون الكثير من المهارات العاطفية، ومع ذلك اسـتطاعوا أن يحتفظوا للمنبر الحسـيني بالجانب الفكري والجانب التأثيري العاطفي والعَبرة.

سؤال للدكتور الفضلي: نحن في الواقع لا يمكن أن نعزل الأمة عن الإعلام، حيـث إن الإعلام اليوم يصل إلى كل بيت من بيوتنا، وهناك مسـؤولية منبرية، هـي مسـؤولية التغيير، فكيف يمكن تطويـر أداء المنبر الحسـيني لمواكبة التأثير الإعلامي بالوسائل الحديثة؟

الجواب: المنبر الحسـيني في واقعه هو أهم وسـيلة إعلام لدى الشيعة، ومن هنـا لا بد أن يسـتفاد منـه في مجال التغيـير الاجتماعي لهذا الواقع الذي يعيشـه الشيعة إلى واقع أفضل. وهذا لا يتم إلا إذا غيرنا في واقع المنبر، وواقع الخطابة، لتقوم بدورها في رفع مستوى الطائفة.

ولكي نحقق ذلك لا بد أن نربط الخطابة بالحياة، أي لا بد أن يفهم الخطيب الحياة المعاصرة أولاً، ثم يفهم كيف يتعامل معها، وكيف يعطي الخطوط العامة للناس لينتفعوا من هذه الحياة المعاصرة.

وكمثال على ذلك أقول: إن الخطيب في الغالب يتعرض للجوانب التاريخية مـن وقعة كربلاء، والطريقـة التي يتبعها الخطباء في الغالـب هي طريقة السرد التاريخـي، حيـث يذكـر الخطيـب الحادثة كما هـي في الكتب، كما هـو الحال في أحـداث يـوم العـاشر من المحـرم مثلاً، حيث جهـزت الجيـوش ووزعت إلى ميمنـة وميـسرة ومـا إلى ذلك مـن الـسرد التاريخي. أما أسـباب وقـوع حادثة

الطف، والوسائل التي اتخذ منها الإمام الحسين عليه السلام طريقاً للوصول إلى هدفه، والأهداف من وقعة الطف، وتفسير تلك الحوادث، فلا يتطرق إليها الخطيب غالباً. وإذا حاول بعض الخطباء أن يتطرق إليها فإنه قد يتطرق إليها من خلال مقال يقرأه في مجلة، ولا يقوم بدور الباحث.

قبل حوالي ٣٠ سنة، أتذكر أن الدكتور عبد العزيز الدوري[1]، ألقى محاضرة عن مناهج تفسير التاريخ، وقد ذكر سبع نظريات أو مناهج لتفسير التاريخ. ولكننا لو طرحنا سؤالاً على الخطباء الذين يعدون بالآلاف في العالم الإسلامي اليوم ـ باستثناء الدكتور الشيخ أحمد الوائلي ـ والسؤال هو: ما هي مناهج دراسة أو بحث وتفسير التاريخ ؟ فلا نستطيع أن نحصل على جواب شافٍ في هذه الناحية.

فلأجل أن نستفيد من هذه الوسيلة كوسيلة إعلامية، لا بد أن نعمل على رفع مستوى الخطيب، لأن الخطيب يحتك بالجماهير أكثر من العالِم الديني، ويتطرق إلى موضوعات قد لا يحتاج أن يتطرق إليها العالِم الديني، فمن هنا لا بد وأن يكون لديه إلمام كافٍ بمناهج التفسير والحديث والتاريخ والعلوم الإنسانية والطبيعية وجغرافية العالم عموماً والعالم الإسلامي، ويعرف كيف يفسر الأحداث التي وقعت في التاريخ، والأحداث التي تقع الآن، وغير ذلك من المجالات.

فالخطيب بحكم كونه الوسيلة الوحيدة لنا في مجال الإعلام، هناك أحداث تحدث الآن في أوساط العالم الإسلامي، وأوساط العالم الشيعي بشكل خاص،

---

(١) يعتبر الأستاذ عبد العزيز الدوري من أعلام التاريخ المعاصرين في العالم العربي، وله عضويته في كثير من الجمعيات التاريخية في العالم، وهو عراقي كان في جامعة بغداد، وبسبب الأحداث السياسية انتقل إلى الأردن، وله أكثر من ٢٠ سنه هناك، لكنه لا يزال يحافظ على مستواه وارتباطه بالمجامع والجمعيات العلمية.

وتحتاج إلى تفسير، ليطلع الناس عليها، وليكونوا بمستوى رسالتهم في هذه الحياة كمسلمين وكأتباع لأهل البيت عليهم السلام فالمفروض أن يتابع الخطيب ما ينشر في المجلات والصحف، مما يرتبط بشؤون خطابته. فحاله حال الطبيب الذي يتابع ما ينشر في المجلات الطبية الأكاديمية، وما ينشر من كتب أيضاً أولاً بأول، ليتفوق ويستطيع أن يقوم بتأدية رسالته.

والآن تصدر في العالم الإسلامي عشرات المجلات العلمية التي ترتبط بثقافة المنبر، فالمفروض من الخطيب أن يطلع عليها ليستفيد في مجال تفسيره للأحداث التي تقع، وتفسير الأحداث الماضية، وشرح الفكرة التي يريد طرحها.

ذات مرة كنت أستمع إلى خطيب من الخطباء في قرية من قرى الأحساء، فتناول موضوعاً فلسفياً، وكان أكثر الحاضرين لا يفقه من الفلسفة شيئاً، ولا يعرف معنى الفلسفة، بل إن الخطيب ذاته لو سئل عن توضيح ما قرأه، فأنا واثق أنه لا يستطيع أن يبينه، لأنه لم يدرس فلسفة، ولكنه رأى الموضوع مكتوباً في مجلة، ولديه حافظة قوية وهبها الله تعالى إياه، فسجل الموضوع كما يسجل الكلام في الشريط، وقرأ ما يحفظه.

هذا اللون من الطرح لا ينفع الناس، إنما يجب أن يكون الخطيب عالماً، بل أكثر من العالم الديني، بأن يكون موسوعي الثقافة ليستطيع أن يوضح الفكرة التي يطرحها للناس.

فالمنبر مدرسة، والناس الذين يجلسون تحت المنبر ويستمعون إلى الخطيب يستفيدون منه معلومات جديدة يضيفونها إلى معلوماتهم، فإن كان الخطيب ليس بالمستوى المطلوب فلن يستفيد الناس إلا من ثواب الحضور، لأنهم يحضرون تشجيعاً لذكر أهل البيت عليهم السلام ومن باب تكثير السواد.

فنحن بحاجة إلى أن يطور الخطباء أنفسهم ليكونوا بمستوى رسالتهم من حيث التغيير الاجتماعي لواقع الطائفة أو الأمة إلى ما هو أفضل.

سؤال للدكتور الفضلي: كيف نساعد الخطيب في رفع مستوى المنبر الحسيني؟ وهل من الممكن أن يكون المنبر الحسيني مجالاً للدراسة؟

الجواب: أما عن الشق الأول فهو يرجع إلى الخطيب ذاته، إذ من المفروض أن يخدم شخصيته كخطيب، فيكثر من القراءة المنوعة، وأن لا يقتصر على لون معين من الكتب أو الأبحاث أو الدراسات، فالشخصية الثقافية لا تبنى عن طريق الدراسة فقط، وإنما تحتاج إلى مواصلة القراءة .

فعلى الخطيب أن يبدأ أولاً بدراسة العلوم العربية، والعلوم الشرعية، ثم يحاول أن يقرأ ما يرتبط بالعلوم الإنسانية من كتب ميسرة ومبسطة تُعنى بالعلوم الطبيعية، وما يرتبط بالتاريخ، وكل ما يحتاج إليه في مجاله.

لقد دخلت أكثر من مرة إلى مكتبة الشيخ الوائلي بحكم زمالة الدراسة، فلا أظن أن هناك مكتبة شخصية تجمع كل التفاسير المطبوعة باللغة العربية، غير مكتبة الشيخ الوائلي، وكان كل سنة يذهب إلى سوريا، وبعد هذا صار يذهب إلى مصر، والآن استقر في سوريا. وقد رأيته في مصر عندما كنت أحضّر الدكتوراه هناك، يشتري كمية كبيرة من الكتب الحديثة، ويقرأها ويستخلص منها محاضراته لشهر رمضان.

في حين أن بعض الخطباء قد لا يملك إلا كتاب شجرة طوبى، وكأن الدنيا كلها تجمعت في هذا الكتاب، وليس له من الجهد إلا أن يحفظ من هذا الكتاب ويذهب إلى المجلس، وينتقل من مكان إلى مكان. فمثل هذا الخطيب لا ينفع نفسه ولا ينفع المستمعين.

فلأجل أن يكوّن الخطيب نفسه ويبنيها لا بد أن يعتمد على نفسه، فيدرس أولاً، ثم يقرأ ويطالع، والمجال اليوم مفتوح.

لكن المشكلة ـ كما ذكرت في أكثر من مناسبة ـ أننا عاطفيون، والعاطفي لا يستعمل عقله، فإذا رأى نفسه أنه وصل إلى مرحلة ما بأن يدعوه الناس لأن يقرأ، يتصور أنه وصل إلى الهدف الذي أراد، والهدف هو أن يصعد المنبر ويتقاضى الأجر. ومن يفكر تفكيراً منطقياً لا يرضى لنفسه ذلك أبداً. ثم إن الناس أصبحوا يميزون، ويعرفون الخطيب الناجح من غير الناجح.

فالذي أرجوه من الخطباء، إذا أرادوا أن يخدموا أنفسهم وينصفوا طائفتهم، أن يدرسوا ويقرؤوا.

سؤال للسيد حسن النمر: ما هي الخطوات العملية التي تقترحونها لتطوير المنبر الحسيني النسائي؟

الجواب: أنا شخصياً لم أستمع إلى المنبر النسائي حتى أقترح، ولكن بشكل عام هناك خطوات لا بد منها للرجال والنساء معاً - كما ذكر سماحة الشيخ الفضلي - وهي أن المطلوب من المنبري ليس شيئاً عادياً.

فالمنبري عالم، ولكن من نوع آخر، فالحوزوي قد يُطلب منه أن يكون متخصصاً في الفقه، ويجيب عن الأحكام الشرعية بشكل أولي، بل حتى الحوزوي اليوم أصبح مطالباً بأن تكون ثقافته موسوعية، ولكن الوظيفة التي يتصدى لها المنبري تفرض عليه وتحتم عليه أن يكون موسوعي الاطلاع، لأن المخاطبين بالمنبر الحسيني هم شرائح المجتمع بكل أصنافها وأشكالها، فيجلس تحت منبره الجامعي والمثقف والدكتور والموظف والتاجر وغيرهم، فلا بد أن يكون قادراً على مخاطبة هذه العقول جميعاً، وتصوروا أن مقدار نصف ساعة أو ساعة إلا ربعاً من المجلس في كل يوم، يتطلب من الخطيب أن يخاطب كل

هؤلاء، بحيث يشعر كل مستمع تحت المنبر بأنه أخذ شيئاً من الفائدة، ولا شك أن هذه وظيفة كبرى، إلا إذا كان بعض الخطباء -بل أكثرهم مع الأسف- أصبح ينظر إلى المنبر كمكسب للرزق.

سئل بعض الخطباء لما كنا في الحج قبل فترة، ومن باب التندر: كم مجلساً عندك في اليوم في شهر محرم؟ فقال ثلاثة عشر مجلساً، فمن يقرأ يومياً هذا العدد من المجالس لا يمكن أن نسميه خطيباً، لأنه يستهين بعقول كل من يجلس تحت منبره، ومن يحترم نفسه من الناس لا يكون مستعداً للجلوس تحت هذا النوع من المنابر، ولا شك أن هذا الخطيب أول من يستهين بالمنبر الحسيني، إذا كان ينظر إليه هذه النظرة التجارية البحتة.

فالمطلوب من المنبري شيء خطير جداً، وهناك علوم متنوعة لا بد له من دراستها، وقد تصل إلى حد الوجوب الشرعي على الخطباء والمنبريين، ففي الفقه يجب عليهم أن يحسنوا التعرف على الأحكام الشرعية، لأن المتوقع من كل المنبريين أن يتطرقوا في بعض أحاديثهم للأحكام الشرعية، فإن نقل فتوىً بغير علم، فليتبوأ مقعده من النار، كغيره من الناس، لأن أي شخص ينقل فتوى بدون مستند شرعي، مشمول بهذا القاعدة.

والملاحظ هنا أن الرسائل العملية والكتب الفقهية كتبت بلغة خاصة، شأنها شأن أي علم من العلوم، فليس من حق أحد من غير أهل الطب، أن يفتح كتاباً في الطب ويستخرج منه ويستنبط ما يشاء ويحكم في مجال الأمراض وأضرارها وعدواها وعلاجها، فلذلك نذعن جميعاً ونذهب للأطباء بكل تواضع، حتى لو كان المرجع الديني الأعلى، أو الحاكم الشرعي الأعلى، كل هؤلاء يسلمون للطبيب في مجال الاختصاص.

وكذا الحال في الفقه، فهو مادة يحتاج الخطيب لنقلها للناس، وسوف يتحدث

عن الحلال والحرام، فيجب أن يكون على علم بالرسالة العملية بشكلٍ يدرس فيه تلك الرسالة، ولا يكتفي بالمطالعة، لأن الذكاء وحده لا يكفي للتعرف على خصائص التعبير الذي اعتمده الفقهاء في الرسائل العملية.

والأمر الآخر الذي لا بد من دراسته هو علم الحديث، أو مبادئ علم الحديث، وهذه مصيبة من المصائب عند الخطباء وغير الخطباء، فهم يفتحون كتاب البحار أو غيره فيصطادون منه رواية أو روايتين، ثم ينسبون القول إلى الإمام الصادق عليه السلام بشكل مطلق من دون أي تحقيق، في حين أن القارئ لا يدرك معنى الرواية ولا سندها ولا ظروفها، وهكذا حصلت عندنا بعض المشكلات التي عانينا منها كثيراً، ولا نزال نعاني منها، حيث حُمّلت الطائفة كثيراً من الشائعات والتشويهات نتيجة خطيب لم يحترم نفسه ولم يحترم المنبر الحسيني، فنقل بعض الروايات التي لا نقبلها، أو إذا قبلت يجب أن تُفسّرَ تفسيراً منسجماً مع كتاب الله عز وجل، وإلا فنضرب بها عرض الجدار. وهذا يحتاج إلى تخصص، أي لا بد أن يكون الخطيب قادراً على التمييز بين الروايات الصحيحة السند أو الموثقة والمقبولة، وأن يفهمها أيضاً فهماً صحيحاً، وهذا يستدعي أن يعرف شيئاً من علم الرجال، وبعضاً من علم الحديث، وفقه الحديث وفهمه.

كما يحتاج الخطيب أن يدرس شيئاً من علم أصول الفقه، لأن الدارس لعلم أصول الفقه يكون في الغالب قادراً على التعرف على ظواهر الروايات، والمقدار الممكن استفادته من هذه الرواية أو هذه الآية. هذا المقدار لا بد من دراسته، وما عدا ذلك - كما تفضل سماحة الشيخ - ينبغي للخطيب، بل لا بد له في الظرف الحالي أن يكون مطلعاً على كثير من العلوم في السياسة والاقتصاد والثقافة والآداب، وحتى في الفن أيضاً، لأنه يراد من الخطيب أن يعالج كثيراً

من الإشكالات الموجودة عند الناس، فلا بد له أن يتابع حركة الناس اليومية في كل المجالات، ليكون قادراً على امتلاك العين النافذة الناقدة في المشكلات التي تعترض حياتهم.

سؤال لسماحة السيد حسن النمر: الثورة الحسينية كحدث من الأحداث، أصبحت هدفاً للأعداء، ومن جملة الأهداف أنها حرفت معانيها، وهذا ما نراه جلياً في المجالس النسائية، فما هو الأسلوب الأمثل لرفع مستوى الثقافة النسائية من خلال المجالس؟

الجواب: لا شك أنه توجد الكثير من التحريفات في الكتب التي تُعتمد لدى الخطباء من الفريقين، الذكور والإناث، وإن كانت الطامة في القارئات أوضح وأوسع.

فيجب على الناس أن يتعرفوا المستوى الذي تمتلكه القارئات لكي يتعاملوا معهن بالمقدار المناسب على حسب مستوياتهن، باعتبار أن غالب الناس لا يميزون الغث من السمين، بخصوص النساء اللاتي يعشن نطاقاً ضيقاً في المجال الثقافي.

لذا نتوقع من أنفسنا أن نبادر إلى تأسيس ما يشابه المعاهد، أو أن نربي جيلاً من الشابات القادرات على استيعاب واقع الثورة والنهضة الحسينية، حتى لا نشوه نهضة الإمام الحسين عليه السلام من خلال استدرار العطف والعاطفة والعَبرة على الإمام الحسين عليه السلام أياً كانت النتيجة.

كنا في عام ١٤٠٣هـ في زيارة للمرجع المعروف السيد المرعشي النجفي (رحمة الله) قبل وفاته، وكان يتحدث عن المنابر، فكان يقول: إن بعض علماء البحرين وضع مقطعاً ضمن الزيارات أو بعض الكتب، وهذا المقطع رائج عند الكثير من الخطباء، وعادة ما يُقرأ في المقدمة، وهو قولهم في السلام على

الحسين: «وعلى من شَيبته قُطنه» وغالب الناس لا يلتفتون إلى المعنى، فالقطن يستخدم في التكفين لسد الأماكن المتعارفة، فإذا استخدمت شيبة الحسين عليه السلام بهذه الطريقة، فإن هذه العبارة تسيء إلى الإمام الحسين عليه السلام وبالتالي لا يحق لنا أن نستخدمها فيما يرتبط بالحسين عليه السلام.

هذه الصورة وأمثالها تستدعي القفز بمستوى المنبر، ومستوى الخطباء والخطيبات إلى الحد المطلوب، فينبغي إرشاد الخطيبات إلى الكتب التي يمكن اعتمادها في هذا الجانب. وما ذكره سماحة الشيخ الفضلي من أمثلة لمقتل الحسين، كمقتل المقرم رحمه الله، واللهوف للسيد ابن طاوس، يمكن الاعتماد عليها والاكتفاء بها إذا أردنا أن نصور واقع ما حصل للإمام الحسين عليه السلام وأن نمارس تحقيقاً يتناسب مع هذا القضية وأهميتها.

سؤال لسماحة الشيخ الفضلي: لماذا يعزف بعض المشايخ المتقدمين في الدراسات الحوزوية عن المنبر الحسيني؟ وكما ذكر الشيخ حسن قبل قليل، أن في قم المقدسة حالياً فصل بين الخطيب والمدّاح، فالخطيب عادةً ما يكون من أهل العلم، أما نحن فلا نرى بعض المشايخ إلا من خلال البرنامج الثقافي مثلاً، ولا نراهم في الأيام الأخرى في محرم أو رمضان، فكيف نعالج هذا الأمر؟

الجواب: ما فهمته من السؤال أن العالم لا بد أن يكون مقتدراً من الخطابة، وهذا الأمر في تنامٍ مستمر، وهناك محاولات لأن يكون العالم متمكناً من الخطابة، فكما أنه متخصص في الفقه والأصول، وإذا سئل عن مسألة شرعية يجيب عنها، فكذا الحال في الخطابة. وهناك توجه في هذه الأيام إلى أن يكون كل طالب حوزوي خطيباً، أو يحاول أن يتعلم الخطابة، ليستطيع أن يرتجل في المناسبات التي تتطلب الارتجال، ويحاضر في المناسبات التي تتطلب المحاضرة، كما أن هناك محاولة لأن يتعود على كتابة البحث.

أما ما تفضل بالإشارة إليه سماحة الشيخ حسن النمر، من أن العالم أو الطالب الحوزوي الذي يطرح موضوعاً، وقد لا يستطيع أن يأتي بأبيات النعي، إما لأن صوته لا يساعد أو أنه لا يجيد الطرائق، أو أنه غير متصدٍّ لهذا، فإنه يمكن أن يكون إلى جانبه شخص آخر يقوم بدور النعي. وهذا الأمر معمول به حتى في النجف، حيث إن بعض الخطباء ممن لا يساعده صوته، يستعين بآخرين، فعندما ينتهي من إلقاء الموضوع يأتي بعده الشخص المتمكن من النعي، فيقرأ بعض الأبيات، وهذا ليس قصوراً ولا تقصيراً من الخطيب، إذا كان عنده ما يمنع من ذلك.

سؤال للشيخ الفضلي: ذكرتم في حديثكم ضرورة التجديد، إلا أن هذا التجديد يواجه الكثير من التحديات، لا سيما من المستويات الاجتماعية (الدنيا) وهم أكبر أو أكثر شريحة اجتماعيه، فكيف السبيل لنقل المجتمع إلى مستوى أفضل دون أن يكون هناك أي ردة فعل سلبية.

الجواب: المعارضة في تطوير الخطابة كانت موجودة، وكانت في وقتٍ ما قوية لأسباب تعود إلى القضايا الشخصية، كما هو الحال في محاولة منتدى النشر لتطوير الخطابة وفشل هذه المحاولة، إلا أن الزمن اليوم تغير كثيراً، والناس تفتحت آفاقهم الذهنية إلى أوسع من ذلك العهد، وأصبح الناس أنفسهم الآن، من دون أن تكون هناك ندوات أو محاضرات أو أي إثارة لهذا الموضوع، يحاولون تطوير الخطابة وتجديدها. ومن الممكن أن نقول: إن أي فكرة إذا وصلت إلى مستوى (الرأي العام) تطلّب أن تتحقق في الواقع الخارجي، وهذا ما هو حاصل اليوم من وجود بعض المعاهد كبدايات، والخطابة اليوم في تجديد وتطوير، وهذا يدل على أن المعارضة ضعفت جداً، لأن المعارضة لا تأتي من عامة الناس، إنما قد تأتي من بعض الخطباء أنفسهم، لأن بعضهم متخلف،

وبطبيعة الحال، أن المتخلف لا يريد للآخر أن يتطور، لأنه إذا تطور سيكشف عن واقع تخلفه، وهو لا يريد أن يكشف عن واقع تخلفه.

فالمسألة في واقعها ليست مسألة شخصية، بأن يكون الخطيب المتخلف لا يرضى بالتجديد، ولا يتأثر به. فنحن لا نسمح أن يكون عدم تأثره وعدم رضاه على حساب تأخر الأمة وتأخر المنبر، إنما هذه قضية كبرى ويجب أن تكون فوق مستوى القضايا الشخصية، لأنها تخص المذهب والطائفة، والمفروض أن نتحرك نحو التجديد والتطوير، ومن لا يؤمن بذلك لا يريد للمنبر أن يكون في رسالته بمستوى مقتضيات ومتطلبات العصر الحاضر.

سؤال للسيد حسن النمر: في المنبر الحسيني طرفان، الطرف الأول الخطباء، والطرف الثاني الجماهير، فما دور الجمهور في تطوير المنبر الحسيني؟

الجواب: هناك دور خطير يمكن أن يقوم به الجمهور في تطوير المنبر الحسيني، وهو تكثيف الحضور في المنابر التي يشعر عامة الناس أنها قد تطورت، فيما إذا كان الخطيب ناجحاً من حيث المادة والمضمون، ومن حيث الجانب الخلقي والتقوائي الذي يحمله، فيجب على الناس أخلاقياً أن يشجعوا هؤلاء الخطباء ليشعر الآخرون بضرورة أن يواكبوا هذا التطور الذي بلغه ذلك الخطيب، إذا أرادوا لأنفسهم أن يحتفظوا بالمكانة في وسط الناس، ويمكن لهم أيضاً مواصلة خدمة النهضة الحسينية من خلال المنبر، وهذا دور خطير جداً يمكن للناس أن يمارسوه بشكل واضح.

سؤال للسيد حسن: من الملاحظ أن بعض الخطباء الحسينيين يحاولون إثارة المؤمنين عاطفياً من خلال بعض القصائد التي قد لا تتناسب في مضامينها مع النهضة الحسينية، ما تعليقكم؟

الجواب: إذا كانت هناك بعض الأبيات مثل هذا البيت الذي تفضل به

الأخ، فهذا يصطدم تماماً مع تسليم الإمام الحسين عليه السلام وتسليم من ذهب معه لمواجهة المعركة، فليس من الصالح اعتماد إنشاء أو ترديد مثل هذه الكلمات مع كونها على حساب أخلاقيات الإمام الحسين عليه السلام وأخلاقيات من كان معه. فأي سلوك يخالف واقع هذه النهضة وما يراد لها هو سلوك مرفوض جداً.

وأما عن عدم التنبيه، فإننا لا نستطيع أن ندعي عدم تقصير، والتقصير موجود من قبل القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن في المقابل هناك تحديات وضغوطات. والملحمة الحسينية للشهيد المطهري (رحمه الله) لاقت الكثير من العنت في الانتشار، كما لاقى الشهيد المطهري الكثير من التشويه من قبل من سماهم سماحة الشيخ الفضلي بالمتخلفين، الذين يشعرون بأن وجود مثل هذه الأفكار النيرة ليس في مصلحتهم، ولا نستطيع نحن أن نغير هذا الأمر بين عشيةٍ وضحاها.

وكلما ازددنا وعياً، نحن العاملين وعامة الناس، كلما استطعنا أن نضع هذا الفريق في زاوية حرجة، ومع الزمن سوف يتغيرون أو يزولون، وهذا ما نرجوه لأنفسنا ولهم.

سؤال للشيخ الفضلي: بسبب الأسلوب المتبع منذ القدم ولحد الآن، ألا وهو الأسلوب الوعظي المأساوي، تشكل انطباع لدى الآخرين عن الشيعة بأنهم يعيشون حالة يأس وتخلف، وقد انفصلوا عن الحياة، حيث باتوا يعيشون على حياة قد انقضت. فما هو العمل لأجل تغيير هذه النظرة من الآخرين، وجعلهم يفهمون أن الشيعة يستمدون من الماضي لأجل المستقبل.

الجواب: الأخ السائل يطرح في سؤاله عموميات، وليس واقع الأمر هكذا، فإلى جانب الأسلوب الوعظي المذكور في السؤال هناك المدرسة التاريخية – كما قلنا – التي ابتدأها الشيخ كاظم السبتي، ثم تبناها بشكل واضح الشيخ

محمد علي اليعقوبي، والشيخ محمد على القسام، وانتشرت ولا يزال لها وجود وانتشار. وهناك المدرسة العلمية التي بدأها وتبناها ووسعها الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، واليوم يتابع الدكتور الوائلي في مدرسته أكثر الخطباء الشبان في مختلف البلدان[1].

أما أن الخطاب الوعظي المأساوي لا يزال هو المتعارف إلى الآن فلا، بل على العكس، فالمدرسة التاريخية أوسع منه بكثير، والمدرسة الحديثة التي أسميناها بالمدرسة العلمية (الوائلية) أوسع منهما، لكن طبيعة المنبر أنه لا بد وأن يجتمع فيه الوعظ والجوانب الأخرى، فلا نستطيع أن نتجرد عن الوعظ، ولا عن المأساة، بل لا بد من ذكر المأساة وإثارة العواطف وشدها باتجاه أهل البيت عليهم السلام.

أما أن يكون هناك خطباء متخلفون والناس ينتقدوننا من خلالهم، فنحن لا نستطيع تحجيمهم وردعهم، وليست لدينا سلطة لنمنع أحداً أن يكون خطيباً، لأن هذه المؤسسة، إذا كانت مفتوحة، أو ليس لها باب أبداً، فيمكن لأيٍّ كان أن يحفظ مجلساً من المجالس الموجودة في كتاب المجالس السنية، أو في كتاب الأمالي المنتخبة، أو شجرة طوبى المنتشر بكثرة، أو منتخب الطريحي، ويصعد المنبر. فإذا كان الناس يتقبلونه ويستمعون إليه، وبعد هذا يدعونه إلى الغداء أو العشاء، فما عسانا أن نفعل نحن؟ إننا لا نستطيع أن نقف أمام الجمهور، وهذا حقهم الطبيعي، فإذا كانوا يرضون أن يصادر حقهم من خلال هذا الخطيب

(١) لكن متابعة بعضهم قد يؤخذ عليها بعض الملاحظات، وهي أنه يأخذ أشرطة الشيخ الوائلي ويحفظ المجلس من الشريط، وفي بعض الأحيان يكون الشريط صوتياً، فلا يرى الخطيب، ولا يفهم أين كانت الإشارة. فيحفظ الأشرطة بشكل دقيق، حتى إذا كان الشيخ الوائلي يعطس في موضع ما فهو يعطس مثله. وهذا لا يبني شخصيته. ولكن منهم من يدرس في الحوزة والجامعة ويستطيع أن يشق طريقه في مدرسة الشيخ الوائلي.

فالأمر إليهم، وإذا كان الجمهور يعي بنفسه ويريد أن يحترم نفسه فعليه أن لا يستمع إلى أمثال هؤلاء الخطباء المتخلفين، الذين يتطرقون إلى أشياء تحسب على الشيعة والتشيع، وهي في الواقع ليست من التشيع لا من قريب ولا من بعيد.

سؤال للشيخ الفضلي: ولكن ألا تعتقدون ـ شيخنا العزيز ـ أن هذه المؤسسة إذا كانت مفتوحة أو ليس لها (باب)، ويدخل فيها من يشاء، فسوف يصل الأمر إلى حد الإساءة لمذهب أهل البيت عليهم السلام؟ فما هي وظيفة الأمة تجاه من يرتقي المنبر إن كان مسيئاً لأهل البيت عليهم السلام؟

الجواب: هذا السؤال أجاب عنه الأخ الشيخ حسن سابقاً، بأن هذا الأمر يحدده موقف الجمهور، ونحن لا نمتلك سلطة. فمثلاً، في التدريس الجامعي هناك سلطة الحكومات، حيث تصرح الجهة المختصة أن هذا الشخص شهادته غير رسمية، وهذا غير ناجح في التدريس، أما نحن فليس لدينا سلطة، وسلطتنا هي الجمهور، وهو الذي يستطيع أن يقبل أو يرفض، فيمكن أن يقبل الخطيب الجيد ويستمع إليه، ويبتعد عن الخطيب غير الجيد، وبطبيعة الحال إذا رأى الخطيب أن لا أحد يدعوه، فليس هناك خطيب يقرأ تبرعاً ومن تلقاء نفسه، بلا دعوة من أحد.

فالجمهور هو الذي يحدد الموقف، فإذا رأى نفسه بأن الجمهور أعرض عنه ولا يدعوه إلى القراءة، فإنه يحجم عن القراءة، وهو أفضل له عند الله وعند الناس.

سؤال للسيد حسن: في مجال معالجة الخطابة الهابطة المستوى، لماذا لا يكون للحوزة العلمية صدى ودور في هذا الموضوع، بأن تقرر أن أي خطيب لا بد أن يكون متخرجاً من الحوزة العلمية، وحاصلاً على تصريح منها في هذا المجال،

فلماذا لا تصدر فتوى بأن يقبل هذا في الخطابة أو لا؟ ولماذا نلقي باللائمة على الجمهور؟ فالجمهور واسع ومختلف الثقافات والأفهام، فهناك من يعي ويفهم، وهناك من هو بعكس ذلك، فلماذا لا يكون ذلك من خلال الحوزة العلمية؟

الجواب: السؤال يستبطن الإجابة عن نفسه؛ لأن ٩٥٪ من القراء ليسوا من خريجي الحوزة، فإذا كانت هناك مشكلة فلا تتحملها الحوزة.

نعم، من وظائف الحوزة العلمية المحافظة على الدين، وإذا استلزم أن يكون طلاب الحوزة العلمية هم الخطباء فهذا جيد، ولكن هذا أيضاً يحتاج إلى وعي من الناس، فعندما يريد الطالب الحوزوي أن يرتقي المنبر، وهناك قانون عند عموم الخطباء، أن الخطيب يحتاج إلى صوت وحفظ وحظّ، فإن أغلب الطلاب ليس لديهم صوت ولا حفظ ولا حظ، وبالتالي هذا القانون الصارم يمنع الكثير من الطلاب من ارتقاء المنبر، لأن الطالب القادر على أن يصعد المنبر مثلاً، ويقرأ خمسة أبيات فقط بطور واحد، فإن الجمهور لا يقبل هذا الأسلوب، لأنه يريد منه نصف ساعة من النعي، وعشر دقائق من الموضوع، وبالتالي فإن الطالب لا يستطيع أن يواصل. فلا بد من تغيير عادة الناس في التعاطي مع المنبر، وأن نتعلم كيف نطور عاطفتنا حتى مع أهل البيت عليهم السلام فلا حاجة إلى الكثير من النصاريات والفائزيات بحيث تطغى على المجلس.

ففي إيران مثلاً، يكون المنبر ثلاثة أرباع الساعة من الحديث، ثم يعرّج الخطيب على كربلاء، ويأتي ببضعة أبيات وينتهي الأمر ببكاء حار. وهذا الأسلوب يشجع الطلاب على أن يرتقوا المنبر.

أما عن الفتوى فلا يمكن للحوزة العلمية أن تفتي بهذا الخصوص كما ذكرتم، لأنه ليس من المصلحة إصدار مثل هذه الفتوى في الوضع الفعلي، فقد تُستغل لضرب المنبر الحسيني، والحال أننا نريد أن نعالج لا أن نهدم. أو أنه لا يحصل

الإجماع على الفتوى كما هو في كثير من القضايا، وبالتالي يحصل الاختلاف بين مؤيد ومعارض. فليست الفتوى هي العلاج للكثير من القضايا.

إذن يجب علينا أن نعي أن المنبر الحسيني أخطر وسيلة، ولا بد أن تعالج بهدوء في مثل هذه الندوات التي تعقد هنا وهناك، لكي يعي الجمهور المسألة شيئاً فشيئاً لنصل إلى المرحلة المطلوبة.

ولا شك أن المنبر اليوم أفضل مما كان عليه في السابق، ونتوقع بعد ٢٠ سنة إذا اتسعت دائرة الإصلاح، أن يكون وضعه أفضل من هذا بكثير.

وقد ذكر سماحة الشيخ أننا لا نملك السلطة الكافية، حتى لو أصدرنا فتوى، لأن ذلك يجعل صاحب الفتوى في نظر المنبريين ضد الحسين ومنبر الحسين عليه السلام.

وأذكر هنا حادثة تقرب المعنى لكم، وهي أن العلامة الطباطبائي (رحمه الله) صاحب الميزان، وهو من هو من حيث الجانب العلمي، فهو مجتهد مسلّم الاجتهاد، وكان مفسراً كبيراً، ويعتبر من أكابر مفكري الإسلام على مر التاريخ. كان قد رأى بعض الملاحظات على كتاب البحار، لأن صاحب البحار العلامة المجلسي (رحمه الله) نسق الروايات بتنسيق وفهرسة معينة، وكان في الضمن يشرح هذه الروايات بما يفهمه هو منها، وكان صاحب مذهب خاص في الجانب العقلي، فشعر السيد الطباطبائي (رحمه الله) أن في تفسيرات العلامة المجلسي للعديد من الروايات شيئاً كثيراً من اللبس والغموض، وبالتالي قد يشوه ما صدر عن أهل البيت عليهم السلام من الروايات، فتكفل بالتعليق على كتاب البحار، واستمر إلى الجزء السابع، فأثيرت في وجهه ضجة من قبل بعض العلماء التقليديين، بحيث صدرت فتوى من قبل أحد المراجع في النجف الأشرف (رحمه الله)، ولم يكن ذلك المرجع سيّئ النية، بل إنه قدّر أن استمرار

السيد العلامة في التعليق على كتاب البحار، يعدّ هتكاً لحرمة العلامة المجلسي، باعتباره من كبار علمائنا، فلو هتكناه بهذه الطريقة ـ كما يتصور هو ـ فلا نبقي حرمة للعلماء والحوزات وبالتالي للدين عموماً. علماً أن تعليقات العلامة المجلسي أدرجت اليوم في الطبعة الحديثة من البحار.

وقد رفض العلامة الطباطبائي هذا الأمر، واعتبر أن من حقه أن يناقش، وأن حرمة الإمام الصادق عليه السلام أعظم من حرمة الشيخ المجلسي، لكنه مع ذلك توقف عن التعليق.

وفي وضعنا الفعلي اليوم لو أن شخصاً آخر قام بإدامة عمل السيد الطباطبائي، فلا شك أنه يستطيع، لأن الأرضية تهيأت.

سؤال للدكتور الفضلي: مع عدم وجود السلطة المانعة لمثل هذا الصنف من الخطباء، نرى أن هناك عزوفاً واضحاً من قبل المجتمع عن المنابر الحسينية، فهل ترون أن فكرة التجديد للمنبر الحسيني، على غرار التجربة التي تبناها الإخوة هنا، بطرح المحاضرات لتجمع بين العِبرة والعَبرة، أسلوب يضمن الارتقاء بتفعيل دور المنبر؟ وهل تعتبر حائزة من وجهة نظركم على شرعية دينية؟

الجواب: أنا لا أؤيد هذه الفكرة، فالخطابة ينبغي أن تستمر كما هي، والمنبر يجب أن يستمر، وفي الوقت نفسه نحاول أن نغير من واقع المنبر والخطابة إلى ما هو أفضل.

وقد ذكرت سابقاً أن هناك تطوراً كبيراً حصل في المنبر في البلدان الأخرى إلى ما هو أفضل، ولكن يبقى إلى جانب هذا بعض الخطباء المتخلفين.

فالمحاضرات والندوات ينبغي أن تسير في خطها، والمنبر التقليدي يسير في خطه.

أمـا بالنسـبة إلى العشرة الأولى من شـهر محـرم بالذات، فهـي خاصة بالمنبر التقليـدي الـذي يركز على العَـبرة وأحداث كربلاء. وبعـض المحاولات التي تدعـو إلى الاسـتغناء عن المنبر والاكتفاء بالمحـاضرة لا أقرها ولا أؤيدها، لأن لهـا مضاعفـات غير محمودة، ولا أريـد أن أتطرق إلى ذلك. وليـس هناك مانع مـن الجمع بين الأمرين، بأن تكون هناك محـاضرة قبل أن يرتقي الخطيب المنبر في أي ليلة من الليالي العشرة الأولى من محرم، ثم يصعد الخطيب فيقرأ السـيرة الحسـينية والمصيبة، لأنه العشرة الأولى مخصصة للمصيبة. فليس هناك مانع أن نجمع بين الاثنين، أما أن نستبدل إحداهما بالأخرى فهذا غير صحيح، وعليه الكثير من الملاحظات.

ويمكن أيضاً أن نطور بعض الشيء حتى في العشرة الأولى من شـهر محرم، مـع بقاء المنبر في إطار سـيرة الإمام الحسـين عليه السلام لكن لا بالطريقـة التقليدية، وهي السرد التاريخي، إنما نحاول أن نحلل أحداث هذه السيرة بالشكل الذي يسـتفيد منه الناس،كما أن طابع المأسـاة ينبغي أن يكون هو السائد على المنبر في تلك الليالي، لشحن عاطفة الجماهير وشدهم لحب أهل البيت عليهم السلام.

إن الخطيـب يمكن أن يسـتفيد من وجود الكثرة مـن الناس، فيطرح بعض الأفكار من خلال القراءة[1].

---

(١) مـن النـوادر الجديـرة بالذكـر هنا، أنني أتذكـر عندما كنت في مـصر، أحضرّ الدكتـوراه، كان معي مجموعة من الطلبة، فحاولنا في عاشـوراء أن نقيم مجلسـاً حسـينياً، وتبرع أحد الأشـخاص ببيته، وكان معنا أحد الخطباء يحضر الماجستير، فاغتنمنا الفرصة وكلمناه، فأخذ يساوم، ولم يكن لدينا نحن الطلاب الموجودين هناك شيء من المال الكافي، فاتصلنا بالسيد الخوئي (قدس سره) فقال: ليس هناك أي مانع، يمكن أن يقرأ وأنا أعطيه المبلغ الذي يطلبه عند عودته.

فاتفقنـا معـه على ذلـك، وكان بعضنا يحضر الماجسـتير، والبعض يحـضر الدكتوراه، فـكان بعضنا يحضر القصيـدة، والآخر يلقي كلمة، إلى أن يحين الوقت فيـأتي دوره. وكنا قد دعونا مصريين من الأزهر وغير الأزهر ليحضروا المجلس.

فالذي أريد قوله هنا أننا عندما نخرج من المأساة، خاصة في ليالي عاشوراء، نكون قد ابتعدنا كثيراً عن الرسالة الأساسية للمنبر في عاشوراء، فلا بد أن نبقى مع السيرة، ولكن ينبغي أن نطور في الطرح، بأن يكون هناك تحليل واستخراج للنتائج التي يستفيد منها الناس.

وفي الوقت نفسه إذا كان هناك خطيب يريد أن يتوسع في الوقت، بأن يطرح بعض الموضوعات ثم ينتقل إلى السيرة، فمن الممكن أن يأتي محاضر قبل الخطيب، فيلقي محاضرة. ثم يتناول الخطيب المأساة بشكل خاص.

ففي العشرة الأولى لا بد من ذكر السيرة والمأساة؛ لأنه المجال الوحيد الذي يشحن العاطفة ويشدها باتجاه حب أهل البيت عليهم السلام.

سؤال للشيخ الفضلي: نحن لا نعارض أن يكون المنبر الحسيني في محرم الحرام للعَبرة، ولكن مما يؤسف له أن هذا المنبر لم يسلم أيضاً من ذكر كثير من التحريفات التاريخية سواء في أهداف الثورة الحسينية أم في وسائلها، ولذا يرد هذا السؤال: ما رأيكم في بعض المبالغات في أحداث الطف. فعلى سبيل المثال: بعد قطع يدي أبي الفضل العباس أمسك السيف بأسنانه، أرجو التعليق على

فكانت طريقته عجيبة غريبة، حيث إنه في أول ليلة تحدث طويلاً وبإسهاب عن (الثلاجة) وكيف نضع فيها اللحم، ولا بد من غسله لئلا (يتنجس) وهكذا كان المجلس بكامله حول الثلاجة، وفي النهاية ذكر بعض الأبيات من النصاريات، وأنهى الموضوع.

وفي الليلة الثانية سار على نفس المنوال، واستمر هكذا. وكنا قد جمعنا التبرعات، وكان الناس يحضرون من الجامعة والأماكن الأخرى، فيسمعونه يتكلم عن الثلاجة.

فكلمناه في ذلك فقال: إذا أردتم أن لا أقرأ فأنا حاضر، هذه قراءتي، هل توافقون أم لا؟ فقلنا له: إننا في عاشوراء، ونريد أن نعرف ماذا حصل في واقعة الطف، كيف وقعت؟ وما هي عوامل وأسباب وقوعها؟ وما هي الأهداف التي توخاها الإمام الحسين عليه السلام من تضحيته؟

ثم اضطررنا أن نحضر كلماتٍ بأنفسنا، تكلمنا فيها عن مثل تلك الأمور، وشاركنا بعض الأزهريين والجامعيين الذين كانوا معنا.

ذلك؟

الجواب: لا أريد أن أتعرض إلى جزئيات الموضوع، وهي قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة، وقد توجد وقد لا توجد، لكنني أقول: إن الخطيب إذا كان قد درس مناهج تفسير التاريخ التي ذكرت أنها قبل ٣٠ سنة كانت سبعة مناهج، ومن المؤكد أنها زادت الآن، لأن الدراسات التاريخية وعلم التاريخ في تطور دائم، فعلى ضوء ذلك يستطيع أن يخرج للناس بما يلتقي مع المنطق والمعقول والواقع.

سؤال للشيخ النمر: لماذا لا يعمد الخطيب إلى تحسس أو تحديد الموضوعات والأطروحات من الجمهور المستمع بصورة مباشرة بدلاً من تحديدها بنفسه؟ ولعل التشخيص من قبل الجمهور قد يكون بشكل أدق.

الجواب: هذا السؤال ينبغي أن يوجه للخطباء.

سؤال للشيخ النمر: بعض الخطباء يصر إصراراً كبيراً على وحدة الموضوع، ولعله لو استشار الجمهور من خلال أسئلة، لحقق أغراضاً أكثر.

الجواب: أحد فنون مخاطبة الناس، أن لا يقف الإنسان عند أسلوب واحد وموضوع واحد، ولذلك يقولون: إن من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنه احتفظ بإعجازه وخلوده لما فيه من التنوع، فهو ينتقل من موضوع إلى آخر، ولكن لا يفقد الخيط الرابط بين كل هذه الموضوعات. وهكذا نتوقع من الخطيب أن ينوع في الموضوعات التي يتناولها، ولكن عليه أن يجمع بين تلك الموضوعات المتعددة بجامع، يشعر معه الجمهور بفائدة عادت إليهم من خلال هذه الدقائق التي استمروا فيها مع الخطيب.

سؤال للشيخ الفضلي: عوداً على بدء في الدعوة إلى إيجاد المنبر الحر، أو إلى

تطوير المنبر الحسيني نقول: نحن مجتمع منغلق على ذاته، وللأسف فإن الواحد منا يشعر بالخجل إلى دعوة الآخرين من غير الشيعة لحضور المجالس الحسينية، لما يتناوله بعض الخطباء من قصص إن لم تؤدِّ إلى تخلفنا، فإنها لن تؤدي دوراً في رفع مستوانا الثقافي والعقائدي، وحين يبتلى الواحد منا بفقد عزيز، ويأتيه زملاؤه في العمل لتعزيته، فإنه يشعر في الورطة أحياناً، فما هو تعليقكم؟

الجواب: لقد تكررت الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، فمن المفروض أن يتطور الخطيب وأن يبني شخصيته عن طريق الدراسة والقراءة وأن يفهم أو يحاول من الدراسة أن يفهم، هل أن هذه الرواية صحيحة من حيث السند أو لا؟ وهل أن المضمون يلتقي مع القرآن والسنة القطعية والعقل أو لا؟ فهذه الأمور لا بد منها، كي نستطيع أن نتخلص من كثير من هذه الأشياء التي ذكرت في التاريخ عموماً، فالتاريخ في وقت ما كان يعتمد على الرواية فقط، ولم تكن هناك دراسة ولا بحث ولا تحليل ولا تعليل ولا استقراء ولا استنتاج، وكل هذه الأمور نحتاج إليها اليوم، لنتخلص من كثير من العوائق ولنسد العديد من الثغرات.

وإذا كان هناك خطيب لا يزال متخلفاً، فإننا غير مضطرين أن ندعوه، أو على الأقل أن لا ندعو الآخرين للاستماع له.

سؤال للسيد حسن النمر: هناك من يقول: إن إيصال الفكر الحسيني ليس بالضرب على الصدور، وأن هذا يسيء إلى الفكرة العظيمة أو النهضة التي قام بها الحسين عليه السلام، فما ردكم على ذلك؟

الجواب: الضرب على الصدور وسيلة من وسائل استثارة الجانب العاطفي، وليس لها بشكل محسوس أي مضاعفات كثيرة، إلا لدى من يتحسسون كثيراً من نظرة الآخرين للمسلمين وإلى الشيعة.

وإذا تخلينا اليوم عن الضرب على الصدور، فسيقال لنا غداً: إن الصلاة بهذا الشكل غير مطلوبة، فمن أراد مخاطبة الله والتعبد لله يكفيه أن يقف باحترام. وهكذا يفقدوننا هويتنا وخصائصنا كلها. فالضرب على الصدور وحده ليس فيه شيء.

نعم، ما يمكن أن يصاحب الضرب على الصدور من مظاهر لا ترتبط بالتقاليد الشرعية، فهو مرفوض بلا شك، فلو كانت هناك نساء بالقرب من الرجال مثلاً، أو أن يكون هناك تصوير، فاللازم على الشباب الذين يضربون على صدورهم أن لا يخلعوا الملابس، فالغرض من كل هذا هو استثارة العواطف، وربط النفس بما حدث للإمام الحسين بشكل أكثر تأثيرا في النفس.

فلا أتصور أن هناك تأثيراً سلبياً في اللطم على الصدور، والشيعة ليسوا وحدهم الذين يمارسون هذا النوع من السلوك، فكل الأمم لديها سلوكيات مشابهة ولكن بطريقة أو بأخرى للتعبير عما يجيش في نفوسهم وخواطرهم من العواطف.

سؤال للشيخ الفضلي: المرأة نصف المجتمع، وقد أهملت المجالس النسائية، فمنذ فترة تاريخية طويلة والمجالس الرجالية تتقدم عليها في هذا الجانب، وهي بالتالي معنية بالتصحيح، فهناك بعض السلبيات الموجودة في المجالس النسائية، وهي على خطورتها لا يوجد من يتصدى لها ويعلق عليها.

فعلى سبيل المثال تطرح بعض النساء بين فترة وأخرى بعض الروايات الجديدة، وتطبع بناءً على الأجر والمثوبة، بينما تتهافت النساء على أخذها. وفي كل يوم تطرح روايات جديدة، وكأن المعصوم موجود أمامنا، وهذه المسالة لها خطورتها، ونحن في شهر الصيام، فأرجو من الدكتور أن يعلق على هذا الأمر ويوضحه.

الجواب: أنا لست مطلعاً على مثل هذه الروايات التي ذكرت، لكن المشكلة عند الخطباء هي ذاتها عند الخطيبات، فكما يوجد خطباء تطوروا في أسلوب خطابتهم من حيث الشكل والمضمون، كذلك توجد خطيبات تطورن في أسلوب خطابتهن من حيث الشكل والمضمون. والآن توجد خطيبات بمستوى جيد، كما يوجد خطباء بمستوى جيد أيضاً. وبالمقابل كما يوجد خطباء متخلفون، توجد خطيبات متخلفات، فالمشكلة عند الطرفين.

أما ما ذكره السائل من الروايات، فحتى بعض الكتب التي تطبع لبعض الخطباء كمجالس، فيها أشياء قد لا تقبل، لأنها غير قائمة على أساس. وبالنتيجة المشكلة واحدة لا أنها عند المرأة أعمق مما هي عليه عند الرجل.

والحلول التي طرحت لتطوير خطابة الخطيب، هي نفسها تطرح لتطوير خطابة الخطيبة، وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق للجميع لتطوير المنبر الحسيني ليؤدي رسالته المطلوبة، ويوصل صوت المذهب كوسيلة إعلامية إلى أوسع نطاق، وهذا ما نلمسه الآن.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن المجالس التي تذاع عن طريق الإذاعة الإيرانية للشيخ الوائلي أو الشيخ المالكي أو الشيخ الهلالي أو الآخرين خدمت كثيراً في تعريف التشيع ونشره، وهناك ـ حسب اطلاعي ـ من تشيع بسبب سماع هذه المجالس التي تذاع، وهذا ما يبشر بالخير، أن المنبر تطور وارتفع إلى المستوى المطلوب، والبقية المتخلفة سوف تلحق بالركب إن شاء الله.

تعليق من أحد الحضور (لعله ذو علاقة بتنظيم البرنامج) وبعده سؤال للشيخ الفضلي:

إن سبب انحسار الحضور عن المنبر الحسيني هو جمود المنبر على الطرح القديم التقليدي الذي لم يواكب العصر، وهذا من وجهة نظري، ووجهة نظر

الإخوة الذين أشرفوا على البرنامج. لذا باسمي واسم الإخوة الذين أشرفوا على برنامج محرم الفائت، نود أن ننوه بأن الهدف الرئيسي من تنظيم البرنامج هو طرح النهضة الحسينية الرائدة كما هي، والتركيز على عبادة الله وحده سبحانه وتعالى، والابتعاد عن عبادة الطاغوت. وكذلك انتشال المنبر الحسيني من الصورة غير اللائقة به، وذلك بالطرح الذي تناوله الخطباء طوال الفترات الطويلة، حيث صوروا فيه الإمام الحسين عليه السلام بمسكين حاصروه ثم قتلوه.

فالقصد من البرنامج ليس إلغاء الطرح القديم، بل مواكبة العصر، وأن يكون مرادفاً للمجالس الحسينية. فعلى سبيل المثال في سيهات وحدها هناك سبعة وعشرون مجلساً حسينياً تقليدياً، فإذا طرح هذا المجلس محاضرات حسينية رائدة بالإضافة إلى النعي الحسيني ففي وجهة نظري ونظر الإخوة القائمين، أن هذا لا يمنع ولا يقلل من شأن المنبر بل يرفع من دور المنبر الحسيني.

فما هو تعليقكم سماحة الشيخ الفضلي على هذا الموضوع؟

الجواب: لقد أوضحت أن المنبر له رسالة أساسية وهي إحياء ذكرى واقعة الطف، وهذا الإحياء يتطلب منا أن نستعرض سيرة الإمام الحسين عليه السلام منذ خروجه من المدينة حتى مصرعه في كربلاء.

والتطوير الذي يمكن أن يكون لهذا هو أن نحلل تلك الأحداث. فإن كان الخطيب بالمستوى المطلوب الذي أشرنا إليه، فإنه يستطيع إلى جانب الإحياء أن يذكر أشياء أخرى ترتبط بحياة المستمعين أو تنفعهم بشكل أو آخر.

وإن لم الخطيب بهذا المستوى، فإنه يمكن أن يستعرض المأساة، كما هو المألوف، ولا يمنع هذا من أن يتقدمه محاضر قبل أن يقرأ، كما هو الحال في الطريقة التي أشار إليها الشيخ حسن، والمتعارفة في إيران، بأن يكون هناك عالم يطرح الموضوع، ثم يتخلص إلى كربلاء، ويقوم خطيب أو أكثر بالنعي؛

لئلا نفقد التأثير العاطفي.

تعليق: لا نريد لندوتنا المباركة أن تكون متحفظة تجاه احتمال ردود أفعال الخطباء عليها، وما نريد أن نذكره هنا هو المصارحة، لأن الخطابة القديمة الرتيبة التي درج عليها الخطباء لسنوات طويلة، حتى ملّها طبقة كبيرة من المثقفين، كانوا يحضرون ويستمعون للمجالس، فصاروا لا يسمعون إلا التكرار لأحاديث غير متجددة مضى عليها عشرون عاماً أو أكثر، بينما يعايش الخطباء أحداثاً وقضايا معاصرة فيتجنبونها.

ثم بعد ذلك يأخذون على هذا البرنامج أنه طرح فكرة التجديد، حتى اتهموه بأنه متنكر للمنبر الحسيني، ويدعو إلى عدم البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وحاولوا أن يثيروا حفائظ الجمهور، وأعتقد أن الإخوة الحاضرين وغيرهم يدركون هذه المسألة بوعي، ويدركون أهمية الدعوة إلى ذلك، ويدعون إلى الاطلاع على التاريخ الصحيح ومعرفة نهضة الإمام الحسين عليه السلام والتفاعل معها.

سؤال: لماذا لم تدعوا الخطباء لحضور البرنامج؟

الجواب: وجدنا من الصعب أن يتجاوبوا معنا، لأنهم متمسكون بأمر إذا فقدوه فسوف تقفل دكاكين كثيرة.

تعليق الشيخ الفضلي: كلا، الأمر ليس كما ذكرتم، فعدم حضور الخطباء سببه أنهم مشغولون في شهر رمضان بالمجالس، وليس السبب عدم التجاوب، لأن هناك في هذه المنطقة خطباء بمستوى عالٍ وجيد، وهم يجارون المدرسة العلمية الحديثة وبكل كفاءة وجدارة، ونحن في تناولنا لهذا الموضوع لم نعمم، إنما ذكرنا أن بعض الخطباء متخلفون، وتحدثنا كثيراً عن تطوير الخطابة والمنبر عند هؤلاء تحديداً، وذكرنا مقترحات كثيرة من الممكن أن يستفاد منها في هذا

المجـال، أما هذه العموميات والتعميمات فهـي مرفوضة. ونحن عندما نتكلم عن الفكرة نتناولها بشكل عام.

والنتيجة: إنّ الندوة تؤيد المشروع الذي طرحه القائمون على هذا البرنامج، ولكن بشرط:

أولاً: أن لا يُغفل الطرح التقليدي.

ثانيـاً: أن التعاطـي مـع الخطباء المتخلفـين ليس من مسؤولية المنبر أو أهل العلـم، وإنـما هو مسـؤولية الأمة، فعلى الأمة أن لا تسـتقبل مثـل هذا الطرح، وإلا فالأمر خطير.

والحمد لله رب العالمين

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفهرس

مقدمة ٥
بنية الخطاب الثقافي عند آية الله الشيخ عبدالهادي الفضلي ١١

المحور الأول: مفاهيم قرآنية

المؤمنون في القرآن الكريم ١٩
العلم والعمل في القرآن الكريم (١) ٣٧
العلم والعمل في القرآن الكريم (٢) ٥١
الإنفاق في القرآن الكريم ٥٩
تعدد السبل.. والسياق الحضاري الإسلامي ٧٩
أثر الغيب في سلوك المؤمن ١٠٣
الأولى والآخرة في القرآن الكريم ١٢١

المحور الثاني: نظامنا الإسلامي

الرسالة الخاتمة وصياغة النظام الإسلامي ١٣٧
سلوكنا والنظام الإسلامي ١٥٣
العلاقة بين الإمامة والأمة ١٧٩
مَنْ ينتظرُ مَن؟ ٢٠١

المحور الثالث: مجتمعنا الإسلامي

التجديد والعوائق الاجتماعية ٢٢٩
النقد.. كيف يجب أن يكون؟ ٢٤٥
القوة الاجتماعية: مرجعيةٌ أم مرجعيات؟ ٢٧٣
الخمس بين الواقع والطموح ٢٩٩
الوحدة الإسلامية بين النظرية والتطبيق ٣٠٥

المحور الرابع: مفاهيم قلقة

المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي (١) ٣٢٥
المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي (٢) ٣٥١
المفاهيم القلقة والرأي الإسلامي (٣) ٣٦١

المحور الخامس: ندوات فكرية

القرآن دستور المسلم ٣٨٣
الوعي القرآني ٤٠٣
نظرات في المنبر الحسيني ٤١٩